الدكتور احمد مطلوب

البلاغة عند السكاكي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

منشورات مكتبة النهضة بغداد

البلاغة عند السكاكي

الدكتور احمد مطلوب

البلاغة عند السكاكي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

منشورات مكتبة النهضة بغداد

● ـ الطبعة الاولى ـ ١٣٨٤ ـ ١٩٦٤

● ـ طبع بمطابع دار التضامن ـ بغداد

الإهداء

الى

أفصح فصحاء العرب ، وأبلغ بلغائهم ، محمد صلى الله عليه وسلم ، منقذ البشرية ، وقائد الامة العربية ، وباني مجدها الخالد ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي القارىء :

في أمسية يوم الاربعاء ، الاول من شباط ١٩٦١ (١٥ شعبان١٣٨٠) نوقش هـذا البحث في كليـة الآداب بجامعة القـاهرة ، ونال درجـة الماجستير بتقدير « جيد جدا » • وكانت لجنة المناقشة برياسة الدكتورة سهير القلماوي « المشرفة » وعضوية الاستاذين الفاضلين : المرحـوم الدكتور عبد الحليم النجار والدكتور عبد العزيز الاهواني •

واليوم أقدمه لك ــ عزيزي القاريء ــ كما قدمته للجنة المناقشة قبل اربع سنوات ، لاني مؤمن بان هذا البحث يمثل فترة مـن حياتي الفكرية • فان وجدت فيه بغيتك ووقع من نفسك وقعا حسنا ، فذلك ما أردته وسعيت اليه ، وان عزفت عنه فحسبي الله ونعم الوكيل •

احمد مطلوب

دكتوراه في الآداب بمرتبة الشرف الاولى

بغداد في :

اول ايلول ١٩٦٤

٢٤ ربيع الثاني ١٣٨٤

تقديم

للاستاذة الكبيرة

الدكتورة سهير القلماوي

عندما عرض عليّ الدكتور أحمد مطلوب موضوع « البلاغة عند السكاكي » ليسجله عنوانا لبحثه لنيل درجة الماجستير من جامعة القاهرة أشفقت عليه من جفاف الدراسة من جهة، ومن اتساع نطاقها وتشعب نواحيها من جهة اخرى . فالمفتاح كتاب جاف في ترتيبه ومعالجته للموضوعات، فهو خلاصة التفكير البلاغي منذ نشأ فطريا أيام الجاهلية حتى وصل على يد عبدالقاهر الجرجاني ثم أبي يعقوب السكاكي الى مرتبة التقعيد والتقنين . انها خلاصة لا تعرض خطوات التطور، ولا تاريخه، وانما تعرض آخر ما وصل اليه الفن من محاولات في هذا التيار .

ولكن الدكتور أحمد مطلوب أصرّ على موضوعه، لانه يريد أن يتخصص في علم البلاغة التي لا يقبل عليها الكثيرون اليوم لصعوبتها . وكان قد بدأ بعض دراسات اذ ذاك في امهات الكتب البلاغية . وقد دفعه الى تكبد هذا الجهد يقين منه أن دراسة البلاغة القديمة وربطها بتطورات النقد الادبي الحديث ربطا واعيا متذوقا لابد مؤدية الى الثمار التي نفتقدها في سبيل تأصيل نقدنا الحديث، وجعله يتفاعل مع ادبنا تفاعلا صحيحا سليما .

وأحمد مطلوب مثال نادر للدائبين المجتهدين في البحث العلمي، عكف على الموضوع في صبر وانصراف له دون غيره من مغريات الحياة

التي تجذب من هم في مثل سنه ، حتى أتمّ بحثه على أكمل وجه ، مما جعل اللجنة المكوّنة لامتحانه من الزميل المرحوم الدكتور عبدالحليم النجار والدكتور عبدالعزيز الاهواني ومنّي تقرر منحه الدرجة بتقدير ممتاز[1] .

ولقد وفى أحمد مطلوب وعده وعرف طريقه ، ودرس القزويني بعد السكاكي ونال برسالته عن القزويني درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الاولى .

وهو لا يزال يوالي البحث والتأليف والنشر في هذا الفرع من العلوم الادبية حتى وصل الى أن يؤدي البلاغة العربية خدمات جليلة قيّمة .

ولا يسعني أن أنهي الحديث عن الدكتور احمد مطلوب دون التعرض الى خلقه العلمي المستمد من خلقه الشخصي ، فاني من المؤمنين بأن الشخصية لا تتجزأ ، وان من كان أمينا في معاملاته وسلوكه اليومي ، أمين على علمه ودراساته .. انّ أحمد مطلوب الانسان يمتاز بقوة الايمان، وشفافية النفس ، ووضوح الهدف ، كما انه يمتاز باستعداد نادر للبذل في سبيل تحقيق الخير للناس . وهو قبل كل ذلك مؤمن بالعروبة ، ميراثها ، وحاضرها ، ومستقبلها ، وقد انعكس كل هذا على علمه ودرسه مما أدى الى هذه النتائج الطيبة التي وصل اليها ، والتي أرجو أن يصل الى غيرها وخير منها دائما وباستمرار .

هذا هو أحمد مطلوب الدارس ، أما السكاكي المدروس فانه يحتاج في هذه المقدمة الى كلمة وان كان الكتاب كله عنه .

اننا نعلم جميعا مكانة ((السكاكي)) في تاريخ البلاغة العربية، فلقد دفع هذه الدراسة بطابعه ـ كما يتجلى في كتابه هذا المفتاح ـ أكثر من ستة قرون متوالية ، وقد عاشت الدراسة البلاغية طوال هذه القرون كلها على الجزء الخاص بالبلاغة من كتاب المفتاح تلخيصا وشرحا وتعليقا . ولقد ظلم احمد مطلوب السكاكي نوعا ما حينما جعله المسؤول عن جفاف هذه الدراسة التي نتجت عن جفاف الكتاب نفسه . ولكن الواقع ان البلاغة والنقد الادبي لابد أن يمرّ في هذه الاطوار دائما ، بداية فطرية

---

(١) لقد جاء في قرار الكلية والجامعة : «بدرجة جيد جدا» أي مرتبة الشرف الثانية.

قوية مبعثرة ، ثم دراسة حية مثمرة مؤثرة ، وأخيرا خلاصـــة وتقنين وتقعيد جاف يؤدي بحيوية النظرية او الفكرة او الناحية المدروسة .

إنَّ هذه هي سنة الحياة في الابحاث الادبيـــة والفنية ، كل ما في الامر أن معين الطور الاول طور العفوية والحيوية الفطرية الغامضـــة المبعثرة هو الذي نضب لاسباب معروفة ابان عصر السكاكي وبعده ، وليس واحدا ـ من يكون ـ هو المسؤول عن ذلك ، وانما المسؤول أمـة بأسرها وظروف في جملتها .

ان السكاكي قدم في عصره ـ وبكل اخلاص العالم الدائب المتأثر بروح العصر ، وما كان له الا ان يتأثر ـ اقصى ما يمكن ان يقدمه عالم دارس في سبيل علم من العلوم .

لقد كان عصره عصر جمع وتبويب ، وعصر تقعيد وتقنين ، فجمـع فنون البلاغة وكانت اشتاتا مفرقة في كتب كثيرة ، منها ما تعرض لجملة من مسائلها ، ومنها ما تعرض لواحدة ، ولكن دون تبويب . واكثرها تعرض من وجهة نظر عقائدية تفسيرية لنص القرآن الـكريم من حيث مجـازه خاصة أو اعجازه بوجه عام. وجاء السكاكي متأثرا بأقرب هؤلاء الدارسين منه عهدا بعبد القاهر الجرجاني ، فرتب وبوّب حتى نسب العلم اليه .

يقول ابن خلدون : « تكلم الاقدمون اولا في علم البيان ، ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد اخرى وكتب فيها جعفر بن يحيى والجـاحظ وقدامة وامثالهم املاءات غير وافية . ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا الى ان محص السكاكي زبدته ، وهذّب مسائله ، ورتب أبوابه على نحو ما ذكرنا آنفا من الترتيب ، وألف كتابه المسمى ب « المفتاح » في النحو والتصريف والبيان ، فجعل هذا الفن من بعض اجزائه . وأخذه المتأخرون من كتابه ، ولخصوا منه امهات هي المتداولة الى هذا العهد كما فعله السكاكي في كتابه « التبيان » ، وابن مالك في كتاب « المصباح » وجلال الدين القزويني في كتاب « الايضـــاح » و « التلخيص » ، وهو أصغر حجما من « الايضاح» والعناية به الى هذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم فيه أكثر من غيره . وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة ، وسببه ـ والله أعلم ـ انه كمالي في العلوم اللسانية ، والصنائع الكمالية توجد في العمران، والمشرق اوفر عمرانا من المغرب».

ويعد السكاكي خاتم المدرسة الكلامية أو العلمية أو الاصطلاحية في

البلاغة ، وقد تزعم هذا التيار مؤلفون اكثرهم من أصول مختلطة بالعرب، ولكن السكاكي يتوّج هذا التيار ، ويسجل نصره الكامل على المدرسة الادبية أو الذوقية التي لم تجد بعد أبي هلال العسكري في((الصناعتين)) من ينفث فيها الروح من جديد . ولكن السكاكي لم يكن في زمان يتصور معركة بين مدرستين ، ولم تكن هناك في الواقع معركة ، وانما كان يلبّي حاجة طبيعية لابناء عصره .

يقول في مقدمة المفتاح : ((لما رأيت اهل زماني الفاضلين ، الكاملي الفضل ، قد طال الحاحهم عليَّ في أن أُصنف لهم مختصرا يحظيهم بأوفر حظ منه ــ علم الادب ــ ، وان يكون اسلوبه أقرب اسلوب من فهم كل ذكي ، صنفت هذا وضمنت ان أتقنه أن ينفتح عليه جميع المطالب العلمية، وسميته ((مفتاح العلوم)) ، وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام : القسم الاول في علم الصرف ، والقسم الثاني في علم النحو ، والقسم الثالث في علمي المعاني والبيان)) ..

وهو يعلل تقسيم الكتاب الى هذه الابواب بأن مدار الخطأ يكون اما في المفرد او التأليف او مطابقة الكلام لما يجب ان يتكلم له ، وهذا بالطبع بعد اتقان اللغة من الناحية المعجمية . والمفرد علمه الصرف ، والتأليف علمه النحو ، والمطابقة علمها البيان والمعاني .

فاذا كان الطالب يريد مجرد الاطلاع فان ذلك في عرف السكاكي لا يكلفه شيئا ، أما اذا كان يريد الاحتراز عن الخطأ وسلوك جادة الصواب اعترضته صعاب ولا سيما اذا انضم اليها الشغف بالتلقي لمراد الله تعالى من كلامه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهناك يستقبل الطالب منها ما لا يبعد أن يرجعه القهقرى .

فالسكاكي لم يفعل أكثر من أن لبّى حاجة ملحة لاهل زمانه ، فالقد كان الباعث الاول على دراسة المجاز ــ فيما نعرف ــ هو تقريب مجازات العربية الى الاعاجم الذين دخلوا في الاسلام زرافات ، واستطاعوا ان يتعلموا اللغة والنحو ، ولكن الامر في المجاز أعسر ، لان بابه مفتوح الى ما لا يحد أمام الابداع الفني . ان أبا عبيدة عندما ألف كتاب ((مجاز القرآن)) في تفسير القرآن الكريم ، كان الباعث الذي دفعه الى هذا التأليف ــ فيما روى هو نفسه ــ تقريب فهم المجاز القرآني للمسلمين من الاعاجم . وظلت الدولة الاسلامية في توسعها تدخل اقواما يتعلمون العربية ويكتبون بها ، ولكن ذوق اللغة ، وفلسفتها ، ومنطقها الخاص بها،

وطرائق استعمالاتها كانت تغيب عنهم أحيانا . ولقد عاشت اللغة قرونا وقرونا وفي بيئات مختلفة ـ طبيعة وتراثا ـ فاتسعت آفاق الاستعمال اتساعا لا يمكن أن يحد . وأدى ذلك الى تطورات في الاستعمالات المجازية لم يكن من السهل رصدها أو دراستها أو تعقب تطورها وآثار هذا التطور على الاسس الاصيلة للتراث الادبي القديم . وكان نص القرآن الكريم الى حد بعيد صمام أمن في هذا ، بل لقد أضاف الى مكرمة حفظه للغة ، حفظه أيضا لصورتها البلاغية الاصيلة أمام هذا الخضم الزاخر من الروافد الدخيلة المتدفقة .

وكتاب المفتاح أعان ـ بلا شك ـ على حفظ الصورة البلاغية القديمة، وروّج لها ، ولكنه لم يسع الى تطويرها ، لان مهمته الرئيسة كانت الصون والحماية ، ونشر الذوق العربي السليم في كل الارضين التي فتحها المسلمون . وأكبر ظني أنه من هذه الناحية ـ ان لم يكن لغيرها أيضا ـ يحمد ويشكر .

ان في البلاغة العربية غابات بل ادغالا كلها ما زالت بكرا تنتظر الدارسين . وما الزميل الصديق الدكتور أحمد مطلوب الا عالم من الذين تدفعهم أنبل العواطف وأشرف الغايات لدراسة لغة العرب ، تلك اللغة التي لا يمكن أن تطاولها في سمائها لغة . لقد عاشت ستة عشر قرنا لغة ادبية حيّة ، وما تزال الى اليوم بعد كل العواصف الهوجاء تعيش حياتها الثرة المثمرة ، بل انها لا تزال أبدا أشرف اللغات ، فقد اختارها الله ـ سبحانه وتعالى ـ لتنقل وحي الله الى سيد المرسلين وخاتم النبيين .

القاهرة : ٥ ش الشنواني ـ العباسية
٢٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٤

الدكتورة سهير القلماوي
رئيسة قسم اللغة العربية
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

المقدمة

اعجب الناس بكتاب « مفتاح العلوم » للسكاكي فطفقوا يؤلفون الشروح والتلخيصات ، ويضعون عليه الحواشي والتقريرات ، وبذلك اتجهت الدراسات البلاغية وجهة ما كان لها ان تتجه اليها ، لولا أثر هذا الكتاب ، ولولا موت المواهب وضعف الملكات الادبية بعد ان نكب العالمان العربي والاسلامي نكبات كثيرة ، وبعد ان اجتاحت البلاد عواصف مدمرة هبت من الشرق مكتسحة كل حضارة وعمران .

لقد كانت البلاغة قبل ان يسيطر منهج السكاكي حرة طليقة ، يغلب عليها الطابع الادبي ، ويلف مباحثها روح يعتمد اول ما يعتمد على الذوق وحسن الادراك . وكانت للباحثين اصالتهم في التأليف ، ومنهجهم الخاص بهم في البحث ، فلابن المعتز منهجه واسلوبه ، ولقدامة بن جعفر طابعه الخاص ، ولابي هلال العسكري طريقته الواضحة ، ولعبد القاهر

الجرجاني اسلوبه ومنهجه ، ولضياء الدين بن الاثير وجهته ورأيه في التأليف .

ولم تبق مناهج البحث في البلاغة مختلفة باختلاف المؤلفين ، فقد صبت كلها في قالب جديد في اواخر القرن السادس الهجري واوائل القرن السابع فكان « مفتاح العلوم » الذي اتجه فيه مؤلفه وجهة جديدة فيها تحديد وتقسيم ، وفيها ضبط منطقي جاف لمسائل البلاغة ومباحثها. وسيطر الكتاب على مجالس العلم والتدريس حتى كادت البلاغة تحتضر بعده ، لولا بعض القبسات التي ارسلها يحيى بن حمزة العلوي في كتاب « الطراز » ، وابن قيّم الجوزية (٧٥١ هـ) في كتاب « الفوائد » .

ولكن هذين الكتابين لم يستطيعا ان يقفا بوجه تيار السكاكي ، ولم يقدرا ان يسيطرا على مناهج درس البلاغة يومذاك ، فقد ظهر قبلهما بقليل كتاب « المصباح » لبدر الدين بن مالك (٦٨٦ هـ) ، وهو اول تلخيص لمفتاح العلوم وصل الينا . وظهر في زمانهما كتابا «التلخيص» و « الايضاح » لمحمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني (٧٣٩ هـ) فانصرف الناس الى الكتب الثلاثة وكادوا ينسون ما كان للعرب من تراث بلاغي ضخم .

وانشغل الناس بمفتاح العلوم وشروحه وتلخيصاته وحواشيه وتقريراته وانكب الاساتذة يدرسونها مع ما فيها من جفاف الفلسفة ، وما فيها من بعد عن الادب وروحه الفنية . وكان لكتابي الخطيب القزويني صولة في ميدان البلاغة في المناطق الشرقية من العالم الاسلامي خاصة كالعراق وايران والهند ، وكان « المصباح » لبدر الدين بن مالك قبلة طلاب البلاغة في بلاد المغرب .

وكثرت الشروح والتلخيصات على هذه الكتب كثرة لم ينلها كتاب من قبل ، وما تزال المكتبات العامة في الاتحاد السوفيتي وايران وتركية واوربا والعراق ومصر والشام وبلاد المغرب وغيرها ، تزخر بمخطوطات

مفتاح العلوم وشروحه وتلخيصاته ، وتغص بما طبع منها .

وكانت نتيجة انصراف الناس الى هذه الكتب واهمال كتب البلاغة الاخرى ككتابي « دلائل الاعجاز » و « اسرار البلاغة » لعبد القاهر الجرجاني – وهما خلاصة التفكير الفلسفي والادبي في البلاغة في زمانهما – ان ماتت المواهب وذهبت الملكات الادبية التي تحس بالكلام الجميل ، واصبح العاكف عليها لا يستطيع ان يعبر تعبيرا صحيحا ، او يُنْشِيء جملة فصيحة، حتى يروى ان أحد الاساتذة عكف على «مفتاح العلوم » وتلخيصاته وشروحه اربعين سنة درسا وتدريسا ، فلما طلب منه احد الولاة ان يقول كلمة في حفلة او اجتماع لم يستطع ذلك الاستاذ ان يفصح عما في نفسه وان يعبر تعبيرا صحيحا . وليت المتأخرين استفادوا من « مفتاح العلوم » كثيراً ، فقد كان في قلم مؤلفه أثارة من الاسلوب الادبي الذي درب عليه من سبقه من المؤلفين في البلاغة ، ولكنهم كادوا يهملونه اهمالا عظيما بانصرافهم الى تلخيصاته وشروحه التي لم تهتم بالذوق والاسلوب الجيد كما اهتمت بالجدل والنقاش ، وبذكر ما لا يمت الى الفنون الادبية بصلة .

وبقيت البلاغة على هذه الحال ، وبقي الاساتذة لا يخرجون عما رسمه لهم السلف كالسكاكي والخطيب القزويني والتفتازاني والسبكي وغيرهم ، حتى اطل فجر النهضة الحديثة على امة العرب ، فأحس الناس بضرورة تغيير طرائق التدريس وتجديد مناهج البحث والتأليف . واخذ الدارسون يحيون تراثهم ويخرجون بحوثا فيها طرافة وفيها تجديد ، مستعينين بحضارتهم التالدة ، ومقتبسين من الغرب حضارته الطارفة ، وما فيه النفع وانارة السبيل .

ولكن البلاغة مع ذلك لم تحظ بدراسات كثيرة بالرغم من انصراف كثير من الباحثين الى تراثنا الادبي ، فما يزالون لا يقدمون على هذا

الفن من فنون اللغة العربية اقدامهم على دراسة الادب وفنونه المختلفة . ولعل سبب ذلك ما وصلت اليه البلاغة من حال يدعو الى العزوف عن البحث فيها والانصراف الى غيرها .

وكان الازهر الشريف أول من حمل لواء التجديد في البلاغة ، وذلك بان قيض الله لها الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده الذي اخذ يحيي كتب السلف النافعة وعلومهم ، ويقوّم ما أعوجّ من مناهج التأليف وطرائق التدريس ، وانصرف الى تدريس كتابي « دلائل الاعجاز » و « اسرار البلاغة » لعبد القاهر الجرجاني ، وبذلك فتّح اذهان الطلبة الذين وجدوا في تدريس الامام غير ما ألفوه ، وقوّى مداركهم ومواهبهم . وبذلك كان الجامع الازهر اول معهد من معاهد التعليم الاسلامي والعربي قرئ فيه « دلائل الاعجاز » و « اسرار البلاغة » درسا لطلاب البلاغة ، ولاجله طبع الكتابان وانتشرا في ارجاء العالمين : العربي والاسلامي . ويبدو مما ذكره الاستاذ محمد رشيد رضا ــ منشيء مجلة المنار بمصر ــ في مقدمة الطبعة الثانية (مصر ١٣٣١ هـ) من كتاب « دلائل الاعجاز » ان العلماء احجموا عن تدريس الكتابين بعد الاستاذ الامام ــ مع انهما كانا مقررين في الجامع الازهر رسميا ــ لعجز بعضهم عن تفهمهما واظهار ما فيهما من طرافة ومتعة ادبية .

ومع ما بذل الامام محمد عبده من جهود عظيمة في بعث البلاغة واحيائها ، الا انه لم يؤلف كتابا ينحو فيه منحى ادبياً بعيدا عن منحى الفلاسفة وأصحاب المنطق ، ولعل الاستاذ علي عبدالرازق كان من اوائل الذين انصرفوا الى البحث في البلاغة وتأريخ فنونها ، فقد كتب « أمالي علي عبد الرازق في علم البيان وتأريخه » ، ولكن هذا الكتاب لم يشمل البلاغة كلها وانما اقتصر على أحد فنونها وهو علم البيان . ولم يكن الكتاب عميقا بعيد الاثر ، لأن مؤلفه ــ كما يبدو ــ كان يمليه على طلابه املاء ، ولم يكن له متسع من الوقت لتنقيحه واكماله وشرح ما اوجزه فيه

لانشغاله بأمور اخرى[1] .

وقد تخرج في الازهر الشريف في مطلع العصر الحديث جيل فيه عزم على البحث ، وفي روحه اندفاع الى التجديد ، وانشئت دار العلوم فكان بعض هؤلاء الطلاب اساتذة فيها حملوا دعوة الامام محمد عبده والاستاذ علي عبدالرازق وغيرهما ، وبذلك كانوا رواد البحث في البلاغة .

ومن الكتب المؤلفة في فجر النهضة كتاب « حسن الصنيع في المعاني والبيان والبديع » للاستاذ الشيخ محمد البسيوني (١٩١٣ م) وكتاب « زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع »، للاستاذ الشيخ أحمد الحملاوي (١٣٥١هـ) وكتاب « دروس البلاغة » لحفني ناصف وزملائه . وهذه الكتب ــ وان اختلف ترتيبها وتنوع تبويبها ــ تنحو منحى ما كتبه صاحب التلخيص وشراحه ، ولا تبحث البلاغة بحثا جديدا ، أو تضع الخطوط الرئيسة لبحثها ، وانما هي كتب كان الهدف منها تفسير مباحث البلاغة وموضوعاتها وتقديمها مرتبة مهذبة للطلاب .

وكان الاستاذ احمد مصطفى المراغي من خيرة اساتذة دار العلوم في بحث البلاغة ، فقد الف كتاب « علوم البلاغة » جمع فيه بين طريقتي الجرجاني والسكاكي ، وألف كتبا اخرى منها : « تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها » وهو بحث موجز في تاريخ البلاغة وترجمة اهم رجالها ، وفيه آراء قيمة ، واهمها نقد منهج السكاكي وطريقته . ومنها

---

(١) يقول في ص ٨٢ من كتابه الامالي وهو يتحدث عن التشبيه : « ولكن البحث طويل عريض يحتاج الى برهنة من الزمن كافية فيه ، ولم يبق لي من الوقت ما يسع ذلك ، فقد قرب موعد رحلتي ــ ان شاء الله تعالى ــ الى بلاد الانجليز . والله أسأل ان يبارك في السفر والاقامة ، ويكتب لي الغنم والسلامة . واذا قدر لنا ان نعود الى الاشتغال بهذا الفن رجونا ان نتم ما بدأنا والا كان أمره الى غيرنا، والى الله عاقبة الامور».

كتاب « بحوث وآراء في علوم البلاغة » وهو في الواقع ليس الا المباحث التي ذكرها فيما بعد مبوبة مرتبة في كتابه المتقدم ، وان اختلفت طريقة العرض والتأليف .

وللشيخ عبدالهادي العدل كتاب « دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر في التشبيه والتقديم والتأخير » وهذا الكتاب ـ كما يتضح ـ ليس الا توضيحا لمنهج عبدالقاهر الجرجاني في هذه الموضوعات .

ونبغ كثيرون من متخرجي الازهر ودار العلوم ، فكانت لهم كتب فيها تجديد وفيها نزعة ادبية ، ومن هؤلاء الاستاذ محمد عبدالمنعم خفاجي صاحب كتاب « ابن المعتز وتراثه في الادب والنقد والبيان » ، وهو كتاب ضخم ختمه مؤلفه ببحث طريف في بلاغة ابن المعتز ، أو في بديعه واثره في البيان .

ولما انشئت الجامعة المصرية قام اساتذتها يجددون في بحوثهم مستهدين بتراثهم القديم ومناهج الغربيين ، وكان للبلاغة نصيب ليس بالقليل من هذا التجديد ومن تطبيق المناهج الحديثة والاستفادة مما وصل اليه الاوربيون في العصر الحديث .

ولعل الاستاذ الدكتور طه حسين كان من اوائل الذين نادوا ببعث البلاغة العربية وبحثها بحثا يقوم على تفهم مرامي القدماء ، وعلى الموازنة ، ومقارنتها ببلاغة اليونان ، وذلك ببحثه القيم : « البيان العربي من الجاحظ الى عبد القاهر » الذي القاه في مؤتمر المستشرقين باللغة الفرنسية في ليدن ١١ سبتمبر (ايلول) ١٩٣١م ، ونشر مترجما بقلم الاستاذ عبدالحميد عبادي في مقدمة كتاب « نقد النثر » سنة ١٩٣٣ م .

وقد قرر الدكتور طه حسين أن البيان العربي في أول نشأته وفي عهد الجاحظ تتبين فيه ثلاثة عناصر مختلفة هي : العنصر العربي ، والعنصر الفارسي ، والعنصر اليوناني ، وقد بلغ ذروته على يدي الشيخ

عبدالقاهر الجرجاني ، ولم يتقدم بعده بل اخذ على العكس من ذلك في التأخر والانحطاط . والجديد في هـذا البحث ان الدكتور طـه حسين أول من نَبَّه الى الاثر الهيليني في البلاغة ، والى أثر ارسطو فيها خاصة ، وبذلك قرر أن البيان العربي كان في جميع اطواره وثيق الصلـة بالفلسفة اليونانيـة اولا ، وبالبيـان اليوناني أخـيرا ، ولم يكن ارسطو المعلم الاول للمسلمين والعرب في الفلسفة وحدهـا ، ولكنه الى ذلك معلمهم الاول في علم البيان . وكان لهذا الرأي أثر كبير ، فأخذ الباحثون يتلمسون ما اوجزه الدكتور طه حسين ، ويقارنون بين بلاغة العرب وبلاغة اليونان ، فألف الدكتور ابراهيم سـلامه بحثا قيما هو : « بلاغة ارسطو بين العرب واليونان » اثبت فيـه ما ذكره الدكتور طه ، وتتبع البلاغة العربية منذ الجاحظ متلمسا أثر ارسطو ، وموضحا فهم العرب لكتابي الخطابة والشعر ، وخرج بنتائج طيبة حتى كان كتابه بحق اهم بحث في هذا الميدان لولا وقوفه عند عبد القاهر واهماله السكاكي وغيره ممن كان تأثير الفلسفة فيهم اوضح واكثر ظهورا .

واشتغل الاستاذ امين الخولي في البلاغة وكان له اكبر الاثر في توجيه طلابه نحو البحث الحر بما ألقى من محاضرات وقدم من بحوث، كبحث « البلاغة وعلم النفس » و « مصر في تأريخ البلاغة » و « البلاغة العربيه واثر الفلسفة فيها » ، ومقالته عن البلاغة في دائرة المعـارف الاسلامية ، وكان كتابه « فن القول » من اهم الكتب التي رسمت مناهج بحث الفن الادبي والبلاغة .

وكتب الاستاذ احمد الشايب في البلاغة والنقد واخرج كتـاب « الاسلوب » الذي يعد دراسة بلاغية تحليلية لاصول الاسـاليب الادبية ، وكتاب « اصول النقد الادبي » الذي كان محـاولة موفقـة للجمع بين التراثين العربي والغربي في النقد وتفهم مسائله .

وكان نتيجة الجهود التي قدمها شيوخ الازهر وأساتذة دار العلوم والجامعة ، ظهور دراسات جامعية في البلاغة لها أصالتها ولها اسلوبها الجديد ككتاب « البلاغة العربية في دور نشأتها » للدكتور سيد نوفل ، وكتابي « ابو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية » و « قدامة بن جعفر والنقد الادبي » للدكتور بدوي طبانة ، وكتابي « أثر القرآن في تطور النقد العربي الى اواخر القرن الرابع الهجري » و « ضياء الدين بن الاثير وجهوده في النقد » للدكتور محمد زغلول سلام •

وحققت كتب بلاغية مهمة نال عليها أصحابها درجات جامعية منها « الموازنة بين الطائيين » للآمدي و «بديع القرآن» و «تحرير التحبير» لابن أبي الاصبع المصري •

وألفت كتب اخرى منها : « فن التشبيه » و « فن الجناس » و « البلاغة الفنية » للاستاذ علي الجندي ، وكتاب « البيان العربي » للدكتور بدوي طبانة ، وكتاب « علم المعاني » للدكتور درويش الجندي • والكتابان الاخيران لا يخرجان في منهجهما وموضوعاتهما عما اختطه السكاكي في« مفتاح العلوم » ، وان كانا أكثر تفصيلا،وأكثر شواهد وتحليلا •

وظهر اتجاه نفسي في دراسة الادب ونقده في السنوات الاخيرة ، ومن البحوث المهمة في هذه الناحية مقالة « البلاغة وعلم النفس »للاستاذ امين الخولي وما ذكره ــ فيما بعد ــ في كتابه « فن القول » ، وكتاب « علم النفس الادبي » للاستاذ حامد عبدالقادر ، وكتاب « من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده » للاستاذ محمد خلف الله •

أما في الاقاليم العربية الاخرى فلم تَحْظَ البلاغة باهتمام بالغ كما حظيت به فنون الادب الاخرى • ففي العراق ــ مثلا ــ لم يؤلف الا كتاب واحد هو « دروس في البلاغة وتطورها » للدكتور جميل

سعيد ، وهو كتاب في تاريخ البلاغة وتطورها ، وفي الفصاحة ، وأطرف ما فيه القسم الثاني الخاص بالفصاحة ، فقد طبقها على الشعر الحديث كشعر معروف الرصافي والزهاوي والحبوبي • وفي المغرب لم يصلنا الا كتاب « دلائل الاعجاز » بطبعته المغربية ، وفيه مقدمة طويلة عن تاريخ البلاغة كتبها محقق الكتاب الاستاذ محمد بن تاويت ، وهي مقدمـــة استعان كاتبها بما نشر الخولي كما يعترف الكاتب تفسه ، وكما يتضح من قراءتها • وهناك مقالات قليلة نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق وغيرها من المجلات ، ولكنها على كل حال لا تُكَوِّنُ اتجاها معينا ، ولا توضح جانبا مهما من جوانب البلاغة العربية وتأريخها •

هذه اهم الدراسات البلاغية التي ظهرت في العصر الحديث،ويتضح منها أن االبلاغة واتجاهاتها المختلفة وأعلامها الكبار الذين يمثلون المدرســتين : الاديـــة والكلامية ، بقيت غير مدروسة ، وكان هذا خير محفز للبحث فيها• وقد وقع اختياري على « البلاغة عندالسكاكي» لتكون بحثا اتقدم به لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة القاهرة •

ويرجع سبب اختياري الموضوع الى امرين :

الاول : انني درست من قبل بلاغة ضياء الدين بن الاثير احد اقطاب المدرسة الادبية في القرن السادس الهجري،فوجدت في هذا العصر تيارين بلاغيين هما : التيار الادبي الذي يمثله ابن الاثير ، والتيار الفلسفي الذي يمثله السكاكي ، فاردت أن ادرس التيار الفلسفي بعد ان درست التيار الاول •

الثاني : ان السكاكي يمثل قمة البلاغة التي ندرسها في معاهدنـــا وجامعاتنا فرأيت من المفيد ان ادرس اصول هذه البلاغة بعد ان انصرف الناس عنها وزهدوا فيها ، لاستطيع بعد ذلك ان أتلمس الطرق الناجعة الى احياء البلاغة ودرسها دراسة جديدة ، ولن

يتم هذا ما لم تتضح معالم التيارات البلاغية ومناهج البحث التي سيطرت عليها زمنا طويلا • يضاف الى ذلك ان الناس يقرأون شروح تلخيص الخطيب القزويني من غير ان ينتبهوا الى ان ما في هذه الكتب ليس الا بلاغة السكاكي ، فاردت ان اوضح ان السَّكّاكي كان مؤسس هذه البلاغة ، وواضع منهجها،ومرتب ابوابها وفصولها ، لا الخطيب القزويني والتفتازاني والسبكي وغيرهم ممن كانوا عالة عليه •

هذه نظرة عامة في دراسة البلاغة في عصرنا الحاضر ، واشارة الى دواعي الكتابة في « البلاغة عند السكاكي » ، اما منهج البحث فقد اقتضت طبيعة الموضوع تقسيمه الى تمهيد وبابين ، تكلمت في التمهيد على بيئة السكاكي والحياة العقلية التي اصطبغت بها في القرن السادس الهجري أي في عصر السكاكي بصورة خاصة ، وتحدثت عن السَّكّاكي وثقافته وآثاره بقدر ما اسعفتني به المصادر ، وهي قليلة جدا في هذا الموضوع •

وكان الباب الاول في منهج السكاكي ، ولما كانت بلاغته خلاصة البلاغة العربية في اكثر من خمسة قرون ، لم يكن من اليسير بحثها دون الرجوع الى البذور الاولى لنشأة البلاغة العربية وتطورها ، وتلمس التيارات التي لعبت دورا كبيرا فيها • وهذا ما جعلني أعقد فصلا خاصا هو الفصل الاول في « البلاغة قبل السكاكي » ليكون لي عونا في فهم منهج السكاكي وبلاغته • وقد اقتصرت في هذا الفصل على رسم الخطوط الرئيسة ، وذكر مناهج رجال البلاغة المختلفين مع الاشارة الى مدرستي البلاغة : الادبية والكلامية ، أو الى طريقة العرب والبلغاء، وطريقة العجم وأهل الفلسفة ، وذكرت أهم خصائصهما ورجالهما وكتبهما • وبذلك اقتصر الفصل على بحث منهج البلاغة قبل السكاكي، ولم أتطرق الى ذكر موضوعاتها الا فيما أحتاج اليه من توضيح فكرة

او عرض منهج أحد البلاغيين .

وبحثت في الفصل الثاني « منهجه البلاغي » ، فتحدثت عن تقسيمه البلاغة الى معان وبيان وبديع ، وناقشت هذا التقسيم وبينت اضطرابه وازهاقه روح البلاغة ، وناقشت تقسيمه مباحث البلاغة وتوزيعها في عدة مواضع حتى افقدها وحدة الموضوع وذهب بفائدتها . وقد انتهيت الى انه ينبغي العزوف عن هذا المنهج ، والعودة الى منهج عبد القاهر الجرجاني وضياء الدين بن الاثير وغيرهما من اعلام البلاغة المشهورين ببلاغتهم التحليلية والذوقية .

وتكلمت في الفصل الثالث على «أثر الفلسفة وعلم الكلام في منهجه» وقد رأيت ان هذا الاثر كان واضحا في ربط البلاغة بعلم الاستدلال ، وفي التحديد ، وتقسيم البلاغة الى معان وبيان وبديع ، والتعليلات ، والنزعة الجدلية ، والاهتمام بالناحية الشكلية التي جعلت البلاغة اصولا ثابتة وقواعد جامدة لا تنفع كثيرا .

أما الباب الثاني فقد تحدثت فيه عن جهود السكاكي وأثره في البلاغة ، واقتضى البحث ان افرد فصلا لمنابع بلاغته لاستطيع على ضوء ذلك أن أتبين جهوده وما أضافه الى البلاغة وأثره فيمن جاء بعده . وفي هذا الفصل الذي سميته « منابع بلاغته » تكلمت على مصادر بلاغته وبينت موقفه من السلف أو البلاغيين المتقدمين ، وتلمست أثر المتكلمين والاصوليين واللغويين فيه ، ووقفت طويلا عند أثر عبد القاهر الجرجاني والزمخشري والوطواط والرازي فيه ، وعلاقته بمعاصريه . وقد اتضح في هذا الفصل ان بلاغة السكاكي لم تكن ـ في الواقع ـ الا بلاغة عبد القاهر الجرجاني مع ميل شديد الى الناحية التقريرية والضبط المنطقي لمسائلها واصولها .

والفصل الثاني في « جهوده في البلاغة » ، تكلمت فيه على رأيه في اعجاز القرآن ، وأوضحت جهوده في التقسيم والتبويب ، ومصطلحات

البلاغةوتحديدها ، وذكرت آراءه ومقاييسه البلاغية•وقد تبين في هذا الفصل أن جهوده في البلاغة لم تكن عظيمة الا في ناحيتين هما : تحديد مصطلحات البلاغة تحديدا جامعا مانعا ، والتبويب والتقسيم • أما آراؤه البلاغية فلم تكن كثيرة ، وليس لها أهمية كبيرة •

وتحدثت في الفصل الثالث عن « أثره في البلاغة » ، وقد جرني البحث الى الكلام في النشاط الفكري الذي أثاره « مفتاح العلوم » ، والى جمع ما الف فيه ، وتحدثت عن اتجاهات البلاغة بعده وأثره فيها• وقد قسمت البحث في هذه المسألة الى قسمين : قسم تحدثت فيه عن مدرسة مصر والشام ، وكان اثره في هذا الاتجاه غير واضح ، الا ما كان في كتاب « الطراز » للعلوي الذي جمع فيه بين المدرستين الاديبة والكلامية • وقسم تحدثت فيه عن اعلام البلاغة الذين كان للسكاكي اثر واضح في بلاغتهم ، وقد اطلقت على هذا الاتجاه اسم « مدرسة السكاكي » •

هذه خطة البحث الذي كان موضوعا بكرا لم يتطرق اليه احد الا ما كان من ملاحظات عابرة نثرها الاستاذ علي عبد الرازق في«أماليه»، والاستاذ احمد مصطفى المراغي في « تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها » والدكتور بدوي طبانة في كتابه « البيان العربي » •

لقد افادتني هذه الملاحظات العابرة ، وفتحت الطريق امامي ، فاستطعت بالرجوع الى كتب البلاغةمنذ نشأتها انأُكَوِّن فكرة واضحة عن البلاغة العربية تمكنت على ضوئها من أن أتبين بلاغة السكاكي ومنهجه ومكانته في تأريخ البلاغة ، فكان هذا البحث الذي ارجو أن يكون اول بحث عن السكاكي ، فيه اصالة وفيه فائدة للدارسين •

واهم المصادر المتعلقة بهذا البحث كتاب « مفتاح العلوم » للسكاكي الذي كان مادة البحث الاساسية ، أما المصادر الاخرى

فكانت كتب البلاغة العربية والكتب والبحوث الحديثة وأخص بالذكر منها مقالات الاستاذ امين الخولي وكتابه « فن القول » ، وكان لكتب التأريخ والرحلات والتراجم أهمية في كتابة التمهيد وتصوير بيئة السكاكي وسيرته وثقافته .

ولم يقتصر الامر على الكتب العربية بل تجاوزها الى غيرها ، فكان لبعض البحوث باللغة الانكليزية ، والالمانية ، والفارسية ، والتركية ، نصيب في بناء البحث الذي آمل ان ينال رضى القارئين .

وفي الختام اشكر استاذتي الجليلة الدكتورة سهير القلماوي التي أشرفت على هذا البحث وكان لتوجيهاتها السديدة اثر واضح في أبوابه وفصوله .

والله أسأل أن يوفقنا لما فيه خدمة الامة العربية وتراثها العظيم .

أحمد مطلوب

القاهرة
الاربعاء : ١٦ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٠ م
٢٧ جمادى الاولى ١٣٨٠ هـ

تمهيد

بيئـــة السكاكي

١

في عام ٩٣ هـ (٧١٢ م) فتح العرب بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي خوارزم ، وهي كورة على حافتي نهر جيحون في آسيا الوسطى[١] ومن ذلك التاريخ أصبحت ثغرا من ثغور الاسلام ، وموطنا لكثير من العلماء الاعيان كالزمخشري والرازي والمطرزي والسكاكي وغيرهم ممن تزخر بهم كتب الادب والتاريخ .

وخوارزم ليس اسما للمدينة ، وانما هو اسم للناحيـة كلهـا ، وعاصمتهامدينة الجرجانية التي يسميها أهل خوارزم بلسانهم«كركانج» . وكان ياقوت الحموي قد زارها سنة ٦١٦ هـ فذكر أنهلا يعلم مدينـة رآها اعظم منها ، ولا اكثر اموالا واحسن احوالا[٢] . وتذكر المصادر القديمة والحديثة قصة تسميتها « خوارزم » لا مجال لذكرها والتعليق عليها ، وهي ــ في الواقع ــ اقرب الى الاسطورة[٣] .

وقد اتفق كثير من جغرافيي العرب ورحالتهم على وفرة خـيرات خوارزم وجمالها ، واتفقوا على حسن اخلاق اهلها وان لم يكن لهـم ظرف ولا لباقة وقد يكون ذلك نتيجة الظروف التي كانت تحيط بهم[٤] .

---

(١) ينظر تاريخ الطبري ج٢ ص ١٢٣٦ وما بعدها ط اوربا ، ومعجم البلدان للحموي ج٣ ص ٤٧٤ .

(٢) ينظر معجم البلدان ج٢ ص ٧٩ ــ ٨٠ .

(٣) ذكرها المقدسي في كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ٢٨٥ وما بعدها ، والحموي في معجم البلدان ج٣ ص ٤٧٤ ، والبستاني في دائرة المعارف ج٧ ص ٤٩٤ .

(٤) ينظر احسن التقاسيم ص ٢٨٤ ، ومعجم البلدان ج٣ ص ٤٧٥ ــ ٤٧٦ ، وتحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار لابن بطوطة ج١ ص ٢٣١ .

وساعدت هذه البيئة الخصبة الكثيرة الخيرات على ازدهار الحركة العلمية فيها ، وانصراف العلماء الى التأليف فانجبت علماء يعتز بهم الاسلام ويفخر بهم العرب ، وساعدت على ان يقصدها علماء كثيرون ، يغترفون من مناهل علمها ، ويقيمون فيها وهم في أمن واستقرار .

وتأريخ خوارزم قبل بزوغ فجر الاسلام ، وبعده يكتنفه غموض عميق ، وقد استطاع « بارتولد » ان يجمع النتف المتناثرة في المصادر المختلفة ، ويكتب عنها بحثا موجزا في دائرة المعارف الاسلامية . ويذكر بارتولد ان الخوارزميين كانوا يتبعون الفرس ، وقد استطاعوا في عهد الاسكندر الاكبر ان يتحرروا منهم ويصبح لهم ملك خاص بهم ، الا انهم لم يستطيعوا ان يتحرروا منهم فكريا اذ بقيت في خوارزم ثقافة ايرانية قديمة حتى القرن الثامن الميلادي . ويذكر ان اهل « كردر » قاموا بفتنة سنة ١١٠ هـ (٨٢٧ م) ، وقامت في كركانج « الجرجانية » مملكة مستقلة عن خوارزمشاه ، ونجح امير الجرجانية مأمون بن محمد في قلب الاسرة الحاكمة القديمة ، وضم ملكها الى حكمه ، ثم اعاد الى خوارزم وحدتها السياسية وورث حاكم الجرجانية لقب «خوارزمشاه» . ولكن الاضطرابات بقيت قائمة فيها حتى استطاع السلاجقة ان يفتحوها، ويولوا عليها التونتاش ، ولم تنفصل عنهم الا بعد وفاة سلطان سنجر سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م)[1] .

وقامت في خوارزم الدولة الخوارزمية التي لعبت دورا كبيرا في تاريخ آسيا الوسطى وكانت هذه الدولة في بداية امرها لا تعدو ان تكون احدى الاتابكيات التي ظهرت نتيجة لانحلال الدولة السلجوقية. واخذت تتوسع على حساب هذه الدولة بقدر ما كان يصيبها من ضعف حتى قدر لدولة السلاجقة في فارس والعراق ان تزول على أيديهم ، وان تنشأ الدولة الخوارزمية التي شملت عناصر السكان

(١) تنظر دائرة المعارف الاسلامية مادة « خوارزم » الطبعة العربية .

الذين ضمتهم الدولة السلجوقية ، وهي العناصر الفارسية والعربية والتركية ، غير أن الغلبة كانت للعنصر الاخير بعد ان لبس العنصران ثوب المغلوب على امره ٠

وتنتسب الدولة الخوارزمية الى « نوشتكين » أحد الاتراك في بلاط ملكشاه ، وقد ساعدت الظروف القائمة يومذاك أن تبرز اسرة نوشتكين ، وتظهرها ، فابتلعت بشهرتها تأريخ الاسرات التي سبقتها في حكم اقليم خوارزم(١) ٠

وقد حكم هذه الدولة ثمانية ملوك ، عاصر السكاكي خمسة منهم ولعب دورا فعالا في عهد اثنين منهم هما : علاءالدين محمد (٥٩٦ـ ٦١٧ هـ) ، وجلال الدين منكبرتي (٦١٧ ــ ٦٢٨ هـ) ٠ ولكن علاقته بالاول منهما كانت أوثق ،واكثر رسوخا كما سنرى ٠

وبلغت الدولة الخوارزمية اقصى اتساعها في عصر السكاكي ، ولا سيَّما في عهد علاءالدين خوارزمشاه ، اذ امتدت من حدود العراق العربي غربا الى حدود الهند شرقا ، ومن شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالا الى الخليج العربي والمحيط الهندي جنوبا ٠

ولم تكن الامور مستتبة دائما في هذه الدولة ، فقد كان الصراع غالبا ماينشب بينها وبين الامارات المجاورة لها ، وكان النزاع كثيرا ما يحدث بين امرائها ٠ وقد شهد السكاكي هذا الصراع وعاشه ، لانه لم يكن بعيدا عن البلاط وما يحدث فيه ، ولانه عاصر الاحداث الكبرى التي حدثت يومذاك ، ومنها القضاء على طغرل بك سنة ٥٩٠هـ (١١٩٣ م) ، وزوال الدولة السلجوقية ، ومنها ماحصل للعالم الاسلامي من نكبات جرت عليه الخراب والدمار على أيدي المغول المتوحشين ٠

---

(١) يرى الدكتور حافظ احمد حمدي في كتابه « الدولة الخوارزمية » هامش ص١٩ ان محمد بن نوشتكين هو المؤسس الحقيقي للدولة الخوارزمية وليس نوشتكين ويؤيده في ذلك الدكتور عبد النعيم حسنين في كتابه (سلاجقة ايران والعراق) ص ١١٨ ٠

٢

وازدهرت الحياة العقلية في خوارزم وفي عصر السكاكي خاصة ، ولا عجب في ازدهارها في هذه البيئة البعيدة عن موطن العرب ، فقد اضفى الاسلام على هذه الربوع روحا جديدا ، وأنار قلوب الناس ، وبعث فيهم الهمة والنشاط وحب العلم والتزود منه ، فتسابق الناس من غير العرب يقضون الليالي والايام في تعلم اللغة العربية التي نزل بها كتاب المسلمين ، واخذوا يؤلفون ويبحثون حتى وصل التقدم العلمي والحركة الفكرية أوجها في عصر الدولة العباسية التي اهتم خلفاؤها ببعث الحركة العلمية وازدهار الحياة الثقافية ، وليست مجالس المأمون وغيره من الخلفاء والامراء ببعيدة عن الاذهان .

وكان لعلوم اللغة العربية حظ وافر من ذلك التقدم والازدهار ، فألفت الكتب في اللغة والنحو والبلاغة ، وجمع تراث العرب الفكري من شعر ونثر .

ولم تكن خوارزم منفصلة عن العالم الاسلامي فهي احد ثغوره المهمة ، فكان لابد ان تتقدم في المضمار الفكري ، وان تكون مرتعا خصبا للحركة العلمية ، يقول المقدسي عن أهل خوارزم انهم : « أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب ، واقل امام في الفقه والادب والقرآن لقيته الا وله تلميذ خوارزمي قد تقدم وزجا » .(١)

وأنجبت هذه البيئة علماء وادباء يفخر بهم العرب والمسلمون ، وكان للاسلام وتعاليمه اثر كبير في نهضتها . فبعد ان رفرفت تعاليم محمد (ص) على تلك الربوع النائية عن المدينة المنورة مصدر الاشعاع بدأ الناس ينصهرون في بوتقة الرسالة الالهية التي حملها العرب بعد

(١) احسن التقاسيم ص ٢٨٤

ان انتقل الرسول الاعظم الى الرفيق الاعلى ، واخذوا يندفعون في خدمة كتاب الله لا فرق بين عربيهم وأعجميهم الا بالتقوى . وكان الخوارزميون متمسكين بالاسلام تمسكا كبيرا ، وكانوا منصرفين الى اعلاء شأنه ورفعه في بلادهم التي تحفها الاخطار والشرك من الشرق والشمال ، وكان العقاب الصارم يطارد من يتقاعس عن اداء فرض من فرائض الاسلام ، أو يهمل ركناً من اركانه . وقد ذكر ابن بطوطة قصة طريفة تظهر تمسكهم بالاسلام ، يقول : « ولم أر في بلاد الدنيا أحسن أخلاقا من أهل خوارزم ، ولا أكرم نفوسا ، ولا أحب في الغرباء . ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرها لغيرهم ، وهي ان المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلما لهم بحضور الصلاة فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الامام بمحضر الجماعة . وفي كل مسجد درة معلقة برسم ذلك ، ويغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح المسجد أو تطعم للفقراء والمساكين . ويذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان »[1] . وذكر عددا من وعاظهم الذين كان لهم أكبر الاثر في توجيه المسلمين .

وكان المذهب السائد في ربوع خوارزم هو المذهب الحنفي ، ولكن الاعتزال انتشر انتشارا كبيرا حتى لتكاد لفظة « خوارزمي » ترادف لفظة « معتزلي » ، ويبدو هذا واضحا في القصة التي ذكرها ياقوت الحموي عن القاسم بن الحسين بن ابى بكر الخوارزمي ، يقول : « وقلت له : مامذهبك ؟ فقال : حنفي ، ولكن لست خوارزميا ، لست خوارزميا ، يكررها ، انما اشتغلت ببخارى فأرى رأي أهلها . نفى عن نفسه أن يكون معتزليا ـ رحمه الله »[2] .

ولانتشار الاعتزال هذا الانتشار الواسع في خوارزم نرى

---

(١) ينظر تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ج١ ص ٢٣٢ وما بعدها .
(٢) معجم الادباء ج ١٦ ص ٢٣٩

الزمخشري المعتزلي يجعله رأس فضائل خوارزم[1] ، وبذلك كانت هذه البيئة مرتعا خصبا لهذا المذهب وموئلا رحبا لنموه وازدهاره .

وساعدت الروح الاسلامية واتجاه الكثيرين الى الاعتزال على ازدهار الحياة العقلية في بيئة السكاكى ، فكان فيها المفسرون واللغويون والبلاغيون والمتكلمون ، وكان فيها الادباء والشعراء ، وقد بلغت اوج ازدهارها في القرنين الخامس والسادس الهجريين أي في عصر السكاكى. وكانت العلوم الاسلامية واللغوية والكلامية قد نالت اهتماما عظيما من الدارسين ، فانكب العلماء يؤلفون في ميادين العلم المتنوعة . وما تزال كتب هذه الفترة وهذه البيئة غذاء عقليا وروحيا، وما كتب عبدالقاهر الجرجاني والزمخشري والرازي والمطرزي والسكاكي وغيرهم الا دليل واضح لا يرقى اليه أدنى ريب على تقدم هذه البيئة .

وراجت العلوم الادبية في عصر السكاكي ، وكان من أسباب رواجها وجود المدارس المتعددة في مختلف المدن والممالك الاسلامية ولا سيما في بغداد ومدن ايران وما وراء النهر . وكان الاساتذة الكبار مشغولين بالتدريس والتأليف لايصرفهم عن ذلك امر من امور الحياة . ونظرا لاهمية العلوم الدينية فقد كانت لها مدارس في طول البلاد وعرضها ، يؤمها الاساتذة والطلاب من كل ناحية ، ويعتكف فيها محبو العلم والمنصرفون له . ومن اسباب ذلك ايضا وجود وسائل تحصيل العلوم الادبية والدينية كالمكتبات والموقوفات الكثيرة على طلاب العلم ، يضاف الى ذلك وجود المشجعين لعلماء الادب واللغة ، من السلاطين والامراء والوزراء[2] .

وبالرغم من انشغال سلاطين خوارزم بالحروب في الداخل والخارج لم ينسوا ان يحيطوا انفسهم بالشعراء والعلماء، وان يقربوهم

(١) ينظر ربيع الابرار الباب التاسع (مخطوطة مكتبة الاوقاف ببغداد) ، وكتاب منهج الزمخشري في تفسير القرآن ص ٢٠ .
(٢) ينظر تاريخ ادبيات در ايران للدكتور ذبيح الله صفاء ج٢ ص ٣١٧ .

ويغدقوا عليهم الاموال الطائلة . وما اندفاع السكاكي الى العلم الا لنيل الحظوة التي كان العلماء والادباء يندفعون لنيلها من سلاطين الدولة الخوارزمية وامرائها ووزرائها ، فقد اتفق ان قدم السكاكي الى ملك زمانه هدية صنعها بيده ، ولكن السلطان لم يهتم به ، وانصرف الى رجل آخر كان من العلماء ، مما دفعه الى ترك الصناعة والانصراف الى العلم والادب لينال منزلة سامية . وقل مثل هذا عن رشيد الدين الوطواط الذي التحق بخدمة ملك خوارزم أبي المظفر علاء الدين أتز بن قطب الدين محمد خوارزمشاه ، وظل في خدمة ملوك خوارزم مرفوع الجبين ، موفور الجاه والصيت .

ولم يقتصر تشجيع الخوارزميين على كبار رجال الادب والعلم ، وانما أهتموا بتثقيف عامة الناس ، فأسسوا المدارس في مدن الدولة المختلفة ، او على الاقل في امهات مدنهم . وكان يقوم بالتدريس فيها كبار الفقهاء والادباء ، ومن هؤلاء شهاب الدين ابو سعد بن عمران الذي برز في عهد علاء الدين خوارزمشاه ، وعهد جلال الدين منكبرتي ، ولعلو منزلته عهد اليه بالتدريس في خمس مدارس بمدينة خوارزم ، وكان له فضل كبير في تأسيس دار الكتب في هذه المدينة (١) .

وانتعش الشعر في ظل الدولة الخوارزمية انتعاشا كبيرا ، لان السلاطين والحكام كانوا يحتاجون اليه في تدعيم كيانهم ، والرفع من شأنهم . وتزخر تراجم اعلام خوارزم بشعرهم ، حتى ليخيل للباحث انه لم يبق اديب في خوارزم لم يقل شعرا ، ولو جمع مافي يتيمة الدهر للثعالبي ، ومعجم الادباء لياقوت الحموي ، وغيرهما من المصادر القديمة ، لاصبح مجلدا ضخما . ولعل للصراع الذي كان قائما بين سلاطين خوارزم وسلاطين السلاجقة وغيرهم من ملوك الاقوام المحيطين بهم ، أثرا في انتعاش الشعر وتقدمه ، فقد كان السلاطين

---

(١) ينظر الدولة الخوارزمية ص ٩٠

يستعينون بالشعراء على خصومهم وأعدائهم كاستعانتهم بالجيوش المحاربة .

أما علوم اللغة العربية فقد كان لها النصيب الأوفى من التأليف في بيئة خوارزم وفي عصر السكاكي الذي كثر فيه التأليف في اللغة والصرف، والنحو والبلاغة . ولم تكن طريقة المؤلفين في هذه العلوم تختلف اختلافا واضحا عن طريقة المؤلفين الذين ظهروا في القرون السابقة، ولم يكن التأليف في علم اللغة يخرج عن المنهجين اللذين سار عليهما المتقدمون :

الاول : بناء الكتب اللغوية على تنظيم الالفاظ حسب حروف الهجاء وذكر معانيها .

والثاني: بناؤها على تنظيم الكلمات حسب معانيها كالطريقة التي اتبعها الزمخشري في قسم الاسماء من كتاب « مقدمة الادب » ، وكالتي سار عليها المطرزي في ترتيب الكلمات حسب المعاني الفقهية في كتاب « المغرب »[1] .

ولم تكن طريقة التأليف في الصرف والنحو تخرج عن طريقة المتقدمين ويتضح هذا فيما كتب الزمخشري والسكاكي وغيرهما .

وأنجبت بيئة خوارزم علماء كثيرين في اللغة والصرف والنحو منهم : الزمخشري والمطرزي والسكاكي .

اما البلاغة فقد كان لها طابع خاص في هذه البيئة ، اذ تميزت في عصر السكاكي ثلاثة اتجاهات في دراسة البلاغة والنقد هي :

١ ــ مذهب المشارقة[2] .
٢ ــ مذهب العراق ومصر والشام
٣ ــ مذهب الاندلس وبلاد المغرب

---

(١) ينظر كتاب تاريخ ادبيات در ايران ج ٢ ص ٣١٧
(٢) المقصود بالمشارقة اهل ايران وما وراءها من الاقاليم الاسلامية يومذاك .

وكان لكل من هذه الاتجاهات الثلاثة مميزات خاصة ، وكان لها رجالها واعلامها المشهورون[1] .

ويمكن رد هذه الاتجاهات الى اتجاهين متميزين او مدرستين هما : المدرسة الكلامية او طريقة العجم واهل الفلسفة ، والمدرسة الادبية او طريقة العرب والبلغاء . وقد حمل لواء المدرسة الاولى المشارقة الذين كانوا يعيشون في بيئة ليست عربية ، فكان لها طابعها ومنهجها الخاص بها ، وحمل لواء المدرسة الثانية اهل مصر والشام والعراق ممن كان لهم ذوق عربي سليم ، وملكة ادبية صافية .

وكان معظم رجال المدرسة الكلامية قد نشأوا في بيئة خوارزم كالزمخشري والرازي والمطرزي والسكاكي ، لذلك فليس من الغريب اذا قلنا ان خوارزم قد احتضنت هذه المدرسة وطبعتها بطابع خاص كان مزيجا من الفلسفة وعلم الكلام .

ومذهب المشارقة ليس وليد عصر السكاكي ، وانما هو وليد قرون سابقة ، فقد أثرت الفلسفة في البلاغة منذ عهد مبكر ، وصبغت كثيراً من مسائلها بالنزعة العقلية البعيدة عن الروح الادبية . وتجلت هذه النزعة بوضوح في كتابي « اسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » لعبد القاهر الجرجاني ، ولا عجب في هذا ، فقد كان مؤلفهما متكلما على مذهب الاشعري[2] ، ولكنه استطاع أن يخفف من غلواء هذه النزعة بما وهب من ذوق ادبي وقدرة على التحليل وتمييز الاساليب ، وان كان الباحث في بلاغته يجد النزعتين : الادبية والعقلية تتصارعان في كتابيه ، فنجد النزعة العقلية تغلب على كتاب « دلائل الاعجاز » ، ونلمس

---

(١) بحث الدكتور محمد زغلول سلام هذه الاتجاهات بالتفصيل في كتابه : « ضياء الدين بن الاثير وجهوده في النقد » ص ٣٠٩ ــ ٣٥٨ ، وتحدثنا عنها في مقدمة كتاب (التبيان في علم البيان) لابن الزملكاني (تحقيق الدكتور احمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي ــ بغداد ١٩٦٤) ، وفي كتابنا « القزويني وشروح التلخيص » المعد للطبع .

(٢) ينظر البلاغة العربية واثر الفلسفة فيها لامين الخولي ص ٢٢ .

الروح الادبية تسيطر على كتاب « اسرار البلاغة » •

وكانت كتب عبدالقاهر حجر الاساس الذي بنى عليه البلاغيون دراساتهم البلاغية،ولكنهم لم يكونوا من المتذوقين الموهوبين فأفسدوا ما بدأه ، وأحالوا بلاغة عبد القاهر قواعد ليس فيها روح الادب والفن والجمال • فمدرسة المشارقة تقوم على ما بناه الجرجاني ، ولكنها لا تبلغ مبلغ ما جاء به،لأنّ رجالها اهتموا بأمور بعيدة عن الفن الادبي،وبذلك اماتوا البلاغة وجعلوها فنا ينفر الدارسون منه •

واهتمت مدرسة المشارقة بدراسة المعاني اكثر من اهتمامها بدراسة الالفاظ والبديع ، ولعل ذلك يعود الى قدم الدراسة الفلسفية والعلوم العقلية ، ثم الى رد الفعل الذي اوجده طغيان الدراسة الشكلية في حركة البديع عند نقاد القرن الرابع أمثال قدامة بن جعفر وأبي هلال العسكري والغانمي ، والحاتمي وغيرهم (١) ، ولذلك نجد عبدالقاهر الجرجاني يرد جميع فضائل الكلام ومزاياه الى المعنى ، ويعد اللفظ تبعا له • وقد انتبه ابن خلدون الى اتجاه المشارقة الى المعاني والبيان فقال : «وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة ، وسببه والله اعلم انه كمالي في العلوم اللسانية ، والصنائع الكمالية توجد في العمران، والمشرق اوفر عمرانا من المغرب • او نقول لعناية العجم وهم معظم اهل المشرق كتفسير الزمخشري وهو كله مبنى على هذا الفن ، وهو اصله »(٢) •

ومع اهتمامهم بالمعاني والبيان ، نراهم لم يهملوا البديع اهمالا تاما ، فقد اتجه بعضهم الى البحث فيه ، وتأليف الكتب في مسائله وأنواعه • فمحمد بن عمر الرادوياني ألف كتاب « ترجمان البلاغة » ، ورشيد الدين الوطواط ألف كتاب « حدائق السحر في دقائق الشعر » ، وهذان الكتابان مع انهما في موضوعات البلاغة المختلفة الا

(١) ينظر ضياء الدين بن الاثير وجهوده في النقد ص ٣١٢
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢

ان طابع الاهتمام بالبديع يسيطر عليهما •

وكان لمذهب المشارقة اثر كبير في تحديد مسائل البلاغة ، ففي بيئة خوارزم انقسمت البلاغة الى علومها الثلاثة : المعاني والبيان والبديع وكان ذلك على يدي السكاكي ، ومن هذه البيئة خرج المنهج البلاغي الذي سيطر على الدراسات البلاغية حتى عصرنا الحاضر •

وقد حمد للمشارقة هذا العمل ، معظم البلاغيين الذين جاءوا بعد السكاكي ، فهذا السبكي الذي دعا الى منهج ادبي في بحث البلاغة يسير مرغما على منهجهم ، ويقول : « واما أهل المشرق الذين لهم اليد الطولى في العلوم ولا سيما العقلية والمنطق فاستوفوا هممهم الشامخة في تحصيله ، واستدلوا بجدهم على جملته وتفصيله ، ووردوا مناهل هذا العلم فصدروا عنها بملء سجلهم • وكيف لا وقد جلبوا عليه بخيلهم ورجلهم ، فلذلك عمروا منه كل دارس ، وعبروا من حصونه المشيدة ما رقد عنه الحارس ، وبلغوا عنان السماء في طلبه »[1] •

ومن اعلام هذه المدرسة جار الله الزمخشري (٥٣٨ هـ) صاحب تفسير « الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل » ، الذي بناه على البلاغة • وفخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) صاحب كتاب « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » الذي لخص فيه كتابي أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لعبدالقاهر الجرجاني • وأبو المظفر ناصر بن ابي المكارم المطرزي (٦١٠ هـ) صاحب كتاب « الايضاح في شرح مقامات الحريري » ، وفيه مقدمة مهمة في البلاغة لم يخرج فيها عما كتب عبد القاهر • ويمكن ضم رشيدالدين الوطواط (٥٧٣ هـ) الى اعلام هذه المدرسة ، لانه عاش في بيئة خوارزم وألف كتاب « حدائق السحر في دقائق الشعر » الذي نحا فيه منحى يختلف عن الرازي والمطرزي من حيث بحث البلاغة وترتيب مسائلها ، فقد

---

(١) عروس الافراح ـ شروح التلخيص ج ١ ص ٥

أهتم بموضوعات البديع اكثر من اهتمامه بعلمي المعاني والبيان ، ولم يقسم البلاغة الى اقسامها الثلاثة كما فعل السكاكي ومن سار على منهجه . ولكن أهم رجال مدرسة المشارقة ، السكاكي الذي سيكون مدار هذا البحث ، فهو الذي رسم خطوطها النهائية ، وهو الذي قرر مسائل البلاغة وهذبها ورتبها ، ووضعها الوضع الاخير .

أما بقية الاتجاهات البلاغية والنقدية في البيئات الاخرى،فلا مجال للحديث عنها في هذا التمهيد لانها تخرج عن نطاق البحث الذي نكتب فيه ، وسنتكلم على المدرستين البلاغيتين في الباب الذي نعقده للبحث في منهج السكاكي واثر الفلسفة وعلم الكلام فيه .

هذه لمحة عن الدراسات اللغوية والصرفية والنحوية والبلاغية في بيئة خوارزم ، لم نطل الكلام فيها ولم نذكر الا بعض الاعلام البارزين من رجالها ، لان الذين ينسبون الى خوارزم من الاعلام والعلماء لا يحصون .

أما العلوم الاخرى فلن نتطرق الى ذكرها . لانها ليست ذات صلة بموضوع بحثنا ، ولكننا نشير الى ان الناس في عصر السكاكي انصرفوا الى خدمة المنطق والفلسفة وعلم الكلام ، وادخلوها في كثير من العلوم ، واستفادوا منها في بحوثهم ، حتى سيطرت على مناهجهم وتفكيرهم سيطرة قوية ، ويتضح هذا جليا في كتب النحو والبلاغة وفي كتب الزمخشري والسكاكي خاصة . وبذلك خدم الخوارزميون اللغة العربية والدين الاسلامي خدمة عظيمة ، ولم يتركوا بابا من ابواب التفسير والفقه واللغة والصرف والنحو والبلاغة والفلسفة وعلم الكلام الا طرقوه ، وكتبوا المؤلفات الضخمة في مسائله وموضوعاته . ولكن هل بقي هذا التراث العظيم ، وهذه الثروة الضخمة التي جادت بها قرائح اهل خوارزم ؟

لقد عصفت بهذا التراث ، وهذه الثروة يد الاقدار يوم هبت

عاصفـة هوجاء من المشـرق دمرت كل شيء ، وحطمت ذلك الصـرح الشامخ ، ففي ذي القعدة سنة ٦١٧ هـ (مايو ١٢٢٠ م) ، كان الجيش المغولي يتقدم نحو مدينة خوارزم حاضرة الاقليم ، وقد استطاع بعـد مدة ان يدمر هذه المدينة العظيمة ، وهذا الاقليم الواسع تدميرا يبعث في النفوس اللوعة والاسى . وقد وصفت كتب التاريخ ذلك الحدث الجلل وصفا يهز النفوس هزا عنيفا ، ويوحي بما كان عليه المعتدون من وحشية دونها وحشية المفترسين[١] ، وكان سقوط خوارزم بيد التتر في صفر سنة ٦١٨ هـ[٢] .

ومع ما اصاب هذه المنطقة الآمنة من تدمير وقتـل وسلب ، فان الحركة العلمية استمرت فيها ، ويتضح مما ذكره التفتازاني ان خوارزم بقيت بعد نكبة التتر مركزا علميا تشد اليه الرحال[٣] .

وتتابعت الاحداث على خوارزم حتى وقعت في اوائل القـرن العشرين في قبضة الروس الذين لم يعملوا حتى الآن على ابراز ماضيها المشرق ، واحياء تراثها القديم .

---

(١) ينظر معجم البلدان ج٣ ص ٤٧٩ والكامل لابن الاثير ج١٢ ص ١٨٢ .
(٢) ينظر سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي للنسوي ص ١٧٠
(٣) ينظر المطول على التلخيص ص ٣

السـكاكي

١

في قرية من قرى خوارزم ولد السكاكي يوم الثلاثاء ثالث جمادي الاولى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م)[١] ، في عهد السلطان الرابع للدولة الخوارزمية ايل ارسلان بن اتز • وقد اجمع المؤرخون على أنّه ولد في هذا العـام ، ولم يشــذ عنهم الا ياقوت الحمـوي الذي ذكر أن السكاكي ولد سنة ٥٥٤ هـ • ولعل هذه الرواية اقرب الى الصحة لان الحموي كان معاصرا له عندما كتب « معجم الادباء » ، فقد قال عنه : « وهو اليوم حي ببلده خوارزم »[٢] •

وحياة السـكاكي غامضة ، فلا يهتدي الباحث الى معرفة الظروف التي ألمت به وكونت عقليته ، وخلقت منه رجلا أثَّرَ في علوم اللغـة العربية تأثيرا كبيرا • وكل ما نعرفه عنه تتف يسيرة مبعثرة في المصادر المختلفة ، لا يمكن ان ترسم لحياته صورة واضحة ، وتبين منابـع ثقافته • فياقوت الحموي وهو معاصر للسـكاكي ، وأول من ترجم له ، لا يذكر الا سطورا قليلة عنه ليس فيها ما يقنع الباحث ويسـد تطلعه الى ما وراءها •

وقد استطعنا بعد ان استعرضنا كثيرا من المصادر ان نتكلم على

---

(١) ينظر دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الانكليزية) ج٤ ص ٨٠ ، وتـاريخ الادب العربي لبروكلمان (الطبعة الالمانية) ج ١ ص ٣٥٢ ، وتاج التراجم في طبقـات الحنفية ص ٦٠ ، ومفتاح السعادة ج ١ ص ١٦٣ ، والجواهر المضية في طبقات الحنفيـة ج ٢ ص ٦٦ ، والاعلام للزركلي ج ٩ ص ٢٩٤

(٢) معجم الادباء ج ٢٠ ص ٥٩

السكاكي كلاما موجزا فيه ما يرسم الخطوط الاساسية لحياته ، ويوضح بعض جوانبها •

فمن السكاكي ؟ :

هو سراج الدين يوسف بن أبي بكر محمد بن علي ، أبو يعقوب السكاكي الخوارزمي[1] •

وقد ذكر مصطفى بن محمد البناني ان نسبته الى سكاكة قرية بنيسابور ، وقيل بالعراق ، وقيل باليمن[2] • ولكن هذه النسبة غير صحيحة لان السكاكي لم يولد في نيسابور ، ولا في اليمن او العراق ، وانما ولد في خوارزم •

ونرجح أن نسبته كانت الى صنعة السكة ، لانه كان صانعا يشتغل بالصناعات الحديدية اليدوية كما يتضح من القصة التي رويت عن اهدائه محبرة من صنع يديه لملك زمانه • ويؤيد زعمنا ما ذكره السيوطي عنه ، قال : « السكاكي ــ بالفتح والتشديد ــ يسميه ابو حيان في الارتشاف ابن السكاك فهو الى جده ، وكأنه الى صنعة السكة التي يضرب بها الدرهم »[3] • والى هذا الرأي ذهب « كرنكو» في دائرة المعارف الاسلامية • وذكر محمد باقر الخوانساري ان السكاكي : « نسبة الى سكاك كان في جرثومة أحد من والديه »[4] •

واشتهر ابو يعقوب بهذا اللقب حتى صار الذهن لا ينصرف الى غيره عندما يطلق ، مع ان غيره يحملون هذا اللقب ، فهو يطلق على شاعر تركي اشتهر في بلاط التيموريين في سمرقند عاش في القرن

---

(١) ينظر الجواهر المضية في طبقات الحنفية ج٢ ص ٢٢٥ ، وتاج التراجم ص ٦٠ ومفتاح العلوم ص ٢ طبعة البابي الحلبي الاولى بالقاهرة سنة ١٣٥٦ هـ ــ ١٩٣٧ م •
(٢) ينظر الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص ٣٠٢
(٣) لب الالباب في تحرير الانساب ج ١ ص ١٣٧
(٤) روضات الجنات ج ٤ ص ٢٣٨

الرابع عشر الميلادي ، وعلى الميرزا ابي تراب المـير مرتضى الحسيني المتوفى سنة ١٣٠٣هـ (١) .

أمّا حياته ـ فقد ذكرنا ـ انها غامضة غموضا يكاد يكون تاما ، وكل ما تروي المصادر أنه كان في اول امره حدادا ، وبقى كذلك حتى جاوز الثلاثين ، ثم انصرف الى العلم انصرافا كليـا . يقول صـاحب كتاب « روضات الجنات » نقلا عن كتاب « زينة المجالس » ، في باب ثبات النية واستقامة العزيمة : « والامام السكاكي كان من جملة فضلاء الدهر والعلماء العالية المنزلة والقدر ، ماهرا في العلوم الغريبة . وكان في مبدأ امره حدادا فعمل بيده محبرة صغيرة من حديد ، وجعل لهـا قفلا عجيبا ، ولم يزد وزن تلك المحبرة وقفلها عن قيراط واحد واهداها الى ملك زمانه . ولما رآه الملك وندماء مجلسه الرفيع لم يزيدوا على الترحيب بالرجل على صنعته فاتفق انه كان واقفـا في الحضور اذ دخل رجل آخر فقام الملك احتراما لذلك الرجل وأجلسه في مقامه فسأل عنه السكاكي فقيل انه من جملة العلماء . فتفكر السكاكي في نفسه انه لو كان من هذه الطائفة لكان ابلغ الى ما كان يطلبه من الفضل والشرف والقبول .

وخرج من ساعته الى المدرسة لتحصيل العلوم ، وكان اذ ذاك قد ذهب من عمره ثلاثون سنة فقال له المدرس : لعلك في سـن لا ينفعك فيه التعلم وأرى ذهنك مما لا يساعدك على أمر التحصيل ، فلابد فيما هنالك من الامتحـان . ثم أخـذ يعلمـه هـذه المسألة التي هي من اجتهاديات امامهم الشافعي[٢] وقال له : قال الشيخ : جلد الكلب يطهر بالدباغة . وجعل يكرر هذه العبارة عليه الى ان بلغ الف مرة . ثم لما

---

(١) ينظر دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الانكليزية) ج ٤ ص ٨١ والمنـجد في الادب والعلوم ص ٢٥٧ ، والكنى والالقاب ج٢ ص ٢٨٤ .

(٢) يرى استاذنا المرحوم الدكتور عبدالحليم النجار أن هـذه القصة تنسب الى القفـال .

جاءه من الغد طلب منه ان يحاكي درس امسه الذي لقنه الف مرة فقال : قال الكلب : جلد الشيخ يطهر بالدباغة . فضحك منه[١] الحاضرون . وعلمه الاستاذ شيئا آخر ، وهكذا الى ان مضى من عمر السكاكي في ذلك التعب في امر التحصيل عشرة اعوام فيئس من نفسه بالكلية وضاق خلقه . فخرج الى البراري والجبال فاتفق أنّه كان يتردد يوما في شعب الجبال اذ وقع نظره على[٢] قليل من الماء يتقاطر من فوقه على صخرة صماء وقد ظهر فيها ثقبة من اثر ذلك التقاطر على عهد بعيد فاعتبر من نفسه بهذه الكيفية وقال : ليس قلبك بأقسى من هذه الحجرة ، ولا خاطرك بأصلب منها حتى لا يتأثر بمراقبة التحصيل .

ورجع ثانيا الى المدرسة بعزمه الثابت وتصمم في الامر الى ان فتح الله عليه ابواب العلوم والمعارف والافنان وحاز قصب[٣] السبق على جميع الاماثل والاقران ، من العلماء والاعيان »[٤] .

هذه القصة وان كانت تدل على ثبات العزيمة وقوة الارادة ، فاننا نجد فيها مبالغة صيغت باسلوب يكاد يكون اسطوريا ، فليس من المعقول ان يكون السكاكي على هذا الغباء ، وهو ممن بنوا بناءً ليس باليسير في علوم اللغة العربية وفي البلاغة التي كان فيها رأس مدرسة لها منهجها واصولها .

ومهما يكن الامر فان هذه القصة تدل على انه كان في مبدأ امره حداداً يصنع الاقفال وغيرها ، ومنها اخذ لقبه ، وانه لم ينصرف الى العلم الا بعد فترة متأخرة من عمره قد تكون في الثلاثين كما تروي القصة ، او في غير الثلاثين .

---

(١) في الاصل : عنه

(٢) في الاصل : الى

(٣) في الاصل : قطب

(٤) روضات الجنات ج ٤ ص ٢٣٨ . وقد ذكر قسم من القصة في معجم المطبوعات العربية ج ٢ ص ١٠٣٤ وفي دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الانكليزية) ج ٤ ص ٨٠

ويمكن ان نستخلص منها ان اتصاله لأول مرة كان بعلاء الدين تكش الذي حكم خوارزم من سنة ٥٦٨ ـ ٥٩٦ هـ ، ولكنه لم ينل حظوة عنده فانصرف الى العلم والتتبع حتى نال حظوة كبيرة عند السلطان علاء الدين محمد الذي تولى ملك خوارزم سنة ٥٩٦ هـ . ويؤيد هذا ماذكره النسوي ، قال : « وقد تمكن عند السلطان الكبير »[١] ، ويقصد بالسلطان الكبير علاءالدين محمد خوارزمشاه ، وما ذكره صاحب روضات الجنات من ان السكاكي كان من جملة علماء دولة هذا السلطان [٢] .

ولكننا لانستطيع ان نعرف مدى هذه العلاقة ، ومقدار الحظوة التي نالها السكاكي ، فالمصادر التي بين ايدينا لا توضح شيئا من هذا ، ولم تشر اليها الا اشارة عابرة كما في كلام النسوي ومؤلف روضات الجنات .

ولا نعرف شيئاً عن علاقة السكاكي بالسلطان جلال الدين منكبرتي الذي تولى الحكم في خوارزم بعد موت علاء الدين محمد سنة ٦١٧هـ ، ولكن النسوي يذكر ان جلال الدين منكبرتي لما كان بالعراق وصل اليه شخص خوارزمي هرب من التتر وذكر له عن السكاكي ان علاء الدين محمد خوارزمشاه لما قصد بغداد عمل له تمثالا من السحر يدفنونه في بغداد فينال مراده ، يقول : « وكان السلطان قد سلمه الى مجير الدين حين ارسله الى بغداد فدفن التمثال في الدار التي انزل فيها ، وهو الآن يعتقد ان المقصود الذي قصد بذلك السحر وقع بالعكس ، فعادت مضرته الى السلطان ، ومنفعته الى الخليفة »[٣] .

ويتضح من قول النسوي ان علاقة السكاكي بجلال الدين كانت

---

(١) سيرة جلال الدين منكبرتي ص ٢٥٣
(٢) ينظر روضات الجنات ج ٤ ص ٢٣٨
(٣) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٢٥٣

حسنة ، وانه كان يضمر للسلطان الاخلاص والود ، ولكن تلك العلاقة لم تدم ، فقد هبّت عاصفة التتر المدمرة ، التي لم تبق ولم تذر .

واتصل السكاكي بالسلطان « جغتاي خان بن جنكيز خان » بعد سقوط خوارزم بأيدي التتر سنة ٦١٨ هـ ، يقول محمد عبدالحي اللكنوي : « كان السكاكي عالما محققا في الفنون الغريبة والعلوم العجيبة من ذلك علم البلاغة بانواعها ، وعلم تسخير الجن ودعوة الكواكب وفن الطلسمات والسحر والكيميا وعلم خواص الارض واجرام السماء وغير ذلك . وكان السلطان جغتاي خان بن جنكيز خان حاكم ماوراء النهر وحدود خوارزم وكاشغر وبدخشان وبلخ وغيرهما ، لما اطلع على فضائله جعله أنيسه وجليسه . وحكي انه كان جالسا معه ذات يوم فمرت طيور تطير في الهواء فاراد جغتاي خان صيدها واخذ السهم والقوس بيده فقال السكاكي : اي طير تريد فاشار الى ثلاثة منها فخط السكاكي في الارض خطا مدورا وقرأ شيئا فسقطت تلك الطيور ، فعند ذلك زاد اعتقاد جغتاي حتى انه كان يجلس بين يدي السكاكي مؤدبا .

ولما علت مرتبته عند السلطان اشتعل نار الحسد والعدوان في قلوب الاقران لاسيما في قلب « حبش عميد » وزير السلطان فاراد استئصال السكاكي . واطلع عليه السكاكي فقال لجغتاي : اني ارى انه قد هبط كوكب سعادة حبش عميد ، واخاف ان يصل شيء من شقاوته اليك .فعزل جغتاي بمجرد استماع هذا الكلام « حبش عميد» من الوزارة فوقع التخلخل في امور الرياسة . وبعد سنة قال جغتاي للسكاكي : لعل كوكب سعد عميد الآن طالع فان النحوسة لا تدوم . وبسط لسان السعاية فسخر السكاكي المريخ واظهر نارا في عسكر جغتاي فوجد حبش موقع السعاية وقال لجغتاي : لما كان السكاكي قادرا على ايجاد مثل هذه الامور فلا عجب منه لو انتزع سلطنتك . فتخيل هذا في خيال

جغتاي ، وحبس السكاكي ، ولم يزل في المحبس ثلاث سنين الى ان مات »[1] .

ولسنا في سبيل تصديق القصة كلها أوتكذيبها كلها،ففيها ما يُشَمّ منه معنى قد يكون صحيحا واقعا ، وفيها مالايمكن التسليم به . ولا يهمنا من هذه القصة الا شيء واحد يبين العلاقة بين السكاكي وجغتاي ، ويوحي بما نال السكاكي من منزلة عظيمة عند السلطان بحيث كان يجلس امامه مؤدبا ، ويوليه الاهتمام والاحترام مما أثار حسد الآخرين فسعوا بالسكاكي الى السلطان الذي ألقاه في غياهب السجن سنة ٦٢٣ هـ حتى مات بعد ثلاث سنوات من ذلك الاعتقال في نواحي قرية الكندي من قرى المالغ في اواخر شهر رجب الاصم سنة ٦٢٦هـ[2] .

واختلفوا في سنة وفاته كما اختلفوا في ميلاده ، فالمستشرق «شاده» يرى انه مات سنة ٦٢٣هـ (١٢٢٦م) أو سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م)، ويرى غيره انه مات ٦٢٧ هـ عن احدى وسبعين او اثنتين وسبعين[3] . ويقال ان قبر السكاكي على شاطيء نهر تيكه[4] .

شيوخه وتلاميذه :

وأمر شيوخه وتلاميذه غامض كحياته ، وقد أشار الى ذلك بعضهم فقال : « ولم أرَ الى الآن من تعرض لذكر مشايخه وتلاميذه »[5] .وقد

---

(١) الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص ٣٠١

(٢) ينظر تأريخ وفاته في الجواهر المضية ج ٢ ص ٢٢٦ ، وتاج التراجم ص ٦٠ وشذرات الذهب ج ٥ ص ١٢٢ ، ومفتاح السعادة ج ١ ص ١٦٣ ، والفوائد البهية ص ٣٠٣ ، وبغية الوعاة ص ٤٢٥ ، وروضات الجنات ج٤ ص ٢٣٩ ، وهدية الاحباب ص ١٥٠ ، وقاموس الاعلام (باللغة التركية) ج ٤ ص ٢٥٨٦ والاشتقاق لعبدالله امين ص ٦٢ ودائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الانكليزية) ج ٤ ص ٨٠ وتاريخ الادب العربي (الطبعة الالمانية) ج ١ ص ٣٥٢

(٣) ينظر دائرة المعارف الاسلامية « الطبعة العربية » ج ٤ ص ٦٥ مادة « بلاغة »، وريحانة الادب في تراجم المعروفين بالكنية او اللقب ج ٢ ص ٢٠٧

(٤) ينظر كتاب ياد داشتهاي قزويني ج٣ ص ١٤٨ .

(٥) روضات الجنات ج ٤ ص ٢٣٨

ذكرت المصادر ثلاثة من شيوخه هم : سديد الدين بن محمد الخياطي ، ومحمود بن صاعد بن محمود الحارثي ، وبرهان الأئمة محمد بن عبدالكريم التركستاني .

ولم يذكر السكاكي من اساتذته الا الحاتمي الذي نقل عنه في بعض المواضع ، ولكنه لم يذكر اسمه وانما سماه بلقبه ، فيقول كلما نقل عنه : « قال شيخنا الحاتمي » او غير ذلك من العبارات .

وقد رجعنا الى ماتيسر لنا من المصادر فلم نستطع ان نعرف « الحاتمي » هذا معرفة تامة ، فهناك محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي مؤلف « حلية المحاضرة » و « الحالي والعاطل » ، وهذا ليس استاذه لأنه توفى سنة ٣٨٨هـ . وهناك الحاتمي ميمون بن أحمد بن الحسن ابن عدى بن حاتم النَّسَفي ، وهذا ليس أستاذه أيضا لأنه توفى سنة ٥١٣هـ[١] .

وقد عثرنا على رسالة كان رشيد الدين الوطواط قد ارسلها الى سديد الدين بن نصر الحاتمي بخصوص ماجرى بينه وبين الامام الزمخشري من المحاورات ولكنه لم يشر الى تأريخها ، وعثرنا على رسالة اخرى للوطواط أرسلها الى خطيب خوارزم يطلب منه اصلاح احوال سديد الدين[٢] . ولعل سديد الدين بن محمد الخياطي[٣] هو الحاتمي نفسه ، وكان سديد هذا رأسا في الفقه والكلام ، وذكرت المصادر انه تفقه عليه ابو يعقوب يوسف السكاكي والحسين بن محمد البارعي وهو تلميذ الزمخشري[٤] .

---

(١) تنظر ترجمة الاول في وفيات الاعيان ج ٣ ص ٤٨٦ ، وترجمة الثاني في الجواهر المضية ج ٢ ص ١٨٩

(٢) تنظر الرسالة الاولى في رسائل البلغاء ص ٣٧٨ ، والثانية في رسائل الوطواط ج ٢ ص ٨٣

(٣) ذكر صاحبا شذرات الذهب ج ٥ ص ١٢٢ ، والفوائد البهية ص ٧٨ انه سديد ابن محمد الجناطي .

(٤) ينظر الفوائد البهية ص ٧٨ والجواهر المضية ج٢ ص ٣٠٥ وهامش ص ٢٤٧ ج ١ .

ويتضح مما نقله السكاكي عنه انه كان عالما متبحرا في اللغة والصرف والنحو والبلاغة ، يقول عنه وهو يتكلم على الاشتقاق : « وههنا نوع ثالث من الاشتقاق كان يسميه شيخنا الحاتمي رحمه الله الاشتقاق الاكبر ... وانه نوع لم أر أحدا من سحرة هذا الفن ـ وقليل ما هم ـ حام حوله على وجهه الا هو . وما كان ذلك منه ـ تغمده الله برضوانه وكساه حلل غفرانه ـ الا بكونه الاول والآخر من علماء الفنون الادبية الى علوم أُخَر ، ولا ينبئك مثل خبير »[1] . ويقول عنه : « من خلف الاولين والآخرين » . و «كان شيخنا الحاتمي ذلك الامام الذي لن تسمح بمثله الادوار مادار الفلك الدوار تغمده الله برضوانه يحيلنا بحسن كثير من مستحسنات الكلام اذا راجعناه فيها على الذوق »[2] . وغير ذلك من الاقوال التي تدل على مدى استفادته منه واحترامه له .

وبذلك يتضح ان الحاتمي كان عالما قديرا ، وقد جعلت هذه الاقوال الاستاذ عبدالله العلايلي يعده رأس الطبقة الثالثة من علماء الاشتقاق بعد الخليل بن احمد الفراهيدي وأبي الفتح عثمان بن جني[3] ، مع انه لم يعثر على كتاب له ، الا ما ذكره السكاكي في مفتاح العلوم . ونرى هذا غلوا في التقدير والحكم ، لأنه استند على نتف يسيرة لا تكون رأيا له قيمته بين الآراء ، ولعل الايام تكشف لنا عن بعض مؤلفات الحاتمي او آرائه في بطون الكتب وحينذاك نستطيع ان نعرف قيمته الحقيقية ، ومدى أثره في السكاكي .

واستاذه الثاني محمود بن صاعد بن محمود الحارثي[4] . ولم نعثر على ترجمته الا ما اشار اليه مترجمو السكاكي بقولهم انه كان

(١) مفتاح العلوم ص ٧ طبعة البابي الحلبي الاولى سنة ١٩٣٧ م
(٢) ينظر مفتاح العلوم ص ١٧ ، ٤٣ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٢٤٥
(٣) ينظر مقدمة لدرس لغة العرب ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧
(٤) ذكر صاحب الفوائد البهية ص ٣٠١ انه محمود بن عبيد الله بن صاعد المروزي

« شيخ الاسلام »[1] .

والثالث محمد بن عبدالكريم التركستاني الخوارزمي ، كان يعرف ببرهان الائمة[2] .

هؤلاء شيوخه الذين ذكرتهم المصادر ، ولكن السكاكي لم يشر الا الى الحاتمي ولم يشد بأحد من شيوخه غيره .

اما تلاميذه فلم تذكر المصادر الا مختاراً بن محمود بن محمد الزاهدي ابا الرجاء الغزميني الملقب نجم الدين صاحب كتاب «القنية» ، يقول القرشي عنه : « تفقه على علاء الدين سديد بن محمد الخياطي وبرهان الائمة محمد بن عبدالكريم التركستاني وغيرهما . وقرأ الكلام على سراج الدين يوسف بن ابي بكر السكاكي الخوارزمي . مات سنة ثمان وخمسين وستمائة »[3] .

منهبه وعقيدته :

كان السكاكي حنفي المذهب بدليل ورود اسمه في كتب تراجم الحنفية ، كما اشار الى ذلك بعض الكتاب فقال أحدهم عنه : « كان حنفيا اماما كبيرا بارعا »[4] . وقال آخر : « المعتزلي الاصول ، الحنفي الفروع »[5] .

اما عقيدته فقد كان معتزليا ، يقول السبكي عند كلامه على الاسماء : « أراد ان السكاكي يرى ان الاسماء اصطلاحية لكونه

---

(1) ينظر الجواهر المضية ج ٢ ص ٢٢٥ وشذرات الذهب ج ٥ ص ١٢٢
(2) ينظر الجواهر المضية ج ٢ ص ٨٥
(3) ينظر الجواهر المضية للقرشي ج٢ ص ١٦٦ وشذرات الذهب ج٥ ص ١٢٢ ودائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الانكليزية) ج ٤ ص ٨٠
(4) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٢٢
(5) ريحانة الادب ج٢ ص ٢٠٥ ، وينظر الاعلام للزركلي ج٩ ص ٢٩٤ وهدية العارفين ج ٢ ص ٥٥٣

معتزليا »[1] • وكرر هذا القول كثيرون منهم عباس القمي في كتاب « الكنى والالقاب » ، ومحمد علي تبريزي في كتاب « ريحانة الادب »[2] •

هذا بعض ما يؤكد انه كان معتزليا ويمكن الاستئناس على صحة هذا الرأي بما ذكرناه سابقا من ان بيئة خوارزم التي نشأ فيها السكاكي كانت مرتعا خصبا للاعتزال ، وكان الكثيرون من علماء عصره يذهبون هذا المذهب كالزمخشري والمطرزي وغيرهما ، وكان استاذه سديد الدين بن محمد الخياطي تلميذا للزمخشري • فلا عجب اذا ما اصبح السكاكي معتزليا وهو وليد بيئة خوارزم ، وتلميذ رجال ذهبوا مذهب الاعتزال وعملوا من اجله •

ومما يرجح هذا الرأي ويؤيده قول السكاكي في «مفتاح العلوم »: « التوحيد والعدل مذهبنا »[3]،والتوحيد والعدل من أصول الاعتزال، وان كانا من أصول الاسلام بصورة عامة •

فالسكاكي حنفي المذهب معتزلي العقيدة او كما قال القدماء : « معتزلي الاصول حنفي الفروع »

هذه حياة السكاكي وشيوخه وتلاميذه ، فما ثقافته؟وما آثاره ؟

---

(1) عروس الافراح ـ شروح التلخيص ج ١ ص ٢٦٩
(2) ينظر الكتابين الاول ج ٢ ص ٢٨٤ والثاني ج ٢ ص ٢٠٥
(3) مفتاح العلوم ص ٩٩

٢

لم تكن ثقافة السكاكي وليدة صباه ، وانما كانت وليدة العقد الرابع من عمره ، فهو ـ كما تقدم ـ لم ينصرف الى العلم الا بعد ان بلغ الثلاثين ، وكان انكبابه على العلم ، وانصرافه للتحصيل عظيمين ، حتى استطاع بعد مدة ان يتبحر في العلوم المختلفة ، وان يحذق فيها ، ولا سيما علوم اللغة العربية .

وكانت ثقافته ثقافة أبناء عصره ، وهي دراسات قرآنية وفقهية ولغوية الى جانب دراسة المنطق وعلم الكلام اللذين كان لهما رواج في عصره . وكان السكاكي نفسه يرى أن المثقف من كان ملما بعلوم القرآن والسنة ، عارفا علم اللغة والاشتقاق والصرف والنحو والمعاني والبيان والعروض والاصول والاستدلال .

ولم يكن مقتصرا على اللغة العربية ، وانما كان عارفا اللغة التركية واللغة الفارسية ومما يدلنا على معرفته التركية ، ان البيئة التي عاش فيها كانت تركية ، وما تزال تحمل اسم « تركستان » حتى اليوم ، فلابد انه كان يعرفها ويتقنها ، يضاف الى ذلك انه ولد ومات في منطقة تركية وهذا يدلنا على انه تركي الاصل ولو ان المصادر لم تشر الى ذلك ، ولم تشر الى هجرة اجداده الى هذه المنطقة .

أما اللغة الفارسية فيدلنا على معرفته بها تأثره بكتاب « حدائق السحر في دقائق الشعر » لرشيد الدين الوطواط ، وهذا الكتاب باللغة الفارسية ولم يترجم الا قبل سنوات ، يضاف الى ذلك ان السكاكي ألف كتاب « الطلسم » بالفارسية ، وبذلك يكون مجيدا في هذه اللغة عارفا أساليبها ، والا لما استطاع أن يؤلف كتابا في لغة لا يجيدها ولا يتقنها .

والى جانب ثقافته اللغوية ، كانت ثقافته الكلامية والمنطقية

والفقهية ، وتبدو هذه الثقافة واضحة جلية في منهجه ومادة كتابه مفتاح العلوم . وقد ذكر القدماء انه كان ملما بهذه الثقافة ، يقول معاصره ياقوت الحموي انه : « فقيه متكلم ستفنن في علوم شتى ، وهو احد افاضل العصر الذين سارت بذكرهم الركبان »[1] .

وكان الطلاب يقصدونه ليدرسوا عليه علم الكلام ، فمختار ابن محمد الزاهدي قرأ عليه علم الكلام كما تذكر المصادر ، وكان ملما بالفلسفة اليونانية ايضا ، لانه ــ كما قلنا ــ كان معتزليا ، والمعتزلة قوم اشتهروا باطلاعهم الواسع على علم الكلام وفلسفة اليونان . وقد اشار « كرنكو » الى تأثره بفلسفة اليونان ، ولكنه لم يذكر الجوانب التي ظهرت واضحة في مؤلفات السكاكي والتي كان للفلسفة اليونانية فيها تأثير كبير[2] .

اما ثقافته السحرية فقد كان فيها علما ، وما القصة التي سبقت الا دليل على اشتغاله بالسحر وانصرافه اليه . وكان معاصروه يعترفون له بهذه المهارة ، وان كان كثيرون منهم لا يعتقدون بالسحر ولا يقيمون له وزنا ، يقول النسوي عنه : « وهو من افاضل خوارزم صاحب فنون بارعة ، وقدم لاعلام الكلام قارعة . وكانوا يعتقدون المذكور سحر بعض الكواكب فردها عن مسراها ، ويسد المياه بنفثاته في مجراها ، لما كان عندهم من كمال فضله . وله في سائر الفنون تصانيف يراها آيات البراعة ومعجزات الصناعة »[3] .

وأورد قصة الخوارزمي الذي بعثه السكاكي الى جلال الدين منكبرتي لاخراج التمثال المسحور الذي صنعه لعلاء الدين محمد خوارزمشاه . وعلق عليها بقوله : « ولا أدري من ايهم اتعجب ، من اعتقاد ذلك الفاضل ، أو من اغترار هؤلاء بما ينفث عليهم . فهل أمنت

(١) معجم الادباء ج ٢٠ ص ٥٩ .
(٢) تنظر دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الانكليزية) ج٤ ص ٨٠ .
(٣) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٢٥٤ .

دولة من زوال ، أو دامت الدنيا على حال »[1] .

وكان اشتغاله بالصناعة والطلسمات والسحر قبل انصرافه الى العلم وابداعه في البلاغة ، يقول صاحب روضات الجنات : « واشتهر بعمل الاعاجيب من الصور والغرائب من المقاليد والاقفال قبل تشرفه بفضيلة الاشتغال »[2] .

هذه بعض جوانب ثقافته ويبدو منها أن السكاكي كان مهتما بعلوم اللغة العربية وبالعلوم العقلية اكثر من اهتمامه بالادب وفنونه ، ومن هنا جاء كتابه « مفتاح العلوم » جاف الاسلوب ، تغلب عليه نزعة العلماء لا روح الادباء ، وبذلك نفر الكثيرون منه ، وضاق الدارسون به ذرعا . وان اهتمامه البالغ بهذه الثقافة ، واهماله التبحر في فنون الأدب وتذوق روائع الشعر وجيد الكلام لمن الاسباب التي دفعته الى التأليف في علوم اللغة ، وعلم الاستدلال ، وعلم السحر . ولم يشر احد من القدماء او من المحدثين الى اتجاه آخر له في التأليف غير اتجاه « مفتاح العلوم » ، ولم يذكر احد له قطعة نثرية أو قصيدة فيها روعة وفيها جمال . وقد عثرنا على اربعة ابيات في « مفتاح العلوم » من نظمه وهي أبيات متكلفة لا روح فيها ولا جمال ، ولا تدل على انه يحسن الشعر او يستطيع نظمه حتى كصغار الشعراء . والابيات هي :

حتام تنكر قدري ايها الزمن	بغيا وتوغر صدري ايها الزمن
اما يهمك شيء غير غدرك بي	ماذا استفدت بغدري ايها الزمن
قل لي الى كم ارى الاحداث ترشقني	قد عيل صبري اتدري ايها الزمن
أرى بدورا لاقوام طلعن لهم	ألا طلوع لبدري أيها الزمن[3]

واغلب الظن انه نظم هذه الابيات لتكون له شاهدا في فصل القافية ، والا فأي روعة فيها ، واي أثر يهز النفس ؟

---

(1) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٢٥٤ .
(2) روضات الجنات ج ٤ ص ٢٣٨ .
(3) مفتاح العلوم ص ٢٧٢ .

مؤلفـــاته :

اما مؤلفاته فلم يطبع منها الا كتاب « مفتاح العلوم » ، ولا ندري هل لبقية مؤلفاته وجود في زوايا المكتبات الخاصة والعامة ، أو انهـــا ذهبت مع ما ذهب من تراثنا يوم اجتاحت البلاد عاصفة هوجاء .

ويذكر السكاكي ان له كتاب « شرح الجمل » ، وهـــو شرح لكتاب الجمل للامام عبد القاهر الجرجاني ، وهذا الكتاب الوحيـد الذي ذكره المؤلف أما الآخر فلم يذكرها ولم يشر اليها[1] . ولـكن المؤرخين يذكرون له كتبا غير هذين الكتابين هي :

كتاب « التبيان » ، وقد ذكره ابن خلدون وهو يتحدث عـن « مفتاح العلوم »،يقول : « ولخصوا منه امهات هي المتداولة لهذا العهد كما فعله السكاكي في كتاب التبيان »[2] .

ورسالة في علم المناظرة ذكرها جرجي زيدان وقال ان منها نسخة في « منشن » ، وذكرها الزركلي في الاعلام[3] .

وكتاب « الطلسم » وهو باللغة الفارسية ذكره صاحب روضات الجنات ، ومؤلف هدية العارفين والحاج خليفة[4] .

هذه كتب السكاكي التي ذكرتها المصادر وليس يهمنا من امرها الا كتاب « مفتاح العلوم » لانه اهمها ، ولانه الكتاب الوحيدالمطبوع. وقبل ان نعرض للكتاب بالدرس في هذا التمهيد ، وفي البابين القادمين نذكر بعض مخطوطاته ومطبوعاته .

---

(١) ينظر مفتاح العلوم ص ٤٢ ، ٧٢

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢ ، وينظر علوم البلاغة للمراغي ص ١٠

(٣) ينظر تاريخ اداب اللغة العربية ج ٣ ص ٤٩ ، والاعلام ج ٩ ص ٢٩٤ .

(٤) ينظر روضات الجنات ج٤ ص ٢٣٩ ، وهدية العارفين ج٢ ص ٥٥٣ ، وكشف الظنون ج ٢ ص ١١١٥ .

مفتـــاح العــلوم

مخطوطاته :

حظي مفتاح العلوم بعناية كبيرة منذ أن انتشر في المشرق والمغرب في القرن السابع الهجري ، فنسخ كثيرا وشرح وطبع عدة مرات . ولا نستطيع ان نذكر معظم مخطوطاته فهي منتشرة في المكتبات العامة والخاصة في اقطار المعمورة ، وفي الاقاليم الاسلامية . ونكتفي هنا بذكر ما وقفنا عليه ، وأشارت اليه بعض فهارس المكتبات . فمن مخطوطاته :

١ ــ توجد نسخة من مفتاح العلوم في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، مكتوبة سنة (٧٠٥ هـ) بخط حسن ، عدد اوراقها ٢١٢ ورقة ، وعدد اسطر كل صفحة ٢١ سطرا ، وهي مصورة رقمها ٣٠٤٩ .

٢ ــ في دار الكتب بالقاهرة نسخة برقم (١ ش بلاغة) ، مكتوبة بخط نصرالله بن محمد الخوارزمي . فرغ من كتابتها ليلة عيد الفطر سنة ٧٣٤ هـ .

٣ ــ وفي الدار نفسها نسخة مكتوبة بخط محمد بن محمد بن صالح ابن مصطفى نورالدين . فرغ من كتابتها في يوم الاحد السابع عشر من شهر رجب سنة ٨٢٥ هـ بالجامع الازهر الشريف . بها خرم ، رقمها (٦٥) .

٤ ــ وفي الدار نفسها نسخة مكتوبة بخط محمود بن حامد ابي جمال الحاجي . فرغ من كتابتها في شهر شوال سنة ٨٣٠ هـ بها

خرم ، رقمها (٦٦) .

٥ ـ وفيها القسم الثالث من مفتاح العلوم بخط عبدالله بن علي بن موسى بن الطالب العفيف . فرغ من كتابتها في نصف شهر رمضان سنة ٨٧٩ هـ . بهامشه وبين سطوره تقييدات كثيرة . رقمها (٤٠ م) .

٦ ـ وفيها ضمن مجموعة القسم الثالث منه بخط محمد بن ابراهيم . فرغ من كتابتها يوم الاحد الثالث من شهر ربيع الثاني سنة ٩٢٥ هـ . رقمها (٢ ش) .

٧ ـ وفيها القسم الثالث مكتوب بقلم تعليق بخط أحمد بن محمد . بهامشه بعض تقييدات . رقمها (٤١ م) .

٨ ـ وفيها نسخة مكتوبة بخط محمد امين ، فرغ من كتابتها يوم السبت الثاني عشر من شهر شوال سنة ١٣١٥ هـ رقمها (٦٧٦).

٩ ـ وفي مكتبة الازهر الشريف القسم الثالث من مفتاح العلوم بقلم مغربي بخط يحيى بن محمد بن القاضي الزواوي سنة ١٢٨٢ هـ. مسطرتها ٢٥ سطرا ، ورقمها (٨٦٧) .

١٠ ـ وفيها نسخة اخرى منسوخة سنة ١٢٩٢ هـ ، مجدولة بالمداد الأحمر في ٣٤٣ ورقة ومسطرتها ٢١ سطرا ـ ٢٣ سم . رقمها (٢٦٨) .

١١ ـ وفيها القسم الثالث منه مكتوب بقلم معتاد وبهامشها حواش ، وبها آثار رطوبة في ٢٣٣ ورقة ، ومسطرتها ١٣ سطرا ـ ١٨ سم. ورقمها (١٣٦) .

١٢ ـ وفي مكتبة الاوقاف العامة ببغداد القسم الثالث من الكتاب ، كتبه علي بن محمد وقد انتهى منه يوم الثلاثاء السادس عشر من ربيع الآخر سنة ١٠٠٩ هـ ، واوقف في سنة ١٢٤٦ هـ على المدرسة الداودية ببغداد . رقمها (١٦٦٤) .

١٣ ـ وفي الفاتيكان مخطوطة حسنة كتب في صدرها « القسم الثالث من مفتاح العلوم » املاء الامام ابي يعقوب يوسف السكاكي. وهي غير مؤرخة . رقمها (١١٦١ عربي)[1] .

وهناك مخطوطات كثيرة في الاتحاد السوفيتي وايران وتركيا واوربة وشمال أفريقية .

وهذه الكثرة من مخطوطات مفتاح العلوم تدلنا على اهتمام الناس به وانصرافهم الى قراءته وتدريسه ، واعتمادهم عليه في علوم اللغة العربية في مناطق ايران وتركية وغيرهما من الاقطار الاسلامية .

طبعاته :

طبع مفتاح العلوم في العصر الحديث عدة طبعات في ايران وتركيا ومصر وشمال افريقية وقد استطعنا الوقوف على بعض هذه الطبعات وهي :

١ ـ طبعة الاستانة ، وهي طبعة حجرية .

٢ ـ طبعة المطبعة الادبية بمصر في سنة ١٣١٧ هـ وبهامشها كتاب « اتمام الدراية لقراء النقاية » للشيخ جلال الدين السيوطي وكتاب « النقاية » له .

٣ ـ طبعة المطبعة الميمنية بمصر في سنة ١٣١٨ هـ ، وبهامشها كتاب « اتمام الدراية لقراء النقاية » للسيوطي .

٤ ـ طبعة مطبعة التقدم العلمية بمصر في سنة ١٣٤٨هـ ، وبهامشها كتاب « اتمام الدراية لقراء النقاية » .

٥ ـ طبعة مطبعة البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٥٦ هـ(١٩٣٧ م) ، وليس في هامشها كتاب . وقد اعتمدنا عليها في بحثنا .

وهذه الطبعات لا يختلف بعضها عن الآخر أي اختلاف ، فكأنها

---

(١) ينظر الاعلام ج ٩ هامش ص ٢٩٤ .

من مخطوطة واحدة ، وليست محققة تحقيقا علميا ، فالاسطر فيها متداخلة ، والشواهد الشعرية والنثرية غير مفصولة عن كلام السكاكي • ولعل الاخيرة — التي اعتمدنا عليها — أقربها الى الكمال لما فيها من ترتيب وكتابة الشعر بصورة واضحة بحيث يتميز عن بقية الكلام •

وما دمنا قد ذكرنا بعض مخطوطاته وطبعاته فلننظر فيه نظرة سريعة لنرى ما فيه من مباحث وما فيه من موضوعات •

متى ألّفه ؟

مفتاح العلوم أهم كتبه ، جمع فيه الصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع والقوافي والاوزان الى جانب علم الاستدلال ، وقد ألفه استجابة لرغبة جماعة من اهل زمانه • يقول : « ولما كان حال نوعنا هذا ما سمعت ، ورأيت اذكياء أهل زماني الفاضلين الكاملي الفضل قد طال الحاحهم علي في ان اصنف لهم مختصرا يحظيهم بأوفر حظ منه ، وان يكون اسلوبه اقرب اسلوب من فهم كل ذكي صنفت هذا وضمنت لمن اتقنه ان ينفتح عليه جميع المطالب العلمية ، وسميته مفتاح العلوم»[1] •

ولا نعرف متى الف السكاكي كتابه هذا ، فليس فيه اشارة الى سنة تأليفه او الانتهاء منه ، ولكننا نرجح انه ألفه بعد سنة ٥٩٦ هـ لانه — كما ذكرنا — بدأ دراسته سنة ٥٨٤ هـ أو ٥٨٥ هـ ، وقضى عشر سنوات أُخَر دون ان يتعلم شيئاً فيه أهمية عظيمة • ولو كانت وفاة شيخه الحاتمي معروفة لاستطعنا ان نعرف على وجه التقريب زمن تأليف الكتاب ، لان السكاكي عندما يذكر استاذه يقول : « تغمده الله برحمته » أو « رضوان الله عليه » أو « رحمه الله » ، وغير ذلك من العبارات التي تدل على انه الف الكتاب بعد وفاة شيخه الحاتمي •

وعلى هذا لا نستطيع ان نجزم بأنه ألف الكتاب سنة كذا ، ولكننا

(١) مفتاح العلوم ص ٣

نستطيع ان نقول انه ألفه بين سنة ٥٩٦ وسنة ٦١٧ هـ في خلافة الناصر لدين الله ، فقد ذكر الناصر وقال عنه : « الناصر لدين الله خليفتنا ، والدعاء له والثناء عليه وظيفتنا »[(١)] . ومن المعروف ان الناصر لدين الله تولى الخلافة سنة ٥٧٥هـ وتوفى سنة ٦٢٢هـ[(٢)] ، فلابد أن يكون السكاكي قد ألف كتابه قبل وفاة الناصر لدين الله لانه ذكر ان الدعاء له ، والثناء عليه واجب ، وهذا لا يكون الا اذا كان الخليفة حيا يرزق. ويمكن القول ان السكاكي الف الكتاب في سنة ٦١٧ هـ أو قبل هذا التاريخ ، لان الحموي ذكره في معجم الادباء ، وكان ياقوت الحموي قد زار خوارزم في هذا التاريخ اي في سنة ٦١٧ هـ .

وعلى كل حال فنستطيع بعد هذا انرجح ان مفتاح العلوم الف في سنة ٦١٧هـ أو قبل هذا التاريخ بسنوات قليلة ، وان السكاكي لم ينصرف الى التأليف بعد هذا التاريخ لان البلاد كانت في فوضى واضطراب ، وكان القتل والنهب وتدمير العمران يجتاح اقليم خوارزم ، يضاف الى ذلك ان السكاكي انصرف الى السحر لخداع الفاتحين التتر ، وقد نال منزلة عظيمة من أجل ذلك عند السلطان جغتاي خان بن جنكيز خان ، ولكن هذا لم يدم فقد غضب عليه السلطان والقاه في السجن الى ان مات .

موضوعاته ومنهجه :

بحث السكاكي في كتابه مفتاح العلوم : الصرف والنحو والمعاني والبيان والاستدلال والعروض والقوافي . وسبب ترتيب الكتاب هذا الترتيب يتضح من كلامه فهو يقول : « وان مثارات الخطأ اذا تصفحتها ثلاثة : المفرد والتأليف وكون المركب مطابقا لما يجب ان يتكلم له .وهذه الأنواع بعد علم اللغة هي المرجوع اليها في كفاية ذلك ما لم يتخط الى

(١) مفتاح العلوم ص ٩٩ .
(٢) ينظر الكامل لابن الاثير ج١١ ص ١٨٧ ، ج١٢ ص ١٨٠ .

النظم ؛ فعلما الصرف والنحو يرجع اليهما في المفرد والتأليف ، ويرجع الى علمي المعاني والبيان في الاخير . ولما كان علم الصرف هو المرجوع اليه في المفرد او فيما هو في حكم المفرد ، والنحو بالعكس من ذلك ، وانت تعلم ان المفرد متقدم على ان يؤلف ، وطبقات المؤلف للمعنى متأخر عن نفس التأليف : لا جرم قدمنا البعض على البعض على هذا الوجه وضعا لنؤثر ترتبا استحقه طبعا»[1] .

ولعل النص الآتي يوضح منهجه اكثر من النص المتقدم ، يقول : « قد ضمنت كتابي هذا من انواع الادب دون نوع اللغة ما رأيته لا بد منه وهي عدة انواع متآخذة ، فاودعته : علم الصرف بتمامه ،وانه لا يتم الا بعلم الاشتقاق المتنوع الى انواعه الثلاثة وقد كشفت عنها القناع ، واوردت علم النحو بتمامه ، وتمامه بعلمي المعاني والبيان ... ولما كان تمام علم المعاني بعلمي الحد والاستدلال لم ار بدا من التسمح بهما ، وحين كان التدرب في علمي المعاني والبيان موقوفا على ممارسة باب النظم ، وباب النثر ، ورأيت صاحب النظم يفتقر الى علمي العروض والقوافي ثنيت عنان القلم الى ايرادهما »[2] .

ومنهج السكاكي في بحث علوم اللغة العربية وترتيبها منهج فيه كثير من الصواب والدقة ويكاد يكون كمنهج المحدثين في دراسة علوم اللغة ، فهم يبدأون بدراسة الاصوات اللغوية ويتناولون بحث مخارج هذه الاصوات وصفاتها وتمازج بعضها مع بعض ، وبعدها يدرسون الصرف أي ابنية الالفاظ وما يحدث فيها من قلب وابدال واعلال ثم يدرسون النحو فالبلاغة فالعروض فالقوافي .

أما عمله في الكتاب فقد أوضحه بقوله : « وما ضمنت جميع ذلك كتابي هذا الا بعدما ميزت البعض عن البعض التمييز المناسب ولخصت

---

(1) مفتاح العلوم ص ٤ .
(2) مفتاح العلوم ص ٣ .

الكلام على حسب مقتضى المقام هنالك ، ومهدت لكل من ذلك اصولا لائقة ، وأوردت حججا مناسبة ، وقررت ما صادفت من آراء السلف ـ قدس الله ارواحهم ـ بقدرما احتملت من التقرير مع الارشاد الى ضروب مباحث قلت عناية السلف بها ، وايراد لطائف مفتنة ما فتق احد بها رتق اذن »[1] .

ولقد بدأ السكاكي كتابه مفتاح العلوم بالكلام على علوم الأدب وذكر منها دون علم اللغة ما رأى لأبد منه وهي عدة انواع متآخذة ولذلك، قسم الكتاب الى ثلاثة اقسام ، تحدث في القسم الاول عن الصرف وبدأه بالكلام على الاصوات اللغوية ومخارج الحروف ورسم تخطيطاً يصور مخارج الحروف ، وتكلم على الاشتقاق وقسمه الى ثلاثة أقسام هي:الاشتقاق الصغير والاشتقاق الكبير والاشتقاق الاكبر . والاخير من تسمية شيخه الحاتمي وبذلك حفظ لنا رأي شيخه الذي لم يعثر الدارسون والباحثون على كتاب يذكر آراءه . ثم تحدث عن الصرف، وموضوعاته ومباحثه المختلفة كالمجرد والمزيد والمصادر وتصريف الافعال مع الضمائر وغيرها .

والقسم الثاني من الكتاب في النحو وفيه فصلان : الاول في تحديد علم النحو ومعناه ، والثاني في ضبط ما يفتقر اليه ، أي في ضبط موضوعاته ومباحثه . وفي هذا القسم تكلم على موضوعات النحو المختلفة وناقش بعض الآراء ورجح بعضها على البعض الآخر ، وكان بحثه فيها موجزا ، لان الغرض من الكتاب ليس تقديم مادة وافية ،وانما وضع مفتاح للعلوم بيد دارسيها ليستطيعوا بعد ذلك ان يتعمقوا في دراساتهم بعد ان يفهموا ما في هذا الكتاب ويتقنوه .

والسكاكي في هذا القسم بصري المذهب ، وتبدو روح المدرسة البصرية واضحة في منهجه وموضوعات بحثه ، ونراه كثيرا ما يعتز

---

(١) مفتاح العلوم ص ٣ .

بالبصريين فيقول مثلا : « عند اصحابنا البصريين » أو « عند اصحابنا رحمهم الله خلافا للكوفيين رحمهم الله » وغير ذلك من العبارات التي تشعر باعتزازه بالبصريين ومدرستهم النحوية .

ويبدو تأثره بسيبويه كثيرا وينقل منه ويعتمد على كتابه الشهير ويؤيد آراءه ، وكثيرا ما يشير الى انه لن يتعرض في بحث مسائل الصرف والنحو لغير مذهب سيبويه .

ولكنه مع هذا التقدير للمنهج البصري وأعلام المدرسة البصرية البارزين ، لم ينصرف عن تقدير جهود الكوفيين والاخذ بآرائهم في بعض المسائل . وغالبا ما يقول عندما يرجح رأيا كوفيا مثل هذه العبارة : « يرجح عندي مذهب الكوفيين فليتأمل المنصف » . ومن هنا يتضح ان السكاكي لم يكن مقلدا او متعصبا لجماعة دون اخرى ، وانما كان يحكم عقله ، فما قبله العقل وأيدته الحجة أخذه ، وما لم يقبله العقل ولم تؤيده الحجة تركه اوفنده ورجح غيره عليه .

أما القسم الثالث من الكتاب ففي علمي المعاني والبيان وقد قسمه الى مقدمة عرف فيها العلمين ، والى فصلين ، تكلم في الفصل الاول على المعاني وموضوعاته وفي الثاني على البيان ومباحثه . وألحق هذين الفصلين ببحث موجز عن المحسنات المعنوية واللفظية . وبعد ان انتهى من بحث المعاني والبيان والمحسنات تحدث عن تتبع خواص تراكيب الكلام في الاستدلال وهو علم المنطق ، وبذلك ربط البلاغة بهذا العلم وقرر ان تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي ومعرفة خواصها مما يلزم صاحب علمي المعاني والبيان .

ثم تكلم على تتمة الغرض من علمي المعاني والبيان ، وعقد فنين الاول تكلم فيه على معنى الشعر والمراد منه ، وعلى الاوزان وبحور الشعر ، وعلى القافية وما يتصل بها . وقد اثر هذا البحث فيمن جاء بعده فنقلوا عنه كلامه على الاوزان والقوافي ، واخذوا عنه الامثلة

وتقطيعها • ولعل كتاب « ميزان الذهب » للاستاذ احمد الهاشمي أحد الكتب الحديثة التي اعتمدت على بحث السكاكي ، فقد نقل عنه كثيرا كالأمثلة وتقطيعها والتعريفات ، ولم يزد عليه الا بعض الامثلة والتمرينات التي لم يذكرها السكاكي •

والفن الثاني من تتمة الغرض من علمي المعاني والبيان هو «ارشاد الضلال بدفع ما يطعنون به في كلام رب العزة» وقد جعله خاتمة «مفتاح العلوم» وتكلم فيه على المطاعن التي وجهها الكفرة والملحدون الى القرآن الكريم ، ورد عليهم وفندها واحدة واحدة • وبهذا الفن ختم كتابه قائلا : « واذ قد وفق الله جلت اياديه حتى انتهى الكلام الى هذا الحد فلنؤثر ختم الكلام حامدين الله ومصلين على الاخيار » •

هذه مباحث « مفتاح العلوم » عرضنا لها باختصار ، لأنها لا تتعلق ببحثنا كثيرا الا القسم الثالث من الكتاب الذي سيكون مدار بحثنا هذا ، وسنتكلم عليه في الفصول القادمة •

أسلوبه :

واسلوب السكاكي في كتابه اسلوب العالم لا اسلوب الاديب ، فقد طغى على « مفتاح العلوم » ذوق العالم الذي تهمه الصحة أكثر مما يهمه الرونق والجمال وروعة الاسلوب •

وكان لهذا أثره فيمن حذا حذوه من المتأخرين ، فقد امعنوا في طريقته امعانا كبيرا أفقد كتبهم الروح الادبية ، وبذلك اصبحت كتبهم ميدانا للجدل المنطقي الذي لايجدي كثيرا في تهذيب الذوق وتربية الملكة الادبية •

ومع أن السكاكي ذكر أنه ألف « مفتاح العلوم » ليكون اسلوبه اقرب اسلوب من فهم كل ذكي ، فان الكتاب معقد متداخل الجمل في بعض الفقرات والعبارات ، يحتاج الى كد الذهن واعادة قراءته اكثر

من مرة • ولا نلوم السكاكي على هذا ، فقد نشأ في بيئة ليست عربية ، وكان أعجميا ، وليس من السهل أن يجيد الأعجمي الكتابة الفنية وان اجاد علوم اللغة من صرف ونحو وبلاغة ، ولهذا شمر القزويني ليخلص « مفتاح العلوم » مما فيه من حشو وتعقيد ، ويخرجه للناس سهلا ميسرا •

مصادره :

ومصادر «مفتاح العلوم» كثيرة كما يبدو من كثرة العلماء والمؤلفين الذين ذكرهم السكاكي ، فلقد ترددت اسماء اعلام كثيرين منهم : الخليل ابن احمد الفراهيدي ، وسيبويه ، ويونس بن حبيب ، والمبرد ، والاخفش ، والفراء ، والاصمعي ، والزجاج ، وابن جني ، والسيرافي ، وعلي بن عيسى الربعي ، والفارسي ، والمازني ، وابن قتيبة ، وابن الانباري ، وعبدالقاهر الجرجاني ، والزمخشري ، والحاتمي وغيرهم ممن نقل عنهم ولم يشر اليهم كرشيد الدين الوطواط والمطرزي والرازي •

وقد أكثر النقل من كتاب سيبويه وكتابي «اسرار البلاغة» و«دلائل الاعجاز» للشيخ عبد القاهر الجرجاني ، و «تفسير الكشاف » للزمخشري ، و « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز» لفخر الدين الرازي ، وان لم يشر الى ذلك في كثير من الاحيان •

ويدلنا تردد هذه الأسماء في «مفتاح العلوم »على أن السكاكي كان واسع الاطلاع ، وانه استطاع ان يهضم ثقافة القرون المتقدمة ، وان يقدمها مهذبة مرتبة في كتابه « مفتاح العلوم » ولهذا نراه يزهو بكتابه قائلا : « وسيطلع من كتابنا هذا من خدمه حق خدمته على ثمرات محتجبة في اكمام »[1] •

---

(١) مفتاح العلوم ص ٩١

الثنـاء عليـه :

وقد اثنى المتقدمون والمتأخرون علـى الكتاب فقـال الخطيب القزويني عن القسم الثالث منه الخاص بالبلاغة انه : « اعظم ما صُنِّفَ فيه من الكتب المشهورة نفعا لكونه احسنها ترتيبا ، واتمهـا تحريرا ، وأكثرها للاصول جمعا »[1] .

وقال قطب الدين الشيرازي شـارح الكتاب : « تتبعت الكتب المصنفة فيهما ـ المعاني والبيان ـ ، وقد الف الناس فيهما كتبا وجلبوا حطبا ، وما من تأليف الا وقد تصفحت سينه وشينه ، وعلمت غثه من سمينه ؛ فلم اجد ماينتفع به في ذلك[2] حق الانتفاع الا كتاب المفتـاح للامام البارع سراج الملة أبي يعقوب يوسف بن ابي بكر علي السكاكي الخوارزمي ، برد الله مضجعه ، ونور مهجعه[3] .

وقال فيه بعض الشعراء :

سراج المعالي يوسف بن محمد ... بمفتاحه قـد حل كـل معقـد
وأعجزنا الايجاز في سـحر لفظه ... وكاد به يسبي النهى وكأن قـد
فلم يـر في كتب الاوائل مثلـه ... وان لـم تصدقني به فتفقد[4]

وقال آخر :

يامن يريد مـن العلو مرامـه ... فافهم بجدك نسـخة المفتـاح
ليس الوصول الى المرام مقفّلا ... الا باقبـال علـى المفتـاح
فاصرف عنانك عن مطالب غـيره ... واسـأل له فتحا من المفتـاح
واختر لنفسك من مباحث علمه ... روح القلوب وراحـة الارواح

---

(١) التلخيص ص ٢٣
(٢) هذه عبارة ضياءالدين بن الاثير في المثل السائر ج١ ص ٣ .
(٣) شرح المفتاح للشيرازي ص ٤ (مخطوط الاوقاف ببغداد) .
(٤) ينظر شرح المفتاح للشيرازي ص ٤ ، وريحانة الادب في تراجم المعروفين بالكنية أو اللقب ج٢ ص ٢٠٦ ، وهامش ص ١٧٦٢ ج٢ من كشف الظنون .

واشرب زلال الفضل من كاساته ودع المدام وقهوة الاقداح
بسراج دين الحق نور قبره غلب الضياء مشاعل المصباح
مصباح ضوء العلم اضحى موضحا قد صنف المفتاح للايضاح [1]

ولكن هذا الاعجاب بمفتاح العلوم يقل اذا ما نظر الباحث او الدارس فيه نظرة تدقيق ونقد .

وما دمنا قد تكلمنا على السكاكي وبيئته فلننتقل الى البحث في منهجه وبلاغته وأثره في البلاغة والبلاغيين .

(١) ينظر كشف الظنون ج٢ هامش ص ١٧٦٢ .

الباب الأول

منهجه البلاغي

الفصل الأول

البلاغة قبل السكاكي

البلاغة علم من علوم اللغة ، بها وبالنقد يقاس الادب ويبين حسنه من رديئه ، وجميله من قبيحه ، أو هي ـ كما قال الاستاذ أمين الخولي ـ روح الادب ، والادب مادتها تعلم صنعه وتبصر بنقده [1] . والبلاغة عندنا من علوم اللغة العربية والاسلامية ، وقد خدمت العربية خدمة عظيمة وعملت على ابراز مافي القرآن الكريم من وجوه الجمال وبينت سر الاعجاز ، وذلك بالبحث في اسلوبه وطريقة ادائه المعاني المختلفة ومقارنته باساليب العرب الشعرية والنثرية .

وليست البلاغة مقصورة على العرب ولا على امة دون امة ، وانما هي في معظم اللغات التي بلغت درجة كبيرة في التطور والارتقاء . وقد عبر العرب عن هذا منذ عصورهم الاولى فقالوا : « إن البلاغة ليست مقصورة على امة دون امة ، ولا على ملك دون سوقة ، ولا على لسان دون لسان ، بل هي مقسومة على اكثر الالسنة . فهم فيها مشتركون ، وهي موجودة في كلام اليونانية وكلام العجم وكلام الهند وغيرهم» [2] ويؤكد هذا ماذكره الجاحظ من اقوال مختلفة في البلاغة ، فهي عند

(١) البلاغة وعلم النفس للخولي ص ١٤٥ ، وكتاب مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب ص ١٨٠

(٢) رسالة التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم ص ٢١٣

الفارسي : معرفة الفصل من الوصل ، وعند اليوناني : تصحيح الاقسام واختيار الكلام ، وعند الرومي : حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة ، وعند الهندي وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة »[1] .

وقد اهتمت الامم بتدوين قواعد البلاغة وأصولها لتكون عونا للدارسين والناقدين،ولعل اليونانيين كانوا أول من عُنِيَ بتدوين البلاغة والبحث في مسائلها . فارسطو قد بحث كثيرا من موضوعاتها كالمجاز والاستعارة والتشبيه والخبر والامر والدعاء وغيرها في كتابيه «الشعر» و «الخطابة» .

ولم يكن العرب أقل من غيرهم منزلة ورفعة بعد ظهور الاسلام ، فدونوا علومهم اللغوية وتراثهم الادبي ، وكانت البلاغة من أوائل العلوم التي اهتم العرب والمسلمون بها ، لحاجتهم اليها في معرفة روعة القرآن وسحره ، وتمييز الكلام الحسن من الرديء ، والجميل من القبيح ، الى جانب رغبة الاجانب في تعلم اللغة العربية وتفهم أساليبها وتذوقها ، بعد ان اصبحت اللغة الرسمية للاقطار المفتوحة بعد ان انتشر الاسلام وساد معظم بقاع العالم المعمور يومذاك .

وقد أشار القدماء الى أهمية البلاغة وما ترمي اليه ، فهذا أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) يوضح اهميتها واهدافها بقوله : « إن احق العلوم بالتعلم واولاها بالتحفظ ـ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه ـ علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف اعجاز كتاب الله تعالى . وقد علمنا ان الانسان اذا اغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ماخصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب . فينبغي من هذه الجهة ان يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله تعالى ومعرفة عدله والتصديق بوعده ووعيده ...

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٨٨

ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ومناقب معروفة ، منها أنّ صاحب العربية اذا أخل بطلبه وَفرَّطَ في التماسه ففاتته فضيلته وعلقت به رذيلة فوته عفى على جميع محاسنه ، وعمى سائر فضائله لانه اذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء ولفظ حسن وآخر قبيح ، وشعر نادر وآخر بارد ، بان جهله وظهر نقصه .

وهو ايضا اذا اراد ان يضع قصيدة او ينشىء رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصفو بالكدر ، وخلط الغرر بالعرر ، واستعمل الوحشى العكر ، فجعل نفسه مهزأة للجاهل ، وعبرة للعاقل ....

واذا أراد أيضا تصنيف كلام منثور أو تأليف شعر منظوم ، وتخطى هذا العلم ساء اختياره له وقبحت آثاره فيه،فأخذ الرديء المرذول وترك الجيد المقبول فدل على قصور فهمه وتأخر معرفته وعلمه » [1] .

فغاية ما ترمي دراسة البلاغة اليه عند معظم البلاغيين هي معرفة اعجاز القرآن الكريم وبيان سر اعجازه ، وهذا غرض ديني بحت ، الهدف منه خدمة القرآن وتثبيت العقيدة الاسلامية في اذهان الناس ، الى جانب هدفين آخرين هما : هدف نقدي ، وهو معرفة الكلام الجيد من الرديء ، وغرض تعليمي : وهو الاستعانة بالبلاغة في انشاء الادب : شعره ونثره . وهذه الغايات الثلاث لاتكاد تخلو منها مقدمة من مقدمات كتب البلاغة العربية ، ولا سيما الكتب التي تبحث في اعجاز القرآن .

ولا يقتصر نفع البلاغة على فريق دون فريق ، فالاديب والمؤرخ والمتكلم ودارس القرآن محتاجون اليها ، لانها تنير سبيلهم وتعينهم على ان تكون آثارهم مفيدة ومؤثرة ممتعة .

والبلاغة مع النقد يكونان السبيل السوي الى فهم الاساليب

---

(١) كتاب الصناعتين لابي هلال العسكري ص ١ ـ ٣

المختلفة ، والاجادة في فني المنظوم والمنثور ، لأن البلاغة لا تختلف عن النقد الا من حيث المعالجة وطريقة العرض ، اما موضوعهما فواحد وهو الادب أو الكلام الادبي[١] .

وقد نشأت البلاغة والنقد عند العرب جنبا الى جنب ، وكانت نشأة البلاغة بسيطة ساذجة . وتتمثل بذور البحث النقدي في الاحكام التي كان الشعراء وغيرهم يصدرونها ، وليست قصة امرئ القيس وعلقمة الفحل ، وقصة النابغة الذبياني الذي كانت تضرب له قبة في سوق عكاظ ، وقصة الخنساء وحسان بن ثابت ، واسواق العرب التي كان الناس يجتمعون فيها فيلقي الشعراء شعرهم والخطباء خطبهم وينقد بعضهم بعضا ، ـ ليست هذه ـ الا بداية حسنة للنقد والبلاغة ، وبذوراً أثمرت اصولاً وقواعد بعد قرن أو قرنين .

وقد أثّر القرآن الكريم تأثيرا عظيما في تطور البلاغة[٢] ، وكان محفزا هاما للاتجاه نحو تدوين اصولها وقواعدها ، ولكن هذا الاثر لم يكن كبيرا واضحا في صدر الاسلام لانشغال العرب في تثبيت دعائم ملكهم ونشر الاسلام خارج جزيرة العرب ، لذلك بقي النقد في العصر الاسلامي الاول ساذجا يعتمد على الذوق اكثر من اعتماده على التعليل، شأنه في ذلك شأن النقد في العصر الجاهلي . ولم تكن أحكامهم النقدية ومقاييسهم البلاغية تخرج عن قولهم : « اشعر الناس امرؤ القيس اذا ركب ، وزهير اذا رغب ، والنابغة اذا رهب ، والاعشى اذا طرب » . أو أشعر بيت في الغزل قول جرير :

إن العيون التي في طرفها حَوَرٌ قتلننا ثم لم يُحْيين قتلانا

---

(١) لقد فرق الاستاذ ونشستر بين البلاغة والنقد ، والاستاذ احمد الشايب في كتابيه (الاسلوب) ص ٧ و (اصول النقد الادبي) ص ١١٦ ، والدكتور شوقي ضيف في كتابه (النقد) ص ٩ ، والدكتور بدوي طبانه في كتابيه (ابو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية)ص ٧١ و (قدامة بن جعفر والنقد الادبي) ص ١١ ـ ١٢

(٢) تنظر مقالة « أثر القرآن في نشأة البلاغة » للمؤلف (مجلة المعلم الجديد المجلد ٢١ ، الجزء الثالث ١٩٥٨ م)

أو أهجى بيت قول الشاعر :

فغض الطرفَ انك مــن نـُميرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كــلابــا

وغير ذلك من الاحكام البسيطة الساذجة التي تعتمد على الذوق اكثر من اعتمادها على التعليل .

ولم يكن هذا النقد الذوقي كافيا لتكوين قواعد واصول تفيــد ناقد الأدب او منشئه وذلك لعدم وجود منهج يسير عليه النقاد ، واختفاء التعليل المفصل[1] . ولكن النقد والبلاغة خطوا خطوات كبيرة في صدر الدولة العباسية ، وكان هذا أمراً طبيعياً بعد أن استقر العرب في البلاد التي رف عليها لواء الاســلام ، وبعد أنْ اتصلوا بغيرهم من الاقوام وبثقافاتهم ، وترجمت العلوم المختلفة عن اليونانية والسريانية والفارسية وغيرهــا .

وكان ابن سلام الجمحي (٢٣٢ هـ) من اوائل الذين كتبوا فــي الادب ونقده ، وقد وصلنا كتابه « طبقات الشعراء » الذي قسم فيه الشعراء الى طبقات ، ولاحظ اختلاف الشعر باختلاف البيئات ؛ فشعر البادية غير شعر الحواضــر والمدن ، ودرس المبرزين في الموضوعات الشعرية المختلفة كالوصف والرثاء وغير ذلك .

وأهم ما قدمه لنا في كتابه فكرة الانتحال في الشعر ، وبين أسبابها والدوافع التي دعت الى الانتحال ، مما كان له أكبر الاثر في الدراسات الحديثة كالدراسة القيمة التي كتبها الدكتور طه حسين في كتاب الأدب الجاهلي .

وقرر أن للشعر صناعة وثقافة يعرفها اهل العلم كســائر اصناف العلم والصناعات ، وأوضح قيمة الناقد واهميته بقوله : « وقال قائل لخلف : اذا سمعت بالشعر استحســنه فما أُبالــي ماقلت فيــه انت

---

(١) ينظر النقد المنهجي عند العرب للدكتور محمد مندور ص ١٥ .

واصحابك . قال له : اذا اخذت انت درهما فاستحسنته فقال لك الصراف : إنّه رديء ، هل ينفعك استحسانك له ؟ »[1] .

وبقي النقد يسير مع البلاغة جنبا الى جنب حتى القرن الرابع الهجري حينما وضع ابو هلال العسكري « كتاب الصناعتين » ، فكان هذا الكتاب نقطة تحول النقد الى بلاغة ، أو نقطة البدء بتقرير قواعد البلاغة وضبط مسائلها وأصولها ، وان كان للبلاغة وضبط مسائلها بذور منذ عهد مبكر ، فقد ظهرت اوائل مسائلها في كتب النحو والتفسير الاولى .

فابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المشهور بسيبويه (١٨٠ هـ) ذكر في كتابه الشهير بعض المسائل التي ادخلها المتأخرون في علم المعاني كالتقديم والتأخير ، والتنكير والتعريف ، وبعض المسائل التي ادخلوها في علم البيان ، كالمجاز وأحد أنواعه الذي اطلق عليه فيما بعد اسم « المجاز العقلي »[2] . وتطرّفَ أحد الباحثين وعدّه واضع علمي المعاني والبيان مستندا الى الاشارات المتفرقة في الكتاب[3] ، وليس الامر كما ذهب اليه ، لان سيبويه لم يكن الا واحدا من الذين ذكروا بعض مسائل البلاغة بصورتها البسيطة الساذجة . ولعل سيبويه عندما نثر هذه المسائل القليلة لم يقصد الى علم غير النحو ، ولم ير علما خاصا هو علم البلاغة او أحد فنونها الثلاثة .

وذكر ابو زكريا يحيى بن زياد الفراء (٢٠٧ هـ) في كتابه « معاني القرآن » بعض مسائلها كالتشبيه ، والمثل ، والكناية ، والمجاز ، والاستعارة ، والايجاز ، والحذف ، والاستفهام ، وخروجه الى الامر

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٨

(٢) ينظر كتاب سيبويه ج ١ ص ١٠٨ – ١٠٩ ، وص ١٦٩ ، و ص ٢٨٣ – ٢٨٤

(٣) ينظر كتاب تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها لاحمد مصطفى المراغي ص ٤٣ – ٥٧

والتعجب والتوبيخ ، والتقديم والتأخير[١] • ولـكن النزعة النحوية واللغوية سيطرت على هذه المباحث سيطرة تامة ، ولا عجب في ذلك ، فالفراء رأس مدرسة نحوية كان لها منهجها وطريقتها في البحث وهي « المدرسة الكوفية » ، فلا بد ان تؤثر ثقافتـه الخاصة في اتجاهاتـه وفي كتبه •

وألّف أبو عبيدة معمر بن المثنى (٢٠٨ هـ) كتـاب « مجـاز القرآن » من أجل مسألة بلاغية تتصل بالتشبيه وكون المشبه به معلوما او مجهولا في قول امريء القيس :

أيَقْتُلُني والمشْرَفيُّ مضـاجعي
ومسنونةٌ زرقٌ كأنيـابِ أغوالِ[٢]

ولكننا لانرى ان كتاب مجاز القرآن كتاب بلاغي بالمعنى المفهوم ، فلم يكن مفهوم البلاغة ومصطلحاتها محددا يومذاك ، وانما الفه ابو عبيدة ليفسر مافي الآيات القرآنية من غريب ، ويبين وجوه نظم القرآن التي يوجد مثلها في كلام العرب • ولم يكن « المجاز » عنده كما فهمه البلاغيون فيما بعد ، وانما هو ما يعبر به عن الآية •

وقد أشار القدماء الى هذا المعنى وان ظن غيره بعض المحدثين ، فقال تقي الدين بن تيمية (٧٢٨ هـ) : « وأول من عرف انه تكلم بلفظ المجاز ابو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه ، ولكن لم يعن بالمجاز ماهو قسيم الحقيقة وانما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية »[٣] • ومع ذلك ففي كتاب ابى عبيدة كثير من مسائل البلاغة كالتشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، والتقديم والتأخير ، والايجاز ، والالتفـات ، والاستفهام وخروجه الى التقرير والتحقيق ، وخروج الخبر مخرج الاستفهام[٤] •

---

(١) ينظر معاني القرآن ج ١ ص ٥ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥٠ ، ٦١ـ٦٢ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ٢٠٢ ، ٢١٩ ، ٣٠٣ •

(٢) ينظر كتاب نزهة الالباء ص ٧٠ ـ ٧١ ومعجم الادباء ج ١٩ ص ١٥٨ـ١٥٩

(٣) كتاب الايمان لابن تيمية ص ٣٥ •

(٤) ينظر مجاز القرآن ج ١ ص ٨ ، ٩ ، ١١ ، ٢٨ ، ٣٥ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ١٢٦ ، ١٣٧ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٨٧ ، ٣٣٠ ، ٣٤٢ ، ٣٨٦ •

ومنهج المؤلف في بحث هذه المسائل منهج اللغويين الذين لم يتأثروا بعلماء الكلام ، واستعمال اقيستهم العقلية كثيرا ، فهو يذكر الآية ويفسرها مستعينا بما يحفظ من غريب اللغة متخذاً من ذلك شواهد على صحة فهمه وبصره باساليب البلغاء العرب ، وبذلك خلا الكتاب من التبويب والتقسيم ، وحصر الموضوعات وضبط مصطلحاتها .

وكان ابو عثمان الجاحظ (٢٥٥ هـ) أحسن من هؤلاء جميعاً في ذكر مسائل البلاغة لما امتاز به من ذوق أدبي جعله يحس باساليب العرب ومقاصدهم احساسا قويا . وكتاباه « البيان والتبيين » و « الحيوان » مشحونان بكثير من موضوعات البلاغة التي فرقها بين سطورهما ، فكانا بذلك من خيرة المصادر في بحث البلاغة .

وقد عده بعض الباحثين مؤسسا للبيان العربي او البلاغة فقال الدكتور سيد نوفل : « يعد الجاحظ في رأيي مؤسس علم البلاغة العربية »[1] وقال الدكتور داود سلوم : « اني ارى ان الجاحظ هو المؤسس بحق لعلم البلاغة لانه لم يكن جماعا لآراء اصحاب البلاغة كما يسميهم في عصره ، بل كان ناقدا لها لم يأخذها على علاتها . »[2] .

وهذا تقدير من الاستاذين فيه غلو واسراف في التعميم ، فلم يكن الجاحظ الا جامعا لبعض مسائل البلاغة من غير تصنيف أو تحديد لمصطلحاتها ولذلك لايمكن أنْ نعده مؤسس البلاغة العربية وانما هو احد رجالها الذين وضعوا بعض أسسها وذكروا بعض مصطلحاتها بمعناها اللغوي لا الفلسفي الذي تعارف عليه المتأخرون . وقد احتاط الدكتور طه حسين حين عد الجاحظ مؤسس البيان العربي فقال : « ومع ذلك فالعرب لم يخطئوا حين عدوا الجاحظ مؤسس البيان العربي، وليس ذلك لانه وصل بجهده الخاص الى قاعدة بيانية بعينها ،

---

(١) البلاغة العربية في دور نشأتها ص ١٧٠ .
(٢) النقد المنهجي عند الجاحظ ص ٨٨ .

فشخصيته القوية تكاد تكون معدومة في كتابه البيان والتبيين ، ولكن لانه جمع في هذا الكتاب طائفة من النصوص توضح توضيحا حسنا كيف كان العرب يتصورون البيان في القرن الثاني والنصف الاول من القرن الثالث ، وتعطينا صورة مجملة لنشأة البيان العربي ان لم تسمح لنا بتأريخ هذه النشأة »[1] .

وخيرة كتب الجاحظ التي تنفعنافي دراسةالبلاغة«البيان والتبيين» و« الحيوان » ، وله كتاب « نظم القرآن » الذي بحث فيه ما يتعلق باسلوب القرآن واعجازه ، كما يتضح من عنوانه ، لانه لم يصلنا وانما اشار اليه المؤرخون واصحاب التراجم .

وطريقة الجاحظ في بحث مسائل البلاغة لاتختلف كثيرا عن طريقة الفراء وأبي عبيدة ، فهو لم يفرد فصولا لبحث كل موضوع كما صنع ابو هلال العسكري وعبد القاهر الجرجاني والسكاكي وغيرهم ، وانما نثر مسائل البلاغة نَثْراً شأنه في ذلك شأن بقية المسائل والموضوعات لما امتاز به من استطراد في الكلام وخروج من موضوع الى آخر باستمرار في معظم مؤلفاته ، ولهذا لم يكن له منهج خاص في البلاغة ، ولم تكن له خطة يسير عليهافي تبويب الفصول.وقد شعرالقدماء انفسهم بهذا الاستطراد وتناثر مسائل البلاغة في كتب الجاحظ فقال ابو هلال العسكري بعد ان مدح كتاب البيان والتبيين : « الا ان الابانة عن حدود البلاغة واقسام البيان والفصاحة مبثوثة لاتوجد الا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير »[2] .

وقد يكون الجاحظ معذورا في عمله هذا ، لانه لم يؤلف «البيان والتبيين » أو « الحيوان » أو غيرهما لدرس البلاغة والتفصيل فيها ، وانما الفها لبحث امور اخرى ، وموضوعات مختلفة ، يضاف الى ذلك

(١) البيان العربي من الجاحظ الى عبدالقاهر للدكتور طه حسين مقدمة كتاب نقد النثر ص ٣

(٢) كتاب الصناعتين ص ٥

ان البلاغة في عهد الجاحظ لم تستقر بعد ولم توضع أصولها وتبوّب موضوعاتها لان العرب ما زالوا في أول مراحل التأليف في القرن الثاني الهجري والنصف الاول من القرن الثالث .

وقد استطاع الدكتورسيد نوفل أن يجمع مسائل البلاغة المبثوثة في كتب الجاحظ ، ويصنفها تصنيفا حديثا ، وبذلك أظهر بلاغة الجاحظ برونق جديد ، ووضح قيمة الجاحظ وأثره في البلاغة العربية وتطورها .

ولكننا مع ذلك سنشير الى اهم المسائل التي ذكرها الجاحظ ، وأول ما يقابلنا في كتابه « البيان والتبيين » فيما يخص البلاغة ، تعريفاتها عند العرب والامم الاخرى ، ولكنه لم يستطع أنْ يعطي تعريفا واضحاً فيه حصر ودقة ، وبتعبير آخر لم يحم اي تعريف من التعريفات التي ذكرها حول ماندركه نحن من مفهومها الآن ، وهو انها الجمال في القول ، أو أنها فن القول وبيان موطن الجمال فيه . واستفاد البلاغيون من تعريفات الجاحظ فأداروها في كتبهم وعلقوا عليها ، وكان أبو هلال العسكري من أسبقهم الى الاستفادة منها والاستعانة بها في تعريف البلاغة وتحديدها .

اما البيان عند الجاحظ فقد كان كما قال : « الاسم الجامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع الى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ماكان ذلك البيان ومن أي جنس كان ذلك الدليل ، لان مدار الامر والغاية التي اليها يجري القائل والسامع انما هو الفهم والافهام ، فبأي شيء بلغت الافهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموقع » [1] .

ومن هذا نرى ان الجاحظ لم يحدد معنى البيان ويضبطه كما ضبطه السكاكي والمتأخرون ، ولكن هذا لم يمنعه من الكلام في موضوعات البيان والفصاحة كتنافر الحروف والاستعارة والتشبيه

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٧٦ .

والمجاز والكناية ، وموضوعات علـــم المعاني كالايجاز والاطناب وغيرها[1] .

وذكر البديع ، وهو عنده وصف للمعاني والصور الغريبةالظريفة كالاستعارة والتشبيه وغيرها من الصور البلاغية الاخرى ، وذكر بعض الموضوعات التي ادخلها المتأخرون في البديع كالتورية والســـــجع والاقتباس واسلوب الحكيم والمذهب الكلامي وغيرها .

والجاحظ وان لم يكن مبوباً لمسائل البلاغة ، مهذباً لموضوعاتها الا انه بنى بناء ضخما في البلاغة ، وأضاف الى من تقدمه أشياء كثيرة . وأوضح ما اضافه كلامه في البلاغة والبيان والبديع والفصاحة وتنافر الحروف التي لم يتكلم عليها الفراء وابو عبيدة وغيرهما من المتقدمين ، وأضاف مصطلحات كثيرة منها : المذهب الكلامي واسلوب الحكيم . وقد اعترف ابن المعتز ومن جاء بعده بهذه الجهود العظيمة ووقفوا من مصطلحاته وآرائه موقف الاكباروالتقدير ونقلوها في كتبهم كما ذكرها الجاحظ مع زياداتاقتضتها طبيعة كتبهم وطبيعة التطور الفكري والتقدم العلمي في ايامهم .

وعلى كل حال فقد كان الجاحظ ومن جاء بعــده في زمانه كابن قتيبـــة والمبرد وثعلب الرعيـــل الاول في بناء صرح البلاغـــة وارساء قواعدها ، وقد ألف ابن قتيبة (٢٧٦هـ) كتاب «تأويل مشكل القرآن»، رتب فيه موضوعات البلاغة ترتيبا قريبا من الترتيب الاخير ، وان لم يحدد الموضوعات كما حددهـــا المتأخرون وحصروهـــا . وكان كتابه « تأويل مشكل القرآن » من أوائل الكتب التي رتبت بحث المجـــاز والاستعارة والمقلوب والكناية والتعريض وغيرها ، لا كتاب «البديع»

---

(١) ينظر البيان والتبيين ج١ ص ٣٤ ، ٦٥ – ٦٦ ، ٦٩ ، ١٤٤ ، ١٥٣ ، ٢٠١ ، ٢٦٣ ، ج٢ ص٧ ، ٢٧٨ ، ج٤ ص٥٥ . والحيوان ج٢ ص ٢٨٢ وج٤ ص ٢٥٠ و ٣٥٣ – ٣٥٤ وج٥ ص ٢٥ وج٦ ص ٦ –٧ وغيرها .

لابن المعتز كما يذهب اليه الكثيرون ممن لم يطلعوا على كتاب ابن قتيبة . وكان بَحْثُ ابن قتيبة لمسائل البلاغة وموضوعاتها ، بحثا أدبيا ليس فيه التقسيم والتفريع وتحديد المصطلحات ، وليس فيه حذلقة المتكلمين والمتفلسفين ، لان المؤلف نفسه كان كارها للفلاسفة والمتكلمين .

ونثر محمد بن يزيد المبرد (٢٨٥ هـ) كثيرا من مسائل البلاغةفي كتابه « الكامل في اللغة والادب » ، وتكلم على التشبيه كلاما مفصلا وقسَّمه الى أربعة انواع : تشبيه مفرط ، وتشبيه معيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد[1] . وكان المبرد بعمله هذا اول من قسم التشبيه الى أربعة أنواع ومثل لكل نوع وبين ميزته في التعبير . وتحدث عن الاستعارة ، والكناية ، والالتفات ،والاستعانة ، والايجاز، والاطناب ، والتقديم والتأخير وخروج الاستفهام عن اغراضه[2] . ويغلب على بحثه ، الطابع اللغوي والنحوي ، وان كان له ذوق في تمييز الاساليب ونقد الكلام .

وألف ابو العباس ثعلب (٢٩١ هـ) كتاب « قواعد الشعر » تحدث فيه عن الشعر وأركانه وفنونه واقسامه ، وذكر بعض مسائل البلاغة التي ذكرها ابن قتيبة والمبرد كالتشبيه والتعريض والاستعارة وحسن الخروج والايجاز وغيرها .

ومنهجه في الكتاب بسيط لا يعدو ذكر الفن البلاغي مع تعريف موجز غير محدد ، يتبعه بأمثلة من الشعر . وليس في الكتاب تحليل وتعليل وعرض لما في الكلام من صور ادبية وايحاءات بديعة ، ويبدو أن نزعته النحوية لم تسمح له بهذا النوع من البحث . وقد اصاب

---

(١) ينظر الكامل للمبرد ج ٣ ص ٨٥٣ وما بعدها . طبعة الدكتور زكي مبارك

(٢) ينظر الكامل ج١ ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ١١٧ ، ١٢٩ – ١٣٠ ، ١٨٣ – ١٨٤ ، ٢٤٤ وج ٢ ص ٣٩٨ ، ٤٣٥ ، ٧٢٩ وج ٣ ص ٨٥٣

الدكتور محمد مندور حينما قال عن كتاب قواعد الشعر : « إن الناظر في هذا الكتاب لا يجد إلا تقاسيم وتعاريف كتلك التي عهدها النحويون امثال ثعلب ، واما الذوق الذي ينقد ويلتمس التعليل لما ينقده فذلك ما لا وجود له في الكتاب »[1] .

واستفاد الخليفة العباسي عبدالله بن المعتز (٢٩٦ هـ) من جهود الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وثعلب فألف كتاب « البديع » الذي كان خطوة جديدة خطتها البلاغة نحو التطور والنضج . وقد ظن بعض الباحثين ان كتاب « البديع » كان اول مؤلف في البلاغة يتناول الادب تناولا فنيا ، يقول الدكتور بدوي طبانه عنه : « انه اول كتاب يتناول الادب تناولا فنيا »[2] ، ويقول توري عن ابن المعتز : « وكتابه الذي يعد فتحا جديدا هو كتاب البديع »[3] .

والواقع ان كتاب البديع لم يكن فتحا جديدا في البلاغة ، وانما كان خطوة جديدة في تقدمها وتطورها ، فقد سبقه الجاحظ بما كتب فيها وان لم يكن بحثه مبوبا كتبويبه ، وسبقه ابن قتيبة الذي بحث قسما كبيرا من موضوعات البلاغة في كتابه « تأويل مشكل القرآن » ، وبحث استاذه ثعلب البلاغة بطريقة لا تختلف عن طريقته كثيرا . ولعل عدم اطلاع بعض الباحثين على كتابي « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة ، و« قواعد الشعر » لثعلب ، كان السبب في اعتبار كتاب البديع فتحا جديدا .

وليس البديع عند ابن المعتز ما تعارف عليه المتأخرون من وجوه تحسين الكلام اللفظية والمعنوية ، وانما هو معنى واسع أو مصطلح عام تنضوي تحته كثير من موضوعات البلاغة كالاستعارة والجناس والكناية والتشبيه والطباق .

---

(١) النقد المنهجي عند العرب ص ٣٧٢ .
(٢) دراسات في نقد الادب العربي ص ١٧٧ وقدامة بن جعفر والنقد الادبي ص ٢١
(٣) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية) مادة ابن المعتز ج١ ص ٢٨٠

وسبب تأليف الكتاب هو الدفاع عن الادب العربي القديم والرد على الشعوبية ، وعلى من اراد النيل من العرب وتراثهم ، ممن يزعمون أن البديع طارىء على الادب العربي بعد القرن الاول الهجري ، جاء به الشعراء المولدون كبشار بن برد وابي نواس ومسلم بن الوليد . لذلك يقول ابن المعتز متحديا : « قد قدمنا في ابواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والاعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تَقَيّلَهم[1] وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودَلّ عليه »[2] . ويقول : « وغرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس ان المحدثين لم يسبقوا المتقدمين الى شيء من ابواب البديع »[3] .

وقد استهدف في كتابه هدفين :

الاول : نقدي للشعراء يوازن بين ما قالوه ويستحسن ما يرى ويرفض ما لايرى ، ويرجعهم عن صلفهم بان ما اخترعوه من «اللطيف» او « البديع » انما كان من لطيف حسن الاقدمين وبديع تصورهم .

والثاني : تقنيني قاعدي ، فقد جمع الصنوف المعروفة للبديع وزاد عليها ووضع لها تسميتها وأغرى من أتى بعده ان يحذو حذوه ويسلك سبيله[4] .

اما منهجه فيتحقق في تقسيم الكتاب الى : البديع وهو الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد اعجاز الكلام على ما تقدمها والمذهب

---

(١) تقيلهم : أشبههم .
(٢) كتاب البديع . طبعة كراتشوفسكي ص ١
(٣) البديع ص ٣ .
(٤) ينظر كتاب بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ص ١٤٧ وما بعدها .

الكلامي . والى محسنات وهي ثلاثة عشر محسنا عددها في كتابه منها الالتفات والتشبيه ولزوم ما لا يلزم والكناية والتعريض وغيرها .

ويرى المرحوم الدكتور ابراهيم سلامه أن السر في تقسيم الكتاب الى قسمين يرجع الى كثرة النوع الاول ــ أي البديع ــ في الشعر ، اما القسم الثاني ــ أي المحسنات ــ فعام بين الشعر والنثر ، والى ان الاصناف الخمسة الاولى عرفها الشعراء وعرفها الجاحظ قبل ابن المعتز فليس له في العثور عليها من فضل الا ردها الى الشعر القديم ليرد على الشعراء المجددين دعوتهم في التجديد . اما صنوف القسم الثاني فمن اختراعه وحده ، وقف عليها لما تتبع اشعار القدامى والمحدثين ودونها قبل ان يدونها غيره ، واطلق عليها اسماء لم تكن معروفة قبله في مصطلحات البلاغيين لذلك فصل بين القسمين ليقول : هذا لكم وهذا لي ، وهذا منكم وهذا مني(١) .

وما ذكره الدكتور سلامه لا يقنع الباحث لان القسم الاول والثاني يأتيان في النثر والشعر كثيرا ، ولا نستطيع ان نقرر ان هذا النوع اكثر استعمالا ، وذلك اللون اقل شيوعا الا بعد استقراء شامل للفنين ، ونظرة واحدة الى الشواهد التي اوردها في القسمين لا تؤيد ما ذهب اليه . اما الشطر الثاني من التعليل فكالاول لا يمكن التسليم به ، لان المحسنات التي ذكرها ابن المعتز لم تكن كلها من اختراعه ، فقد ذكر بعضها ابن قتيبة والمبرد كالتشبيه والالتفات ، وذكر ثعلب حسن الخروج والافراط والكناية والتعريض .

فابن المعتز لم يكن ــ في الواقع ــ إلا مرتبا لما تناثر في كتب الفراء وأبي عبيدة والجاحظ وابن قتيبة والمبرد وثعلب ، ولكنه يمتاز عنهم بنظرة نقديّة ممتازة . فهو بعد أن يذكر أمثلة جيدة عالية ، يذكر

(١) ينظر كتاب بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ص ١٣٤ **وما بعدها** .

امثلة ليس فيها جمال ليوضح ما بين الكلام الجيد والرديء من فرق واختلاف • وبهذه الطريقة يختلف عن السابقين الذين سيطرت النزعة النحوية واللغوية على كتبهم ، اما هو فقد كان شاعرا يحس بالجمال ويهزه الكلام البليغ ويبعث فيه حب البحث في الشعر ونقده وتمييز رديئه من حسنه •

وأثَّر كتاب « البديع » تأثيراً واضحاً في الكتب التي ألفت بعده ككتاب « الصناعتين » لابي هلال العسكري ، و« الموازنة بين الطائيين » للآمدي ، و« العمدة » لابن رشيق ، و« بديع القرآن » لابن ابي الاصبع المصري ، وغيرها •

ولم تَبْقَ مباحث البلاغة على الصورة التي رأيناها سابقا ، فقد ترجمت كتب ارسطو في الخطابة والشعر ، وكان لها أثر واضح في الكتب العربية •

واتجه الناس اتجاها جديدا فيه نوع من التخصص ، فألف قدامة ابن جعفر (٣٣٧ هـ) كتابا في « نقد الشعر » ، وهو « اول كتاب في نقد الشعر العربي يقوم على منهج محدود المعالم يعين أركان الفن الشعري واجزاءه »(١) ، وفيه تكلم على عناصر الشعر وجعلها أربعة : المعنى واللفظ والوزن والقافية ، وذكر كثيرا من موضوعات البلاغة كالتتميم والمساواة والتشبيه وصحة التقسيم والالتفات وغيرها •

وكان منهجه في كتابه منهجا عقليا وهو « بناء هيكل منطقي تصوره قدامة بعقله المجرد ، ولقد جارى قدامة هذا العقل الشكلي الى نهاية شوطه غير ناظر الى حقائق الشعر ولا متقيد بها »(٢) ، وبهذه العقلية حصر مسائل البلاغة ونقل النقد العربي الى موضوعية كانت قبله مضطربة مترددة يخالطها كثير من النقد الذاتي •

---

(١) قدامة بن جعفر والنقد الادبي للدكتور بدوي طبانه ص ٣٣٦
(٢) النقد المنهجي عند العرب للدكتور محمد مندور ص ٦٢ .

وألّف أبو الحسين اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب كتاب « نقد النثر » ، وهو المنسوب الى قدامة بن جعفر [1] وهذا الكتاب الصق من « نقد الشعر » بالبلاغة اليونانية ، وقد صرح مؤلفه كثيرا بالاخذ عن اليونان والنقل عن ارسطو • ومن الموضوعات البلاغية التي ذكرها مؤلف الكتاب : التمثيل ، والتشبيه ، والتقديم والتأخير ، والحذف ، والاستعارة ، والكناية • ومع ان اسلوب الكتاب ألصق بالاساليب العربية وأدخل فيها ، الا ان النفس لا تقبله كما تقبل كتاب « نقد الشعر » ، ولعل اسراف مؤلفه واغراقه في تطبيق المقاييس اليونانية ، سبب هذا النفور •

واشتدت الخصومات الادبية في القرن الرابع الهجري وثارت مناقشات عن المتنبي ومذهب ابي تمام والبحتري ، فألف علي بن عبدالعزيز الجرجاني (٣٦٦ هـ) كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » • ومع أن هذا الكتاب لم يكن في البلاغة وبحث مسائلها بحثاً مبوباً ــ وانما كان في النقد وتطبيق مقاييسه ــ الا ان المؤلف استفاد من البلاغة ومقاييسها في نقد شعر المتنبي وغيره ممن قارنهم به •

والكتاب حافل بالنظرات النقدية الصائبة ، وكان علي بن عبدالعزيز الجرجاني يرى أن الناقد يجب ان يكون محايدا ، وان يكون نقده جمليا لا يتوجه الى السقطات فحسب ، وانما ينظر الى انتاج الاديب كله : حسنه ورديئه • ولم يهتم باصناف البديع كما اهتم بها غيره ، ولم يذكر الا أنواعا قليلة منها أوردها على أنّها مقاييس يرجع اليها في توجيه ما يقول عن المتنبي • ومن أهم الموضوعات التي ذكرها :

---

(١) عثر الدكتور علي حسن عبدالقادر على نسخة كاملة من كتاب « نقد النثر » بمكتبة تشسربيتي ، تزيد على المطبوع بمقدار ثلثي الكتاب . وعنوانه : « كتاب البرهان في وجوه البيان » تنظر مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ٢٤ ج١ ص ٧٣ وما بعدها ففيها وصف للمخطوطة .

وقد قام المؤلف والدكتورة خديجة الحديثي بتحقيقه وكتبا له مقدمة وافية ، وسيقدم الى المطبعة قريبا .

التجنيس بأنواعه والمطابقة والتشبيه والاستعارة وغيرها[1] .

وألّف الآمدي (٣٧١ هـ) كتاب « الموازنة بين الطائيين » ، وفيه تصدى للمقارنة بين أبي تمام والبحتري لا لغرض وضع احدهما فوق الآخر فقط وانما لبيان الاختلافات الجوهرية بينهما وما يمتاز به كل واحد منهما وبذلك يكون كتابه أول كتاب في النقد المقارن عندالعرب بمعناه العلمي الدقيق[2] . وقد تناثرت فيه بعض مسائل البلاغة كالاستعارة والطباق والتجنيس والتشبيه والحذف والمجاز والاستفهام وخروجه الى التقرير ، وذكر القلب والمفاضلة وحسن الابتداءات[3] .

واهتم المؤلفون بدراسة القرآن الكريم وما فيه من بلاغة وروعة فألف علي بن عيسى الرماني (٣٨٦ هـ) رسالة « النكت في اعجاز القرآن » ، وهي جواب عن سؤال وُجِّهَ الى المؤلف عن ذكر النكت في اعجاز القرآن ، وقد أبان أن وجوه الاعجاز تظهر من سبع جهات هي : ترك المعارضة مع توفر الدواعي ، وشدة الحاجة ، والتحدي للكافة ، والصرفة ، والبلاغة ، والاخبار الصادقة عن الامور المستقبلة ، ونقض العادة وقياسه بكل معجزة . ووجه الرماني عنايته من هذه الجهات السبع الى البلاغة فذكر انها على ثلاث طبقات : منها ما هو في أعلى طبقة ، ومنها ما هو في أدنى طبقة ، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة[4] .

والبلاغة عنده عشرة اقسام : الايجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان .

---

(١) ينظر كتاب الوساطة ص ٤١ — ٤٤ ، ٤٦—٤٨ ، ٤٤٢—٤٧١ وغيرها .
(٢) ينظر كتاب النقد للدكتور شوقي ضيف ص ٦٥
(٣) ينظر كتاب الموازنة بين الطائيين ص ١٧—١٩ ، ١١٦ ، ١٣٩ ، ٢٩٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٤٠٦ — ٤٠٧ وغيرها .
(٤) تنظر رسالة النكت — ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ص ٦٩ .

واسلوبه في الكتاب اسلوب المتكلم الذي يفلسف القضايا الادبية ويعالجها معالجة فيها بعد عن الفن والذوق الأدبي •

وساهم حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي في الدراسات القرآنية فألف رسالة « بيان اعجاز القرآن » • وهذه الرسالة ليست كرسالة الرماني في بحث موضوعات البلاغة ، وانما هي مناقشة لبعض الآراء في اعجاز القرآن وتحليل لبعض النصوص تحليلا فيه طرافة وفيه جمال وفهم لاساليب العرب •

وكتب أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني كتاب « إعجاز القرآن » الذي افاض الحديث فيه بما وجه الى القرآن من المطاعن ، ورد عليها ردا جميلا ، وتطرق لكثير من مباحث البلاغة وعقد لها بابا بعنوان « فصل في ذكر البديع من الكلام » ، تكلم فيه على الاستعارة والتشبيه والمطابقة والمساواة والكناية والتعريض والاستثناء وغيرها •

والطريف في هذا الكتاب ان الباقلاني طَبَّقَ موضوعات البلاغة على القرآن الكريم وأشعار العرب وكلامهم المنثور ، وبذلك تجلت روح النقد والذوق السليم في هذا الكتاب ، كما تجلت الناحية التطبيقية بأوضح معانيها • ولكن الباقلاني لا يرى اعجاز القرآن من ناحية ما فيه من بلاغة وبديع ، وذلك لان هذه الوجوه اذا وقع التنبيه عليها امكن التوصل اليها بالتدريب والتعود والتصنع لها ، وذلك كالشعر الذي اذا عرف الانسان طريقه صح منه التعمل له وأمكنه نظمه[1] • ولكن هذه الموضوعات تفيد في تربية الذوق الذي يمكن به ادراك ما في القرآن من روعة واعجاز •

وألَّفَ الشاعر العباسي ابو الحسن محمد بن ابي الحسين المعروف بالشريف الرضي (٤٠٦ هـ) كتابين بَيَّنَ فيهما ما في القرآن

---

(١) اعجاز القرآن للباقلاني ص ١٦٢

وأحاديث الرسول محمد (ص) من مجازات ، وهذان الكتابان هما : « تلخيص البيان في مجازات القرآن » و« المجازات النبوية » • ولم يبحث الشريف الرضي موضوعات البلاغة كما بحثها غيره ، وانما كان يذكرها في الآيات والاحاديث التي يمر بها عند تفسيرها ، وبذلك نقل البلاغة الى ناحية عملية هي التطبيق •

وهكذا ساهمت الدراسات القرآنية مساهمة فعالة في بناء صرح البلاغة وارساء قواعدها ، وتتضح هذه المساهمة وهذا الدور الفعال منذ نشأة البلاغة • وقد رأينا كيف كان لكتب التفسير الاولى أثر واضح في نشأة البلاغة وتطورها ، وليس كتابا « معاني القرآن » للفراء ، و« مجاز القرآن » لابي عبيدة إلا نواة طيبة اثمرت فيما بعد دراسات مفصلة واسعة بلغت دور نضجها وتكاملها في القرنين الرابع والخامس الهجريين • ومن هنا كان للقرآن الكريم أثر كبير في البلاغة العربية الى جانب المؤثرات الاخرى التي ساعدت على نشأتها وتطورها •

وكتب احمد بن فارس (٣٩٥ هـ) كتاب « الصاحبي » ، وهو في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها • وكان هذا الكتاب من أهم الكتب التي اعتمد عليها البلاغيون في بحث علم المعاني ، ولا سيما فصل « معاني الكلام » الذي بحث فيه الخبر والاستخبار والامر والنهي والدعاء والطلب والعرض وغيرها ، وتكلم على موضوعات اخرى كالتشبيه والمجاز والاستعارة ، والكناية ، والتقديم والتأخير ، والالتفات •

ولكن أشهر البلاغيين في هذين القرنين ـ الرابع والخامس ـ : أبو هلال العسكري (٣٩٥ هـ) ، وابن رشيق (٤٦٣ هـ) ، وابن سنان الخفاجي (٤٦٦ هـ) ، وعبدالقاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) • وهؤلاء الاربعة هم أعلام البلاغة وعلى ايديهم تمّت بحوثها وصنفت

مسائلها وهذبت أبوابها •

أما أبو هلال العسكري فقد ألف « كتاب الصناعتين » الذي كان نقطة تحول النقد الى بلاغة ، جمع فيه ما قاله ابن المعتز في كتاب « البديع » الى جانب ما قاله قدامة بن جعفر ، وَبَوَّبَ كتابه تبويباً منظما يدل على عقلية ناضجة ، وبذلك يكون العسكري أولَ من وضع اللبنات الاولى في علم البلاغة ، وأولَ من كتب فيها بحثاً واسعا فيه تحليل وتعليل •

وكان الدافع الى تأليفه ما أوضحناه في اول هذا الفصل ، وهو خدمة القرآن الكريم وبيان أسرار اعجازه ، وخدمة الادب •

وقد قسمه الى عشرة ابواب تحدثَ فيها عن مختلف موضوعات البلاغة كالتشبيه والاستعارة والاطناب والايجاز ومباديء الكلام ومقاطعه •

ومنهجه في الكتاب منهج المتكلمين في دراسة الادب ونقده وان ادعى نفوره من مذهبهم • وقد اعتنى بالتنظيم العلمي وحصر الاحكام النقدية والبلاغية بعد أنْ كانت مفرقة في كتب السابقين ، واتبع في بحثه اسلوبا تقريريا ، فهو يتناول التعريفات والتقسيمات ، أو يضع القاعدة ويقسم الاقسام ثم يشرحها ويحللها ويمثل لها • وهذه طريقة قدامة نفسها مع فرق واضح هو اهتمام العسكري بالتحليل وذكر الشواهد والامثلة الجيدة الكثيرة وبذلك استطاع ان يغطي على المنهج العقلي الذي اتخذه سبيلا لبحثه البلاغي •

وأبو هلال في كتابه هذا ، كان جامعا ومبوبا لما كتب المتقدمون أكثر منه مبدعا ومجددا ، يقول : « وقد شرحت في هذا الكتاب فنونه ، وأوضحت طرقه » (١) •

(١) كتاب الصناعتين ص ٢٦٧

وزاد على ما أورده المتقدمون ستة أنواع هي : التشطير ، والمحاورة ، والتطريز ، والمضاعف ، والاستشهاد ، والتلطف . ولكن الدكتور ابراهيم سلامه يرى أن هذه الانواع الستة لم تسلم لابي هلال[1] .

وألّفَ ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني كتاب « العمدة في مَحاسن الشعر وآدابه ونقده » . ويعتبر هذا الكتاب من أهم كتب النقد والبلاغة في القرن الخامس الهجري ، « وقد جرى كثير من اهل افريقية والاندلس على منحاه »[2] . وقد جمع فيه ابن رشيق كثيرا من أخبار الادب وموضوعات النقد والبلاغة ، ولكن لم يتضح للمؤلف فيه منهج خاص وانّما هو تلخيص لما جاء في كتب المتقدمين . وعرض الموضوعات في مائة باب ، وهذه الكثرة من الابواب تدل على ان ابن رشيق لم ينظر في صناعة الشعر ونقده نظرة عامة شاملة ، وانما هي نظرات جزئية ، بل هي في حقيقتها جمع من هنا وهناك ، واجمال لما دار في كتب النقد السابقة[3] .

وبحثه للبلاغة لا يخرج عن بحث المتقدمين كأبي هلال العسكري وغيره ، وقد اهتم كثيرا بالموضوعات التي اطلق عليها فيما بعد اسم « البديع » . ولعل أهَم ما في الكتاب بحث اللفظ والمعنى الذي قرر فيه انهما متلازمان لا ينفصلان لان اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه ، وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، فان اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه[4] . وهذه نظرة

---

(١) بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ص ٢٨٨ وما بعدها
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢
(٣) ينظر النقد للدكتور شوقي ضيف ص ٩٨
(٤) ينظر كتاب العمدة ج ١ ص ١٢٤

لا بأس بها لاسيما بعد ان تعصب فريق للفظ وتعصب للمعنى آخرون.

وميزة كتاب « العمدة » ـ إضافة الى ما فيه من موضوعات مهمة والتفاتات نقدية تدل على فهم للاساليب الأدبية وتذوق للادب ـ ، أن فيه كثيرا من آراء رجال البلاغة المتقدمين ممن وصلتنا كتبهم أو ممن لم يصلنا شيء من مؤلفاتهم . وفي هذا فائدة كبيرة الى جانب ما يعطينا الكتاب من فكرة واضحة عن تطور مصطلحات البلاغة وما طرأ عليها من تغير في القرون المختلفة ، لانّ ابن رشيق غالبا ما يذكر آراءً كثيرة في الموضوع الذي يتكلم عليه ، ويذكر مصطلحاته المختلفة وتسمياته المتنوعة عند مختلف البلاغيين .

وألّفَ الامير أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي كتاب « سر الفصاحة » ، وهو كتاب كان الغرض منه معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسرها . ويعتبر من كتب البلاغة والنقد الجيدة لما امتاز به ابن سنان من ذوق ادبي واحساس فني بمواطن الجمال لانه شاعر له في الشعر جولات محمودة .

بدأ ابن سنان كتابه ببيان معنى الاصوات ومخارج الحروف وأطال فيها مما جعل ضياء الدين بن الاثير يرد عليه وينقده ويتخذ من هذه الاطالة سبيلا الى الهجوم عليه . ثم تكلم على البلاغة والفصاحة ومختلف موضوعات البلاغة كالاستعارة وحسن الكناية والايجاز وغيرها .

ويلاحظ ان الموضوعات التي اعتبرها المتأخرون من فن البيان وهي المجاز والاستعارة والتشبيه والكناية ، ادخلها ابن سنان في فصاحة التأليف ، وانه بدأ بدراسة البلاغة من أدنى الى أعلى ، أي ابتدأ بالجزئيات وانتهى بالكلام المنظوم المؤلف ، وهو بذلك يخالف معاصره عبدالقاهر الجرجاني كما سنرى .

وأسلوب المؤلف في الكتاب اسلوب العالم الأديب والناقد البصير ، فلم تَطْغَ عليه روح العلم الجافة التي سيطرت على كتب المتأخرين . وقد أثَّرَ الكتاب في كثير من البلاغيين ، ولا سيما في ضياء الدين بن الاثير .

ووصلت البلاغة قِمَّتَها على يدي عبد القاهر الجرجاني مؤلف كتابي « أسرار البلاغة » و« دلائل الاعجاز » . وكان لهذين الكتابين أثَرٌ عظيم في البلاغة لان كثيرا من رجالها تابعوا عبد القاهر وساروا على نهجه ولخصوا كتابيه .

ولما كان عبد القاهر من أهم الذين أثَّروا في السكاكي فسنرجيء الكلام عليه الى الفصل الذي نتحدث فيه عن منابع بلاغة السكاكي ، ولكن يجدر بنا أنْ نذكر هنا ان الجرجاني استطاع ان يجمع معظم بحوث البلاغة في كتابيه ولكنه لم يقسمها كما قسمها السكاكي ومن جاء بعده ، وانما بحثها بطريقته الخاصة فكان التجنيس الى جانب الاستعارة والتشبيه ، والفصل والوصل الى جانب المجاز والكناية .

ولَخَّصَ كتابي الجرجاني فخرُ الدين الرازي (٦٠٦ هـ) في كتابه « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » ، وابن الزملكاني (٦٥١ هـ) في كتابه « التبيان في علم البيان »[١] ، واستفاد منهما العلوي (٧٤٩ هـ) في كتابه « الطراز » كثيرا ، وان لم يطلع عليهما مباشرة كما يزعم .

ووقفت بحوث البلاغة عند عبد القاهر ، ولم تكن الكتب المؤلفة بعده الا اجترارا لما كتب ، ولا سيما في بيئة المشارقة الذين كانت كتبهم عيالا على « دلائل الاعجاز » و « اسرار البلاغة » .

هذه نظرة عامة في البلاغة قبل السكاكي ، وقد اتضح انها مرت بمراحل كثيرة حتى وصلت الى عبدالقاهر ففلسفها ووضع اسسها التي

---

(١) طبع في بغداد سنة ١٩٦٤ بتحقيق المؤلف والدكتورة خديجة الحديثي .

لم يَجْرُؤْ أحَد على أنْ ينتقصها أو يضيف اليها شيئاً له أهمية الا ما حدث في ترتيب مسائلها وتهذيب أبوابها على يدي السكاكي •

وقد أثّرت في نشأة البلاغة وتطورها عوامل كثيرة منها القرآن الكريم والمفسرون والاصوليون والرواة واللغويون والنحاة والشعراء والكتاب والمعلمون والمتكلمون • وكان لكل من هذه العوامل تأثير واضح ولاسيما القرآن ، والفلسفة وعلم الكلام • ونظرة الى ما اسلفنا يظهر الدور الذي لعبته هذه العوامل ، فقد كان من بين اعلام البلاغة : المفسرون والكتاب والشعراء واللغويون والنحاة والمتكلمون ، وكانت آثار ثقافة هؤلاء الرجال واضحة في كتاباتهم واتجاهاتهم البلاغية •

ومما مضى نرى أن البلاغة نشأت نشأة بسيطة لاتزيد على الملاحظات العابرة التي كان الشعراء والمحكمون يصدرونها على الشعر والكلام الفني ، ثم بدأت مسائل البلاغة تظهر لاول مرة في كتب النحو وتفسير القرآن ، وكان سيبويه من أوائل الذين ذكروا بعض مسائلها في كتابه الشهير وإنْ كان لم يقصد الى ذلك • وكان للفراء وأبي عبيدة اثر واضح في البلاغة لانهما ذكرا في كتابيهما : « معاني القرآن » و « مجاز القرآن » بعض مصطلحاتها وأشارا الى بعض مسائلها وموضوعاتها ، وكان للكتب التي تبحث في بيان اعجاز القرآن الكريم أثر كبير في نشأة البلاغة وتطورها ، لان القرآن كان من أهم العوامل التي دفعت الناس الى الكتابة في البلاغة •

وظل النقد يسير مع البلاغة جنبا الى جنب حتى القرن الرابع الهجري ثم انفصلت البلاغة عنه بظهور « كتاب الصناعتين » لابي هلال العسكري ، وأصبح لها منهج خاص يهتم بذكر قواعد وتقسيمات تفيد الدارسين والناقدين •

ولم تكن البلاغة مقسمة الى علومها الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، وانما كانت مسائلها وموضوعاتها تبحث بلا تمييز بين مايراد

به تتبع خواص تراكيب الكلام ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ ، او ما يراد به معرفة ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه او بالنقصان ، أو يراد به معرفة وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة. فعبدالقاهر الجرجاني وهو قِمة البلاغة العربية بحث البلاغة على أنها موضوع واحد يرمي الى معرفة الكلام البليغ من الرديء والجميل من القبيح ، ولم يقسمها الى ثلاثة علوم ، ولم يحصر موضوعات كل علم كما حصرها المتأخرون، وبذلك جاء كتاباه بما يغذي العقل ويربي الملكة الادبية ويهذب الذوق الفني الذي يميز الكلام والاساليب .

ومع ذلك فدارس البلاغة يلاحظ اتجاهين واضحين في طريقة بحثها فمن البلاغيين من سيطرت على كتبهم النزعة الادبية ، ومنهم من سيطرت على كتبهم النزعة الفلسفية والعقلية ، وكان نتيجة ذلك ان ظهرت مدرستان بلاغيتان هما : المدرسة الأدبية ، والمدرسة الكلامية ، او كما يسميها السيوطي [1] : طريقة العرب والبلغاء ، وطريقة العجم واهل الفلسفة . وكان لكل من هاتين المدرستين أو الطريقتين خصائصها ومميزاتها ورجالها الاعلام .

ولكي يتضح منهج السكاكي في البلاغة وتتبين معالمه لا بد من أنْ نلم بهاتين المدرستين البلاغيتين ، فما هاتان المدرستان ؟

(١) ينظر كتاب حسن المحاضرة للسيوطي ج١ ص ١٩٠

٢

ظهرت مدرستان بلاغيتان هما : المدرسة الادبية ، والمدرسة الكلامية ، وكان ظهورهما مبكرا منذ أنْ بدأت بحوث البلاغة تأخذ طريقها في النمو والتطور ، وقد ظهرت على كتابات الجاحظ مسحة كلامية في عرضه لبعض مسائل البلاغة في كتابيه « البيان والتبيين » و« الحيوان » ، ولكن هذه المسحة الكلامية لم تسيطر سيطرة تامة ولم يظهر أثرها واضحاً ، لأن عصر الجاحظ كان عصراً ازدهر فيه الأدب ، وبلغ تذوق الناس له حدا كبيرا ، وكان الجاحظ نفسه اديبا له ذوق واحساس فني ، فغطت هذه النزعة على اتجاه الجاحظ المتكلم المعتزلي .

ولكن هذا الاثر بدا واضحا في العصور التي تلت الجاحظ حينما كسد الادب وماتت الحركة الادبية او جنحت نحو التقليد واجترار الماضي ، فانصرف كثير من الادباء الى البديع وتزيين كلامهم بما لايقبله الذوق السليم . وحينذاك سيطرت النزعة العقلية والكلامية على دراسة البلاغة ، ولا سيما بعد ان ترجمت الفلسفة اليونانية ، وكتب ارسطو كالخطابة والشعر .

وأمْرُ المدرستين الادبية والكلامية قديم ، فهو ليس وليد عصور متأخرة ولا وليد فترة معينة ، فابو هلال العسكري نبه الى اتجاهين مختلفين في دراسة البلاغة وقال ، « وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين وانما قصدت فيه قصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب ، فلهذا لم اطل الكلام في هذا الفصل . » [١] . وقد وضح في مقدمة كتابه « الصناعتين » انه لن يسير على منهج المتكلمين ، لانه منهج ليس فيه نفع كبير في بحث الادب ومقاييسه البلاغية والنقدية ،

(١) كتاب الصناعتين ص ٩

وانه اختار منهجا آخر اقرب الى روح الادب ، هو منهج الشعراء والكتاب .

ولو لم تكن جذور هاتين المدرستين البلاغيتين بعيدة الغور في الزمن لما حددها ابو هلال وبين ماينهما من اختلاف يدرك من قوله : « وانما قصدت فيه قصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب » .

فلهاتين المدرستين ــ كما يتضح ــ خصائص ومميزات ، ولكل منهما منهج خاص في بحث البلاغة ، فما خصائص كل منهما ، وما أهم مؤلفاتهما ، ومن أشهر رجالهما ؟

هذا مانبحثه في السطور القادمة .

المدرسة الكلامية :

كان للفلسفة وعلم الكلام أثر كبير في الفكر العربي والاسلامي ولاسيما في العصر العباسي الذي بلغت فيه الحضارة أوج ازدهارها بفضل الحركة العلمية التي رعاها الخلفاء ، وبفضل الترجمة عن اللغات الاجنبية كاليونانية والهندية والفارسية والسريانية .

ولم يسلم أي علم من العلوم الاسلامية والعربية من الاثر الفلسفي والكلامي وقد كان للبلاغة نصيب عظيم من هذا الاثر فتوثقت الصلة منذ عهد مبكر بينها وبين المنطق والفلسفة ، واخذت هذه الصلة تزداد قرنا بعد قرن حتى بلغت أوجها في القرن السادس وما بعده على يد السكاكي وتلاميذه . وهذه الصلة الواضحة جعلت احد الباحثين يقول : اننا لو أمعنا النظر ومضينا في التقصي لوجدنا تأثر البلاغة بالفلسفة وفروعها من المنطق والكلام قويا بعيد المدى في نشأة البلاغة وظهورها ، وفي تطورها وسير دراستها ، وفي ضبط بحوثها وتحديد دائرة درسها ، وفي تعيين غرضها وغايتها (١) .

---

(١) تنظر مقالة البلاغة العربية واثر الفلسفة فيها للاستاذ امين الخولي ص ٢٤

ولن نتحدث هنا عن اثر الفلسفة وعلم الكلام ، فذلك موضوع بحثنا في منهج السكاكي وتأثره بهما ، ونكتفي بذكر خصائص المدرسة الكلامية واعلامها .

وأهم خصائصها الاهتمام بالتحديد والتعريف والتقسيم المنطقي والاهتمام بجعل التعريف جامعا مانعا ، ثم استعمال أساليب الفلسفة والمنطق في تحديد الموضوعات وتقسيمها وحصرها ، واستعمال الالفاظ الفلسفية والمنطقية[1] .

وقد ساق البلاغيون كثيراً من المقولات[2] عند القول في الملكة حين وردت في تعريف الفصاحة والبلاغة ، وما صدروا به البيان من بحوث الدلالات الوضعية والعقلية ، وأدخلوا فيها بعض مسائل الفلسفة الطبيعية والالهية والخلقية كالكلام في الالوان والطعوم والروائح والحواس الانسانية ومقرها والوهم والخيال والمفكرة والحس المشترك والاسباب والمسببات وغيرها . وادخلوا فيها من الالفاظ الفلسفية والكلامية المحمول والموضوع والايجاب والسلب وغير ذلك من المصطلحات التي لاعلاقة لها بالبلاغة بقدر علاقتها بالعلوم العقلية الاخرى[3] .

---

(١) ينظر فن القول للخولي ص ٨٦ ، وكتاب دروس في البلاغة وتطورها للدكتور جميل سعيد ص ٧٦ وما بعدها .

(٢) المقولة : صفة من الصفات تحمل على الاشياء كالمقولات التسع « الكمية ، الكيفية ، الاضافة ، المكان ، الزمان ، الوضع ، الملك ، الفعل ، الانفعال » . وقد تكون المقولة موضوعا يحمل عليه من صفات أخرى كما في مقولة الجوهر . (ينظر نظرية ارسطو المنطقية للدكتور ياسين خليل ص ١٤ ، بغداد ١٩٦٤) .

(٣) المحمول : هو المحكوم به بانه موجود او ليس بموجود لشيء آخر .

الموضوع : هو الذي يحكم عليه بان شيئا آخر موجود له ، أو ليس بموجود له مثال الموضوع قولنا « زيد » من قولنا « زيد كاتب » ومثال المحمول قولنا « كاتب » من قولنا « زيد كاتب » .

الايجاب : هو ايقاع النسبة وايجادها ، وفي الحملية هو الحكم بوجود محمول لموضوع .

السلب : هو رفع النسبة الوجودية بين شيئين ، وفي الحملية هو الحكم بلا وجود محمول لموضوع .

(ينظر كتاب النجاة ــ مختصر الشفاء لابن سينا ــ ص ١٨ وما بعدها ، وكتاب المنطق التوجيهي لابي العلا عفيفي ، ودروس في البلاغة وتطورها ص ٧٦) .

لقد حددوا البلاغة بهذه المقاييس وضبطوا مباحثها بهذه الاعتبارات العقلية التي ازهقت روح البلاغة وأحالتها قواعد جامدة لاحياة فيها ، وبذلك نشأ الجدل العنيف والنقاش الحاد في كتب البلاغة فأخرجها عن هدفها الفني • ومن يقرأ كتب المتأخرين ولا سيما شروح التلخيص يجد هذه الظاهرة واضحة جلية ، ويجد أن احكام المدرسة الكلامية أحكام بعيدة عن الروح الادبية المعتمدة على الذوق الادبي والاحساس الفني الصادق •

ومن شواهد الاثر الفلسفي في هذه المدرسة ، الاقلال من الشواهد والامثلة الأدبية ، لان رجالها أهتموا بالتحديد المنطقي والحصر والتقسيم فكانوا يذكرون لكل قاعدة شاهدا واحدا او مثالا قصيرا ، واحيانا يذكرون اكثر من مثال او شاهد • وليتهم وقفوا عند هذا الحد ، فكثيراً ما يذكرون أمثلة لا جمال فيها لأن صحة الشاهد أو المثال عندهم أصل كل شيء ، اما جماله وما يبعث في النفس من إحساس أو شعور فني فذلك مالم يوجهوا عنايتهم اليه •

ولنذكر مثالا واحدا يبين وجهة نظرنا وما نذهب اليه • ذكر السكاكي ـ وهو رأس المدرسة الكلامية كما سنرى ـ ان من جهات الحسن رد العجز الى الصدر ، ومثل له بقول الشاعر :

مشتهرٌ في علمِه وحلمِه — وزهدِه وعهدِه مشتهرُ
في علمِه مشتهرٌ وحلمِه — وزهدِه وعهدِه مشتهرُ
في علمِه وحلمِه وزهدِه — مشتهرٌ وعهدِه مشتهرُ
في علمِه وحلمِه وزهدِه — وعهدِه مشتهرٌ مشتهرُ (١)

ولاندري أي معنى في هذه الابيات ، وأي ذوق يتقبلها ، وأي نفس ترتاح اليها ؟ أين هذه الابيات من قوله تعالى : « وجزاءُ سيئةٍ ،

(١) مفتاح العلوم ص ٢٠٣

سَيِّئَةٌ مثلُها »[1] ، وقوله : « انْظُرْ كيفَ فَضَّلْنا بعضَهم على بعْضٍ ، وللآخرةُ أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفْضيلا »[2] ، وقوله : « قال لهم موسى : ويْلكُمْ لا تفتروا على اللهِ كذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بعذابٍ وقد خابَ مَن افْتَرى »[3] .

أو قول عمر بن ابي ربيعة :

واستبدَّتْ مرةً واحدةً إنّما العاجِزُ من لايستْبِدْ

وغير ذلك من جميل الكلام ، وبديع الشعر .

لقد أفسد السكاكي وأضرابه هذا الفن البديع واحالوه الى لعب بالالفاظ ، مع أن ابن المعتز عَدَّه من أبواب البديع الخمسة .

ولعل اهتمام البلاغيين المتأخرين بالاختصار وتلخيص الكتب المتقدمة ، كان سببا في الاقلال من الشواهد والامثلة والاكتفاء بأقلها وأقصرها ، وبما ينسجم مع أذواقهم التي سيطرت عليها الصنعة الكلامية والبديعية ، وبذلك بقي تمثيلهم منحصراً في الجملة أو الجملتين ولم يتجاوزها الى القطع الطويلة التي تُكوِّنُ وحدة فنية ، وتُصَوِّرُ صورا كاملة لها معناها الواضح وتأثيرها العظيم .

وقد شاعت المدرسة الكلامية في المناطق الشرقية من الدولة الاسلامية حيث يقطن خليط من الفرس والترك والتتر ومن اليهم من الاقوام غير العربية . وكانت خوارزم بيئة السكاكي أكبر المناطق التي ظهر فيها أقطاب هذه المدرسة كجار الله الزمخشري (٥٣٨ هـ) صاحب « الكشاف » ، وفخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) مؤلف « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » ، وأبي الفتح ناصر بن أبي المكارم المطرزي (٦١٠ هـ) مؤلف كتاب « الايضاح » في شرح مقامات الحريري ،

---

(١) سورة الشورى ، الآية ٤٠ .
(٢) سورة الاسراء ، الآية ٢١ .
(٣) سورة طه ، الآية ٦١

والسكاكي (٦٢٦ هـ) صاحب «مفتاح العلوم» وسعدالدين التفتازاني (٧٩٢ هـ) شارح « تلخيص مفتاح العلوم » للخطيب القزويني •

واستطاعت هذه المدرسة السيطرة على الدراسات البلاغية بعد الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، وبلغت ذروتها في عصور الشروح والتلخيصات •

وأهم كتب المدرسة الكلامية :

١ ـ نقد الشعر لقدامة بن جعفر (٣٣٧ هـ)
٢ ـ نقد النثر المنسوب الى قدامة •
٣ ـ دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني (٤٧١ أو ٤٧٤ هـ)•
٤ ـ نهاية الايجاز في دراية الاعجاز لفخرالدين الرازي (٦٠٦هـ)•
٥ ـ مفتاح العلوم للسكاكي •
٦ ـ المصباح في اختصار المفتاح لبدر الدين بن مالك (٦٨٦ هـ)
٧ ـ تلخيص المفتاح للخطيب القزويني (٧٣٩ هـ) •
٨ ـ الايضاح للخطيب القزويني •
٩ ـ عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي (٧٧٣ هـ)
١٠ـ المطول على التلخيص ، والمختصر لسعد الدين التفتازاني (٧٩٢ هـ)
١١ـ مواهب الفتّاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي (١١١٠ هـ)

وغيرها من الكتب التي سارت على منهج السكاكي ، وهي كتب كثيرة جداً تشمل جميع تلخيصات « مفتاح العلوم » وشروحه •

المدرسة الادبية :

لعبت عوامل كثيرة في نشأة البلاغة العربية وتطورها الى جانب الفلسفة والمنطق وعلم الكلام • وكان من اهم هذه العوامل القرآن

الكريم الذي طبع بحوث البلاغة بطابع ادبي • ويتجلى هذا في كثرة الشواهد التي اقتبسها البلاغيون من القرآن الكريم •

وكان للكُتّاب أثر واضح في البلاغة ايضا ، فقد صبغوا كثيرا من موضوعاتها بصبغة أدبية لما امتازوا به من أدب جم وذوق سليم ، يقول الجاحظ عنهم : « طلبت علم الشعر عند الاصمعي فوجدته لايحسن الا غريبه فرجعت الى الاخفش فوجدته لايتقن الا اعرابه فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لايتقن الا ما اتصل بالاخبار وتعلق بالايام والأنساب فلم اظفر بما اردت الا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبدالملك الزيات » (١) • وقال عنهم ايضا : « اما أنا فلم أرَ قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب فانهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ، ولا ساقطا سوقيا » (٢) •

ولعب الشعراء دورا هاما في البلاغة ، وليس ابن المعتز الشاعر العباسي الا واحدا من الذين وضعوا اللبنات الاولى للبلاغة وارسوا قواعدها ، يقول ابن المعتز نفسه عنهم وهو يتحدث عن البديع : « البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فأمّا العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ماهو » (٣) •

وقد طبعت هذه المؤثرات ــ القرآن والكتاب والشعراء ــ البلاغة بطابع أدبي ، وكان نتيجة ذلك أنْ اتجهت البلاغة اتجاها آخر، وسلكت طريقا بعيدا عن المدرسة الكلامية • وهذا الاتجاه الذي سارت البلاغة فيه هو الذي ارسى قواعد المدرسة الادبية ووطد أركانها •

ومن خصائص هذه المدرسة عدم الاهتمام بالتحديد والتقسيم اهتماما كبيرا ، وان جنحت الى ذلك فعلى غير تعمق ونفاذ والتزام

---

(١) العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١٠٦
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٧
(٣) البديع لابن المعتز ص ٥٨

للتصحيح التـــام للاصول المنطقيـــة فيه ، إلا أنْ يكون شيء من ذلك أثراً نعدوى المدرسة الكلامية [1] .

ولم تهتم باقتباس المنطقيات ومسائل الفلسفة ، بل نبذتها وحملت عليها وحاربتها ، وكان ضياء الدين بن الاثير أحد اقطاب هذه المدرسة من الذين حملوا حملة عنيفة على الفلسفة ورأى في رجالها من امثال ابن سينا والفارابي رجالا اضلهم ارسطو وافلاطون ، يقول : « اعلمْ أنّ ذلك الحصر كلي لا جزئي ، ومحال أنْ تحصر جزئيات المعـــاني وما يتفرع عليها من التفريعات التي لا نهاية لها . لا جرم إنّ ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحب هذا العلم ولا يفتقر اليه ، فان البدوي البادي راعي الابل ماكان يمر شيء من ذلك بفهمه ولا يخطر بباله ومع هذا فانه كان يأتي بالسحر الحلال إنْ قال شعراً أو تكلم نثرا » [2] .

ومن خصائصها انها تستعمل المقاييس الفنية في الحكم على الادب، لذلك نجدها مرة تستطيع التعليل ومرة لاتستطيع ذلك ، وترجعه الى الذوق والاحساس الفني ، ولذا فهي تعنى بالبحث عن الجمال وتقول : « هذا جميل وهذا اجمل منه ، وهذا بالغ حد الاعجاز بجماله ، وهذا قبيح وهذا أقبح » [3] .

ومن خصائصها ان اسلوب كتبها وتعابيرها سهلة مفهومة لاتحتاج الى عناء كبير في فهمها كما يحتاج في قراءة كتب المدرسة الكلامية التي كثيرا مايقف الباحث او القارىء على نص أو تعريف وقفة طويلة يحاول فيها فهم مايرمي المؤلف اليه . وسبب ذلك ان معظم رجال المدرســـة الادبية عاشوا في بيئات عربية كالعراق والشام ومصر ، وكانوا الى جانب ذلك شعراء أو كتابا لهم ذوق أدبي واحساس فني صادق . فالجاحظ مع كونه معتزليا متكلما كان اديبا كبيرا ، وابن المعتز كان شاعرا اصيلا ،

(١) ينظر فن القول ص ٩٣
(٢) المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ج ١ ص ٣١٠
(٣) دروس في البلاغة وتطورها للدكتور جميل سعيد ص ٩١

وابو هلال العسكري وعبد القاهر الجرجاني وضياء الدين بن الاثير وغيرهم كانوا كتابا ممتازين لهم اسلوبهم في الكتابة ولهم طابعهم الخاص •

اما رجال المدرسة الكلامية فقد عاشوا في بيئة تركية او فارسية فغلبت على كتبهم العجمة وعلى اساليبهم التعقيد واللف الذي يحتاج الى تأمل ووقوف طويلين ، يضاف الى ذلك أنَّ معظمهم لم يشتهروا بالشعر أو الكتابة وانما اشتهروا بالمنطق وعلم الكلام والاهتمام بالعلوم العقلية البعيدة عن الادب وروحه •

وأكثرَ رجالُ المدرسة الادبية إكثاراً عظيماً من الشواهد والامثلة الادبية ، نثرا وشعرا ، وكانوا غالبا ما يذكرون القاعدة بسطر أو سطرين ويأتون بأمثلة تتجاوز الصفحات •

ولم تكن أمثلتهم مقصورة على الجملة أو بيت الشعر ، وإنما تعدتها الى القطعة الشعرية والى الرسالة الادبية • ويتضح هذا في جميع كتب المدرسة ، فابن المعتز مثلا يذكر تعريف الاستعارة أو الجناس ويورد بعد ذلك أمثلة كثيرة ويفرق بين حسنها ورديئها • ونرى ابا هلال العسكري يتبع هذه الطريقة او هذا المنهج في ذكر الامثلة وان استفاد من المنهج الكلامي والعقلي في التقسيم والحصر والتبويب ، فهو يسوق في المقام الواحد عشرات الامثلة والشواهد من القرآن والحديث وكلام العرب نثراً وشعرا ، ويعتمد في النقد على الذوق غير مكتفٍ بالصحة العقلية كرجال المدرسة الكلامية •

ومما يلفت نظر الباحث أن المدرسة الادبية كان لها مركز كبير في القرن السادس الهجري الذي سادت فيه العقلية المنطقية ، وجنحت فيه أذواق المؤلفين والكتاب نحو الجمود • ومن اعلامها في هذا القرن وما بعده ضياء الدين بن الاثير الذي يعد قمة المدرسة الادبية لانه بَحَثَ البلاغة بحثاً أدبياً وابتعد عن المنهج الكلامي وإدخال مسائل الفلسفة وعلم الكلام فيها • وكان كتابه « المثل السائر في ادب الكاتب

والشاعر » وكتابه « الجامع الكبير » ، من خيرة الكتب الذوقية لما اشتملت عليه من نصوص ادبية ممتازة وذوق سليم يميز الاساليب المختلفة • ومنهم ابن أبي الاصبع المصري الذي لم تؤثر فيه المدرسة الكلامية كثيرا فكان كتابه « بديع القرآن » وكتابه « تحرير التحبير » من ألطف الكتب التي تمثل مدرسة مصر البلاغية •

وقد سادت المدرسة الادبية في المناطق الوسطى من الدولة الاسلامية أي في المناطق العربية كالعراق والشام ومصر وشمال افريقيا•

واهم كتبها التي تضمنت حركتها وآراءها واصولها :

١ ــ كتاب البديع لابن المعتز (٢٩٦ هـ)

٢ ــ كتاب الصناعتين لابي هلال العسكري (٣٩٥ هـ) •

٣ ــ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني (٤٦٣ هـ) •

٤ ــ سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (٤٦٦ هـ)

٥ ــ اسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني (٤٧١ او ٤٧٤ هـ)

٦ ــ البديع في نقد الشعر لاسامة بن منقذ (٥٨٤ هـ) •

٧ ــ المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ، والجامع الكبير لابن الاثير (٦٣٧ هـ)

٨ ــ بديع القرآن ، وكتاب تحرير التحبير لابن ابى الاصبع المصري (٦٥٤ هـ) •

وعد الاستاذ امين الخولي من رجال هذه المدرسة بهاء الدين السبكي (٧٧٣ هـ) [1] ، ولكننا لانوافقه على ماذهب اليه لان كتاب « عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح » للسبكي ليس فيه من الروح الادبية لا في منهجه ، ولا في مادته الا الشيء القليل • فقد حشر المؤلف في الكتاب مسائل كثيرة لا صلة لها بالبلاغة ، وأكثر من علم

(١) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية) مادة بلاغة مجلد ٤ ص ٦٩

الاصول إكثارا عظيما ، وذكر تقسيمات كثيرة ينفر منها القارىء وتبعث في نفسه السأم . ومع ذلك فالمؤلف ينقد اهل المشــرق ، وطريقتهم في البلاغة ، ويقول عن أهل بلاده : « اما أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم والفهم المستقيم والاذهان التي هي أرق من النسيم وألطف من ماء الحياة في المحيـا الوسـيم . أكسبهم النيل تلك الحلاوة واشار اليهم باصابعه فظهرت عليهم هـذه الطلاوة فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء ـ فضلا عن الاغمار ـ الاعمار ، ويرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الاسرار خلف الاستار »[1] . ولكنه بالرغم من احساسه بهذه الحقيقة فانه لم يسر على المنهج الادبي الذي يبتعد عن حشر الفلسفة ومسائلها في البلاغة ، وانما اتجه اتجاه المدرسة الكلامية في تقسيم البلاغة الى معان وبيـان وبديع ، وفي ادخال علم الاصول وعلم المنطق والفلسفة في بحوثها ، وفي اهتمامه بالتقسيم العقيم[2] .

هاتان هما المدرستان البلاغيتان ، وقد رأينا أنّ كل واحدة منهما امتازت بخصائص معينة ، وكان لها رجالها وكتبها الخاصة . ولكن هل يمكن أنْ نضع حدا فاصلا بين الذين اتبعوا الطريقة الادبية ، والذين نهجوا سبيل المدرسة الكلامية ؟

ليس من الممكن هذا ـ بالطبع ـ فكثيرا مايمزج البلاغي الواحد بين الطّريقتين ، ويستفيد من المدرستين ، فالجاحظ ـ مثلا ـ وهو رأس فرقة أعتزالية سميت بالجاحظية نراه يميل الى الناحية الادبية ويحكم الذوق في كثير من الاحيان ، وابو هلال العسكري مع تأكيده انه لن يتبع طريقة المتكلمين نراه يتجه نحوهم في تقسيماته وتبويبه ويجري في

(١) عروس الافراح ـ شروح التلخيص ج ١ ص ٥

(٢) نقول هذا ، ونحن نعلم ان كتاب السبكي خير كتاب يمثل مدرسة مصر البلاغية ، لانه جمع بين المدرستين : الادبية والكلامية . وقد شرحنا هذه المسألة بالتفصيل في كتابنا « القزويني وشروح التلخيص » المعد للطبع ، وهو البحث الذي نلنا به الدكتوراه بمرتبة الشرف الاولى من كلية الآداب بجامعة القاهرة في ١٤ تموز ١٩٦٣ م .

مضمارهم ، ويخدم اغراضهم وبذلك « لم تخلص الطريقة الادبية في أبي هلال ؛ أو لـم يخلص ابو هلال للطريقة الادبية ولـم ينج مـن تأثر المتكلمين »[1] .

وكان عبد القاهر الجرجاني يميل مرة الى المدرسة الكلامية في كتابه « دلائل الاعجاز » ، ويتجه الى المدرسة الادبية في كتابه « اسرار البلاغة » ، فهو في كتابه الاول يُجادلُ جدلا منطقياً فيكرر أساليب المناقشين الجدليين مثل : « ان قلتم قلنا ...... » و « كيف لايكون الامر كذلك ...... » و« ماهو الا كذا وكذا ...... »

ولا عجب في هذا ، فالرجل في « دلائل الاعجاز » يناقش الذين لايؤمنون باعجاز القرآن ومافيه من روعة وبلاغة ، وليس أمامه الا ان يتبع هذه الطريقة الجدلية في اقناع الخصوم .

وهو في كتابه الثاني أديب بليغ يعمد الى التحليل الفني وابراز مافي الكلام من بلاغة وجمال ، ولم يكن في هذا الكتاب مايدعو الى الاستعانة بالاساليب الجدلية والمنطقية لأنه ليس بصدد البرهنة على اعجاز القرآن ، والرد على الطاعنين ببلاغته .

وممن استطاعوا ان يجمعوا بين المدرستين في كتاب واحد ، يحيى ابن حمزة العلوي (٧٤٩ هـ) في كتابه « الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وحقائق الاعجاز » ، فهو في القسم الاول من الكتاب يسير على منهج أدبي واضح فيه التحليل وفيه الاكثار من الامثلة ، وهو في القسم الثاني يتبع طريقة المدرسة الكلامية في تصنيف مسائل البلاغة وتقسيمها الى معان وبيان وبديع ، ولكنه مع ذلك يكثر من الامثلة والتحليل .

وكتاب « الطراز » من خيرة كتب البلاغة في القرن الثامن وامتعها لولا اكثار مؤلفه من التقسيمات التي يضيع القارىء فيها .

---

(١) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها لامين الخولي ص ٣٩ .

هـــذه نظرة عامة في البلاغة العربية قبل الســـكاكي واتجاهاتها ، عرضناها عرضا موجزاً لتكون لنا عوناً على فهم منهج السكاكي وأثـر الفلسفة وعلم الكلام فيه .

فما بلاغة السكاكي ؟ وما منهجه ؟

هذا مانعرض له في الفصول القادمة .

الفصل الثاني

منهجه البلاغي

١

رأينا في الفصل السابق أن البلاغة نشأت مسائل متفرقة في كتب الفراء وابي عبيدة والجاحظ والمبرد ، وكان ابن قتيبة ـ فيما نرى ـ أول من رتب بعض موضوعاتها وبوبها ، فقد عقد في كتابه « تأويل مشكل القرآن » ابوابا للمجاز والاستعارة والمقلوب والحذف والاختصار وتكرار الكلام والزيادة فيه والكناية والتعريض ومخالفة ظاهر اللفظ معناه . وكان لهذا التبويب أثر فيما كتب ابن المعتز الذي خطا بالبلاغة خطوة حسنة نحو الترتيب والتبويب .

وأخذت البلاغة تتقدم وتتطور الى أنْ ظهر عبدالقاهر الجرجاني فسار بها نحو النضج والكمال ، وقرر مسائلها وهذبها ، فكان كتاباه « دلائل الاعجاز » و« أسرار البلاغة » قمة البلاغة العربية تجلت فيهما العقلية الناضجة التي تفهم الامور وتتذوق الادب ، وبدا فيهما التبويب والتقسيم واضحا حتى عده بعض الباحثين واضع علمي المعاني والبيان بمفهومهما الاخير (١) .

(١) ينظر هامش ص : ت و ث من كتاب دلائل الاعجاز ، وهامش ص ٤٦٩ من دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية) مادة بديع ، وكتاب أمالي علي عبد الرازق ص ٢٣ .

والواقع ان عبد القاهر لم يكن واضع علمي المعاني والبيان لان رجال البلاغة ــ كما رأينا ــ كانوا قد بحثوا موضوعاتهما منذ عهد مبكر فتكلموا على المجاز والاستعارة والتشبيه والتقديم والتأخير والذكر والحذف والاطناب وغيرها . ولم يأت عبد القاهر بموضوعات جديدة الا ما كان من تهذيب وتبويب وتحليل للنصوص الادبية الرائعة . وكان بحثه لا يختلف عن السابقين ، فكتاباه المشهوران يضمان موضوعات البلاغة كلها من معان وبيان وبديع ، ولم يفرق عبد القاهر بينها كما فعل المتأخرون ، ولم يقل هذه موضوعات علم المعاني ، وهذه مباحث علم البيان ، وهذه من فنون البديع . وكانت طريقته في عدم تقسيم البلاغة الى علومها الثلاثة مدعاة لنقد المتأخرين ممن سيطرت على عقولهم نظرة تقسيم البلاغة ، يقول التفتازاني السائر في فلك السكاكي عن كتب عبد القاهر : « كأنها عقد قد انفصم فتناثرت لآليه »[1] .

ومن أجل هذا لا نستطيع أنْ نقول إن عبد القاهر واضع علمي المعاني والبيان لسببين :

الاول : ان موضوعاتهما قد بحثت قبله كما رأينا .

والثاني : انه لم يفصل بينهما كما فعل المتأخرون .

ولكن يمكن القول انه مهد السبيل الى ذلك وانه وضع « اسس المنهج التحليلي في دراسة البيان او المعاني العقلية ومسايرة العبارات لها ، ودلالتها عليها »[2] .

وكان الجرجاني نفسه يرى أن هناك علما واحدا غاية الخائض في فنونه ان يستثير الاسرار التي ترفع من قدرة الكلام وتمنحه رتبة الشرف وتحله ذروة البلاغة .

---

(١) المطول على التلخيص ص ١٠

(٢) البيان العربي للدكتور بدوي طبانة ص ١٣٣

وتمخضت الدراسات البلاغية عن مدرستين هما : المدرسة الادبية والمدرسة الكلامية ، وكان لكل منهما خصائصها ومنهجها الخاص ، ولكنهما مع ذلك تتفقان في امور منها : أن كلتا المدرستين لم تقسم البلاغة الى معان وبيان وبديع وانما كانت موضوعاتها تبحث على اعتبار انها فن واحد الهدف منه استثارة الاسرار التي ترفع من قدرة الكلام فلا تمييز بين موضوعات يحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره ، وموضوعات يراد بها معرفة ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة أو النقصان ، وموضوعات يعرف بها وجوه تحسين الكلام .

ولم تزل البلاغة تكمل شيئا فشيئا الى ان مَخَضَ السكاكي زبدتها وهَذَّب مسائلها ورتَّبَ أبوابها ، فكان بذلك أول من قسَّم البلاغة الى علمين متميزين : علم يتعلق بالنظم سماه علم المعاني ، وعلم يتعلق بالتشبيه والمجاز والكناية أو بالصورة سماه علم البيان . ولم يسم القسم الثالث بديعا وانما هو عنده وجوه مخصوصة كثيراً ما يُؤتَى بها لتحسين الكلام . ولهذا عرف البلاغة تعريفا لم يدخل فيه علم البديع ، فقال : « البلاغة هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وايراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها »[١] .

ولم يكن السكاكي أول من ذكر مصطلح « البيان » وأطلقه على الموضوعات التي حصرها بعقليته الفلسفية وانما ظهر هذا المصطلح منذ القرن الثاني الهجري أو أوائل القرن الثالث على يدي الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » ، ولكنه لم يقصد بالبيان العلم الذي يبحث فيه عن التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية وانما يقصد به معظم موضوعات البلاغة ، كما كان عبد القاهر الجرجاني وضياء الدين بن الاثير وغيرهما

(١) مفتاح العلوم ١٩٦

ينظرون اليه . يقول ابن خلدون وهو يتحدث عن البيان : « واطلق على الاصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان ، وهو اسم الصنف الثاني لأن الاقدمين أول من تكلموا فيه » [١] .

ولكن السكاكي ضيَّق مدلول هذا المصطلح فجعله يضم التشبيه والمجاز والكناية وذلك بتعريفه الذي يقول فيه : « البيان هو ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة ، وبالنقصان ، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه » [٢] .

أما مصطلح « المعاني » فلم نعثر على ذكر له في بحوث الاوائل ولا نعرف احدا استعمله واطلقه على قسم من موضوعات البلاغة قبل السكاكي . وكل ما نعرفه أن عبارة « معاني النحو » وردت في المناظرة التي جرت بين الحسن بن عبد المرزباني المعروف بأبي سعيد السيرافي (٣٦٨ هـ) وأبي بشر مَتَّى بن يونس ، في مجلس الوزير أبي الفتح ابن جعفر بن الفرات .

وكان لنظرية النظم أثر كبير في اظهار هذا النوع من الدراسات البلاغية ، وقد وضحت معالم هذه النظرية وبلغت أوْجَ نضجها عند عبد القاهر الجرجاني الذي أعاد وكَرَّرَ إثباتها والتأكيد عليها وسمى موضوعات التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والفصل والوصل ، والتعريف والتنكير وغيرها ، « معاني النحو » ، يقول : « فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وانت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل الى « معاني النحو » وأحكامه ، ووجدته يدخل في اصل من اصوله ، ويتصل بباب من ابوابه » [٣] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥١
(٢) مفتاح العلوم ص ٧٧
(٣) دلائل الاعجاز ص ٦٥

وكان البحث الذي كتبه الجرجاني في « دلائل الاعجاز » مادة اساسية لعلم المعاني الذي جعله السكاكي أحد علوم البلاغة ، وحَدَّدَ موضوعاته وفنونه وحصره حصرا منطقيا بقوله : « إن علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره » [1] .

ومع أن أحدا لم يطلق مصطلح المعاني على بعض بحوث البلاغة قبل السكاكي إلا أن الباحث ليحار حينما يجد مصطلحي المعاني والبيان مستعملين قبله . فالزمخشري يشير اليهما في تفسير « الكشاف » ، يقول وهو يتحدث عن التفسير : « ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما : علم المعاني ، وعلم البيان » [2] . وكلام الزمخشري هذا غير واضح ، لانه كثيراً ما يردد هذين المصطلحين ، وكثيرا ما يطلق مصطلح البيان على البلاغة كلها ، يضاف الى ذلك انه لم يضع حدا بين موضوعات علم المعاني وعلم البيان ، وان ذكر كثيرا من موضوعاتهما . ولعل سبب ذلك انه لم يكن يبحث في علم البلاغة حينما كَتَبَ « الكشاف » وانما كان يفسر القرآن الكريم ويوضح ما فيه من معان سامية وما فيه من روعة وجمال ، أمّا مسائل البلاغة فلم يذكرها الا لاظهار روعة القرآن واعجازه . ومن هنا جاء تفسير « الكشاف » من أهم مصادر البلاغة وان لم يكن مؤلفا فيها أو من اجلها .

ونراه احيانا يسمي البلاغة بديعا ، فهو في تفسير قوله تعالى : « اولئِكَ الذين اشْتَرَوا الضَّلالةَ بالهدى فما رَبِحَتْ تجارتُهم وما كانوا مُهْتَدين »[3] يقول : : « هذا من الصنعة البديعية التي

---

(١) مفتاح العلوم ص ٧٧
(٢) الكشاف ج ١ ص : ك
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٦

تبلغ بالمجاز الذروة العليا وهي أن تساق كلمة مساق مجاز »[1] . ويخالف احيانا ما تعارف عليه البلاغيون فيجعل الالتفات من البيان ويقول عن العدول عن لفظ الغيبة الى لفظ الخطاب : « قلت هذا يسمى الالتفات في علم البيان »[2] .

وذكر فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) مصطلحي علم المعاني وعلم البيان ، ولكنه لم يعرفهما ولم يوضحهما ويحدد موضوعاتهما ، يقول وهو يتحدث عن الخبر : « ولكن الخبر هو الذي يتصور بالصور الكثيرة وتظهر فيه الدقائق العجيبة والاسرار الغريبة من علم المعاني والبيان »[3] . فعبارة « من علم المعاني والبيان » غامضة لا يفهم منها الا معنى عام وهو البلاغة بصورة عامة ، اما معانيهما الخاصة التي حصرها السكاكي فلم يُشِر اليها الرازي ، وكأن المعاني والبيان عنده يرادفان البلاغة .

ويكرر السكاكي نفسه بعض العبارات مثل : « صناعة علم المعاني » و« علماء علم المعاني » و« اذهان الراضة من علماء المعاني » و « أئمة علم المعاني »[4] ، ولكن لم يحدد معاني هذه العبارات ، ولا ندري ما المقصود بها ؟ ومن علماء المعاني وائمته ؟ فلم نعثر في تاريخ البلاغة قبل السكاكي على علماء اختصوا بالمعاني وبحثوا فيه كما بحثه السكاكي وحدَّدَ موضوعاته ، ولم تكن البلاغة قبله مقسمة الى معان وبيان وبديع .

وما دمنا لم نستطع ان نتبيَّنَ مفهوم المعاني قبل السكاكي ولم نستطع أنْ نعرف أحداً كتب في علم المعاني قبله بالطريقة التي وصلتنا

(١) الكشاف ج ١ ص ٥٣
(٢) الكشاف ج ١ ص ١١
(٣) نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ص ٣٦
(٤) ينظر مفتاح العلوم ص ٨١ ، ٩٥ ، ١١٩ ، ١٢١ .

عنه في « مفتاح العلوم » ، ما دامت هذه الامور لم تتضح مع ورود مصطلحي المعاني والبيان في « الكشاف » للزمخشري ، وفي « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » لفخرالدين الرازي ، فاننا نستطيع على ضوء ذلك أنْ نقرر أنَّ السكاكي أول من قسَّمَ البلاغة الى معانٍ وبيان وبديع أو محسنات ، وحدَّدَ موضوعاتها وأثبت قواعدها ، وأنَّه أول من اطلق على الموضوعات المتعلقة بالنظم مصطلح « علم المعاني » ، وعلى الموضوعات التي تبحث في الصورة الادبية — أي التشبيه والمجاز والكناية — مصطلح « علم البيان » . وأنَّه أول من اطلق على غير هذه البحوث اسم « محسنات » وقسَّمها الى ما يختص بالمعنى وما يتعلق باللفظ ، مع الاحتراز بانه لم يُسَمِّ هذه المحسنات بديعا ، وكان بدر الدين بن مالك هو الذي أطلق عليها هذا المصطلح في كتابه « المصباح » وتابعه الخطيب القزويني . وبذلك انحصر مصطلح البديع في المحسنات المعنوية واللفظية بعد أنْ كان يقصد به معظم موضوعات البلاغة عند الرواة الذين نقله الجاحظ عنهم ، وعند عبدالله بن المعتز .

ولكن هل سَلِم منهج السكاكي من الاضطراب والتعقيد ؟ وهل أفاد في تطور البلاغة ؟

ولتوضيح ذلك سننظر في منهجه البلاغي من ناحيتين :

الناحية الاولى : تقسيمه البلاغة الى علومها الثلاثة : المعاني والبيان والبديع .

الناحية الثانية : منهجه في بحث كل قسم من الفنون الثلاثة .

٢

اما الناحية الاولى وهي تقسيم البلاغة الى فنونها الثلاثة فقد رأينا أنَّ السكاكي قسمها الى معانٍ وبيان ومحسنات وحصر مباحث المعاني بقوله : « المعاني تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره » [١] . وقد بَحَثَ في هذا الفن : الخبر والانشاء ، والتقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والفصل والوصل ، والايجاز والاطناب ، والقصر .

وحدد موضوعات البيان بقوله : « البيان معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه ، وبالنقصان ، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه [٢] . وقد بحث في هذا الفن التشبيه والمجاز بانواعه كالمجاز اللغوي والمجاز العقلي ، والكناية .

وضبط النوع الثالث بقوله انه : « وجوه مخصوصة كثيراً ما يُصار اليها لقصد تحسين الكلام » [٣] . ولم يُسَمِّه بديعاً كما سماه بدرالدين بن مالك والخطيب القزويني وانما سماه « محسنات » وقسمها الى قسمين : قسم يرجع الى المعنى وهو المطابقة ، والمقابلة ، والمشاكلة ، ومراعاة النظير ، والمزاوجة ، واللف والنشر ، والجمع ، والتفريق والتقسيم ، والايهام ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ،

---

(١) مفتاح العلوم ص ٧٧
(٢) مفتاح العلوم ص ٧٧
(٣) مفتاح العلوم ص ٢٠٠

والتوجيه ، وسوق المعلوم مساق غيره ، والاعتراض ، والاستتباع ، والالتفات ، وتقليل اللفظ ولا تقليله • وقسم يرجع الى اللفظ وهو التجنيس ، ورد العجز الى الصدر ، والقلب ، والسجع ، والفواصل ، والترصيع •

وقد نظر السكاكي الى البلاغة في هذا التقسيم نظرة فلسفية فقسمها هذا التقسيم الذي أوقف البلاغة عند ما رسمه لها ، وكانت قبله مفتحة الابواب ، قابلة للزيادة والتطور • وكأن السكاكي خشي على علم البلاغة من ذلك الاطلاق الذي يجعل الحرية فيه فوضى في يوم من الأيام ، فنظر الى هذا العلم نظرة فلسفية تحدد ما بينه وبين سائر فنون الادب من النسبة والارتباط ، وتميزه عنه تمييزا واضحا ، وتحصر أبوابه ومباحثه حصرا عقليا حتى لا يبقى محل للخوف عليه من دعيٍّ لا يفقه الادب ولا يعرف فنونه •

وكان الاستاذ علي عبدالرازق أول من انتبه من المحدثين الى ما في منهج السكاكي من تضييق لبحوث البلاغة وحصر لمسائلها يؤدي الى الجمود ، ولكنه لم يقف طويلا عند هذه النقطة لان بحثه كان منصبا على البيان وتأريخه ، فترك التفصيل في المسألة والنظر اليها نظرة شاملة • وكان ما اشار اليه في « أماليه » مدعاة للنظر في هذا الموضوع نظرة أكثر عمقا وتفصيلا ، فكتب الاستاذ أحمد مصطفى المراغي فصلا هاما في كتابه « تأريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها » ، ناقش فيه منهج السكاكي وتقسيمه البلاغة الى علوم ثلاثة ، وقرر انه لا وجه لهذا التقسيم • وتابعه الدكتور بدوي طبانة فناقش هذا المنهج مناقشة لا تخرج عما كتب المراغي ، واستفاد في كتابه « البيان العربي » من آراء الاستاذ •

ولما كان ما كتبه المراغي أهم ما قيل في نقد السكاكي ، فاننا نحاول تلخيص رأيه لنرى ما له وما عليه • يقول وهو يتحدث عن

منهج السكاكي وتقسيم البلاغة الى ثلاثة علوم : « ولا نرى لهذا التقسيم وجها صحيحا ولا مستندا من رواية ولا دراية »[1] .

اما ان الرواية لا تساعد السكاكي فان ذلك يرجع الى ان المتقدمين الذين كتبوا قبله كأبي هلال العسكري في « الصناعتين » ، وابن سنان الخفاجي في « سر الفصاحة » ، وعبد القاهر الجرجاني في كتابيه « أسرار البلاغة » و« دلائل الاعجاز » ، لم ينحوا هذا النحو الذي نحاه ، وان الزمخشري ـ وهو في علو كعبه في البلاغة ـ كثيرا ما يسمي هذه العلوم بالبيان ، واحيانا بالبديع . اما ابن المعتز وقدامة ابن جعفر وأبو هلال العسكري وابن رشيق فقد أدخلوا البديع في مباحث البيان فجعلوا من البديع الاستعارة والمجاز والكناية والتعريض، وكذلك فعل عبد القاهر في « أسرار البلاغة » اذ يقول : « واما الطباق والاستعارة وسائر اقسام البديع فكونها معنوية اجلى واظهر » . وبذلك يضع الطباق الذي هو من البديع الى جانب الاستعارة التي ادخلها السكاكي في علم البيان .

وفي قول الخطيب القزويني في التلخيص : « وكثير من الناس يسمي الجميع علم البيان » . وفي قول شراحه : « لما في كل من معناه اللغوي وهو الظهور »[2] . ومنهم من يسمي الأخيرين علم البيان أي كما وقع للزمخشري في الكشاف . وقوله : « والثلاثة علم البديع » اي كما يستعمله صاحب الكشاف كثيرا في تفسيره ، دليل على ان التقسيم الى معان وبيان وبديع لم يقل احد به قبل السكاكي ، اذ لم يصرح بعزوه لاحد[3] .

فالمراغي ـ كما نرى ـ يرى أن لا وجه لتقسيم السكاكي هذا ، لان الاقدمين لم يقسموا البلاغة الى معان وبيان وبديع . ولا يمكن ان

---

(١) تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ص ١١١
(٢) كذا في شروح التلخيص ج١ ص ١٥١ .
(٣) ينظر كتاب تاريخ علوم البلاغة ص ١١٤ ـ ١١٥ .

يقوم هذا دليلا على فساد منهج السكاكي • لان معنى هذا لم يترك الاول للآخر شيئا ، وهذه قاعدة ينبغي ان لا تتخذ دليلا في البحث العلمي ، والا ثبطت العزائم وفترت الهمم وترك الناس البحث والتتبع •

واذا كان القدماء لم ينهجوا هذا النهج ، ولم يبحثوا البلاغة بهذه الطريقة ، فليس من الفساد في شيء أنْ يأتي آخرون ، ويبحثوا بطريقة تختلف عن منهج المتقدمين اختلافا جوهريا • فالرواية في بيان فساد منهج السكاكي ليست دليلا وحجة ، ولا يمكن الركون اليها والاعتماد عليها ، لأن العقلية البشرية في تطور ، ولانّ العلم في تقدم • ولئن كان ابن المعتز وأبوهلال العسكري وابن رشيق وابن سنان وعبدالقاهر الجرجاني وغيرهم من أساطين البلاغة قد ساروا على منهج يختلف عن منهج السكاكي فليس معنى هذا ان عمل الاخير لا قيمة له ، وان منهجه غير مستقيم •

ولا بد من اتباع طريقة غير طريقة « الرواية » نستطيع بها ان ننقد ونناقش في مثل هذا الموضوع ، وهذا ما التجأ اليه الاستاذ المراغي فلنتابعه لنرى رأيه في الشق الثاني من نقده وهو « الدراية » • يقول : وأما ان الدراية لا تؤيده فذلك لاسباب منها ان الثمرة المستفادة من علم المعاني وهي معرفة أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال تُستفاد أيضاً من علم البيان والبديع ، لانا لا نعبر باستعارة ولا كناية الا اذا اقتضاها المقام فنوازن بين عدة تعبيرات ونرى أنسبها للحال بمراعاة حال السامع او السامعين فنعبر به • كما قال عبد القاهر : انه اذا اريد اثبات الشيء على جهة الترجيح بين ان يكون ولا يكون عبرت عنه بالتشبيه فقلت « رأيت رجلا كالاسد » ولم يكن ذلك من حديث الوجوب في شيء • واذا أردت اثباته على سبيل الوجوب وجعلته كالامر الذي نصب له دليل يقطع بوجوبه عبرت بالاستعارة وقلت : « رأيت أسداً » وذلك انه اذا كان أسدا فواجب

أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة ، وكالمستحيل أو الممتنع أن يعرى منها •

وحكم التمثيل حكم الاستعارة ، فانك اذا قلت : « اراك تقدم رجلا وتؤخر اخرى » فاوجبت له الصورة التي يقطع فيها بالتحير والتردد كان أبلغ لا محالة من ان تجري على الظاهر فتقول : « قد جعلت تتردد في امرك ، فانت كمن يقول اخرج او لا اخرج فيقدم رجلا ويؤخر اخرى » • وكذلك اذا اردت اثبات قضية دون حاجة الى برهان بان كان السامع مقتنعا بصحتها دون ان تزيده تأكيدا في اثباتها عبرت بالحقيقة فقلت : « زيد كريم » • وان رأيت انه في شك من صحتها أتيت بالقضية يصحبها دليلها وعبرت عن ذلك المعنى بطريق الكناية فقلت : « هوَ جَمّ الرماد »فأثبتّ القرى الكثير من وجههوأبلغ واشد في الايجاب والاثبات ، وذلك انك أتيت بالدليل والشاهد على صدق القضية ، فلا يشك فيها ولا يظن بالمخبر بها التجوز أو الغلط [1] •

ومن كلامه هذا نعلم ان هناك أحوالا للمخاطبين تقتضي تعبيرات مختلفة في الوضوح ، بعضها آكد من بعض في الاثبات ، وان هناك احوالا تقتضي الايجاز في الكلام حينا ، والاطناب حينا آخر ، والتوكيد طورا او عدمه طورا آخر • فالمطابقة لمقتضى الحال مطلوبة في مباحث كلا العلمين ، والاختلاف في الوضوح والخفاء موجود في مسائلهما •

وكما يصدق هذا على المعاني والبيان يصدق على البديع ، فالجمال الذي يوجد في التورية من حيث دقة التعبير ولطفه لا يقل عن الجمال الذي يوجد في الكناية ، والابداع الذي يوجد في الطباق والتقسيم ليس بأقل مما يوجد في الاستعارة •

---

(١) ينظر كتاب دلائل الاعجاز ص ٥٥ ـ ٥٨

وقد استند المراغي في هـذا الى ما عمله ابن المعتز في كتـاب « البديع » إذْ جعل من أنواع البديع الاستعارة والكناية ، وسوّى بينها وبين الأنواع البديعية التي ذكرها ، وسـار على أثره قدامـة بن جعفر وابو هلال العسكري وابن رشيق .

ويستفهم بعد ذلك قائلا : « فمن أين أتى السكاكي بهذا التفاوت وجعل بعضا منها فيما سماه البيان ، وبعضا فيما سماه البديع ، وبعضا منها تحسينه ذاتي ، وبعضا منها تحسـينه عرضي ؟ وانا لنعلم أنَّ من كان قبله ليس بأقل منه رسوخا في نقد الكلام وبيان غثه من سمينه ، وجيده من رديئـه ، فكيف خفي هذا على جلة العلمـاء مدى القرون الطوال فجاء السكاكي وكشفه ؟ اللهم إنّا لا نجد وجها لصحة هـذا الكشف الجديد ، ولو كنا وجدناه لما شككنا في صحته ، اذ لسنا من القائلين بتلك النظرية : « ما ترك الاول للآخر شيئا » .

ويقول المراغي بعد ذلك : إنّ مما يدل على أن مباحث هذه العلوم ليست متمايزة ان بعض المؤلفين أدخل المجاز العقلي في علم البيان ، بينا غيرهم أدخله في علم المعاني ، وكذلك نجد جماعة أدخلوا التذييل والاحتراس والاعتراض والحشو في البديع وأدمجـه غيرهم في المعـاني وجعلوه اقساما للاطناب . فلو كانت هناك حدود واضحة تميز قسما من قسم لما جاء مثل هذا الاختلاط والارتباك في تفريع هذه المسائل ووضعها في المواضع المناسبة لها (١) .

هذه فكرة الاسـتاذ المراغي في نقـد تقسيم السكاكي لعلـوم البلاغة ، وهي فكرة صحيحة دقيقة في كثير من الامور ، وانها التفاتة حسنة من الاستاذ تدل على عمق في التفكير وسعة في الاطلاع ، وتدل على روح تَوّاقة للتجديد والنظر في الامور نظرة تدقيـق وتمحيص ، ومع ذلك فلنا عليه ملاحظات .

---

(١) ينظر كتاب تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ص ١١٥ ــ ١١٨

فالنقطة الاولى من اعتراضه لايمكن الأخذ بها كلها لان السكاكي أشار الى مطابقة الكلام لمقتضى الحال في البيان أيضا ، يقول في تعريف علم المعاني : « علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره » • ويقول في تعريف البيان : « واما علم البيان فهو معرفة ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه » [1] •

فمطابقة الكلام موجودة ــ كما نرى ــ في المعاني وفي البيان ، وإنْ كانت في تعريفه للمعاني أوضح وأكثر جلاء • فالسكاكي يرى أنّه لابد أنْ تكون مطابقة لمقتضى الحال والا فلن يكون الكلام مؤدياً الغرض سواء كان ايجازا أم اطنابا ، تأخيرا أم تقديما ، مجازا أم كناية • وليست مطابقة الكلام لتمام المراد منه الا مطابقة لمقتضى الحال ايضا ، لانه ليس من المعقول أنْ نلقي الكلام بلا معنى ، والمعنى لا يكون مؤديا الغرض ما لم يطابق مقتضى الحال •

ولعل الاستاذ المراغي نظر الى هذا التقسيم من خلال تعريف الخطيب القزويني لعلمي المعاني والبيان ، لانه عرض قبل مناقشة السكاكي كلام صاحب تلخيص المفتاح • يقول القزويني في المعاني : « هو علم يعرف به احوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال » • ويقول في البيان : « هو علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه ، ودلالة اللفظ اما على واضع له او على غيره » [2] •

والفرق واضح بين كلام السكاكي وكلام ملخص مفتاح العلوم، وبذلك

---

(١) مفتاح العلوم ص ٧٧
(٢) الايضاح للقزويني ص ١١ ، ١٥٠

يتضح انه ليس من الدقة أن ينقد السكاكي على أساس تعريفي الخطيب القزويني •

فالثمرة المستفادة من علم المعاني وهي معرفة أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال تستشف من تعريفه لعلم المعاني ، ومن كلامه على المحسنات ، لانه يرى أنَّ أصل الحسن فيها « أنْ تكون الالفاظ توابع للمعاني لا ان تكون المعاني لها توابع » [1] ، ومادامت المحسنات تأتي بعد مراعاة علمي المعاني والبيان فلابد من أنْ تكون مطابقة لمقتضى الحال والا كانت عبثا ولغوا لافائدة فيه •

أما النقطة الثانية فان السكاكي لم يكن واضح المنهج فيها ، فهو يسمي البديع محسنات أو وجوها مخصوصة يؤتى بها لقصد تحسين الكلام ، ويرى أنَّ هذه الوجوه يجب أن تكون الالفاظ فيها توابع للمعاني لا ان تكون المعاني توابع لها • ولم يفصل المحسنات عن القسمين الآخرين ، فكثيرا ما يدخل أنواعاً من المحسنات في علم المعاني كالإلتفات والقلب وأسلوب الحكيم وتقليل اللفظ ولا تقليله • وما دام السكاكي قد صنع هذا الصنيع فلا يمكن الجزم بانه لايقصد من وراء المحسنات مطابقة لمقتضى الحال والمعنى • والذي نوافق الاستاذ المراغي عليه ما ذكره في الفقرة الثالثة • وقبل أن نخوض في مناقشة السكاكي يجدر بنا أن نشير الى رأي المراغي في تقسيم البلاغة ، لانه جاء به ردا على منهج السكاكي واثباتا لفساده •

يرى الاستاذ أننا اذا مادرسنا البلاغة فعلينا ان تقسمها الى علمين فنسمي العلم الذي يبحث عن فصاحة النظم « علم معاني النحو » أو « علم المعاني » على سبيل الاختصار في التسمية ، والعلم الذي يبحث عن فصاحة اللفظ او عن معنى المعنى بعلم البيان ، وتكون التسمية

---

(١) مفتاح العلوم ص ٢٠٤

مجرد اصطلاح والا فالكل بَحْثٌ بياني[١] •

وقد استفاد المراغي ـ كما يقول ـ من عبد القاهر الجرجاني في هذا التقسيم ، فعبد القاهر قَسَّمَ الكلام الفصيح قسمين : قسم تعزى المزية والحسن فيه الى اللفظ ، وقسم يعزى ذلك فيه الى النظم ، وعَدَّ من القسم الاول الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة والمجاز[٢] •

وهذا التقسيم ـ كما يبدو للناظر ـ هو التقسيم الذي استند اليه السكاكي حينما قسمها الى معانٍ يبحث فيه عن الخبر والانشاء ، والايجاز والاطناب ، والفصل والوصل ، والقصر وغيرها ، والى بيان يبحث فيه عن المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه •

وحينئذ نكون قد عدنا الى تقسيم السكاكي ، لان النظم عند عبد القاهر ليس الا « معاني النحو » ، ومعاني النحو هي التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والفصل والوصل ، والقصر • وهذه الموضوعات هي التي اطلق عليها السكاكي مصطلح علم المعاني • اما غير هذه الموضوعات فهي التي لا علاقة لها بالنظم ، وهي المباحث التي تكلم عليها السكاكي في علم البيان كالتشبيه والمجاز والكناية •

ولكن عبد القاهر الجرجاني نفسه لم يقف عند هذا التقسيم لانه يرى ان الاستعارة وغيرها من مباحث البيان من مقتضيات النظم ايضا • يقول موضحا ذلك : « الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون لانه لايتصور أنْ يدخل شيء منها في الكلم وهي افراد لم يتوخ فيما بينها حكم من احكام النحو ، فلا يتصور ان يكون ههنا فعل او اسم قد دخلته الاستعارة من دون ان يكون قد الف مع غيره • افلا ترى انه

(١) تأريخ علوم البلاغة ص ١١٩ •
(٢) ينظر كتاب دلائل الاعجاز ص ٣٢٩ •

ان قدر في « اشتعل » من قوله تعالى « واشْتَعَلَ الرأسُ شَيْبا »[1]، ان لايكون الرأس فاعلا له ويكون « شيبا » منصوبا عنه على التمييز لم يتصور ان يكون مستعارا وهكذا السبيل في نظائر الاستعارة فاعرف ذلك »[2] • وبذلك يقرر عبد القاهر ان لا انفصال بين المعاني والبيان ، وان كليهما فن واحد ، الهدف منه تقدير الكلام ومعرفة مافيه من روعة وجمال •

ومادمنا قد انتهينا من مناقشة الاستاذ المراغي ، فلنبدأ بمناقشة السكاكي والرد عليه •

☆ ☆

إن تقسيم السكاكي للبلاغة الى علوم ثلاثة لا أساس له ولا يمكن الاخذ به في دراستها دراسة تقوم على الذوق والمقاييس الفنية • ويتضح خطل هذا التقسيم في أمور أهمها ما يتعلق بتعريف السكاكي للمعاني ثم للبيان • يقول في المعاني : « إنّ علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره » •

وتتبع خواص تراكيب الكلام ليس مختصاً بعلم المعاني وحده وانما يشمل علم البيان ايضا بل ان « تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره من عمل البياني لانه هو الذي يتتبع خواص تراكيب الكلام • وكل اسلوب من الاساليب له خاصة تدل على المقصود به ولا فرق بين مباحث المعاني كما حصرها ، ومباحث البيان كما حصرها أيضاً • فللاساليب الخبرية دلالتها ، وللاساليب الانشائية دلالتها ، ولكل من التقديم والتأخير دلالته المعنوية ، كما ان لاساليب التشبيه والاستعارة والكناية وغيرها من موضوعات البيان دلالتها ايضا من الكشف والايضاح او المبالغة

---

(1) سورة مريم ، الآية ٤
(2) دلائل الاعجاز ص ٣٠٠

والتوكيد ، او الستر والاخفاء الى غيرها من الاغراض » [1] . وكذلك الاستحسان والاستهجان يصدق على جميع موضوعات البلاغة ، فالايجاز والاطناب يحسنان اذا استعملا في مواطنهما وأديا الغرض من استعمالهما وطابقا الحال ، ومثلهما جميع مباحث علم المعاني ، وكذلك موضوعات علم البيان ، وعلم البديع تحسن اذا استعملت استعمالا صحيحا وأدت الغرض منها ، وتقبح اذا لم تطابق مقتضى الحال .

ولا نعلم وجها لهذا التقسيم مع ان السكاكي قرر « أنّ البلاغة بمرجعيها ــ المعاني والبيان ــ وان الفصاحة بنوعيها ــ اللفظية والمعنوية ــ مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين » [2] .

وعرف البيان بانه « معرفة ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه » . فالصلة بين المعاني والبيان وثيقة ــ كما يتضح من التعريفين ــ لأن كليهما يحترز بالوقوف عليهما عن الخطأ في مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

ومما يؤاخذ السكاكي عليه انه خص البيان باداء المعنى بطرق مختلفة ، فقوله « في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان » ، لا يخص علم البيان وحده وانما يشمل المعاني أيضاً ، لاننا نستطيع كذلك أنْ نؤدي المعنى بطرق مختلفة بالزيادة في الوضوح او بالنقصان في موضوعات المعاني المختلفة . ففي قولنا « البرد قارص » أخبرنا عن كون البرد شديدا او اسندنا « قارص » الى « البرد » ، فاذا اردنا ان نزيد هذا المعنى وضوحا وتأكيدا قلنا : « ان البرد قارص » ، واذا اردنا ان نبالغ في تأكيد المعنى ووضوحه قلنا

(1) البيان العربي للدكتور بدوي طبانة ص ١٩٦ .
(2) مفتاح العلوم ص ٢٠٠

« ان البرد لقارص » .

وقد أشار عبد القاهر الجرجاني الى هذا التفاوت ، وانتبه السكاكي اليه أيضا فذكر جواب أبي العباس للكندي حين سأله قائلا : اني اجد في كلام العرب حشوا يقولون « عبدالله قائم » ثم يقولون « ان عبدالله قائم » ثم يقولون « ان عبدالله لقائم » والمعنى واحد ، وذلك ان قال ابو العباس : بل المعاني مختلفة فقولهم « عبدالله قائم » اخبار عن قيامه ، وقولهم « ان عبدالله قائم » جواب عن سؤال سائل ، وقولهم « ان عبدالله لقائم » جواب عن انكار منكر قيامه[1] .

ونستعمل الايجاز ــ مثلا ــ فلا يفهم السامع أو القارىء مانقصد، فنزيد كلامنا وضوحا بالاطناب وتفصيل القول . ولا ندرى كيف فات هذا على السكاكي مع أنَّهُ تكلم على جميع الحالات المقتضية لذلك ، فذكر الحالات التي تقتضي طي ذكر المسند اليه وإثباته وتعريفه وتنكيره، وذكر الحالات التي تقتضي طي ذكر المسند واثباته وتعريفه وتنكيره ، والحالات المقتضية للفصل وللوصل وغيرها .

وقد أحسَّ الاقدمون انفسهم بذلك فقالوا : « ان مابين قولك : « زيد قائم » و« ان زيدا قائم » و « ان زيدا لقائم » من التفاوت يضاهي مابين قولك « زيد كالاسد » و « زيد اسد » و « الاسد زيد » من التفاوت . والمعنى في كل منها متفاوت بسبب التأكيد . فكما اختلف حال المنكر وغيره في التأكيد بـ « إنَّ »و« اللام»اختلفت حاله مع غيره في هذه الطرق المذكورة في البيان .

وإنَّ المجاز الاسنادي أوضح في الدلالة من الحقيقة الاسنادية ، فان « عيشة راضية » أدل على رضا صاحبها من قولك «راض صاحبها» وان « زيد اسد » أدل من قولنا « زيد كالاسد » . وكذلك كل واحد من مقتضيات ما يتعلق بالمسند او المسند اليه من حذف وذكر ، وتقديم

---

(١) مفتاح العلوم ص ٨٢

وتأخير ، واتباع مما يطول ذكره ، وكذا الايجاز والاطناب والمساواة انما هي طرق مختلفة في وضوح الدلالة » [١] • فايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان يشمل المعاني والبيان والبديع فلا اساس اذن لهذا التقسيم •

ومما يؤيد مانذهب اليه ان السكاكي نفسه جعل علم البيان شعبة من علم المعاني ، يقول « ولما كان علم البيان شعبة من علم المعاني لا تنفصل عنه الا بزيادة اعتبار جرى منه مجرى المركب من المفرد، لاجرم آثرنا تأخيره » [٢] • فالسكاكي يقرر أنّ البيان شعبة من المعاني ولا ينفصل عنه الا بزيادة اعتبار ، ولكنه لم يوضح هذه الزيادة • وعلى كل حال فهذا اعتراف منه بأن لا حاجة الى فصل المعاني عن البيان لانهما مرتبطان اشد الارتباط ، ومتداخلان أعظم التداخل• ولكن أنّى له ان يعترف بهذا صراحة وهو الذي يريد ان يجعل من البلاغة علوما شتى وليس له بعد ذلك الا ان يفصلهما ويلتمس التعليل لذلك ينص على أن علم البيان شعبة من علم المعاني لا تنفصل عنه الا بزيادة اعتبار • وهذا من السكاكي امعان في التمحل واسراف في التقسيم •

وقد تابعه في هذا التمحّل والاغراق في التقسيم ، كثيرون فقال السبكي : « إنّ علم البيان باب من أبواب علم المعاني وفصل من فصوله، وانما افرد كما يفرد علم الفرائض عن الفقه » ، وقال أيضا إنّ علم المعاني وعلم البيان متداخلان[٣] •

ونستنتج مما تقدم أنّ مطابقة الكلام لمقتضى الحال تشمل مباحث البلاغة كلها ، وان تتبع خواص تراكيب الكلام لا تخص نوعا واحدا من اقسام البلاغة ، وأنّ الاستحسان والاستهجان ينطبق على موضوعات البلاغة كلها ، وأنّ ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في

---

(١) عروس الافراح ــ شروح التلخيص ج ٣ ص ٢٦١
(٢) مفتاح العلوم ص ٧٧
(٣) عروس الافراح ــ شروح التلخيص ج ٣ ص ٢٦١ ، وج ١ ص ٤٩٣

وضوح الدلالة عليه وبالنقصان لا يخص البيان وحده ، وانما يشمل جميع مباحث البلاغة . يضاف الى ذلك أنّ الاحتراز عن الخطأ ينطبق على البلاغة كلها كما اتضح من تعريف السكاكي للمعاني والبيان .

وعلى هذا الاساس فلا فائدة في تقسيم البلاغةهذا التقسيم المنطقي مادام كل من المعاني والبيان والبديع يشترك في الخصائص المتقدمة .

* *

ويتضح خطل هذا التقسيم في عدم استقرار موضوعات البلاغة عند السكاكي ، فهو يذكر في علم المعاني مباحث من علم البديع ، ويذكر في علم البيان موضوعات أدخلها غيره في علم المعاني .

ولتوضيح هذا الاضطراب نذكر مايؤيد قولنا وما نذهب اليه فأول ما نلاحظه أن السكاكي تكلم على الحقيقة العقلية والمجاز العقلي في علم البيان ولكنه أنكر المجاز العقلي بعد أن تكلم عليه ومثّل له وذكر أقسامه ومسائله ، ورأى أنّ هذا النوع من المجاز ينبغي أن ينظم في سلك الاستعارة بالكناية .

وتحدث الخطيب القزويني عنه في علم المعاني وذكر أن الاسناد منه حقيقة عقلية ومنه مجاز عقلي ، ورد على السكاكي ، لانه نظّم المجاز العقلي في سلك الاستعارة بالكناية ، وعلل سبب ذكره في مباحث علم المعاني بقوله : « انما لم نورد الكلام في الحقيقة والمجاز العقليين في علم البيان كما فعل السكاكي ومن تبعه لدخوله في تعريف علم المعاني دون تعريف البيان »[1] .

ومن هنا نرى ان السكاكي نفسه كان مضطربا في وضع المجاز العقلي فهو بعد ان تكلم عليه وذكر صوره ، عاد فانكره واعتبره نوعا من الاستعارة . وكان غيره من القدماء مختلفين في هذا النوع من

---

(١) الايضاح للقزويني ص ٢٧

المجاز فمنهم من يضعه في البيان كما فعل السكاكي ــ وان انكره بعد ذلك ــ ومنهم من يضعه في المعاني كما فعل القزويني •

وما أحرى هؤلاء أن يفردوا له بابا خاصا ــ إنْ ارادوا بحثه ــ ويجعلوه أحد مباحث البلاغة بعد أنْ يلغوا التقسيم الثلاثي ، وبذلك تتخلص البلاغة من هذا النزاع الذي ليس فيه جدوى ، والذي لايؤخر أو يقدم في بحث فنون البلاغة • ولكنهم قوم مولعون بالتحديد والتقسيم، فماداموا قد قسموا البلاغة الى معانٍ وبيان وبديع فلا بد ان يتسابقوا في تحديد بحوث كل قسم ، وان يوردوا من الحجج العقلية والادلة المنطقية ما يقوي رأيهم ويجعل له رواجا بين الدارسين •

ويلاحظ ان السكاكي تكلم على الالتفات في علم المعاني وقال عنه: « ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء المعاني »[١] • وذكره مرة اخرى في المحسنات المعنوية ولكنه لم يتكلم عليه واكتفى بأن قال « وقد سبق ذكره في علم المعاني » • وبذلك نرى السكاكي يذكر هذا النوع في المعاني مرة وفي البديع مرة اخرى ، مع أن الزمخشري جعله من البيان ، يقول متحدثا عن العدول عن لفظ الغيبة الى لفظ الخطاب ، « قلت : هذا يسمى الالتفات في علم البيان »[٢] • وعده المطرزي من موضوعات علم البيان أيضاً متابعا الزمخشري في ذلك[٣] •

فالالتفات ــ كما نرى ــ يقع بين المعاني والبيان والبديع ، ولا يدري الباحث حينئذ اين يضعه •

وقد علل ابن يعقوب المغربي هذا التردد وبيَّنَ مكانه في كل علم ، يقول : « فان قلت لأي وجه خصص تسميته بعلماء المعاني مع أنَّ عَدَّ الالتفات من البديع أقرب لان حاصل ما فيه انه يفيد الكلام ظرافة

---

(١) مفتاح العلوم ص ٩٥
(٢) الكشاف ج ١ ص ١١
(٣) ينظر كتاب الايضاح في شرح مقامات الحريري للمطرزي ص ١٨

وحسن تطرية فيصغى اليه لظرافته وابتداعه ولا يكون الكلام به مطابقاً لمقتضى الحال فلا يكون من علم المعاني فضلا عن كونه يختص بهم فيسمونه به دون اهل البديع ؟

قلت : اما كونه من الاحوال التي تذكر في علم المعاني فصحيح، كما اذا اقتضى المقام فائدته من طلب مزيد الاصغاء لكون الكلام سؤالا او مدحا او اقامة حجة او غير ذلك • فهو من هذا الوجه من علم المعاني• ومن جهة كونه شيئا ظريفا مستبدعا يكون من علم البديع • وكثيرا مايوجد في علم المعاني مثل هذا فليفهم • واما تخصيص علماء المعاني بالتسمية فلا حجر فيه والله اعلم » [١] •

ولولا تقسيم السكاكي البلاغة الى أقسامها الثلاثة ، وحصر كل قسم بتعريف منطقي جامع مانع لما احتاج ابن يعقوب المغربي وغيره الى هذا التمحل والاغراق في التأويل • والا فهل يمكن استعمال الالتفات من غير أنْ يؤدي معنى يكون مطابقا لمقتضى الحال ، وتكون فيه ظرافة وطلاوة ؟ ان الانتقال من اسلوب الى اسلوب لا يكون الا اذا اقتضى الحال ، وأريد به نوع من الابداع والمتعة الفنية •

فتعريف المعاني ، وتعريف البديع ينطبقان عليه في وقت واحد ، ولا نرى مبرراً للتفريق في عَدِّه من المعاني مرة ، ومن البديع تارة اخرى على الوجه الذي يذهب اليه البلاغيون • وتعليل السكاكي لجمال الالتفات لايدخله في المعاني وانما يدخله في البديع لانه قال : « والعرب يستكثرون منه ، ويرون الكلام اذا انتقل من اسلوب الى اسلوب أدخل في القلوب عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه وأملأ باستدرار اصغائه » [٢] • فذكرُ الالتفات في المعاني مرة وفي البديع مرة اخرى فيه اضطراب وعدم دقة في التبويب •

---

(١) مواهب الفتاح ــ شروح التلخيص ج ١ ص ٤٦٤
(٢) مفتاح العلوم ص ٩٥

ولما كان الالتفات ضربا من فنون البلاغة ، له أسلوبه وله جماله فليس من الدقة أنْ يبقى مترددا فيكون في علم المعاني اذا اقتضى المقام فائدته ، ويكون في علم البديع من جهة كونه شيئا طريفا مستبدعا ، وانما يُفرد له باب كما أفرد له ضياء الدين بن الاثير وفصّل القول فيه، ولم ينظر اليه هذه النظرة الشكلية التي تفقده قيمته وتذهب برونقه وجماله في الكلام .

وتكلم السكاكي على أسلوب الحكيم والقلب في باب المسند اليه والدقة تقتضي عقد فصل لكل منهما ــ اذا ما الغينا التقسيم الثلاثي ــ أو أنْ يوضعا في علم البديع اذا ما بقيت البلاغة ثلاثة فنون .

وتكلم على تقليل اللفظ ولا تقليله في المحسنات أي البديع ، وذكر ان له صلة بالايجاز والاطناب . ومادام هذا النوع من الكلام متصلا بالايجاز والاطناب فلا حاجة الى بحثهما منفردين ، وكان من الدقة ان يجمع شتاتهما ويوحّد بينهما ويبحثا في باب واحد .

وأدخل الاعتراض أو الحشو في المحسنات المعنوية مع ان غيره من رجال البلاغة كالخطيب القزويني أدخله في الاطناب وعده أحد اقسامه الكثيرة .

واضطرب البلاغيون في وضع كثير من انواع الاطناب كالايغال والتذييل والتكميل والاحتراس ، فمرة يضعونها في المعاني تابعة للاطناب ، ومرة يضعونها في البديع ، يقول السيوطى « وأنواعه أي البديع وهي الوجوه المذكورة كثيرة جدا تربو على المائتين ، وفي بديعية الصفى منها مائة وخمسون نوعا ، ومرّ منها كثير في فني المعاني والبيان كأقسام الاطناب » [1] .

فاذا كانت لهذه الانواع فائدة وفيها اداء حسن للمعاني فلماذا لاتبحث مستقلة ويفصل القول فيها ، بدلا من اضطرابها في فنون

(١) اتمام الدراية للسيوطي على هامش مفتاح العلوم ص ٦١ المطبعة الادبية .

البلاغة الثلاثة ؟

وقد ذكر السكاكي من امثلة المجاز «المستثنى منه في باب الاستثناء» ولكنه لم يتحدث عنه في باب المجاز وانما تكلم عليه في باب الاستدلال ، يقول : « ومن أمثلة المجاز المستثنى منه في باب الاستثناء ، وتحقيق الكلام في ذلك مفتقر الى التعرض للتناقض ، وسينشعب من علم المعاني شعبة تثمر المصير الى مآله ، وعليه فالرأي ان نؤخر الكلام في الاستثناء الى الفراغ من تلك الشعبة وهي شعبة علم الاستدلال »[1] •

واذا كان هذا النوع من المجاز له قيمته في التعبير ، فلماذا لم يبحثه في باب المجاز لانه شعبة منه ؟ وما علاقة الفن الادبي بالاستدلال ؟ لقد وجدنا أنّ ماكتبه عن هذا النوع من المجاز لافائدة فيه ولا قيمة له ولم نر احدا تكلم عليه من علماء البلاغة الذين يشهد لهم بالذوق والاطلاع الواسع • وليس هذا المجاز ــ كما يسميه ــ الا نوعا من التناقض ولعبا بالاساليب •

هذه أهم الجوانب التي اضطرب السكاكي فيها فأخذ يرددها ذات اليمين وذات الشمال • وقد كان المتقدمون اوضح منهجا واكثر دقة منه لانهم لم ينظروا الى البلاغة وفنونها نظرة عقلية فيها التحديد والتقسيم بحيث أخرجها عن كونها مقاييس فنية • ولذلك نرى انه لاوجه لهذا التقسيم الثلاثي الذي لم تستقر فيه بحوثه وموضوعاته ، ونرى أنّ بحث البلاغة ينبغي أن ينظر اليه نظرة اخرى تعتمد على الذوق الادبي والاحساس الفني اكثر من اعتمادها على المنطق وعلم الكلام ، فتحذف الموضوعات التي لاعلاقة لها بالفن الادبي ، وتثبت البحوث التي لها قيمتها وأثرها في تقويم الادب ، على ان تبحث جميع الموضوعات كأنها ضرب واحد ، فلا فصل بين معان وبيان وبديع •

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٤

٣

اما الناحية الثانية المتعلقة بمنهجه في بحث كل قسم من اقسام لبلاغة الثلاثة فسننظر فيها لنرى اضطراب السكاكي وعدم دقته في التبويب .

ففي علم المعاني قرر ــ كما قرر غيره ــ أن كلام العرب شيئان : الخبر والطلب ، ولذلك قسم المعاني الى قانونين : الاول يتعلق بالخبر ، والثاني يتعلق بالطلب .

وقسم القانون الاول الى اربعة فنون :

الفن الاول : في تفصيل اعتبارات الاسناد الخبري ، تكلم فيه على أنواع الخبر وأغراضه ومؤكداته وخروجه عن مقتضى الظاهر .

والفن الثاني : في تفصيل اعتبارات المسند اليه ، تكلم فيه على حذف المسند اليه وذكره وتعريفه واضماره وكونه علما سواء كان موصولا أم اسم اشارة أم معرفا بالالف واللام أم بالاضافة . وتكلم على وصف المعرف وتأكيد المسند اليه وبيانه وتفسيره وبدله والحالة التي تقتضي العطف والفصل ، وتنكيره وتقديمه على المسند وتأخيره، وقصره وخروجه على مقتضى الظاهر ، والالتفات .

والفن الثالث : في تفصيل اعتبارات المسند ، تكلم فيه على حذف المسند وذكره وافراده وكونه فعلا، وتقييده وترك تقييده وكونه منكرا ، وتكلم على تخصيصه وتركه ، وكونه اسما معرفا وكونه جملة فعلية واسمية وظرفية ، وتكلم على تأخير المسند وتقديمه . وعقد في هذا الفن فصلا تحدث فيه عن الفعل ، فذكر تركه واثباته وترك مفعوله واثباته ، واضمار الفاعل واظهاره ، وتحدث عن اعتبار التقديم والتأخير مع الفعل ، وعن الحالات المقتضية لتقييد الفعل بالشروط .

والفن الرابع : في تفصيل اعتبارات الفصل والوصل ، والايجاز والاطناب • وبعد ان انتهى من هذا الفن عقد للقصر فصلا خاصا ، لانه ارجأ بحثه الى هذا المكان من كتابه « مفتاح العلوم » •

وقسم القانون الثاني الى خمسة أبواب هي :التمني والاستفهام والامر والنهي والنداء •

وبعد ان انتهى من بحث الخبر والطلب تكلم على استعمال الخبر موضع الطلب ، واستعمال الطلب موضع الخبر ، وذكر اسلوب الحكيم في نهاية بحث علم المعاني •

بهذا المنهج بَحَثَ السكاكي علم المعاني ، وبهذا التقسيم رتب موضوعاته، ويلاحظ أنه قدم البحث في الخبر مع ان كثيرا من الموضوعات التي بحثها فيه لاتخص الخبر وحده ، وانما هي مشتركة بينه وبين الطلب • وقد علل التفتازاني بحث المعاني بهذا المنهج بقوله : « وانما ابتدأ بابحاث الخبر لكونه أعظم شأنا وأعم فائدة ، لانه هو الذي يتصور بالصور الكثيرة ، وفيه تقع الصياغات العجيبة ، وبه تقع غالبا المزايا التي بها التفاضل ، ولكونه أصلاً في الكلام لان الانشاء انما يحصل منه باشتقاق كالامر والنهي ، او نقل كبئس ونعم وبعت وأشتريت ، أو زيادة أداة كالاستفهام والتمني وما أشبه ذلك •

ثم قدم بحث احوال الاسناد على أحوال المسند اليه والمسند مع أنّ النسبة متأخرة عن الطرفين ، لان علم المعاني انما يبحث عن احوال اللفظ الموصوف بكونه مسندا اليه ومسندا • وهذا الوصف انما يتحقق بعد تحقيق الاسناد ، لانه ما لم يسند احد الطرفين الى الآخر لم يصر أحدهما مسندا اليه ، والآخر مسندا ، والمتقدم على النسبة انما هو ذات الطرفين ولا بحث لنا عنها »[1] •

ومهما حاول أنصار هذا المنهج ان يدعموه بالبراهين العقلية ، فان

---

(١) المطول على التلخيص ص ٤٣

البلاغة التي نقيس بها الكلام ونحكم على حسنه وجماله ، لا يمكن أن يعلل منهج بحثها هذا التعليل الفلسفي ، وان يصطنع لها هذا المنهج اصطناعا بعيدا عن روحها الادبية والفنية .

ولكن هل نجح السكاكي في هذا المنهج ؟ وهل استطاع أن يحصر فنون علم المعاني حصرا دقيقا ؟

الواقع ان السكاكي لم ينجح في هذا التقسيم الذي بناه على المنطق فحصر به موضوعات المعاني حصرا مزق فيه أوصالها تمزيقا أفقدها كل روح وباعد بينها وبين مايتطلبه الفن الادبي الذي ينبغي أنْ يعتمد ــ أول مايعتمد ــ على الذوق لا على علم المنطق ومقاييسه العقلية .

ولتوضيح هذا نرى أنه قسم مباحث المعاني حسب ركني الجملة ــ المسند اليه والمسند ــ وعلى هذا الاساس ذكر التقديم ــ مثلا ــ في المسند اليه مرة ، وفي المسند تارة أخرى .وقد فعل هذا في الموضوعات الاخرى كالتأخير ، والحذف والذكر ، والتعريف والتنكير وغيرها .

وكان من الدقة ان يبحث كل موضوع وحده فيتكلم على التقديم والتأخير في فصل واحد ، والذكر والحذف في فصل آخر ، والتعريف والتنكير في فصل ثالث . وبذلك تجمع أوصال الموضوع الواحد في بحث يستوفي اجزاءه ويجمع شتاته . اما ان يوزع أقسام الموضوع الواحد هذا التوزيع الذي لامبرر له ويذكر عنه في كل باب تنفا يسيرة لاتفيد الدارس والناقد شيئا ، فهذا مالايمكن الاخذ به والاعتماد عليه .

ومقارنة بسيطة بين ماكتبه السكاكي في هذه الموضوعات وماكتبه عبد القاهر الجرجاني أو ضياء الدين بن الاثير لتوضّح مدى إفساد السكاكي هذه المباحث والجور عليها . فبعد أنْ كنا نقرأ في « دلائل الاعجاز » أو في « المثل السائر » موضوعات فيها ذوق ومتعة ، وفيها رِيٌ للقارىء لما اشتملت عليه من تفصيل وتحليل ومن جمع لاجزاء

الموضوع الواحد جمعا يخرج الدارس منه بنتيجة وفكرة واضحة ، بعد هذا كله ترانا نقرأ في « مفتاح العلوم » موضوعات فُرقت اجزاؤهـا وتناثرت أوصالها في عدة أبواب لايخرج الدارس منها الا بصور حائلة وقواعد جامدة • وقد يلجأ الدارس ليكوّن فكرة صحيحة الى أن يلم شتات الموضوع الواحد ، ويضم بعضها الى بعض ، وفي هذا اضاعة للجهد وإفساد للبلاغة •

وكانت نتيجة عمل السكاكي أن بَتَرَ الموضوعات وشَوّه معالمها وما فيهـا من رونق وذلك باحالـة القاريء الى فن آخر ليجـد تكملة الموضوع الذي يقرأ فيه ، وكثيرا مانجد عنده مثل هذه العبارة : « وأما الحالة التي تقتضي تأخيره عن المسند فهي اذا اشتمل على وجه من وجوه التقديم كما سترد عليك في الفن الثالث » ، وغيرها من العبارات •

اما بحث خروج الكلام عن مقتضى الظاهر كوضع المضمر موضع المظهر ، ووضع المظهر موضع المضمر ، والالتفات في المسند والمسند اليه، فان هذه الموضوعات ليست خاصة بالمسند اليه وحده وانما تدخل على المسند ايضا • وقد أشار السكاكي نفسه الى ذلك فقال : « واعلمْ أنّ هذا النوع أعني نقل الكلام عن الحكاية الى الغيبة لا يختص بالمسند اليه »[1] • وكان عليه ــ ما دام قد اعترف بذلك ــ أن يضع لكل نوع من هـــذه الفنون بحثـا خاصا يفصل القول فيه ، ويبين ما فيــه من بلاغة•

وتكلم على استعمال المضارع مكان الماضي في الحالات المقتضية لتقييد الفعل بالشرط مع ان الاخبار عن الفعل الماضي بالفعل المضارع او بالمستقبل نوع من الالتفات كما صرح به بعض البلاغيين ولاسيما ضياء الدين بن الاثير الذي قسم الالتفات الى ثلاثة اقسام : قسم في الرجوع عن الغيبة الى الخطاب وعن الخطاب الى الغيبة ، وقسم في الرجوع عن

---

(١) مفتاح العلوم ص ٩٥

الفعل المستقبل الى فعل الامر ، وعن الفعل الماضي الى فعل الامر ،وقسم في الاخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل وعن المستقبل بالماضي [١] •

وعقد السكاكي فصلا للفعل ومايتعلق بـه من ترك واثبـات ، واظهار واضمار ، وتقديم وتأخير ، مع ان الفعل مسند ، وكان عليه ان يبحثه في باب المسند ويذكر ان المسند يأتي فعلا كما يأتي اسما وجملة •

ولكننا في هذا الصدد لابد من أنْ نحمدله انتباهه الى اشتراك كثير من المباحث التي ذكرها في المسند والمسند اليه ، فقد أحَسَّ وهو يتكلم على الحالة المقتضية لقصر المسند اليه على المسند أنَّ القصر لايختص بالمسند اليه وإنما يدخل المسند ايضا ويجري بين الفاعل والمفعول وبين المفعولين وبين الحال وذى الحال وبين كل طرفين ، لذا اجل البحث فيه الى مكان آخر • يقول : « واعلمْ أنَّ القصر كما يكون للمسند اليه على المسند يكون للمسند على المسند اليه ، ثم هو ليس مختصا بهذا البيِّن ، بل له شيوع وله تفريعات ، فالاولى أنْ تفرد للكلام في ذلك فصلا ونؤخره الى تمام التعرض لما سواه في قانوننا هذا ليكون الـى الوقوف عليه اقرب » [٢] • وقد صنع مثل هـذا في بحث الايجـاز والاطناب ، والفصل والوصل ، وبذلك جمع شتات هذه الموضوعات •

هذا فيما يتعلق باتخاذ ركني الجملة ــ المسند والمسـند اليه ــ أساسا في تقسيم مباحث المعاني ، اما فيما يتعلق بالموضوعات نفسـها فقد ذكر السـكاكي التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والفصل والوصل ، والايجاز والاطناب ، والتعريف والتنكير ، والقصر ، فـي القانون الاول أي في باب الخبر • وليس في هذا دقة ، لان هـذه الموضوعات تدخل الطلب ، كما تدخل الخبر •

وقد انتبه المتقدمون الى هذا فقال عبد القاهر الجرجاني ، « إنّه

---

(١) ينظر المثل السائر لابن الاثير ج ٢ ص ٤ ــ ١٩
(٢) مفتاح العلوم ص ٩٤

لا يجوز أنْ يكون لنظم الكلام وترتيب اجزائه في الاستفهام معنى لا يكون له ذلك المعنى في الخبر ، ذلك أن الاستفهام استخبار ، والاستخبار هو طلب من المخاطب ان يخبرك فاذا كان كذلك ، كان محالا ان يفترق الحال بين تقديم الاسم وتأخيره في الاستفهام فيكون المعنى اذا قلت : « أزيد قام ؟ » غيره اذا قلت : « أقام زيد ؟ » ، ثم لا يكون هذا الافتراق في الخبر . ويكون قولك « أزيد قام » و« قام زيد » سواء ، ذلك لانه يؤدي الى أن تستعمله أمراً لا سبيل فيه الى جواب ، وأن تستثبته المعنى على وجه ليس عنده عبارة يثبته لك بها على ذلك الوجه »[1] . وقال : « واذ قد عرفت الحكم في الابتداء بالنكرة في الاستفهام ، فابْنِ الخبر عليه »[2] .

ولكن السكاكي لم يأخذ برأي عبد القاهر ــ كما يبدو ــ مع أنه تسلط على كتابيه « أسرار البلاغة » و« دلائل الاعجاز » وجردهما من النزعة الادبية ، وأحالهما هياكل بتقسيماته وتبوبيه .

والغريب أن الخطيب القزويني والتفتازاني وغيرهما تابعوا السكاكي في هذا التقسيم مع أنهم ذكروا أنَّ الموضوعات التي بحثت في الخبر من تقديم وتأخير ، وحذف وذكر ، وتعريف وتنكير وغيرها ، تدخل الطلب كما تدخل الخبر . يقول الخطيب القزويني بعد أنْ ذكر احوال المسند : « كثير مما ذكر في هذا الباب والذي قبله غير مختص بهما كالذكر والحذف وغيرهما ، والفطن إذا أتقن اعتبار ذلك فيهما لا يخفى عليه اعتباره في غيرهما »[3] . وكرر هذا الكلام في كتابه الآخر بعد أن ذكر أحوال الاسناد وأحوال المسند اليه وأحوال المسند وأحوال متعلقات الفعل والقصر ، فقال : « ما ذكرناه في الابواب الخمسة السابقة ليس كله مختصا بالخبر ، بل كثير منه حكم الانشاء

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٠٨ .
(٢) دلائل الاعجاز ص ١٠٩
(٣) التلخيص للقزويني ص ١٢٥ .

فيه حكم الخبر . يظهر ذلك بأدنى تأمل »[1] .

ويقول التفتازاني : « إن الاسناد الانشائي أيضا امـا مؤكد أو مجرد عن التأكيد ، وكذا المسند اليه إما مذكور أو محذوف ، مقدم أو مؤخر ، معروف أو منكر الى غير ذلك . وكذا المسند اسم أو فعل ، مطلق أو مقيد بمفعول أو بشرط أو بغيره ، والمتعلقات إمّا متقدمة أو متأخرة ، مذكورة او محذوفة ، واسناده وتعلقه ايضا إما بقصر أو بغير قصر ، والاعتبارات المناسبة في ذلك مثل ما مر في الخبر . ولا يخفى عليك اعتباره بعد الاحاطة بما سبق »[2] .

ولكنّ البلاغيين سُحروا بطريقة السكاكي مع تنبههم الى ما في منهجه من اضطراب وساروا عليه من غير أنْ يحاولوا إصلاحه ، الا ما صدر عنهم من ملاحظات لا تبعد البلاغة عن جوهر منهج السكاكي كثيراً .

واذا ما اردنا أنْ نعيد ترتيب مباحث علم المعاني في كتاب « مفتاح العلوم » فاننا نرى أنْ يبحث الخبر والانشاء في باب مستقل ، وتذكر أنواعهما وأساليبهما المختلفة . ثم تبحث الجملة في باب مستقل ، ولكن لا كما بحثها السكاكي وفَرَّق مسائلها ، وانما تجمع اجزاؤها فيكون للتقديم والتأخير فصل ، وللحذف والذكر فصل ثانٍ ، وللتنكير والتعريف فصل ثالث ، وللقصر وأنواعه وطرقه فصل رابع ، ولتقييد المسند والمسند اليه فصل خامس . ولابد من بحث كل من الفصل والوصل ، والايجاز والاطناب ، في فصول مستقلة .

وبهذه الطريقة نستطيع أنْ نجمع ما فرقه السكاكي في كتابه من موضوعات علم المعاني ، ونبعث في هذا الفن الروح ليكون صالحا في الدراسات الادبية والنقدية .

---

(1) الايضاح للقزويني ص ١٠٩

(2) المطول على التلخيص ص ٢٤٦

ولسنا نأتي بجديد اذا ما دعونا الى هــذا الترتيب ، فقد بحثها رجال البلاغة المتقدمون بهذه الطريقة ، كأبي هــلال العسكري وابن رشيق وابن سنان الخفاجي وعبد القــاهر الجرجاني وضياء الدين بن الاثير وغيرهم ، وكانت بحوثهم ذات قيمة ، وكان لهــا أثر في الدارس لانهم لم يمزقوا هذه الموضوعات شر ممزق ، ولم يوزعوها في فصول وأبواب متعددة ، وانما جمعوها جمعا فيه طرافة وفيه فائدة عظيمة • ومن هنــا جاءت كتبهم آية في الابداع ، وجــاءت بحوثهم في غــــاية الوضوح والجلاء •

☆ ☆

هذا فيما يتعلق بعلم المعاني ، اما فيما يتعلق بعلم البيان فانه لما كان عند السكاكي علما يبحث فيه عن طرق الكلام التي يؤدى بهــا المعنى الواحــد في صور مختلفــة بالزيادة في وضوح الدلالة عليــه وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك من الخطــأ في مطابقــة الكلام لتمام المراد منه ، فقد حصــر موضوعاته حَصْراً منطقياً فيه تَمَحُّل" وإغراق في الضبط ، وبُعْد" عن روح الادب والفن •

ولما كان إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة غير ممكن بالدلالات الوضعية وانما يتأتى ذلك بالدلالات العقلية ، فقد حَصَر البيــان في المجاز والكناية ، لان دلالتهما عقلية ، فالمجــاز انتقال من اللازم الى الملزوم • يقول : « اذا ظهر لك أنَّ مرجع علم البيان هاتان الجهتان ، علمت انصباب علم البيان على التعرض للمجاز والكناية ، فان المجــاز ينتقل فيه من الملزوم الى اللازم •• وان الكناية ينتقل فيها من اللازم الى الملزوم » (١) •

أما التشبيه فدلالته وضعية ــ كما يزعمون ــ لذلك لا يدخل في

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٧

علم البيان ، ولكن لما كان في المجاز ما ينبني على التشبيه تعين التعرض له . يقول : « ثم ان المجاز أعني الاستعارة من حيث أنهـا من فروع التشبيه لا تتحقق بمجرد حصول الانتقال من الملزوم الى اللازم ، بل لا بُدَّ فيها من تقدمة تشبيه شيء بذلك الملزوم في لازم له تستدعي تقديم التعرض للتشبيه ، فلا بد من أن نأخذه أصلا ثالثا ونقدمه »[1] .

ومع هذا الحصر المنطقي لم يستطع السكاكي أنْ يخرج التشبيه من بحث البيان ، ولم يستطع الا أنْ يعترف بان من مهر في التشـبيه ملك زمام التدرب في فنون السحر البياني . ولم يستطع أن يجعلـه مقدمة لدراسة الاستعارة ، وانما جعله اصـلا ، لانه متشعب كثـير المباحث وكثير الدوران في الكلام .

وبهذه الطريقة حصر السكاكي مباحث البيان في التشبيه والمجاز بانواعه ، والكناية . وهذا الحصر وان كان منطقيـا وفيه إغراق في التكلف كما صرح السكاكي بذلك فقال : « والمطلوب بهـذا التكلف هو الضبط فاعلم »[1] ، فانه أدق من منهجه في بحث المعاني .

وقسم التشبيه الى أربعـة مطالب ، تكلم في الاول على طـرفي التشبيه ، وفي الثاني على وجه الشبه ، وفي الثـالث على الغرض من التشبيه ، وفي الرابع على أحوال التشبيه من كونه قريبا أو غريبـا ، مقبولا أو مردودا .

وهو في هذا التقسيم موفق الى حد ما ، لولا انه اضطرب قليلا في بحث المطالب الاربعة ففرق بعض المسائل هنـا وهناك ، وكان من الدقة أنْ يجمع كل صنف منها في مطلبه . وكان من الممكن أن يتكلم على طرفي التشبيه واستنادهما الى الحس أو العقل ثم يتكلم بعد ذلك

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٧

على أدوات التشبيه ـ وهي من أركان التشبيه ـ ويوضح معانيها واستعمالها ، ويبحث وجه التشبيه بحثا فيه طرافة وفيه رونق ، ثم يعقب ذلك البحث في أحوال التشبيه ومراتبه واغراضه . وبذلك يكون بحث التشبيه أقرب الى روح البلاغة ، وأقرب الى روح الفن .

ومما يؤخذ على السكاكي انه لم يفصّل في بحث التمثيل ولم يُبَيِّنْ مزاياه وما فيه من روعة وخيال وتصوير ، مع أنّ عبد القاهر الجرجاني الذي استفاد السكاكي منه كثيرا بَحَثَ التمثيل بَحْثاً مفصلا ، وأورد له النماذج الادبية الرائعة . ولم يتكلم بالتفصيل على « التشابه » ولم يذكر له أمثلة شعرية .

وقسم المجاز كما قسمه السلف ـ كما يقول ـ وعقد له خمسة فصول هي : المجاز اللغوي الراجع الى معنى الكلمة غير المفيد ، والمجاز اللغوي الراجع الى المعنى المفيد الخالي عن المبالغة في التشبيه ، والثالث في الاستعارة التي قسمها الى ثمانية اقسام هي : الاستعارة المصرح بها التحقيقية مع القطع ، والاستعارة المصرح بها التخييلية مع القطع ، والاستعارة المصرح بها المحتملة للتحقيق والتخييل ، والاستعارة بالكناية ، والاستعارة الاصلية ، والاستعارة التبعية ، والاستعارة التجريدية .

والقسم الرابع في المجاز اللغوي الراجع الى حكم الكلمة في الكلام ، وأخيرا في المجاز العقلي .

ومع أنّ للسكاكي رأياً في المجاز سنعرضه في مكان آخر ، فان في هذا التقسيم وتقسيمه الذي ذكره ، كثيرا من التعقيد وعدم الفائدة في درس البيان ، وكان من الاجدر أنْ يقسم المجاز الى قسمين : مجاز لغوي ، ومجاز عقلي ، ويقسم المجاز اللغوي الى استعارة ، والى مجاز مرسل ، ويكتفي من الاستعارة بانواع قليلة جدا لها قيمتها في التعبير

وأثرها في الكلام وخلق الصور الادبية البديعة •

وقسم السكاكي الكناية الى ثلاثة إقسام هي : الكناية المطلوب بها نفس الموصوف ، والكناية المطلوب بها نفس الصفة ، والكناية المطلوب بها تخصيص الصفة بالموصوف • وقد وُفِّقَ في بحث الكناية الى حد ما ، وان كانت أمثلته قليلة ، وتحليله ليس بالجميل •

* *

أمّا ما يتعلق بالبديع فان السكاكي ــ كما قلنا ــ لم يَسَمِّهِ بهذا المصطلح وانما سمّاه وجوها مخصوصة كثيرا ما يصار اليها لقصد تحسين الكلام • وقسّمه الى قسمين : قسم يرجع الى المعنى ، وقسم يرجع الى اللفظ • فمن القسم الاول المطابقة ، والمقابلة ، والمشاكلة ، ومراعاة النظير ، والمزاوجة واللف والنشر ، والجمع ، والتفريق ، والتقسيم ، والجمع مع التفريق ، والجمع مع التقسيم ، والجمع مع التفريق والتقسيم ، والايهام ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، والتوجيه ، وسوق المعلوم مساق غيره ، والاعتراض ، والاستتباع ، والالتفات ، وتقليل اللفظ ولا تقليله •

ومن القسم الثاني التجنيس ، ورد العجز الى الصدر ، والقلب ، والسجع ، والفواصل ، والترصيع •

وترك أنواعا اخرى من المحسنات رأى انها لا قيمة لها ، يقول : « ويورد الاصحاب ها هنا نوعا مثل كون الحروف منقوطة أو غير منقوطة او البعض منقوطا والبعض غير منقوط بالسوية ، فلك ان تستخرج من هذا القبيل ما شئت وتلقب كلا من ذلك بما أحببت»[1] •

وتقسيم السكاكي البديع الى محسنات لفظية ومحسنات معنوية غير دقيق فان اكثر هذه المحسنات متداخل بعضها ببعض • وقد احس

---

(١) مفتاح العلوم ص ٢٠٤

القدماء بذلك فقالوا : « ان المحسن المعنوي منسوب الى المعنى بالذات بمعنى أنّ ذلك التحسين قصـــد أن يكون تحسـينا للمعنى ، وذلك القصد متعلق بتحسين المعنى اولا ومتعلقا به لذاته • واما تعلق القصد بكونه تحسينا للفظ فيكون ثانيا بالعرض • وانما قلنا هكذا لان هذه الاوجه قد يكون بعضها محسنا للفظ لكن القصد الاصلي منها انمـا هو الى كونها محسنة للمعنى كما في المشاكلة اذ هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبة ذلك الغير كقوله :

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه   قلت : اطبخوا لي جبة وقميصـا

فقد عبر عن الخياطة بالطبخ لوقوعها في صحبته ، فاللفظ حسن لما فيه من ايهام المجانســة اللفظية لان المعنى مختلف واللفـظ متفق ، لكن الغرض الاصلي جعل الخياطة كطبخ المطبوخ في اقتراحها لوقوعها في صحبته ، فان تعلق الغرض بتحسينه اللفظي المشار اليه فهو بالعرض على وجه المرجوحية •

وقيل إنّ الحسن فيه لفظي لان منشأه اللفظ ، كما في العكس في قولهم « عادات السادات ، سادات العادات » ، فان في اللفظ شبه الجناس اللفظي لاختلاف المعنى ففيـه التحسين اللفظي ، والغـرض الاصلي الاخبار بعكس الاضافة مع وجود الصحة •

واللفظي تحسين للفظ بالذات ، وان يتبع ذلك تحسين المعنى لانه كلما عبر عن معنى بلفظ حسن استحسن معناه تبعا ، وان شئت قلت في التحسين المعنوي ايضا ان كونه بالذات معناه ان ذلك هو المقصـود ويتبعه تحسين اللفظ دائما لانه كلما أفيد باللفظ معنى حسن تبعـه حسن اللفظ الدال عليه » (١) •

فالقدماء أنفسهم يقررون أنّ مرجع لطف المحسنات يعـود الى

---

(١) شروح التلخيص ج ٤ ص ٢٨٥ ، وينظر كتاب (ابو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية) للدكتور بدوي طبانة ص ٢٢٠ •

اللفظ والمعنى ، يقول عبد القاهر الجرجاني : « إنَّكَ لا تجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه ، وساق نحوه ، وحتى تجده تجنيسا مقبولا لا تبتغي به بدلا ولا تجد عنه حولا • ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه ، ما وقع من غير قصد المتكلم الى اجتلابه وتأهبه لطلبه ، أو ما هو لحسن ملاءمته ، وان كان مطلوبا بهذه المنزلة وفي هذه الصورة »[١] •

وما لنا نذهب بعيدا في التماس الدليل وقد قال السكاكي نفسه : « وأصل الحسن في جميع ذلك ان تكون الالفاظ توابع للمعاني لا ان تكون المعاني لها توابع ، أعني أنْ لا تكون متكلفة »[٢] •

وبهذا النص الصريح يقرر السكاكي من حيث لا يدري أنَّ مردَّ المحسنات كلها الى المعنى ، فلا حاجة حينئذ الى تقسيمه الذي لم يقم على اساس •

وينبغي أنْ تبحث موضوعات البديع كما تبحث موضوعات البلاغة الأخرى على أنْ تهمل الأنواع التي ليس لها تأثير في التعبير ولا تبعث في الكلام رونقا وطلاوة وتضفي عليه جمالا وبهاء • وترتب الباقية وتهذب مسائلها بحيث تكون مناسبة للاساليب العربية وكلام البلغاء •

ولا نأتي بجديد اذا ما قررنا هذا ، فابن المعتز ـ مثلا ـ بحث موضوعات البديع الى جانب الاستعارة والتشبيه ، وأبو هلال العسكري وابن رشيق وابن سنان وعبد القاهر وابن الاثير وغيرهم بحثوا البديع كما بحثوا مسائل البلاغة الاخرى ولم يميزوا بينها ، فلكل فن من هذه الفنون أثره وجماله ، فمنها ما يكون أثره في المعنى واضحا ، ومنها ما يكون أثره ضئيلا في المعنى ولكنها تكون مؤثّرة في

(١) اسرار البلاغة ص ١٥
(٢) مفتاح العلوم ص ٢٠٤

الجرس وموسيقى الكلام . ولم يفرقوا بين محسن معنوي ومحسن لفظي ، فما كان منها له روعته أثبتوه وبحشوه ، وما لم يكن له ذلك الجمال والأثر تركوه . ولم يُفسد البلاغة شيء كما أفسدها تقسيم المتأخرين واهتمامهم بانواع بديعية جامدة ، وتلاعبهم بالالفاظ .

ولم يهتم السكاكي ببحث الفصاحة كما اهتم المتقدمون بها ، وانما ذكرها في نهاية علم البيان وقسمها الى قسمين : قسم راجع الى المعنى ، وآخر راجع الى اللفظ ، وكان من الدقة أنْ يفرد للفصاحة فصلا أو أنْ يجعلها مقدمة للبلاغة كما فعل القزويني .

☆ ☆

وقبل ان ننتهي من هذا الفصل نشير الى ان السكاكي نحا في كتابة البلاغة منحى تقريريا ، فهو يضع القاعدة ويقسم الاقسام ويشرحها ويمثل لها . ولم يكن السكاكي مبتدعا لهذه الطريقة وانما هي طريقة معظم المتقدمين من رجال البلاغة الأعلام .

هذا هو منهج السكاكي في البلاغة ، وهو منهج قائم على التقسيم العقلي ، ولكن ما العوامل التي ساعدت على تصوره هذا الهيكل المنطقي ؟ وما المؤثرات التي لعبت دورها في منهجه وبلاغته ؟

ان هذا موضوع بحثنا في الفصل القادم .

الفصل الثالث

أثر الفلسفة في منهجه

١

بعد أنْ اتصل العرب بغيرهم من الاقوام ، وبعد ان بدأ الصراع بين المسلمين وغيرهم من يهود ونصارى ووثنيين ، احتاج المسلمون الى علم الكلام الذي يبحث في العقائد فنشأ بذلك المتكلمون أصحاب الصناعة اللاهوتية في بحثهم للقرآن من حيث اعجازه وايحاؤه وفهم العقائد منه .

وكان من أثر اتصالهم أنْ ترجموا كتب الفلسفة اليونانية ومنطق ارسطو ، فكان لذلك تأثير كبير في الفكر العربي والاسلامي ولاسيما المنطق الذي صبغ العلوم العربية بصبغة جديدة صبت في قالبه ووضعت على منهاجه ، حتى كان المنطق ـ كما قال ابن سينا : « خادم العلوم »(١) .

وكان للبلاغة نصيب وافر من هذا التأثير ، فقد كان نشاط المتكلمين واسعا وكان لهم أثر في الحياة العقلية عامة ، وفي البلاغة خاصة وقد تحدثوا في الشعر كما تحدثوا في النثر ، وعنوا باللفظ كما عنوا بالمعنى(٢) .

---

(١) ينظر كتاب ضحى الاسلام لاحمد امين ج ٢ ص ٢٧٤ الطبعة الثانية
(٢) ينظر كتاب النقد للدكتور شوقي ضيف ص ٥١ .

وليست مقالة بشر بن المعتمر التي ذكرها الجاحظ في البيـــان والتبيين الا مثلا واضحا على أثر المتكلمين وحرصهم على تعليم البلاغة وفن القــول • وكان تأثير الفلسفة وعلم الكــلام واضحا في الجاحظ (٢٥٥ هـ) لانه كان متكلمـا من المعتزلة ، وكان رأس جماعــة منهم سميت « الجاحظية » ، ولكن بلاغته لم تتأثر كثيرا بعلم الكلام،لأن بحثه لها كان على شكل مسائل متفرقة في « البيان والتبيين » ، و«الحيوان» وغيرهما • ولم يكن له منهج واضح لكي يستطيع الباحث أنْ يتلمس الاثر الكلامي ، ويحكم على مقدار ذلك الاثر •

ولم يَبْدُ أثر الفلسفة والكلام واضحا فيما كتب ابن قتيبـــة والمبرد وثعلب وابن المعتز ، لان هؤلاء كانوا ينحون منحى بعيدا كل البعد عن هذه العلوم ، ولم تكن بحوثهم في البلاغة الا مسائل لم تكمل ولم تنضج ، ولم تتضح بعـــد معالمهــا • حتى ابن المعتز الذي رتَّب البلاغة وصنَّف أبوابها لم تَبْدُ على كتابه « البديع » مسحة من علم الكلام •

ويمكن القول ان قدامة بن جعفر كان من أوائل النقاد والبلاغيين الذين تأثروا تأثرا واضحا بالفلسفة اليونانيـــة وعلم الكلام ، وكان كتابه « نقد الشعر » أول محــاولة عملية لتطبيق أصول المنطــق على الشعر العربي • وبدا ذلك التأثير أكثر وضوحا في كتاب « نقد النثر » المنسوب الى قدامــة بن جعفر ، لان مؤلفــه أخضع البلاغة العربيــة للمقاييس اليونانية إخضاعــا كبيرا ، وقد صرح المؤلف نفســه بذلك واعترف بالاخذ عن اليونان •

وطغت النزعة الكلامية والفلسفية في القرن الرابع الهجري عندما ترجمت كثـــير من الكتب الاجنبية ولا سيما كتب ارســطو في المنطق والخطابة والشعر • وقد صرح ابو هلال العسكري بجنوح دراســات البلاغة شطر المتكلمين ، فقال وهو يدفع عن نفسه السير في طريقهم :

« وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين ، وإنما قصدت فيه قصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب ، لهذا لم أُطِل الكلام في هذا الفصل » (١) . ولكن أبا هلال لم يَنْجُ مع ذلك من أثَرِ المتكلمين مع ادعائه انه لن ينحو منحاهم ، ولن يسير على هداهم .

وكان اثر علم الكلام والمنطق واضحا وضوحا جليا في الكتب التي أُلفت للذود عن القرآن الكريم ورد مطاعن الطاعنين . وكان هذا طبيعيا بعد أن أخذ الزنادقة وغيرهم من الشعوبيين الحاقدين على العرب والاسلام يجادلون المسلمين جدلا يعتمد على الفلسفة وعلى الكلام والمنطق . وكان لابد أن يستعمل المنافحون عن القرآن اسلوب خصومهم نفسه ليردوا أقوالهم ويفندوا آراءهم ويصونوا دستور المسلمين وعقيدتهم . وتزخر الكتب المؤلفة في إعجاز القرآن بأمثلة كثيرة من استعانة مؤلفيها بالمنطق والفلسفة وعلم الكلام .

وكان لكتابي « الخطابة » و« الشعر » لارسطو أثرهما الواضح في البلاغة العربية ، منذ أنْ أدخل قدامة بن جعفر وصاحب كتاب « نقدالنثر » كثيرا من مقاييسهما واصولهما فيها ، وقد أشار عبدالقاهر الجرجاني الى أثر كتابي ارسطو فقال وهو يتحدث عن المجاز وبيان معناه : « لأن قصدي في هذا الفصل أنْ أُبيِّنَ أن المجاز أعم من الاستعارة ، وأن الصحيح من القضية في ذلك ان كل استعارة مجاز ، وليس كل مجاز استعارة وذلك انا نرى كلام العارفين بهذا الشأن أعني : علم الخطابة ونقد الشعر والذين وضعوا الكتب في أقسام البديع يجري على أن الاستعارة نقل الاسم عن أصله الى غيره للتشبيه على حد المبالغة »(٢) . وقال في موضع آخر وهو يتحدث عن ابن دريد : « وذكر فيما ذكر لهذه الكلم اشياء هي استعارة على الحقيقة ،

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٩
(٢) اسرار البلاغة ص ٤٤٢

على طريق أهل الخطابة ونقد الشعر »[1] .

وبدا ذلك التأثير واضحا في الزمخشري والسكاكي ومن جاء بعدهم من الشرّاح ، والملخصين الذين ملأوا كتبهم باساليب الفلاسفة والمتكلمين ، وبمصطلحاتهم وأقوالهم ، حتى ليستطيع الباحث أنْ يستخرج منها مباحث كثيرة في الفلسفة والمنطق وعلم الكلام .

ومع هذا الاتجاه الكلامي والفلسفي في بحث البلاغة فاننا نجد اصواتا ترتفع بوجه السائرين في ركاب الفلسفة منددة باساليب المتكلمين . وممن ثاروا على هذه الاساليب ضياء الدين بن الاثير (٦٣٧ هـ) ورأى في رجال الفلسفة من أمثال ابن سينا والفارابي رجالا أضلهم أرسطو وافلاطون .

وكان البحتري الشاعر العباسي قد صرخ من قبل متبرما بالمنطق وتأثيره في الفن الادبي ، وقال :

كلفتمونا حدودَ منطقكم في الشعر يكفي[2] عن صدقه كذِبُه
ولم يكنْ ذو القروح يلهَجُ بالمنـ ـطقِ ، ما نوعُه ، وما سببُه ؟
والشعْرُ لَمْحٌ تكفي إشارتُه وليس بالهَذْرِ طولت خُطبُه

ولم تزل الفلسفة وعلم الكلام والمنطق تطغى على البلاغة حتى أحالت كتبها الى ميدان للنزاع الفلسفي والجدل الذي ليس فيه نفع كبير في بحث القضايا الادبية . وقد ادى الامر الى انتهاء البحث في البلاغة الى ضروب من الخلاف والمناقشة تعقد لها مجالس المناظرة ، ويعقد لها المحكمون بين السعد التفتازاني والسيد الشريف حين يتناظران في اجتماع الاستعارة التبعية والتمثيلية وعدم اجتماعهما ، كأنهما يتناظران في مشكل من أصول القوانين، أو معضل من مسائل

(١) أسرار البلاغة ص ٤٤٣ .
(٢) في ديوان البحتري ج ١ ص ٢٥٠ : يلغى عن صدقه كذبه

الفلسفة ، الى ان ينهزم السعد فيموت كمدا وضحية الفلسفة الزائفة في البلاغة المظلومة[1] .

هذه نظرة عامة في اثر الفلسفة والمنطق وعلم الكلام في البلاغة العربية ، عرضناها بصورة موجزة لتلقي ضوءاً على منهج السكاكي . فما أثرها في منهجه ؟ والى أي مدى تأثر بها ؟

(١) تنظر مقالة البلاغة العربية واثر الفلسفة فيها لامين الخولي ص ٤٨

٢

ولد السكاكي في عصر راجت فيه الفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، وكثرت فيه الاختلافات في المسائل الكلامية والبحث والمناظرة ، وانشغل الناس ولاسيما العلماء بدراسة الاصول والكلام وادخالها في مناهج البحث ، والاستعانة بها في علوم اللغة العربية .

وكان للسكاكي النصيب الوافر في علم الكلام وفي دراسة الفلسفة اليونانية ، وقد ذكرنا في التمهيد أنّ السكاكي كان متكلما وأنّ الطلاب كانوا يقصدونه لدراسة الكلام عليه ، يضاف الى ذلك أنّه كان معتزليا وأغلب أهل الاعتزال كانوا أصحاب منطق وكلام . وبذلك كان لثقافته أثر في منهجه وبلاغته ، وكان السكاكي من اشد البلاغيين ولعا بتطبيق اساليب العرب على علوم الفلسفة والمنطق والكلام . وسنبين في هذا الفصل أثر الفلسفة وعلم الكلام في منهجه .

وأول مايلاحظ من هذا الاثر ربطه البلاغة بعلم الاستدلال ، وقد اشار الى هذه العلاقة منذ مطلع القسم الثالث من كتابه «مفتاح العلوم» . ونراه يكرر دائما مثل هذه العبارة : « وستقف على هذا في نوع الاستدلال اذا انتهينا اليه باذن الله » .

وبعد ان انتهى من بحث المعاني والبيان والمحسنات أوثق هذه الصلة وأوضحها ايضاحا جليا بقوله : « واذ قد تحققت ان علم المعاني هو معرفة خواص تراكيب الكلام أو معرفة صياغات المعاني ليتوصل بها الى توفية مقامات الكلام حقها بحسب مايفي به قوة ذكائك ، وعندك علم أنّ مقام الاستدلال بالنسبة الى سائر مقامات الكلام جزء واحد من جملتها وشعبة فردة من دوحتها ، علمت أنّ تتبع الكلام الاستدلالي

ومعرفة خواصها مما يلزم صاحب علم المعاني والبيان . »[1] وقال : « الكلام على تكملة علم المعاني وهي تتبع خواص تراكيب الكلام في الاستدلال ، ولولا اكمال الحاجة الى هذا الجزء من علم المعاني وعظم الانتفاع به لما أقتضانا الرأي أنْ نرخي عنان القلم فيه علما بان من اتقن اصلا واحدا من علم البيان كأصل التشبيه أو الكناية أو الاستعارة ، ووقف على كيفية مساقه لتحصيل المطلوب به اطلعه ذلك على كيفية نظم الدليل ، وكأني بكلامي هذا وأين انت من تحقيقه أعالج من تصديقك به ويقينك لديه بابا مقفلا لا يهجس في ضميرك سوى هاجس دبيبه فعل النفس اليقظى اذا احست بنبأ من وراء حجاب ، لكنا إذا اطلعناك على مقصود الاصحاب من هذا الجزء على التدريج مقررين لما عندنا من الآراء ، في مظان الاختلاف بين المتقدمين منهم والمتأخرين رجعنا في هذه المقالة باذن الله تعالى محققين ، ورفعنا اذ ذاك الحجاب الذي يواري عنك اليقين[2] .

وانتهى السكاكي الى التسوية بين عمل البلاغي وعمل صاحب الاستدلال مع أنّ بينهما بوناً شاسعا ومدى بعيدا . يقول بعد أن ذكر الحد وما يتصل به ، وبعد ان ساق مباحث الاستدلال والقياس والتقسيم والاستقراء : « وهذا أوان ان نثنى عنان القلم الى تحقيق ماعساك تنتظر منذ افتتحنا الكلام في هذه التكملة أنْ نحققه أو علّ صبرك قد عيل له ، وهو أنّ صاحب التشبيه او الكناية او الاستعارة كيف يسلك في شأن متوخاه مسلك صاحب الاستدلال ، وانّى يعشو أحدهما الى نار الآخر . والجد والتحقيق مئنة هذا ، والهزل وتلفيق الكلام مظنة هذا ، فنقول وبالله الحول والقوة :

أليس قد تُلي عليك صور الاستدلال أربع لا مزيد عليهن ، وان الاولى هي التي تستبد بالنفس ، وان ماعداها تستمد منها بالارتداد اليها ، فقل لي ان كانت التلاوة أفادت شيئا هل هو غير المصير الى

---

(1) مفتاح العلوم ص ٢٠٤

(2) مفتاح العلوم ص ٢٠٥ .

ضروب اربعة بل الى اثنين ، محصولهما اذا انت وفيت النظر الى المطلوب حقه الزام شيء يستلزم شيئا فيتوصل بذاك الى الاثبات او يعاند شيئا فيتوصل بذلك الى النفي ، ما اظن ان صدق الظن يجول في ضميرك حائل سواه .

ثم اذا كان حاصل الاستدلال عند رفع الحجب هو ما انت تشاهد بنور البصيرة فوحقك اذا شبهت قائلا « خدها وردة » تصنع شيئا سوى أنْ تلزم الخد ماتعرفه يستلزم الحمرة الصافية فيتوصل بذلك الى وصف الخد بها ؟ وهل اذا كنت قائلا : « فلان جم الرماد » تثبت شيئاً غير أنْ تثبت لفلان كثرة الرماد المستتبعة للقرى توصلا بذلك الى اتصاف فلان بالمضيافية عند سامعك ؟ أو هل اذا استعرت قائلا : « في الحمام أسَد" » تريد أنْ تبرز من هو في معرض من سداه ولحمته شدة البطش وجرأة المقدم مع كمال الهيبة فاعلا ذلك ليتسم فلان بهاتيك السمات ؟ أو هل تسلك اذا رمت سلب ماتقدم فقلت : « خدها باذنجانة سوداء » أو قلت : « قدر فلان بيضاء » او قلت : « في الحمام فراشة »، مسلكا غير الزام المعاند بدل المستلزم ليتخذ ذريعة الى السلب هنالك .

أرأيت والحال هذا أن أُلقي اليك زمام الحكم،أنجدك لا تستحي ان تحكم بغير ما حكمنا نحن ، أو تهجس في ضميرك أنّى يعشو صاحب التشبيه او الكناية او الاستعارة الى نار المستدل ؟ ما أبْعَدَ التمييزَ بمجرده ان يسوغ ذلك فضلا ان يسوغه العقل الكامل ، والله المستعان » (١) .

وعلى هذه الصورة يربط السكاكي بين البلاغة وعلم الاستدلال ، ويوثق الصلة بينهما وينتهي الى أنَّ الاستعارة والكناية وغيرهما من مباحث البلاغة ليست الا اقيسة منطقية ، والتزامات يستعملها المتكلمون لاقناع المخاطبين فيما يريدون اثباته أو نفيه من نظريات وآراء . يقول :

---

(١) مفتاح العلوم ص ٢٣٩

« هذا وكم ترى المستدل يتفنن فيسلك تارة طريق التصريح ، فيتمم الدلالة ، وأخرى طريق الكناية إذا مهر مثل ماتقول للخصم : إنْ صدق ما قلت استلزم كذا واللازم منتف ، ولا تزيد فتقول : وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم ، فلزم منه كذب قولك • وهل فصل القياسات ووصلها يشم غير هذا » [١]

ما للبلاغة وما لهذا الربط وتوثيق الصلة بينها وبين المنطق ؟ وماذا اراد السكاكي بهذا ؟ هل أراد أنْ يجعل المنطق والفلسفة مقياسا من مقاييس الادب بل مسيطرا على دراسته ؟ وأي علاقة بين الفنون الادبية ــ التي أول ما تعتمد على الذوق والاحساس الفني ــ ، والمنطق وعلم الكلام ؟

ان البلاغة لم تفسد ، ولم تصبح قواعد جامدة الا بعد أنْ دخلت هذه المقاييس عليها • وقد رأينا كيف كانت النزعة الادبية تسيطر على معظم كتبها ، وكيف كان الذوق يلعب دورا كبيرا في نقد الادب واظهار مافيه من مزايا ، وما فيه من جمال •

لقد كان العربي ينقد الكلام بدافع ذاتي ، من غير أن يكون له علم بمقاييس المنطق ، وكان يقول الشعر والنثر الفصيح وهو لايعرف أنّ الكلام ينبغي أنْ يبنى على كذا وأن يخضع لكذا •وقد نبه ضياء الدين بن الاثير الى عدم فائدة هذا الربط بين الفن الادبي وعلم المنطق فقال : « اعلم أنّ المعاني الخطابية قد حصرت أصولها وأول من تكلم في ذلك حكماء اليونان ، غير أنّ ذلك الحصر كلي لا جزئي ، ومحال أنْ تحصر جزئيات المعاني وما يتفرع عليها من التفريعات التي لانهاية لها • لاجَرَم ان ذلك الحصر لايستفيد بمعرفته صاحب هذا العلم ، ولا يفتقر اليه ، فان البدوي البادي راعي الابل ماكان يمر شيء من ذلك بفهمه ولا يخطر بباله ، ومع هذا فانه كان يأتي بالسحر الحلال

(١) مفتاح العلوم ص ٢٣٩

إنْ قال شعرا أو تكلم نثرا »[1] .

ولم يَكْتَفِ ابن الاثير ـ معاصر السكاكي ـ بهذا ، بل اعتبر الذين ينهجون نهج اليونان في كلامهم رجالا أضلّهم ارسطو وافلاطون. يقول . « ولقد فاوضني بعض المتفلسفين في هذا وانساق الكلام الى ذكر شيء لأبي علي بن سينا في الخطابة والشعر ، وذكر ضرباً من ضروب الشعر اليوناني يسمى اللاغوذيا ، وقام فاحضر كتاب الشفاء لأبي علي وأوقفني على ما ذكره فلما وقفت عليه استجهلته فانه طوّل وعرّض كأنه يخاطب بعض اليونان ، وكل الذي ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا »[2] .

إنّ الادب يعتمد على الذوق والملكة الصافية ، فينبغي ان يقاس بمقاييس ليس للفلسفة وعلم الكلام فيها نصيب كبير وأثر واضح . اما البلاغة بالصورة التي وصلتنا او التي أوصلها السكاكي اليها فلا يمكن اعتبارها مقياسا صادقا للادب . ومن الخير للناقدين والدارسين أنْ يستلهموا مقاييسهم النقدية والبلاغية مما كتبه ابو هلال العسكري والآمدي وعلي بن عبدالعزيز الجرجاني وعبدالقاهر الجرجاني وابن الاثير وغيرهم ممن امتازوا بالذوق السليم والملكة الادبية ، لا من السكاكي ومن لَفَّ لَفَّه من الشراح والملخصين الذين ربطوا البلاغة بعلم الاستدلال واخضعوها لمنطق اليونان .

☆ ☆

ويتضح أثر المنطق والفلسفة في اهتمامه بالتحديد المنطقي ليكون التعريف جامعا مانعا . وأول مايطالعنا هذا التحديد في تعريفه علمي المعاني والبيان، وقد سبق أنْ ذكرناهما فلا حاجة الى اعادتهما ، ولنأخذ مثلا غيرهما يوضح لنا هذه الحقيقة ، وليكن مصطلح المجاز . يقول في

(١) المثل السائر ج ١ ص ٣١٠
(٢) المثل السائر ج ١ ص ٣١١

تعريفه : « واما المجاز فهو الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق ، استعمالا في الغير بالنسبة الى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة عن ارادة معناها في ذلك النوع » • ويشرح هـذا التعريف بقوله : « وقولي ــ بالتحقيق ــ احتراز أنْ لا تخرج الاستعارة التي هي من باب المجاز نظرا الى دعوى اسـتعمالها فيما هي موضوعة له • وقولي ــ استعمالا في الغير بالنسبة الى نوع حقيقتها ــ احتراز عما اذا اتفق كونها مستعملة فيما تكون موضوعة له ، لا بالنسبة الى نوع حقيقتها كما اتفق كونها مسـتعملة فيما تكون موضوعة له بالنسـبة الى نوع حقيقتها كما اذا استعمل صاحب اللغة لفظ « الغائط » مجـازا فيما يفضل عن الانسان من منهضم متناولاته ، او كما اذا اسـتعار صاحب الحقيقة الشـرعية « الصلاة » للدعاء ، أو صاحب العرف « الدابة » للحمار • والمراد بنوع حقيقتها اللغوية ان كانت اياها او الشـرعية او العرفية أية كانت •

وقولي ــ مع قرينة مانعة عن ارادة معناها في ذلكالنوع ــ احتراز عن الكناية فان الكناية كما ستعرف تستعمل فيراد بها المكنى عنه فتقع مستعملة في غير ماهي موضوعة له ، مع انا لانسميها مجازا لعرائها عن هذا القيد »[1] •

وعلى هذه الصورة الجدلية يحدد السكاكي التعريفات ويضبطها بحيث لايسكن أنْ يخرج شيء مما اريد تعريفه وتحديده ، أو يدخل شيء لا يراد ادخاله في التعريف وبذلك يكون التعريف جامعا مانعـا كما يقول اهل المنطق • وهذا الضبط والتحديد لم نَرَ له مثيلا عند غير المتأثرين بالفلسفة والمنطق ، فابن المعتز ــ مثلا ــ يعرف الاسـتعارة بانها : « استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها في شيء قد عرف بها »[2] • وهو تعريف بسيط ساذج غير محدد وغير مانع من دخول غيره فيـه

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٠
(٢) البديع لابن المعتز ص ٢

كالمجاز الذي هو « تسمية الشيء باسم غيره » أو « احلالُ كلمة محل أخرى » •

اين هـذا التعريف اللغوي الذي يدل على بُعْدٍ عن مناهج الفلاسفة والمتكلمين والمناطقة في التحديد ، اين هذا من تعريف السكاكي للاستعارة الذي يقول فيه : « هي ان تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به دالا على ذلك باثباتك ما يخص المشبه به »[1] •

لقد اخرج السكاكي بهذا التعريف المجاز المرسل وعلاقته ، ونَصَّ على أنواع الاستعارة كالتصريحية ، والمكنية بقوله : « أنْ تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد بـه الطرف الآخر » ، فاذا ذكر المشبه به كانت الاستعارة مصرحا بها ، واذا ذكر المشبه كانت الاستعارة مكنيا عنها •

وبهذه الطريقة حَدَّدَ السكاكي تعريفاته وضبطها ضبطا منطقيا ، وسنذكر هذا بالتفصيل اذا ما وصلنا الى البحث في جهوده ولاسيما في المصطلحات •

☆ ☆

ويتضح هذا الاثر كذلك في تقسيمه فنون البلاغة وضبط مسائلها وأول ماتطالعنا نظرة السكاكي الفلسفية في تقسيم الموضوعات ، وتحديد موضع علم البلاغة بين علوم اللغة او أنواع الادب • يقول : « وجعلت هذا الكتاب ثلاثة اقسام : القسم الاول في علم الصرف ، القسم الثاني في علم النحو ، القسم الثالث في علمي المعاني والبيان •

والذي اقتضى عندي هذا هو أنَّ الغرض الاقدم من علم الادب لما كان هو الاحتراز عن الخطأ في كلام العرب واردت ان احصل هذا الغرض ، وانت تعلم أنّ تحصيل الممكن لك لا يتأتى بدون معرفةجهات التحصيل واستعمالها لاجرم حاولنا أنْ تتلو عليك في اربعة الانواع

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٤

مذيلة بانواع اخرى مما لابد من معرفته في غرضك لتقف عليه ، ثم الاستعمال بيدك • وانما اغنت هذه لان مثارات الخطأ اذا تصفحتها ثلاثة : المفرد والتأليف وكون المركب مطابقا لما يجب ان يتكلم لـه • وهذه الأنواع بعد علم اللغة هي المرجوع اليها في كفاية ذلك ما لم يتخط الى النظم • فعلمـا الصرف والنحو يرجع اليهما في المفرد والتأليف ، ويرجع الى علمي المعاني والبيان في الاخير • ولما كان علم الصرف هو المرجوع اليه في المفرد او فيما هو في حكم المفرد ، والنحو بالعكس من ذلك • وانت تعلـم أنَّ المفرد متقدم علـى أنْ يؤلف وطباق المؤلف للمعنى متأخر عن نفس التأليف لاجرم ان قدمنا البعض على هذا الوجه وضعا لنؤثر ترتبا استحقته طبعا » [1] •

وبهذه الطريقة حَدَّدَ علوم اللغة العربية ، وبيَّنَ موقع كل واحد منها بالنسبة للآخر • وقد استطاع ان يحتال في تحديد نسبة المعاني والبيان الى سائر علوم اللغة ، احتيالا منطقيا لطيفا • فعلـم الصرف والنحو يحترز بهما من الخطأ في تركيب الكلام من حيث بناؤه وتعريف المفردات واعرابه • وليس بعد هذه الامور ـ في نظر السكاكي ـ الا مراعاة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ولاتبحث هذه المطـابقة الا في المعاني والبيان •

وبعد أنَّ حدد نسبة علوم اللغة العربية بعضها من البعض الآخر ، شرع يبحث فيها فتكلم على الصرف والنحو ، ولما انتهى منهما عقـد قسما ثالثا للبلاغة فقسمها الى فصلين : الاول في ضبط علـم المعاني ، والثاني في علم البيان •

وقد استعان بالتعريف المنطقي في حصر هذين الفصلين ، فقال في حصر المعاني : « اعلم أنَّ علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها

(١) مفتاح العلوم ص ٣ ـ ٤

عن الخطأ في تطبيق الكلام على مايقتضي الحال ذكره » .

وقال في حصر البيان : « واما علم البيان فهو معرفة ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه » .

بهذين التعريفين تميزت موضوعات كل علم ، ولكن بأيهما يبدأ ، وعلى أي اساس يكون ؟ لابد من تعليل منطقي يلجأ اليه ، ولا بد من دليل ، فما هذا الدليل ؟ يقول : « ولما كان علم البيان شعبة من علم المعاني لاتنفصل عنه الا بزيادة اعتبار جرى منه مجرى المركب من المفرد لاجرم آثرنا تأخيره »[1] . ولو قال كما قال عبد القاهر : « إنّ في الاستعارة مالايمكن بيانه الا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته »[2] ، لكان خيرا من هذا التعليل الذي يقوم على ذكر المفرد والمركب وغير ذلك مما ليس فيه توضيح وبيان .

اما تقسيمه مباحث هذين العلمين فسننظر فيهما على انفراد ، فقد قسم علم المعاني الى قانونين : الاول فيما يتعلق بالخبر ، والآخر فيما يتعلق بالطلب ، لان كلام العرب شيئان : الخبر والطلب .

ولما كان الخبر يرجع الى الحكم بمفهوم لمفهوم وهو الذي نسميه الاسناد الخبري كقولنا « شيء ثابت » ، « شيء ليس ثابتا » فانت في الاول تحكم بالثبوت ، وفي الثاني باللاثبوت للشيء ، عرفت أنّ فنون الاعتبارات الراجعة الى الخبر لاتزيد على ثلاثة : فن يرجع الى حكم ، وفن يرجع الى المحكوم له وهو المسند اليه ، وفن يرجع الى المحكوم به وهو المسند . هذا اذا كانت الجملة الخبرية مفردة ، أما إذا انتظمت مع

---

(١) مفتاح العلوم ص ٧٧
(٢) دلائل الاعجاز ص ٧٩

اخرى فيقع اذ ذاك اعتبارات سوى ماذكر .[1] .

وبهذه العقلية المنطقية قَسَّمَ الخبر الى اربعة فنون هي: اعتبارات الاسناد الخبري ، واعتبارات المسند ، واعتبارات الفصل والوصل ، واعتبارات الايجاز والاطناب .

ولم يحصر مباحث الخبر في هذه الفنون الاربعة إلاّ بعد أنْ حصر مقتضيات الاحوال وقال فيها : « فان كان مقتضى الحال اطلاق الحكم ، فحسن الكلام تجريده عن مؤكدات الحكم ، وان كان مقتضى الحال بخلاف ذلك فحسن الكلام تحليه بشيء من ذلك . بحسب مقتضى الحال ضعفا وقوة ، وان كان مقتضى الحال طي ذكر المسنداليه فحسن الكلام تركه ، وإنْ كان المقتضى اثباته على وجه من الوجوه المذكورة فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب ، وكذا إن كان المقتضى ترك المسند فحسن الكلام وروده عاريا عن ذكره ، وان كان المقتضى إثباته مخصصا بشيء من التخصيصات فحسن الكلام نظمه على الوجوه المناسبة من الاعتبارات وكذا إن كان المقتضى عند انتظام الجملة مع اخرى فصلها أو وصلها والايجاز معها أو الاطناب أعني طي الجمل ولا طيها فحسن الكلام تأليفه مطابقا لذلك »[2] .

وطغت هذه النزعة في تقسيم فنون المعاني ، وسيطرت على البلاغيين ، وقد استطاع الخطيب القزويني أنْ يبوب هذه الفنون تبويبا أكثر دقة من تبويب السكاكي ، وأنْ يضبط مقتضيات الاحوال ضبطا اقرب الى الدقة والكمال .

واستعمل السكاكي هذه الطريقة المنطقية في تقسيم مباحث الطلب ، ولكي يتضح منهجه في ذلك ننقل كلامه . يقول : «والطلب إذا تأملته نوعان : نوع لايستدعي في مطلوبه امكان الحصول وقولنا

---

(١) ينظر مفتاح العلوم ص ٨٠

(٢) مفتاح العلوم ص ٨٠

ـ لا يستدعي أن يمكن ـ أعم من قولنا ـ يستدعي أن لا يمكن •

ونوع يستدعي فيه امكان الحصول ، والمطلوب بالنظر الى لا واسطة بين الثبوت والانتفاء يستلزم انحصاره في قسمين : حصول ثبوت متصور ، وحصول انتفاء متصور •

وبالنظر الى كون الحصول ذهنيا وخارجيا يستلزم انقساما الى أربعة أقسام : حصولين في الذهن ، وحصولين في الخارج • ثم اذا لم يزد الحصول في الذهن على التصور أو التصديق لم يتجاوز أقسام المطلوب ستة : حصول تصور أو تصديق في الذهن ، وحصول انتفاء تصور أو تصديق فيه ، وحصول ثبوت تصور او انتفائية في الخارج •

وطلب حصول التصور في الذهن لايرجع الى تفصيل مجمل ، او تفصيل مفصل بالنسبة • ووجه ذلك ان الانسان اذا صح منه الطلب بان ادرك بالاجمال لشيء ما او بالتفصيل بالنسبة الى شيء ما ثم طلب حصولا لذلك في الذهن وامتنع طلب الحاصل توجه الى غير ماحصل وهو تفصيل المجمل او تفصيل المفصل بالنسبة •

اما النوع الاول من الطلب فهو التمني ، او ماترى كيف تقول : « ليت زيدا جاءني » فتطلب كون غير الواقع فيما مضى واقعا فيه مع حكم العقل بامتناعه • أو كيف تقول « ليت الشباب يعود » فتطلب عود الشباب مع جزمك بانه لايعود • او كيف تقول «ليت زيدا يأتيني» أو « ليتك تحدثني » فتطلب اتيان « زيدا » او حديث صاحبك في حال لاتتوقعها ولا لك طماعية في وقوعها ، اذ لو توقعت او طمعت لاستعملت « لعل » او « عسى » •

وأما الاستفهام والامر والنهي والنداء فمن النوع الاول »[1] •

نقلنا هذا النص كله لنرى كيف استعان السكاكي بالمنطق في

(١) مفتاح العلوم ص ١٤٥ ـ ١٤٦

تقسيم موضوعات الطلب ، وكيف استعمل الفاظ الفلسفة والكلام من مثل قوله « حصول ثبوت متصور » و« حصول انتفاء متصور » و« الحصول في الذهن » و« الحصول في الخارج » وادخل بحوث التصديق والتصور وغير ذلك مما يمكن ملاحظته في كلامه .

ونرى انه لا حاجة الى هذا التمحل والاغراق في ادخال ما لا يمت الى البيان بصلة ، وقد كان باستطاعته ان يقسم الطلب الى أنواعه الخمسة المعروفة دون أن يلجأ الى هذا الاسلوب الملتوي ، والى استعمال مصطلحات الفلسفة والمنطق في التقسيم .

وقد تكلم ابن فارس في هذه الموضوعات قبله ، ولكنه لم يتخذ هذه الطريقة اسلوبا في التقسيم أو ذكر انواع الطلب ، واكتفى بان قال ان معاني الكلام عشرة : خبر واستخبار وامر ونهي ودعاء وطلب وعرض وتحضيض وتمن وتعجب[1] . ولكن السكاكي رجل مولع بعلم الكلام والفلسفة ، وأنّى له ان يذكر انواع الطلب كما ذكرها احمد بن فارس وغيره من غير أن يعقدها ويجعل القارىء في دوامة ، أو ينفّره من كتاب « مفتاح العلوم » .

وليت السكاكي اكتفى بهذا التقسيم ، وهذا الاغراق في التمحل ، ووقف عند هذا الحد ، فقد استعان في ضبط مباحث البيان بالدلالات ، وفي هذا ابتعاد عن الروح الادبية . وقرر في مطلع الفصل الثاني الخاص بالبيان ، أنّ صاحب علم البيان له فضل احتياج الى التعرض لأنواع دلالات الكلم ، ولاجل هذا بحث فيها ، وذكر انواعها . يقول : « لاشبهة في أنّ اللفظة متى كانت موضوعة لمفهوم امكن ان تدل عليه في غير زيادة ولا نقصان بحكم الوضع . وتسمى هذه « دلالة المطابقة » ودلالة وضعية ، ومتى كان لمفهوم ذلك ولنسمه أصليا تعلق بمفهوم آخر امكن ان تدل عليه بوساطة ذلك التعلق بحكم العقل سواء كان

---

(١) ينظر الصاحبي لاحمد بن فارس ص ١٥٠ وما بعدها

ذلك المفهوم الآخر داخلا في مفهومها الأصلي كالسقف مثلا في مفهوم البيت ويسمى هذا « دلالة التضمن » ودلالة عقلية ايضا . أو خارجا عنه كالحائط عن مفهوم السقف وتسمى هذه « دلالة الالتزام » ودلالة عقلية أيضا .

ولا يجب في ذلك التعليق أنْ يكون مما يثبته الفعل بل ان كان مما يثبته اعتقاد المخاطب اما لعرف او لغير عرف امكن المتكلم أنْ يطمع من مخاطبه ذلك في صحة ان ينتقل ذهنه من المفهوم الاصلي الى الآخر بواسطة ذلك التعلق بينهما في اعتقاده »[1] .

فالدلالات التي تحدث عنها السكاكي وذكرها في بحث البيان هي :

دلالة المطابقة : وهي دلالة اللفظ على تمام ما وضع له ، وقد سميت بذلك لتطابق اللفظ والمعنى أي توافقهما او لتطابق الفهم والوضع ، بمعنى ان ما فهم هو ما وضع له اللفظ .

ودلالة التضمن : وهي دلالة اللفظ على جزء ما وضع له أو جزء مسماه مع دخوله فيه ، وقد سميت بذلك لان الجزء المفهوم من اللفظ هو في ضمن المعنى الكلي فيفهم عند فهمه .

واخيرا دلالة الالتزام : وهي دلالة اللفظ على معنى خارج عن مسماه لازم له ، وقد سميت بذلك لان المدلول فيها لازم للمعنى الموضوع له اللفظ .

وتسمى دلالة المطابقة عند علماء البيان « دلالة وضعية » لان السبب في حصولها عند سماع اللفظ أو تذكره هو معرفة الوضع دون حاجة الى شيء آخر .

أما دلالتا التضمن والالتزام فتسميان « دلالتين عقليتين » لأن

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٦

حصولهما بانتقال العقل من الكل الى الجزء في الاولى ، ومن الملزوم الى اللازم في الثانية ، بمعنى ان الواضع وضع اللفظ ليفيد جميع المعنى غير ان العقل اقتضى ان الشيء لا يوجد بدون جزئه أو لازمه[1] .

وقد بنى السكاكي تقسيم البيان على هذه الدلالات فاخرج التشبيه لان دلالته وضعية ، والدلالة الوضعية لا يمكن بها ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ، ويؤيد ذلك بقوله : « فانك اذا اردت تشبيه الخد بالورد في الحمرة مثلا وقلت : « خد يشبه الورد » امتنع ان يكون كلام مؤد لهذا المعنى بالدلالات الوضعية اكمل منه في الوضوح أو انقص منه ، فانك اذا أقمت مقام كل كلمة منها ما يراد منها فالسامع ان كان عالما بكونها موضوعة لتلك المفهومات كان فهمه منه كفهمه من تلك من غير تفاوت في الوضوح ، والا لم يفهم شيئا اصلا ، وانما يمكن ذلك في الدلالات العقلية مثل أن يكون لشيء تعلق بآخر ، ولثان ولثالث . فاذا اريد التوصل بواحد منها الى المتعلق به فمتى تفاوتت تلك الثلاثة في وضوح التعلق وخفائه صح في طريق افادته الوضوح والخفاء »[2] .

وهو في هذا قد أخرج التشبيه من مباحث البيان ، أما الموضوعات الاخرى فيقول في حصرها : « واذا عرفت أنّ إيراد المعنى الواحد على صور مختلفة لا يتأتى الا في الدلالات العقلية وهي الانتقال من معنى الى معنى بسبب علاقة بينهما كلزوم احدهما الآخر بوجه من الوجوه ظهر لك ان علم البيان مرجعه اعتبار الملازمات بين المعاني . ثم اذا عرفت أنّ اللزوم اذا تصور بين الشيئين فاما ان يكون من الجانبين كالذي بين الامام والخلف بحكم العقل ، أو بين طول القامة وبين طول النجاد بحكم الاعتقاد او من جانب واحد كالذي بين العلم والحياة

(١) ينظر الطراز للعلوي ج١ ص ٣٤ ـ ٣٩ وفن التشبيه لعلي الجندي ج ١ ص ١٨ ـ ١٩

(٢) مفتاح العلوم ص ١٥٧ .

بحكم العقل ، او بين الاسد والجرأة بحكم الاعتقاد ، ظهر لك ان مرجع علم البيان اعتبار هاتين الجهتين : جهة الانتقال من ملزوم الى لازم ، وجهة الانتقال من لازم الى ملزوم •

ولا يربك بظاهرة الانتقال من أحد لازمي الشيء الى الآخر ما اذا انتقل من بياض الثلج الى البرودة فمرجعه ما ذكر ينتقل من البياض الى الثلج ثم من الثلج الى البرودة فتأمل •

واذا ظهر لك ان مرجع البيان هاتان الجهتان علمت انصباب علم البيان الى التعرض للمجاز والكناية ، فان المجاز ينتقل فيه من الملزوم الى اللازم كما تقول « رعينا غيثا » والمراد لازمه وهو النبت • وقد سبق أن اللزوم لا يجب أن يكون عقليا بل ان كان اعتقاديا اما لعرف او لغير عرف صح البناء عليه •

وأما نحو قولك « أمطرت السماء نباتا » أي : غيثا من المجازات المنتقل فيها عن اللازم الى الملزوم فمنخرط في سلك « رعينا الغيث » •

وان الكناية ينتقل فيها من اللازم الى الملزوم كما تقول : « فلان طويلُ النجاد » فلا يصار الى جعل النجاد طويلا أو قصيرا الا لكون القامة طويلة أو قصيرة ، فلا علينا أن نتخذهما أصلين »[1] •

وبهذه الطريقة البعيدة عن دراسة الادب ومقاييسه حصر السكاكي علم البيان في بحثين هما : المجاز والكناية ، لأن دلالتهما عقلية ، والدلالة العقلية هي التي يمكن بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه •

أما التشبيه فقد أخرجه في هذا الحصر من البيان لان دلالته وضعية والدلالة الوضعية لا يمكن بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه ، لانّ السامع اذا كان عالما بوضع الالفاظ

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٧

لم يكن بعضها أوضح دلالة من بعض والا لم يكن كل منها دالا عليها.

والتشبيه كما يفهم من كلام السكاكي من الحقيقة لا المجاز ، ولعله نظر في هذا الى قول عبد القاهر الجرجاني : « ان كل متعاط لتشبيه صريح لا يكون نقل اللفظ من شأنه ولا من مقتضى غرضه . فاذا قلت « زيد كالاسد » و« هذا الخبر كالشمس في الشهرة » و « له رأي كالسيف في المضاء » لم يكن نقل للفظ عن موضوعه . ولو كان الامر على خلاف ذلك لوجب ألاّ يكون في الدنيا تشبيه الا وهو مجاز وهو محال ، لأن التشبيه معنى من المعاني وله حروف واسماء تدل عليه ، فاذا صرح بذكر ما هو موضوع للدلالة عليه كان الكلام حقيقة كالحكم في سائر المعاني فاعرفه »[1] .

ولم يستطع السكاكي ان يخرج التشبيه من علم البيان مع انه صرح بان دلالته وضعية . وكيف يستطيع اخراجه وهو يعلم أنّه باب كثير الاستعمال في اللغة ، وأنّ له مزايا تورث الكلام حسنا وجمالا . ولكن كيف يضمه الى مباحث البيان ؟

لقد احتال واصطنع طريقة فيها تكلف وفيها جمود ، يقول : « ثم ان المجاز أعني الاستعارة من حيث أنها من فروع التشبيه لا تتحقق بمجرد حصول الانتقال من الملزوم الى اللازم ، بل لابد فيها من تقدمة تشبيه شيء بذلك الملزوم في لازم له تستدعي تقديم التعرض للتشبيه ، فلابد من ان نأخذه اصلا ثالثا ونقدمه ، فهو الذي إذا مهرت فيه ملكت زمام التدرب في فنون السحر البياني »[2] .

وليس التشبيه فنا طارئا ــ كما يدعي ــ وانما هو فن كثير الدوران في كلام العرب ، يقول المبرد : « والتشبيه جار كثير في الكلام

(١) اسرار البلاغة ص ٢٧٦
(٢) مفتاح العلوم ص ١٥٧

أعني كلام العرب ، حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد »[1] •

ولا ندري لماذا أسرف السكاكي في اصطناع هذا الاسلوب وهو يعترف بأنّ الانسان اذا مهر في التشبيه ملك زمام التدرب في فنون السحر البياني •

ولم يكن السكاكي أول من اضطرب في اعتبار التشبيه من مباحث البيان ، فالمطرزي معاصره كان يحس بأهميته ولكن كيف يتكلم عليه وهو ليس من المجاز ؟ وكيف يستطيع ان يورده في بحث البيان ؟ وقد احتال عليه كما احتال السكاكي فقال وهو يتحدث عنه : « والتشبيه وان لم يكن من باب المجاز في شيء الا اني اوردته لامرين :

احدهما : ان يكون توطئة لمن يسلك سبيل الاستعارة والتمثيل لانه كالاصل لهما وهما كالفرع له •

والثاني : انه ركن من اركان البلاغة لاخراجه الخفي الى الجلي ، وادنائه البعيد من القريب »[2] •

ومع هذا فقد بحثه البلاغيون في علم البيان ، واعتبروه من أهم مباحثه ، بل اعتبره السكاكي أصلا ثالثا من أصول البيان وقدّمه على جميع الاصول •

وقد حمل المولى عصام حملة شديدة على السكاكي لعده التشبيه اصلا ثالثا من أصول البيان فقال : « إنّ ما قرره السكاكي يستدعي تقديم التشبيه على الاستعارة وجوبا وعلى المجاز استحسانا ، كي لا يقع الفصل به بين انواع المجاز • واما اخذه اصلا ثالثا فلا يستدعيه اصلا ، بل الواجب ان يجعله مقدمة خارجة عن مقاصد هذا الفن » •

---

(١) الكامل للمبرد ج٣ ص ٨١٨ طبعة الدكتور زكي مبارك •
(٢) الايضاح في شرح مقامات الحريري للمطرزي ص ٥

ثم ساق المولى عصام عـذره قائلا : « بانه وان كان في الحقيقة مقدمة خارجة ولكنه لكثرة مباحثه وأقسامه وعموم تفاصيله وأحكامه وتشعب فروعه وقوة نفعه في المطالب البيانية قد ارتقى عن ان يجعل مقدمة ، فلهذه الضرورة قد اتخذه أصلا ادعائيا لا حقيقيا • ولا يذهب عليك أنَّ في جعل التشبيه أصلا ثالثا من البيان بهذا القدر تكلفا باردا أراد السكاكي في ترويجه بالمبالغة في العبارة حيث قال هنا « فلابد ان نأخذه اصلا ثالثا » مع أنَّه قال في الاصلين الحقيقيين المجاز والكناية : « فلا علينا ان نتخذهما اصلين » [1] • وهـذا التقسيم لا يستقيم للبلاغيين ما داموا يعترفون بان التشبيه مقصد أساسي في البيان وانه وسيلة أو مقدمة لبعض انواع المجاز •

وهكذا حَدَّدَ فنون البيان وضبط أصولهـا ، ولكن كيف يرتبها ؟

لقد اعتبر الاستعارة معتمدة على التشبيه فلابد ان يقدمه لانه : « اذا مهرت فيه ملكت زمام التدرب في فنون السحر البياني » • ولما كان طريق الانتقال من الملزوم الى اللازم طريقاً واضحاً بنفسه ، ووضوح طريق الانتقال من اللازم الى الملزوم انما هو بالغير وهو العلم يكون اللازم مساويا للملزوم أو أخص منه فالسكاكي يقدم المجاز ويؤخر الكناية لانها بالنظر الى هذه الجهة نازلة من المجاز منزلة المركب من المفرد [2] • وبذلك كانت مباحث البيان عنده : التشبيه ، والمجاز وفيه الاستعارة ، والكناية •

وقد شعر السكاكي بهذا التكلف في حصر مباحث البيان فقال : « والمطلوب بهذا التكلف هو الضبط فاعلم » [3] •

(١) شرح الفوائد الغياثية ص ١٩٥ نقلا عن كتاب فن التشبيه لعلي الجندي ج ١ ص ٢٣ •
(٢) مفتاح العلوم ص ١٥٧
(٣) مفتاح العلوم ص ١٥٧

وشغل الناس بهذا الحصر المعتمد على الدلالات والمقاييس الفلسفية فثار النقاش في كتب المتأخرين وأصبحت كتب البلاغة ميدانا للسفسطة وذكر ما لا يمت الى البلاغة بصلة • والا فما فائدة اقحام الدلالات في بحث البيان وجعل دلالة التشبيه وضعية ، واعتبار دلالة المجاز والكناية عقلية ؟ مع ان التشبيه يتفاوت ايضا كتفاوت المجاز والكناية ، فمنه ما يكون حسنا ومنه ما يكون أحسن ، ومنه ما يكون قريبا ومنه ما يكون غريبا •

يقول عبد القاهر : « تقصد تشبيه الرجل بالاسد فتقول : « زيد كالاسد » ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول : « كأن زيداً الاسدُ » فتفيد تشبيهه أيضا بالاسد الا انك تزيد في معنى تشبيهه به زيادة لم تكن في الاول وهي ان تجعله من فرط شجاعته وقوة قلبه وانه لا يروعه شيء بحيث لا يتميز عن الاسد ولا يقصر عنه حتى يتوهم انه اسد في صورة آدمي »[1] • وفي هذا القول يتضح أنّ المعنى اختلف في التشبيه قوة بتغير النظم ، وبذلك يتأكد لنا أنّ ما ذهب اليه السكاكي ومن تابعه لا أساس له ، وليس له واقع في أساليب العرب •

والغريب أنّ السكاكي ذكر تفاوت التشبيه وذكر مراتبه وانواعه ولم يفطن الى ان التشبيه ـ كموضوعات البيان الاخرى ـ يمكن به ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان •

وهنا يتبادر الى الاذهان سؤال هو : هل يصح اقحام هذه المقاييس الغريبة في بحث البلاغة وهي روح الادب التي تعلم صنعه وتبصر بنقده ؟ وأي معنى للادب اذا ما قيدت هذه الروح بالمقاييس الفلسفية ، واصطنعت المناهج الكلامية في بحث البلاغة ؟

لقد أنكر العلوي إقحام هذه المقاييس الغريبة مع أنه استفاد منها

(١) دلائل الاعجاز ص ١٩٩

كثيرا وأقحمها في كتابه « الطراز » • يقول وهو يتحدث عن بيان خصائص المسند اليه : « ولقد وقفت على كلام لغيره من علماء البيان في تقرير هذه القاعدة بناه على قانون المنطق ونزله على منهاج السالبة المهملة والمعدولة فأورث فيه دقة وأكسبه ذلك حموشة[1] وغموضا ، من جهة ان مبنى علم البيان وعلم المعاني على معرفة اللغة وعلم الاعراب • فلا ينبغي ان يمزج بعلم لم يخطر للعرب ولا لاحد من علماء الادب على بال ولا يشعر به »[2] •

وأنكر ذلك أحد السائرين في فلك السكاكي وهو التفتازاني فقال : « هذا هو الكلام في شرح مقدمة علم البيان على ما اخترعه السكاكي ، وأنت خبير بما فيه من الاضطراب • والأقرب أنْ يقال : علم البيان علم يبحث فيه عن التشبيه والمجاز والكناية ثم يشتغل بتفصيل هذه المباحث من غير التفات الى الابحاث التي اوردها في صدر هذا الفن »[3] • ولكن التفتازاني لم يؤلف كتابا له منهج خاص ينفرد به ، وانما عكف على ما جاء به السكاكي والخطيب القزويني شارحا وموضحا ، دون ان يبعد عنهما كثيرا •

ولم يكن البيان وحده مجالا لادخال الدلالات ، بل يرى بعضهم أنّ صاحب علم المعاني يحتاج الى معرفة الدلالات ايضا ولكن لا الى الحد الذي يحتاجه صاحب علم البيان • يقول قطب الدين الشيرازي شارح كتاب « مفتاح العلوم » : « وصاحب علم المعاني وإنْ احتاج الى معرفة الدلالات لكن بالذات لانه ينظر في مدلولات الدلالات اي فيما يفيد منها التراكيب ليختص بعلم المعاني وهو ينظر في انفس الدلالات فلهذا قال : ـ السكاكي ـ « فضل احتياج » ليعرف ان لصاحب علم المعاني احتياجا الى معرفة انواع الدلالات ، ولكن لا الى تلك

---

(١) الحموشة : الدقة .
(٢) الطراز ج ٣ ص ٢٧٢
(٣) المطول على التلخيص ص ٣٠٩ ـ ٣١٠

الغاية »[1] .

وأكْثَرَ السكاكي من التقسيمات وتفريع مباحث علم البيان فذكر مصطلحات وتقسيمات كثيرة يضيع في ثناياها القاريء ولايخرج منها الا بما ليس فيه جدوى ونفع عظيم . وليست تقسيمات التشبيه والاستعارة الا امثلة ناطقة تؤيد ما نقول . فقد قَسَّم طرفي التشبيه الى أنواع كثيرة فمنها ما يكونان مستندين الى الحس ، والى العقل ، او يكونان مختلفين كأن يكون المشبه معقولا والمشبه به محسوسا . وقَسَّم وجه الشبه الى ثلاثة أقسام تعتمد على العقل أكثر من اعتمادها على الاحساس الفني وعلى شيوعها في كلام العرب .وقَسَّم الاستعارة الى أكثر من ذلك فذكر لها ثمانية أنواع هي : الاستعارة المصرح بها التحقيقية مع القطع ، والاستعارة المصرح بها التخييلية مع القطع ، والاستعارة المصرح بها المحتملة للتحقيق والتخييل ، والاستعارة بالكناية ، والاستعارة الاصلية ، والاستعارة التبعية ، والاستعارة المجردة ، والاستعارة الترشيحية . يضاف الى ذلك ان الاستعارة تتنوع الى خمسة انواع اخرى كما يتنوع التشبيه .

وهذه التقسيمات تدل على عقليته المنطقية المعتمدة على التقسيم والحصر ، غير ملتفت الى انه يتكلم في البلاغة ، وهي روح الادب . وقد كان في ذلك موضع نقد حتى من تلاميذه أو من الذين ساروا على منهجه ، وهذا التفتازاني شارح تلخيص مفتاح العلوم يقول : « واعلم أنَّ أمثال هذه التقسيمات التي لا تتفرع على أقسامها أحكام متفاوتة قليلة الجدوى وكأن هذا ابتهاج من السكاكي باطلاعه على اصطلاحات المتكلمين . فلله در الامام عبد القاهر فانه لم يزد في هذا المقام على التكثير من أمثلة أنواع التشبيهات وتحقيق اللطائف المودعة فيها »[2] .

---

(١) شرح مفتاح العلوم للشيرازي ص ٢٩١ (مخطوطة الاوقاف ببغداد)
(٢) المطول على التلخيص ص ٤١٩

ونحن لا ننكر على رجال البلاغة ان يبوبوا بحوثهم ويقسموها ، فالعناية بالتقسيم كانت خصلة شائعة حتى بين الجاحظ والمبرد وغيرهما من المتقدمين ، وكان من اللغويين من فاق المتكلمين في التقسيم والتبويب كالمبرد الذي يُعتبر من أوائل الذين رتبوا مسائل التشبيه وقسموه الى أربعة اقسام . وان المؤلف اذا لم يرتب أبواب بحثه ويهذب مسائله ويحددها فلن يكون مؤلفا ذا قيمة في عالم التأليف .

فضبط مباحث البلاغة ضرورة تقتضيها طبيعة البحث ويدعو لها المنهج المنظم ، ولكننا ننكر التقسيمات التي جاء بها السكاكي وأمثاله من البلاغيين ، فأحالت البلاغة ميدانا لتطبيق مقاييس المنطق ومناهج بحثه . وهذا ما لا نريده في اعادة كتابة البلاغة من جديد .

☆ ☆

ويتضح تأثير المنطق في تعليلاته ، فهو يعلل المسائل الادبية تعليلا فلسفيا محضا . فالمجاز أبلغ من الحقيقة ، وهذا ما صرح به رجال البلاغة . ولكن كيف يثبت السكاكي ذلك ؟ لابد ان يعلل هذه الظاهرة تعليلا ينسجم مع منهجه ، ويتفق مع عقليته .

يقول : « والسبب في أنّ المجاز أبلغ من الحقيقة هو ماعرفت أنّ مبنى المجاز على الانتقال من الملزوم الى اللازم . فانت في قولنا « رعينا الغيث » ذاكراً للملزوم النبت مريدا به لازمه بمنزلة مدعي الشيء ببينة ، فان وجود الملزوم شاهد لوجود اللازم لامتناع انفكاك الملزوم عن اللازم لاداء انفكاكه عنه الى كون الشيء غير ملزوم باعتبار واحد . وفي قولك : « رعينا الغيث » مدعي للشيء لا ببينة ، وكم بين ادعاء الشيء ببينة ، وبين ادعائه لا بها » (١) .

وليس في كلام السكاكي مايوضح قيمة المجاز وكونه ابلغ من

(١) مفتاح العلوم ص ١٩٤

الحقيقة ، وليس كلامه الا كلام الفلاسفة المتكلمين لا كلام الادباء الذين يعنون بالقضايا الادبية وينظرون اليها نظرة فيها احساس وفيها ذوق ادبي • وأي علاقة للانتقال من الملزوم الى اللازم وغير ذلك في الدراسات الفنية • قد يكون كلام السكاكي صحيحا من الوجهة العقلية والمنطقية ، ولكنه من الوجهة الادبية بعيد كل البعد عن روح الادب ومقاييسه النقدية والبلاغية •

والكناية أبلغ من التصريح عند البلاغيين ، وقد عللوا ذلك تعليلا قريبا من روح البلاغة والادب ، ولكن السكاكي لايريد أنْ يتجه اتجاها ادبيا محضا ، وانما يريد ان يتجه ــ كعادته ــ نحو طريقة اخرى ، هي طريقة التعليل الفلسفي • يقول : « والسبب في أنّ الكناية عن الشيء أوقع من الافصاح ، لان مبنى الكناية على الانتقال من اللازم الى ملزوم معين ، ومعلوم عندك ان الانتقال من اللازم الى ملزوم معين يعتمد مساواته اياه لكنهما عند التساوي يكونان متلازمين فيصير الانتقال من اللازم الى الملزوم اذ ذاك بمنزلة الانتقال من الملزوم الى اللازم ، فيصير حال الكناية كحال المجاز في كون الشيء معها مدعى ببينة ومع الافصاح بالذكر مدعى لا ببينة »[1] •

لقد أراد السكاكي بهذه الفقرة أنْ يثبت أنّ الكناية أبلغ من الافصاح ، فماذا فعل ؟

لقد لفّ ودار بين ملزوم ولازم ، ولازم وملزوم وانتهى الى أنّ حال الكناية كحال المجاز من كون الشيء معها مدعى ببينة ، مع أنّ الافصاح بالذكر مدعى لا ببينة • وكان من الاجدر أنْ يأتي بمثلين أحدهما فيه كناية ، والآخر ليس فيه كناية ثم يحللهما ويوضح الاختلاف بينهما بطريقة ادبية وبذلك يتجلى الفرق بينهما واضحا ، وتبدو قيمة الكناية في التعبير جلية ناصعة • وما

(١) مفتاح العلوم ص ١٩٥

أحسن تعليل ابن رشيق القيرواني لحسن الكناية والتعريض ، وما أقربه الى واقعهما اللغوي والفني واستعمالهما في كلام العرب ؟ يقول وهو يتحدث عن مذاهب الشعراء في الهجاء : « وانا أرى أنّ التعريض أهجى من التصريح لاتساع الظن في التعريض وشدة تعلق النفس به ، والبحث عن معرفته وطلب حقيقته ، فاذا كان الهجاء تصريحا أحاطت به النفس علما وقبلته يقينا في أول وهلة ، فكان كل يوم في نقصان لنسيان او ملل يعرض ، هذا هو المذهب الصحيح »[1] .

فابن رشيق يعلل جمال التعريض تعليلا اديبا نفسيا ويبين ميزته على الافصاح دون أن يلجأ الى استعمال مصطلحات الفلاسفة والمتكلمين من « لازم » و« ملزوم » وغيرهما من الالفاظ . وماينطبق على الهجاء ينطبق على غيره من فنون الادب .

إنّ تعليل ابن رشيق أجدى نفعا وأقرب سبيلا الى فهم اساليب العرب وفنون كلامهم ، وليس لنا اذا ما أردنا تذوق الادب وتفهمه والتعمق فيه الا ان نرجع الى كتب البلاغة الاولى نستلهم منها التعليل، ونستوحيها ما فيه الفائدة واحياء تراثنا الادبي . اما التعلق بالكتب المتأخرة والاعتماد عليها كثيرا ففيه من القضاء على الذوق الادبي والاحساس الفني ، الشيء الكثير .

☆ ☆

وسيطرت النزعة الجدلية على بحثه ، وكان أسلوبه معقداً تشوبه العجمة احيانا ، فيقدم ويؤخر ويعبر عن المعنى باسلوب ملتو ليس فيه صفاء وسلاسة ورواء . وقد أثّرت هذه الطريقة في الكتب التي سارت على منهج السكاكي وتقمصت روح مباحث « مفتاح العلوم » ، مما كان له أسوأ الاثر في البلاغة العربية والنقد الادبي .

---

(١) العمدة لابن رشيق ج٢ ص١٧٢ — ١٧٣ .

وكان من أثر اهتمامه بالشكل أنْ قَلَّل الشواهد وبَتَر كثيرا من الابيات الشعرية فاصبحت مسخا لا يفهم منها القاريء شيئا الا اذا كان حافظا للشعر ، أو اذا رجع الى مظانّها يكمل ما قطع السكاكي منها • ولم يقف عند الشواهد ليحللها ويبين مافيها من جمال وابداع ، وما فيها من بلاغة دعته الى الاستشهاد بها •

وقد أكْثَرَ من الاستشهاد بالقرآن الكريم ، وهذا أمر طبيعي لانه يريد ان يظهر ما في آيات الكتاب من روعة وابداع وبلاغة وَقف العرب امامها مسحورين ، وبذلك كان القرآن أول مصدر اعتمد عليه السكاكي في ذكر الامثلة والشواهد ، ويأتي الشعر بالدرجة الثانية ، ولكنه لم يبتعد كثيرا عما ذكره عبد القاهر الجرجاني في كتابيه « اسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » والرازي في « نهاية الايجاز » •

وكان نتيجة سيطرة النزعة الجدلية على « مفتاح العلوم » ، وغلبة النظرة العقلية والمنطقية عليه أن ادخل السكاكي كثيرا من مصطلحات المنطق والفلسفة •

فمن الفلسفة الطبيعية ذكر الالوان والطعوم والروائح والمسموعات والملموسات والمشمومات والمبصرات ، وتكلم في العقل والوهم والخيال ولاسيما في بحث الحالة المقتضية لكمال الانقطاع بين الجملتين •

ومن الفلسفة العقلية نجده يتكلم في الاسباب والمسببات ، وذكر العلة والمعلول ولا سيما في بحث الفصل والوصل •

وتكلم على التصور والتصديق في بحث الاستفهام واطال الكلام فيهما •

ومن الفلسفة نجد كلامه على الصدق والكذب وحقيقتهما ، واعتماد البلاغيين عليهما في تحديد الخبر والطلب •

ومن الفلسفة الالهية نجده يتكلم على الفاعل الحقيقي في بحث

المجاز العقلي ، يضاف الى ذلك ماذكرناه من إدخال الدلالات في بحث البلاغة وتقسيم مباحث علم البيان [1] •

ومع اسراف السكاكي في ذكر مصطلحات المنطق والفلسفة ، فانه لمن الانصاف أنْ نقول إنَّ من جاء بعده كانوا اكثر اسرافا منه واكثر اغراقا في اصطناع اساليب الفلاسفة والمتكلمين ، وان بحثه كان اسلم من بحوثهم •

هذه هي الملامح الواضحة لأثر الفلسفة والمنطق في منهج السكاكي ولكن هل كانت طريقته خالصة للدعوى بمثل هذا المنهج أم انه نادى بتحكيم الذوق في دراسة الادب ومقاييسه ؟

مَنْ يقرأ « مفتاح العلوم » يحس بدعوته الصريحة الى تحكيم الذوق ، لا في البلاغة وحدها وانما في كل شيء حتى في الحكم على انواع الحروف ومخارجها • ويكثر من هذه الدعوى في القسم الثالث الخاص بالبلاغة ، ويحمد استاذه الحاتمي لانه كان يقيم للذوق وزنا كبيرا ، وكان يحيلهم في إدراك كثير من مسائل البلاغة الى الذوق ، ويحمد ما قام به عبد القاهر الجرجاني من اعتماده على الذوق في دراسة الادب والبلاغة ، ويقرر أنَّ ملاك الامر في علم المعاني هو الذوق السليم والطبع المستقيم فمن لم يرزقهما فعليه بعلوم أخر لانه :

إذا لم تَكُنْ للمرءِ عينٌ صحيحةٌ
فلا غَرْوَ أنْ يرتابَ والصبحُ مُسْفِرُ

ويحيل الى الذوق في أوزان الشعر وادراكها ، وان الانسان لن يستطيع الوقوف على ما اعتبره الامام الخليل بن احمد الفراهيدي فيها الا اذا كان ذا طبع سليم وذوق مستقيم[2] •

ولكن هل طبق السكاكي ما دعا اليه ؟

(١) ينظر مفتاح العلوم ص ٧٨ ، ٧٩ ، ١٢٢ ، ١٤٥ ، ١٥٨

(٢) ينظر مفتاح العلوم ص ٦ ، ٨١، ٨٣ ، ١١٩ ، ١٤٥ ، ١٥٤ ، ٢٤٦ •

لقد أهمل كل مقاييس الذوق حينما شرع يبحث في البلاغة بروح منطقية ثقيلة الظل على الدراسات الادبية ، مع انه بدأ بحثه بقوله : « وقبل ان نمنح هذه الفنون حقها من الذكر ننبهك على أصل لتكون على ذكر منه وهو انه ليس من الواجب في صناعة وإن كان المرجع في أصولها وتفاريعها الى مجرد العقل ان يكون الدخيل فيها كالناشيء عليها في استفادة الذوق منها ، فكيف اذا كانت الصناعة مستندة الى تحكمات وضعية واعتبارات الفية ، فلا على الدخيل في صناعة علم المعاني ان يقلد صاحبها في بعض فتاواه إنْ فاته الذوق هناك الى ان يتكامل له على مهل موجبات ذلك الذوق .

وكان شيخنا الحاتمي ذلك الامام الذي لن تسمح بمثله الادوار مادار الفلك الدوّار ــ تغمده الله برضوانه ــ يحيلنا بحسن كثير من مستحسنات الكلام اذا راجعناه فيها على الذوق ونحن حينئذ ممن نبغ في عدة شعب من علم الأدب وصبغ بها يده وعانى فيها وَكَدَّهُ وكدّه . وها هو الامام عبد القاهر قدس الله روحه في « دلائل الاعجاز » كم يعيد هذا » [1]

ولكنه سرعان ماينسى دعواه فيقول بعد هذا الكلام مباشرة : « معلوم أنّ حكم العقل حال اطلاق اللسان هو أن يفرغ المتكلم في قالب الافادة ماينطق به تحاشيا عن وصمة اللاغية . فاذا اندفع الكلام مخبرا لزم ان يكون قصده في حكمه بالمسند للمسند اليه في خبره ذاك افادته للمخاطب متعاطيا مناطها بقدر الافتقار » .

وهكذا يحكم العقل في البلاغة بدلا من تحكيم الذوق ، ويهتم بالشكل اكثر من اهتمامه باثر البلاغة ؛ فلا يقف عند النصوص الادبية طويلا ؛ يسبر اغوارها ويكشف عن جمالها الا في مواطن قليلة كما في قوله تعالى « اياك نعبد واياك نستعين »[2] ، وقول امرىء القيس :

---

(١) مفتاح العلوم ص ٨١
(٢) سورة الفاتحة ، الآية ٥ .

تطاول ليلُـك بالاثْـمـدِ ونام الخَليُّ ولم تَرْقُـدِ
وبات وبـاتت له ليلـةٌ كليلةِ ذي العائرِ الأرمَـدِ
وذلك عن نبـأٍ جـاءني وخبرته عن أبي الاسـودِ

ولكنها وقفة لا تخرج عما ذكره الزمخشري في تفسير الكشاف •

✡ ✡

وبعد فماذا كانت نتيجة ذلك في البلاغة ؟

لقد ضيق طغيان الفلسفة على منهج السكاكي الخناق على البلاغة، وخرج بها عن وجهتها التي يجب أن تتجه نحوها ، وابتعدت عن الذوق الادبي ومقاييسه في نقد الادب ، وانحصرت دائرة بحثها في الجملة او الجملتين •

فالمعاني ما هو إلا بحث في طرفي الجملة وتوابعهما ، وبحث في ربط الجملتين •

والبيان ليس الا بحثا في الجملة او الجملتين ايضا وما فيها من تشبيه ومجاز وكناية •

أما البحث فيما عدا هذه الامور فلم يَحْظَ بعناية بالغة في كتب البلاغة العربية ، ولم يهتم البلاغيون المتأخرون بتحليل القطع الادبية التي تزيد على الجملة والجملتين الا ما جاء في بعض الكتب التي لم يسيطر عليها منهج السكاكي سيطرة تامة ككتاب« الطراز » للعلوي الذي اهتم بالضبط المنطقي الى جانب التحليل الادبي •

وقد لا نذهب بعيدا أو نكون مغالين اذا ما قلنا إن بحث البلاغة على هذه الصورة أثر من آثار الفلسفة والمنطق ، وإن مباحث علم المعاني تقابل بحوث التصورات ، وان مباحث البيان تقابل بحوث التصديقات ، كما يذهب الى ذلك الاستاذ امين الخولي[1] •

(1) تنظر مقالة البلاغة العربية واثر الفلسفة فيها ص ٤٢ وما بعدها

ويؤيد هذا ما رأيناه من توثيق الصلة بين البلاغة وعلم الاستدلال عند السكاكي وادخاله مقاييس المنطق والكلام في بحث البلاغة•وبذلك فليس للبلاغة بعد هذا صلاح الا ان نعود الى كتبها الاولى نستلهمها الحياة لكي نستطيع أنْ نعيد كتابتها من جديد ، اما الاعتماد على كتب المتأخرين ككتاب مفتاح العلوم وشروحه وتلخيصاته فلن ينفعنا في التجديد كثيرا •

☆ ☆

ولعلنا في هذا الباب استطعنا أن نكشف عن منهج البلاغة قبل السكاكي وتدفقه بالحياةقبل أن تسيطر على دراسةالبلاغةمقاييس المنطق وعلم الكلام ، واستطعنا ان نوضح منهج السكاكي البلاغي واضطرابه وما فيه من عدم دقة في التبويب والترتيب ، وما فيه من ازهاق لروح البلاغة وبالتالي لروح الادب • وبيّنا ان هذا المنهج لم يأخذ شكله الاخير على يدي السكاكي الا بعد ان اجتازت البلاغة مرحلة طويلة ، وبعد أن سيطرت الفلسفة والمنطق وعلم الكلام على مناهج البحث ولا سيما في العلوم الأدبية •

وما دمنا قد وضحنا هذه الامور بقدر ما استطعنا ، وبقدر ما اسعفتنا به المصادر فلنبحث في جهود السكاكي وأثره في البلاغة •ولن يتم لنا ذلك ما لم نبحث منابع بلاغته والمصادر التي استقاها منها لكي نستطيع أن نعرف ما أخذه من المتقدمين وما جاء به من جديد •

وسيكون هذا موضوع بحثنا في الباب الثاني •

الباب الثاني

جهوده وأثره

الفصل الأول

منابع بلاغته

١

جاء السكاكي في القرن السادس الهجري فوجد البلاغة قد خطت خطوات كبيرة ، وبحثت مسائلها المختلفة ، وتضافرت الجهود على بناء صرحها وارساء قواعدها منذ ان بدأت مسائل متفرقة في كتب المفسرين الاوائل ككتاب « معاني القرآن » للفراء وكتاب « مجاز القرآن » لابي عبيدة ، وكتب الجاحظ ولا سيما « البيان والتبيين » و « الحيوان » وكتاب « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة وكتاب « الكامل » للمبرد و « قواعد الشعر » لثعلب . وبقيت البلاغة تتطور قرنا بعد قرن حتى اذا كان القرن الخامس الهجري ظهر عبد القاهر الجرجاني فنفخ فيها من روحه ، وهذب مسائلها وبوبها تبويبا دقيقا اعتمد عليه السكاكي فيما بعد اعتمادا كبيرا .

جاء السكاكي فوجد تراثا بلاغيا ضخما ، فعكف على درسه وتفهم مسائله حتى نبغ في البلاغة وأصبح رأس مدرسة بلاغية امتد أثرها حتى العصر الحديث .

ويعترف السكاكي انه استفاد من تراث المتقدمين استفادة كبيرة ،

ولم ينكر جهودهم ، بل على العكس كان يشيد بهم دائما ويذكر فضلهم عليه ، ولا ينسب لنفسه شيئا بحثه المتقدمون . وهو كثيرا ما يكرر مثل هـذه العبارات : « واعلم أن الكلام في جميع ما ذكر من الامثلة قول الاصحاب » او « وهذا قول السلف » ، وغيرها من العبارات التي تدل على نقله منهم واعتماده عليهم .

ولم يكتف بهذا ، وانما دافع عن السلف دفاعا قويا فيه اعتزاز بهم ، واعتراف بفضلهم وبما قدموا للبلاغة من خدمات جلى . يقول بعد أن انتهى من بحث الكناية : « وسيحمد ما أوردت ذوو البصائر واني اوصيهم ان اورثهم كلامي نوع استمالة ، وفاتهم ذلك في كلام السلف اذا تصفحوه ان لا يتخذوا ذلك مغمـــزا للسلف او فضلا لي عليهم ، فغير مستبدع في ايما نوع فرد إن يزل عن اصحابه ما هو أشبه بذلك النوع في بعض الاصول او الفروع او التطبيق للبعض بالبعض حتى كانوا المخترعين له ، وانما يستبدع ذلك ممن زجى عصره راتعا في مائدتهم تلك ثم لم يقو ان يتنبه .

وعلماء هذا الفن وقليل ما هم كانوا في اختراعه واســـتخراج أصوله ، وتمهيد قواعدها واحكام ابوابهـــا وفصولها ، والنظر في تفاريعها واستقراء امثلتها اللائقة بها وتلقطها من حيث يجب تلقطهـا واتعاب الخاطر في التفتيش والتنقير عن ملاقطها وكد النفس والروح في ركوب المسالك المتوعرة الى الظفر بها مع تشعب هذا النوع الى شعب بعضها ادق من البعض ، وتفننها أفانين بعضهـــا أغمض من بعض ، فعلوا ما وفت به القوة البشرية اذ ذاك [١] » .

ويقف السكاكي موقف المعترف بجهود المتقدمين ، المقر بتتبعه لهم والسير على آثارهم . فهم الذين مهدوا السبيل له وفتحوا باب البلاغة،

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٩٥

وكان الفضل لهم في بحثه البلاغة وتبويبها وتهذيب مسائلها • يقول : « والاصحاب حين سبقونا الى التعرض لهذا الجزء من علم المعاني أعني علم الاستدلال ، ونراهم ما آلوا فيه جهدا ، آثرنا ان تتبعهم في ذلك مسامحين قضاء لحق الفضل لهم :

فلو قبل مبكاها بكيتُ صبابةً
بسُعْدَى شفيت النفسَ قبلَ التندمِ
ولكنْ بكى قلبي فهيَّجَ لي البكا
بكاها فقلت : الفضلُ للمتقدمِ »[1]

هذا موقفه من السلف ، وهو موقف كله تقدير واكبار لجهودهم وأعمالهم ، ولم يعمل شيئا أكثر من تبويب اعمال السلف وتهذيب مسائل البلاغة ، وترتيبها ترتيبا يعتمد على المنطق وعلم الكلام أكثر من اعتماده على الذوق الادبي والاحساس الفني •

ولكن ما منابع بلاغته ؟ ومَن الذين اعتمد عليهم اعتمادا كبيرا ، وسار على نهجهم ؟

لم يذكر السكاكي مصادر بلاغته ولم يشر الى الكتب التي نقل عنها او الرجال الذين روى عنهم • وهذه بادرة لم نجدها عند كثيرمن البلاغيين ، ولم نلحظها عند غيره من المؤلفين • فغالبا ما يذكر المؤلفون مصادرهم ومنابع دراستهم ، وان لم يفعلوا هذا فانهم يذكرون الكتب التي اعتمدوا عليها في أثناءمناقشتهم من سبقهم وتكلم في موضوعاتهم ، وبذلك يستطيع الباحث أن يعرف مدى تأثر المؤلف بغيره •

أما السكاكي فلم يَجْرِ على هذا المنوال ، ولم يذكر أحدا من رجال البلاغة وكتبها المشهورة ، وكل ما فعله أن قال في بعض المواضع: « وهذا قول الاصحاب » أو « وهذا رأي السلف » •

---

(١) مفتاح العلوم ص ٢٣٣

ولكن مَن الاصحاب ، ومن السلف الذين ينقل عنهم ؟

انه لم يُشِر الى ذلك ولم يذكر من السلف الا اربعة هم : استاذه الحاتمي ، وعبدالقاهر الجرجاني ، والزمخشري ، وابو علي الفارسي . وكان ذكره لهم عرضا بحيث لا يستطيع الباحث أن يتتبع آراءهم واقوالهم التي سطا عليها ، بهذه الطريقة . وليس للباحث بعد ذلك الا أن يرجع الى التراث السابق يقرأه ويدقق فيه ليستطيع ان يعرف المصادر التي استقى منها القسم الثالث من «مفتاح العلوم».وهذا ما قمنا به في كتابة هذا الفصل ، فقد رجعنا الى كتب البلاغة منذ نشأتها حتى عصر السكاكي وتلمسنا ما فيها من تقارب او شبه ببلاغته.

ولنعد الى الاربعة الذين ذكرهم السكاكي في القسم الثالث من « مفتاح العلوم » لنرى مدى ما نقل عنهم صراحة ، وما نقله عنهم ولم يصرح بذلك .

لقد نقل بلاغة عبد القاهر الجرجاني برمتها ولم يشر الى هذا النقل الا مرتين ذكر فيهما الجرجاني .

الاولى : في أول كلامه على البلاغة حين تحدث عن الذوق قائلا : « وها هو الامام عبد القاهر ـ قَدَّسَ الله روحه ـ في «دلائل الاعجاز» كم يعيد هذا »[1] .

والثانية : في كلامه على الاستعارة ، وهل هي مجاز لغوي أو عقلي ، يقول : « ومدار ترديد الامام عبد القاهر ـ قدس الله روحه ـ لهذا النوع بين اللغوي تارة وبين العقلي اخرى على هذين الوجهين . جزاه الله أفضل الجزاء فهو الذي لا يزال ينوّرُ القلوب في مستودعات لطائف نظره لا يألو تعليما وارشادا »[2] .

---

(١) مفتاح العلوم ص ٨١
(٢) مفتاح العلوم ص ١٧٥

وهاتان الاشارتان لا تلقيان ضوءً على ما أخذ السكاكي من الشيخ عبد القاهر وما اقتبس من بلاغته .

وذكر السكاكي شيخه الحاتمي عدة مرات ولكننا لا نستطيع أن نعرف شيئا عما نقل عنه في البلاغة ، وكل ما ذكره عنه في بحث البلاغة انه كان ذا ذوق وكان عالما لن تسمح بمثله القرون ، وينقل رأيه في الاستعارة . أما في مباحث الكتاب الاخرى فقد نقل عنه الاشتقاق الاكبر، ونقل رأيه في الشعر والعروض[1] . هذا كل ما ذكره عن شيخه الحاتمي ولا نستطيع على ضوئه أن نحكم على مقدار تأثره به ، أو نقدر أن نتبين متابعة السكاكي لشيخه واستاذه ، لان هذه الاشارة لا تكفي للحكم على مدى تأثره به . وما دمنا لم نعثر على كتاب للحاتمي او اشارات في غير « مفتاح العلوم » فاننا نقف عند هذا الحد ، تاركين الحكم في هذه المسألة الى ان نعثر على آراء الحاتمي أو بعض كتبه ان كانت له مؤلفات .

وكان الزمخشري من العلماء الذين ذكرهم السكاكي مرتين في القسم الثالث من كتابه ، وذلك عند اختلافه معه في تفسير بعض الآيات الكريمة[2] ، ولكنه لم يشر اليه في الامور التي أكثر من نقلها عن تفسير الكشاف كما سنرى .

وذكر أبا علي الفارسي في موضعين ، ولكنه لم ينقل عنه رأياً أو يرد عليه ويناقشه ، ولعله لم يستفد منه الا في نقل البيت :

ولولا جنانُ الليل ما آب عامرٌ الى جعفرٍ سرباله لم يُمَزَّقِ

وفي تقديره المحذوف في قول القائل : « اسال البحار فانتحى للعقيق » ، وقول الآخر « وقد جعلتني من خزيمة اصبعا »[3] . ونرجح

---

(١) مفتاح العلوم ص ٧ ، ٨١ ، ١٧٥ ، ٢٤٥ ، ٢٥٠

(٢) مفتاح العلوم ص ١٢٥ ، ١٣٤

(٣) مفتاح العلوم ص ١٣٢ ، ١٦٥

أن السكاكي لم يستفد من أبي علي الفارسي شيئا في بحث البلاغة ، لان أبا علي لم يكن مشهورا بالبلاغة ، وانما اشتهر بالنحو والصرف .

هؤلاء هم الاربعة الذين ذكرهم السكاكي وهو يبحث في البلاغة، ولن نستطيع أن نتتبع بهذه الطريقة ما أخذه عنهم وما استفاده مما الفوا وكتبوا . ولن نقدر أن نعرف منابع بلاغته الاخرى ، إلاّ بالرجوع الى المصادر ومطابقة ما جاء فيها بما ذكره في « مفتاح العلوم » .

وبهذه الطريقة سنتابع بحث بلاغته وما اخذه عن المتقدمين .

٢

ذكرنا ان الفلسفة والمنطق وعلم الكلام كان لها أثر في البلاغة العربية وقد تأثر السكاكي بها تأثرا واضحا • وترجمت كتب الفلسفة والمنطق وتداولها الناس وترجمت كتب ارسطو ولا سيما « الخطابة » و « الشعر » • وكان لهذين الكتابين أثر واضح في البلاغة العربية ، لان ارسطو ذكر فيهما وفي كتاب المنطق بعض ما يتعلق بالبلاغة كالامر والدعاء والخبر وغيرها مما أدخلها السكاكي في علم المعاني ، وكالمجاز والتشبيه مما ادخله السكاكي في علم البيان • يقول ارسطو في ذكر بعض موضوعات المعاني : « وفيما يتصل بالقول هناك مسألة يمكن أنْ تكون موضوعا للبحث وهي ضروب القول ، بَيْدَ أن معرفتها من شأن فن الممثل والمتخصص في امثال هذه الامور ، مثل أنْ تعرف ما هو الامر ، وما هو الرجاء والقصص والتهديد ـ التحذير ـ والاستفهام ، والجواب ، وكل ما يدخل في هذا الباب »[1] •

ولا يدخل ارسطو هذه الموضوعات في فن الشعر ولا يعتبرها من شأنه، وانما هي أمور تتعلق بالممثل والخطيب ، ولاجل هذا يرى انه لا قيمة حقيقية للنقد الذي يوجه الى الشاعر بانه يعرف او يجهل هذه الامور • يقول : « اذ كيف نسلم باللوم الذي وجهه فروتاغورس الى هوميروس بأنه ساق العبارة في صيغة الامر وهو يعتقد انه رجاء حين قال : « انشدي ايتها الربة في غضبة » • اذ قال فروتاغوراس : ان القول بفعل كذا او عدم فعله هو أمر ، ولهذا يجب علينا أن نطرح هذه المسألة جانبا لانها من شأن علم آخر وليست من شأن فن الشعر »[2] •

(١) كتاب الشعر ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوي ص ٥٤ •
(٢) كتاب الشعر ص ٥٤

وعرض أرسطو لأساليب الخبر والطلب في بحوثه المنطقية ، ففي كتاب « المقولات » يذكر أن الجمل الموجبة أو السالبة هي المحتملة للصدق والكذب ، وأما الالفاظ غير المؤلفة فليس شيء منها صادقا ولا كاذبا كابيض ويحضر ويظفر .

وفي كتاب « العبارة » يذكر أنّه ليس كل كلام بجازم ، وانما الجازم القول الذي وجد فيه الصدق أو الكذب ، وليس ذلك بموجود في الاقاويل كلها ، ومثال ذلك الدعاء فانه قول ما ، لكنه ليس بصادق ولا كاذب[1] .

وذكر الفصل والوصل في كتاب « الخطابة » عند كلامه على الأسلوب المفصل والاسلوب المقطع ، وذكر الايجاز والاطناب ، وتكلم في التشبيه والمجاز والاستعارة وصيغ المبالغة والاستعارة التمثيلية والتقابل والطباق والتورية وغيرها من مسائل البلاغة الاخرى[2] .

وقد استفاد العرب من هذه المسائل عندما بحثوا البلاغة ووضعوا تقسيماتها ورتبوا ابوابها . ولا نستطيع الجزم بأن السكاكي تأثر بارسطو مع انه قرأ الفلسفة اليونانية ومنطق أرسطو ، لان البلاغة كانت قد خطت خطوات واسعة قبله وكانت لها مناهجها وكتبها الكثيرة ، ولانه لم يشر الى أرسطو في « مفتاح العلوم » .

واذا كان قد تأثر بما كتب ارسطو فقد يكون بطريقة غير مباشرة ، أي بما قرأ من كتب البلاغة العربية المتأثرة بكتب اليونان . ولقد رأينا في الباب الاول من هذا البحث ان معظم الموضوعات التي تكلم فيها رجال البلاغة كانت فيما يخص المباحث التي ادخلها السكاكي في علمي البيان والبديع ، اما المباحث التي ادخلها في علم المعاني فلم نرَ لها أثرا واضحا في تلك الدراسات الا ما كان في كتاب « دلائل الاعجاز ».

---

(١) منطق ارسطو ج١ ص ٦ ، ٦٣

(٢) ينظر كتاب الخطابة لارسطو الترجمة العربية ـ بتحقيق الدكتور عبدالرحمن بدوي ص ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ . وكتاب الشعر لارسطو ص٥٨ ـ ٥٩

فمن أين جاء السكاكي بمباحث علم المعاني ؟

لقد بحثت معظم هذه المسائل قبل السكاكي ، وكان النحاة والمتكلمون هم الذين بحثوها ، وكانت موضوعات الخبر والطلب والصدق والكذب قد ظهرت عند المعتزلة اصحاب علم الكلام ، لحاجتهم اليها في جدلهم ودفاعهم عن عقيدة الاسلام وكتاب الله .

ولعل النظام أستاذ الجاحظ كان من أوائل الذين تحدثوا عن الخبر والطلب،وحددوا معناهما،وضبطوهما بمقياس الصدق والكذب. يقول : « إن صدق الخبر مطابقته لاعتقاد المخبر،ولو كان ذلك الاعتقاد خطأ . فقول القائل : « السماء تحتنا » مصدقا ذلك ، صدق . وقوله « السماء فوقنا » غير معتقد كذب »[1] .

وقد احتج لهذا الرأي بوجهين : الاول : ان من اعتقد أمرا فأخبر به ثم ظهر خبره بخلاف الواقع يقال ما كذب ولكنه اخطأ ، كما روي عن عائشة رضي الله عنها . قالت : فيمن شأنه كذلك ما كذب ولكنه وهم .

والثاني : قوله تعالى : « واللهُ يَشْهَدُ إن المنافقينَ لكاذبونَ »[2] ، كذبهم في قولهم « انك لرسول الله » ، وان كان مطابقا للواقع لانهم لم يعتقدوه[3] .

وانكر الجاحظ انحصار الخبر في القسمين وزعم انه ثلاثة أقسام: صادق ، وكاذب ، وغير صادق ولا كاذب ، لان الحكم اما مطابق للواقع مع اعتقاد المخبر له أو عدمه ، وأما غير مطابق مع الاعتقاد أو عدمه .

فالاول أي المطابق مع الاعتقاد هو الصادق ، والثالث أي غير المطابق مع الاعتقاد هو الكاذب ؛ والثاني والرابع أي المطابق مع عدم

(١) المطول على التلخيص ص ٣٩ .
(٢) سورة المنافقون ، الآية ١ .
(٣) ينظر الايضاح للخطيب القزويني ص ١٣

الاعتقاد وغير المطابق مع عدم الاعتقاد كل منهما ليس بصـــادق ولا كاذب .

فالصدق عند الجاحظ مطابقة الحكم للواقع مع اعتقاده ،والكذب عدم مطابقته مع اعتقاده ، وغيرهما ضربان : مطابقته مع عدم اعتقاده ، وعدم مطابقته مع عدم اعتقاده .

واحتج الجاحظ بقوله تعالى : « افْتَرَى على اللهِ كَذِباً أمْ به جِنَّـــةٌ »[1] فانهم حصروا دعوى النبي (ص) الرســالة في الافتراء والاخبار حال الجنون بمعنى امتناع الخلو وليس اخباره حال الجنون كذبا لجعلهم الافتراء في مقابلته ، ولا صدقا لانهم لم يعتقدوا صدقه فثبت ان من الخبر ما ليس بصادق ولا كاذب[2] .

وهكذا انشغل المتكلمون ببحث هذه المسائل التي استفاد منهـا البلاغيون وادخلوها في علم المعاني . ولا نستطيع أن نجزم بانالسكاكي اعتمد على النظّام أو الجاحظ في كتابة الخبر والطلب ، والذي نستطيع ان نقرره ان السكاكي استفاد من بحوث المتكلمين وكانت هذهالبحوث مادة اساسية فيما كتب . ولا عجب في هذا فقد طغت بحوث المتكلمين وكان لها أثر في الحياة الفكرية ولا سيما في عصر السكاكي ، يضاف الى ذلك ان السكاكي كان معتزليا له المام بثقافتهم وأساليبهم في الكلام . وقد سبق أن فَصَّلنا القول في أثر الفلسفة وعلم الكلام في منهجه .

وعرف المتكلمون بالبحث في هذه المسائل منذ بدء البحث والتأليف عند العرب ، فابن قتيبة يذكر ان القول بان : « الكلام اربعة : أمـــر وخبر واستخبار ورغبة ، ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب وهي الامر والاستخبار والرغبة ، وواحد يدخله الصدق والكذب وهوالخبر»[3].

---

(١) سورة سبأ ، الآية ٨ .
(٢) ينظر المطول على التلخيص ص ٤١ ، والايضاح ص ١٣ ـ ١٤
(٣) ادب الكاتب ص ٤

يقول ان الكلام في هذه الامور من آراء المتكلمين ومسائلهم الخاصة .

وتكلم ابن قتيبة على مخالفة ظاهر اللفظ معناه كالدعاء على جهة الذم ، والدعاء على جهة التعجب ، والاستفهام للتقرير ، والاستفهام للتعجب ، وللتوبيخ ، والامر للتأديب والفرض ، وغيرها[1] . ومع اننا لا نستطيع ان نجزم بأن السكاكي قد نقل عن ابن قتيبة هذه المسائل او استفاد منها في باب الطلب ، لكننا نقدر أنْ نقول ان السكاكي اطلع على ما كتب ابن قتيبة لأنه أشار اليه في نهاية « مفتاح العلوم » وفضل رأيه في معنى قوله عليه الصلاة والسلام « ان هذا القرآن نزل على سبعة احرف » ، يقول : « وأصوب محمل يحمل عليه قوله عليه السلام « على سبعة احرف » ما حام حوله الامام عبدالله بن مسلم بن قتيبة الهمذاني قدّس الله روحه »[2] .

وهذا يدلنا على اطلاع السكاكي على كتاب « تأويل مشكل القرآن » ، لان ابن قتيبة ذكر هذا الرأي فيه .

وذكر ثعلب أن قواعد الشعر أربعة : أمر ونهي وخبر واستخبار[3] .

وتأثر السكاكي بكتاب « نقد النثر » ، وان كان تأثرا غير واضح ، فقد قسم صاحب نقد النثر الكلام الى قسمين : خبر وطلب ، وقسمه السكاكي هذا التقسيم وقال : « كلام العرب شيئان : الخبر والطلب »[4] .

ولم يسم الطلب انشاء كما سماه القزويني ومن جاء بعده ، ولعل سبب ذلك انه تحدث عن انواع الانشاء الخمسة وهي التمني ،

---

(1) تأويل مشكل القرآن ص ٢١٣ وما بعدها .
(2) مفتاح العلوم ص ٢٨١ ، وتأويل مشكل القرآن ص ٢٦ وما بعدها .
(3) قواعد الشعر ص ٢٥ وما بعدها .
(4) نقد النثر ص ٤٤ ، ومفتاح العلوم ص ٧٨ .

والاستفهام والامر والنهي والنداء ، واعتبرها الخطيب القزويني من الطلب لان الانشاء عنده ضربان : طلب وغير طلب • وبذلك سمى السكاكي موضوعات الانشاء طلبا كما سماه صاحب « نقد النثر » ، لان النوع الثاني وهو « غير الطلب » كصيغ المدح والذم والرجاء والقسم والتعجب وصيغ العقود ورب وكم الخبرية لم يبحثه السكاكي باعتباره نوعا من الخبر نقلت انواعه الى معنى الانشاء •

ويظهر تأثر السكاكي بصاحب نقد النثر في الجملة الشرطية ، فقد عدها كلاهما خبرا ، يقول مؤلف نقد النثر : « والخبر منه جزم ، ومنه مستثنى ومنه ذو شرط • فالجزم مثل « زيد قائم » وقد جزمت في خبرك على قيامه • والمستثنى « قام القوم الا زيدا » ، فقد استثنيت زيدا ممن قام • وذو الشرط : « اذا قام زيد صرت اليك » فانما يجب مصيره اليه اذا قام زيد فهو معلق بشرط »[١] • وكرر السكاكي هذا القول في كثير من المواضع ، يقول : « إن الجملة الشرطية جملة خبرية مقيدة بقيد مخصوص محتملة في نفسها للصدق والكذب »[٢] •

☆ ☆

وكان أحمد بن فارس أول من تكلم بالتفصيل على موضوعات ادخلها السكاكي في علم المعاني وذلك بان عقد في كتابه « الصاحبي » فصلا كبيرا بعنوان « معاني الكلام » ذكر فيه انها عشرة : خبر واستخبار وامر ونهي ودعاء وطلب وعرض وتحضيض وتمن وتعجب[٣] •

ويبدو أن السكاكي اطلع على هذا الفصل ، واستفاد منه ، لانه ليس في المتقدمين من بحث هذه الموضوعات بالتفصيل كابن فارس • ومما يجعلنا نرجح اطلاع السكاكي على هذا الباب سوى ما ذكرنا هو

---

(١) نقد النثر ص ٤٥
(٢) مفتاح العلوم ص ١٠٠ ، ١٠٤ ، ٢٠٨
(٣) ينظر الصاحبي ص ١٥٠ وما بعدها .

ان صاحب كتاب « الصاحبي » كان مقيما بهمذان وحمل منها الى الري الى ان توفي فيها • وهذه المنطقة قريبة من بيئة السكاكي فلابد أنَّ مؤلفات ابن فارس كانت من الكتب الذائعة المنتشرة في خوارزم ، ولا سيما كتابه « الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها » •

ومما يجعلنا نرجح أن السكاكي اطلع على هذا الكتاب أيضا ، تشابه بحث الخبر والطلب عند الرجلين ، فقد اتبع السكاكي ترتيب ابن فارس في بحث الطلب تقريبا • رتبها السكاكي هذا الترتيب : التمني ، والاستفهام ، والامر ، والنهي ، والنداء ، ورتبها ابن فارس هكذا : الاستفهام ، والامر ، والنهي ، والتمني •

وسبب تقديم التمني عند السكاكي على أنواع الطلب الاخرى هو انه حصرها حصرا منطقيا فكان الطلب عنده نوعين : نوع لا يستدعي في مطلوبه امكان الحصول ، ونوع يستدعي فيه امكان الحصول • ولما كان التمني لا يستدعي في مطلوبه امكان الحصول لذا قدمه وجعله الباب الاول من الطلب ، اما الاربعة الباقية وهي التي تستدعي امكان الحصول ، فقد رتبها ترتيب ابن فارس •

وهكذا استفاد السكاكي مما كتب ابن فارس ، وكان عمدة ماكتب في علم المعاني وان لم يشر اليه ، دأبه في ذلك دأب الآخرين الذين سطا على كتبهم ولم يذكرهم او يشر الى مؤلفاتهم التي نقل عنها •

☆ ☆

وتأثر السكاكي ببعض الذين بحثوا في اعجاز القرآن ، وان لم يشر اليهم ، ومن اولئك الذين اثروا فيه الرماني الذي نقل عنه تعريف الاستعارة • يقول الرماني في تعريفها : « الاستعارة تعليق العبارة على

غير ما وضعت له في اصل اللغة على جهة النقل للابانة »[1] • ويقول السكاكي : « حدها عند بعضهم تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للابانة»[2] • ولكن من « بعضهم » الذي حدّها ؟

ان السكاكي لم يشر الى الرماني الذي نقل عنه هـذا التعريف واكتفى بان قال : « حدها عند بعضهم » ، وبذلك غمط حق الافذاذ من المؤلفين •

ولعل السكاكي نقل طبقات البلاغة عن الرماني أيضا ، لان ما ذكره الرجلان عن طرفي البلاغة يتفق اتفاقا تاما[3] •

اما الكتاب الذي اعتمد عليه السكاكي في هذا النقل عن الرماني فيبدو انه كتاب « النكت في اعجاز القرآن » ، وذلك لتطابق النقل واتفاقه في كلماته وحروفه •

☆ ☆

وكان للاصوليين ــ أصحاب الصناعة القانونية في فهمهم للشرع الاسلامي واستخراج اصول التشريع من عباراته ــ ، أثر كبير في البلاغة العربية • فهم لكي يستنبطوا الاحكام من القرآن الكريم عكفوا على دراسة اسلوبه وطريقة فهمه ومراميه في القول ، وتطرقوا الى بحث الامر والنهي والاستفهام والنفي والعموم والخصوص والمقيد والمطلق والحقيقة والمجاز وغيرها • وقد ذهب الدكتور عبدالرزاق محيي الدين الى أن اصحاب اصول الفقه ادنى الى البلاغة من اصحاب الكلام واجدر بالمشاركة منهم[4] • وهذا الرأي يكون صحيحا اذا اخذنا بنظر الاعتبار

(١) النكت في اعجاز القرآن ــ ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ص ٧٩ •
(٢) مفتاح العلوم ص ١٨١
(٣) تنظر رسالة النكت في اعجاز القرآن ص ٦٩ ومفتاح العلوم ص ١٩٦ •
(٤) ينظر تعليقه على كتاب النقد المنهجي عند الجاحظ للدكتور داود سلوم في آخره ص ٢٢٩ •

كثرة اهتمام الاصوليين بمباحث البلاغة بالنسبة الى المتكلمين • اما اذا نظرنا اليه من ناحية السبق الى البحث في مسائل البلاغة فقد يكون هذا الرأي لا ينطبق على الواقع كثيرا ، لأنّ المتكلمين سبقوا الى البحث في البلاغة • وقد ذكر القدماء هذا فقال ابو العباس احمد بن تيمية (٧٢٨ هـ) وهو يتحدث عن المجاز :« وانما هذا اصطلاح حادث، والغالب انه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين فانه لم يوجد هذا في كلام أحد من أهل الفقه والاصول والتفسير والحديث ونحوهم من السلف • وهذا الشافعي اول من جرد الكلام في اصول الفقه لم يقسم هذا التقسيم ، ولا تكلم بلفظ الحقيقة والمجاز »[١] •

ومع ذلك فقد شارك الاصوليون في نشأة البلاغة وتطورها ، وخير شاهد على ذلك كتاب «الرسالة» لمحمد بن ادريس الشافعي(٢٠٤هـ) الذي افتتحه بمقدمة تكلم فيها على البيان وقسّمه الى بيان القرآن ، وبيان السنة للقرآن ، والبيان بالاجتهاد وهو القياس ، وذكر أن في القرآن عاما يراد به العام ، وعاما يدخله الخصوص وغير ذلك •

ودأب الاصوليون على ذكر بعض مسائل البلاغة في مقدمات كتبهم حتى تضخمت هذه المقدمات على الزمن وصارت مسائل البلاغة أهم ما يبحث الاصوليون فيها • وتوثقت الصلة بين البلاغة وعلم الاصول حتى قال السكاكي في ذلك : « بل تصفح معظم ابواب أصول الفقه من أي علم هي ، ومن يتولاها ؟ »[٢] •

وقد اشار السبكي الى الصلة الوثيقة بين علمي المعاني وأصول الفقه بقوله : « واعلم أن علمي اصول الفقه والمعاني في غاية التداخل فان الخبر والانشاء اللذين يتكلم فيهما المعاني هما موضوع غالب الاصول ، وان كل ما يتكلم عليه الاصولي من كون الامر للوجوب

---

(١) كتاب الايمان ص ٣٥
(٢) مفتاح العلوم ص ١٩٩

والنهي للتحريم ومسائل الاخبار والعموم والخصوص والاطلاق والتقييد والاجمال والتفصيل والتراجيح كلها ترجع الى موضوع علم المعاني . وليس في اصول الفقه ما ينفرد به كلام الشارع عن غـــيره الا الحكم الشرعي والقياس واشياء يسيرة »[1] .

فالصلة بين البلاغة ــ ولا سيما علم المعــاني ــ وعلم الاصول وثيقة . وقد استعان السكاكي بالاصوليين في بعض القضايا ، ولكنه لم يتأثر بهم كثيرا ، او لعله تأثر بهم ونقل عنهم ولكنه لم يشر الى ذلك ، ولم يذكر الــكتب التي اســتقى منهــا بلاغتــه وآراءه الا في موضع واحد ، وهو في بحث اللام لتعريف العهد ، فقد قال بعد ان ذكر عدة آراء في اللام وفي تعريف الحقيقة باللام واستغراقها : « وكل ذلك على ما نرى فاسد ، والاقرب بناء على قول بعض ائمة الفقه بأن اللام موضوعة لتعريف العهد لا غير »[2] .

فالسكاكي يشير بصراحة الى اثر الاصوليين في البلاغة وفيما كتب من مباحثها ولكنه لم يبيّن المسائل التي اخذها عنهم ، يضاف الى ذلك ان ما ذكره في علم المعــاني كان مشــتركا بين الاصوليين والمتكلمين واللغويين . ومن هنا جاءت صعوبة معرفة ما أخذه عن كل صنف من هذه الاصناف .

وكل ما نستطيع أن نقوله إن السكاكي تأثر بالاصوليين واستفاد من بحوثهم ، ولكنه تأثر لا نقدر ان نحدده ونوضح معالمه .

ومما تقدم نرى أن السكاكي استفاد من المتكلمــين واللغويين والاصوليين واصحاب الدراسات القرآنية ولكن هذه الاستفادة لم تكن واضحة المعالم جلية بقدر ما كانت واضحــة في امور اخرى أو عنــد أشخاص آخرين سنذكرهم بالتفصيل .

---

(١) عروس الافراح ــ شروح التلخيص ج١ ص ٥٣
(٢) مفتاح العلوم ص ١٠٣

٣

وأهم هؤلاء الرجال الذين تأثر السكاكي بهم تأثرا واضحا : عبد القاهر الجرجاني والزمخشري ورشيد الدين الوطواط والرازي والمطرزي • ولن نستطيع ان نعرف مدى أثرهم فيه الا بعد مطابقة كتبهم بمفتاح العلوم ، وبهذه الطريقة سنبين تأثره بهم واحدا واحدا •

أثر عبدالقاهر الجرجاني

بينما كان ابن سنان الخفاجي (٤٦٦ هـ) مؤلف « سر الفصاحة» يبحث البلاغة من ادنى الى أعلى ، أي من الجزئيات الصغيرة وهي الصوت والمقطع ، ثم اللفظة ، ثم تأليف اللفظة المفردة ، — في هذا الوقت — كان عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١ هـ أو ٤٧٤ هـ) يبحث في البلاغة بطريقة تخالف طريقة ابن سنان • فليس للجزئيات التي بحثها ابن سنان في نظر الجرجاني كبير أثر ، وانما الكلي هو الذي يستدعي الجزئي ، وبذلك كان ينظر الى البلاغة نظرة تعرف الكل نظاما مستوي الاجزاء ، وتنكر الجزء انكارا واضحا[1] •

وقد صرح بهذا قائلا : « إنّ الالفاظ لا تتفاضل من حيث هي الفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وان الالفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها من ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها او ما اشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ »[2] •

---

(١) ينظر البيان العربي للدكتور بدوي طبانة ص ١١٦ •
(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٨

وبرهن على ذلك بأنّ الكلمة تكون في موضع جميلة رائعة وفي موضع آخر ثقيلة وحشية وضرب مثلا بلفظة « الاخدع » ، فهي حسنة جميلة في بيت الحماسة :

تَلفتُّ نحو الحي حتى وجدتني
وجعت من الاصغاءِ لِيتاً وأخدعا [1]

وبيت البحتري :

وإني وإنْ بلّغتني شَرَفَ الغنى
واعتقَت من رِقِّ المطامع أخدعي

ولكنها قبيحة سمجة في قول أبي تمام :

يا دَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أخدعيك فقد
أضْجَجْتَ هذا الأنامَ من خرقك

ويعلق على هذا بقوله : « فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة والايناس والبهجة .. فلو كانت الكلمة اذا حَسُنَت ، حسنت من حيث هي لفظ ، واذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أنْ يكون السبب في ذلك حال لها مع اخواتها المجاورة لها في النظم لما اختلف بها الحال ولكانت إمّا أن تَحْسُنَ أبداً ، أو لا تحسن ابدا »[2] .

وكرر هذا المعنى كثيرا في كتبه ولا سيما في « دلائل الاعجاز » ، وقرر أن مزية الكلام في المعنى دون اللفظ . ولعل سبب انتصار الجرجاني للمعنى هو ما رأى من انتصار جماعة للفظ واعتبار فصاحة

---

(١) الليت : صفحة العنق مثناه : ليتان ، ج أليات . الاخدع : عرق في صفحة العنق ، يقال : لاقيمن أخدعيك أي لاذهبن كبرك ، وفلان شديد الاخدع كناية عن العتو والشدة ، ج : أخادع .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٩ ـ ٤٠ .

الكلام ومزيته عائدتين الى اللفظ . وعلى رأس هؤلاء الجاحظ (٢٥٥هـ) الذي نصر اللفظ واعتبر المعاني مطروحة في الطريق . يقول : « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير »[1] .

وغالى أبو هلال العسكري من بعد الجاحظ في تقدير قيمة اللفظ مغالاة شديدة ، واعتبره كل شيء في تقدير الاثر الادبي . ولكن الجرجاني لم يَرُقْ له ما ذهب اليه الجاحظ وأبو هلال العسكري ، فذهب بعيدا في تقدير المعنى حتى في المحسنات ، فهو لا يرى لها مزية ولا حسنا ، ما لم يكن معناها هو الذي طلبها واستدعاها . يقول في التجنيس : « وعلى الجملة فانك لا تجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجعله لا تبتغي له بدلا ، ولا تجد عنه حولا »[2] .

ويكرر هذا المعنى في كتابيه « اسرار البلاغة» و«دلائل الاعجاز» وقد تابعه السكاكي في هذه النظرة الى المحسنات فقال : « وأصل الحسن في جميع ذلك أنْ تكون الالفاظ توابع للمعاني ، لا ان تكون المعاني لها توابع ، أعني أن لا تكون متكلفة »[3] .

ومن أجل هذا لم يدخل السكاكي البديع في البلاغة وانما هو وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار اليها لقصد تحسين الكلام . وهذا ما فعله عبد القاهر ، فلم يقف عند انواع البديع طويلا ولم يذكر منه الا أنواعا قليلة جدا ، وانشغل بنظرية النظم والبرهنة عليها أكثر من

---

(١) الحيوان للجاحظ ج٣ ص ١٣١ ــ ١٣٢ .
(٢) اسرار البلاغة ص ١٥
(٣) مفتاح العلوم ص ٢٠٤ .

انشغاله بامور اخرى ، واخذ يعيد ويكرر هذه الفكرة في كتـــابيه الشهيرين .

والنظم عنده ليس الا « أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه واصوله وتعرف مناهجــه التي نهجت ، فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها»[1] . فالنظم عنده ليس الا توخي معاني النحو واحكامه بين الكلم ، وهو لا يقصد بالنحو معناه الضيق الذي فهمه المتأخرون ، وانما يريد المعاني الاضافية التي يصورها النحو . وبذلك رســـم في كتابه « دلائـــل الاعجاز » طريقا جديدا للبحث النحوي تجاوز اواخر الكلمة وعلامات الاعراب وبين ان للكلام نظما ، وان رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل الى الابانة والافهام[2] .

وقد برهن على أهمية النظمورجوع مزية الكلام اليه بقوله :« فلو انك عمدت الى بيت شعر او فصل نثر فعددت كلماته عدا كيف جــاء واتفق وابطلت نضده ونظامه الذي عليه بنى وفيه افرغ المعنى واجرى وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته افاد كما افاد وبنسقه المخصوص ابان المراد نحو ان نقول في : « قفا نَبْكِ مِنْ ذكرى حبيبٍ ومنزلِ » : « مَنزل قفا ذكرى من نبك حبيب » ، أخرجته من كمال البيــان الى محال الهذيان »[3] .

وكان عبد القاهر سَبّاقا الى نظرية النظم ومن أوائل الذين حللوا الكلام تحليلا يعتمد على نظرية النظم . ومنهجه منهج النقد اللغوي لانه اهتم بالنحو بمعناه الواسع ، يقول الدكتور محمد مندور عن هـــذا المنهج : « انه يستند الى نظرية في اللغة أرى فيها ويرى معي كل من يمعن النظر انها تماشي ما وصل اليه علم اللسان الحــديث من آراء .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٦٤ .
(٢) ينظر كتاب احياء النحو لابراهيم مصطفى ص ١٦
(٣) اسرار البلاغة ص ٨

ونقطة البدء تجدها في آخر دلائل الاعجاز حيث يقرر المؤلف ما قرره علماء اليوم من أن اللغة ليست مجموعة من الالفاظ بل مجموعة من العلاقات (Sesteme des rapports) وعلى هذا الاساس العام بنى عبد القاهر كل تفكيره اللغوي الفني »[1] .

وأثرت نظرية النظم في البلاغة ، فادخلها البلاغيون في بحوثهم وجعلوها أحد أقسام البلاغة الثلاثة ، وهو علم المعاني . ولكن ما المباحث التي اطلق عليها الجرجاني اسم النظم ؟ يقول : « وأعلم ان ليس النظم الا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه واصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها ، وذلك انا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير ان ينظر في وجوه كل باب وفروقه. فينظر في الخبر الى الوجوه التي تراها في قولك : « زيد ينطلق » و « ينطلق زيد » و « منطلق زيد » و « زيد المنطلق » و « المنطلق زيد » و « زيد هو المنطلق » و « زيد هو منطلق » .

وفي الشرط والجزاء الى الوجوه التي تراها في قولك « إن تخرج أخرج » و « ان خرجْتَ خرجْتُ » و « إن تخرج فأنا خارج » و « أنا خارج إنْ خرجت » و « أنا إنْ خرجت خارج » .

وفي الحال الى الوجوه التي تراها في قولك « جاءني زيد مسرعا » و « جاءني يسرع » و « جاءني وهومسرع » أو « هو يسرع » و« جاءني وقد اسرع » ، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له.

وينظر في الحروف التي تشترك في معنى لم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه . نحو ان يجيء بـ « ما » في نفي الحال ، و بـ « لا » اذا اراد نفي الاستقبال ،

---

(1) في الميزان الجديد ص ١٤٧ . وينظر كتابه « النقد المنهجي عند العرب » ص ٣٢٨ .

وبـ « ان » فيما يترجح بين ان يكون وان لا يكون ، وبـ « اذا » فيما علم انه كائن •

وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع «الواو» من موضع«الفاء»، وموضع « الفاء » من موضع « ثم » ، وموضع«أوْ » من موضع«أمْ » وموضع « لكن » من موضع « بل » •

ويتصرف في التعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار ، والاضمار والاظهار فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له •

هذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه ان كان صوابا وخطؤه ان كان خطأ الى النظم ويدخل تحت هذا الاسم ألا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه او عومل بخلاف هذه المعاملة ، فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له • فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده ، او وصف بمزية وفضل فيه الا وانت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل الى « معاني النحو » وأحكامه ، ووجدته يدخل في أصل من اصوله ويتصل بباب من ابوابه »(١) •

فالنظم عند الجرجاني كما يتضح من هذا النص يشمل الخبر وأركان الجملة وما يحدث فيها من تقديم وتأخير ، وكون المسند اسما أو فعلا ، وما يتعلق بالمسند والمسند اليه من شرط وحال ، ويشمل الفصل والوصل ومعرفة مواضعهما،ومعاني الواووالفاء وثم وبل ولكن، وغيرها من ادوات العطف ، ويشمل التعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير ، والحذف والتكرار ، والاضمار والاظهار • وليست هذه

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٦٤ ــ ٦٥

الموضوعات الا مباحث علم المعاني الذي حدد السكاكي معالمه ، وهذب مسائله .

ونستطيع بعد ذلك أن نقرر باطمئنان ان السكاكي أخذ مباحث علم المعاني عن كتاب « دلائل الاعجاز » الى جانب ما اخذه عن المتكلمين والاصوليين واللغويين ، ولكنه صاغها الصياغة التي كانت أقرب الى فهم أهل عصره أو أقرب الى روح المنطق الذي سيطر على مناهج البحث البلاغي ولا سيما في عصر السكاكي ، وفي بيئته المشرقية .

فعلم المعاني ليس الا معاني النحو أو النظم الذي شرحه عبد القاهر ، وكان السكاكي أول من أدخل موضوعاته في البلاغة .

ولتوضيح ما نذهب اليه نعرض مباحث « معاني النحو » عند الجرجاني،ومباحث علم المعاني عند السكاكي لنرى مقدار تأثره بدلائل الاعجاز .

الخبر :

لم يتكلم الجرجاني على معنى الخبر وأضربه واغراضه كما تكلم عليها السكاكي ، ولكنه تحدث عن تأكيده ولا سيما تأكيده بـ « إنّ » . وتكلم السكاكي بعد أن انتهى من أضرب الخبر على اخراج الكلام عن مقتضى الظاهر ، وذكر أمثلة عبد القاهر نفسها ، ونقل عنه قصةالكندي مع أبي العباس وما في قول القائل « عبدالله قائم » و « إن عبدالله قائم»و«إن عبدالله لقائم» من اختلاف في المعاني لاختلاف الالفاظ[1]، ونقل عنه قصة أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر مع بشار واختلافهم في بيت بشار :

بَكِّرا صاحبيَّ قَبْلَ الهَجيرِ ... إنَّ ذاكَ النجاحَ في التبكيرِ

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٤٢ ، ومفتاح العلوم ص ٨٢ .

ومع ان كتب الادب ولا سيما كتاب « الاغاني» قد ذكرت هذه القصة في اخبار بشار بن برد الا اننا نرجح ان السكاكي نقلها عن الجرجاني ، وذلك لانه استشهد بها في الموضوع الذي استشهد بها الجرجاني نفسه[1] .

ونقل عنه أمثلة كثيرة في هذا الموضوع منها قوله تعالى : « ولا تُخاطِبْني في الذين ظَلَموا انهم مُغْرَقون »[2] . و « وما ابرىءُ نفسي ان النَّفس لأمارة بالسوء »[3] و « يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكم إن زَلْزَلَةَ الساعة شيء" عظيمُ »[4] .و« وصَلِّ عليهم إن صَلاتكَ سكن" لهم »[5] .

وقول الشاعر :

فَغَنِّها وهي لك الفِداءُ إن غِناءَ الابلِ الحداءُ

وقول الآخر :

جاءَ شقيق" عارضاً رُمْحَهُ إن بني عَمِّكَ فيهم رِماح

وكان استشهاد السكاكي بهذه الامثلة في المواضع التي استشهد بها الجرجاني نفسها ، يضاف الى ذلك أن تعليقه عليها لا يخرج عن تعليق عبد القاهر ، وان كان في اسلوب الاخير روعة وتحليل جميل[6] .

التقديم والتأخير :

تكلم عبد القاهر على التقديم والتأخير وقسم التقديم الى تقديم على نية التأخير ، وهو ما يبقى المتقدم فيه على حكمه الذي كان له قبل

(١) دلائل الاعجاز ص ٢١٠ ـ ٢١١ ، ومفتاح العلوم ص ٨٢ ـ ٨٣ . وينظر كتاب الاغاني ج٣ ص ١٩٠ طبعة دار الكتب بالقاهرة .
(٢) سورة هود ، الآية ٣٧ .
(٣) سورة يوسف ، الآية ٥٣ .
(٤) سورة الحج ، الآية ١ .
(٥) سورة التوبة ، الآية ١٠٣ .
(٦) دلائل الاعجاز ص ٢١١ ، ٢٤٣ ـ ٢٥١ ، ومفتاح العلوم ص ٨٢ ـ ٨٣ .

التقديم ، والى تقديم لا على نية التأخير ، وهو ما ينقل فيه المقدم من حكم الى حكم ، ومن اعراب الى اعراب • وتحدث عنهما في بحث الاستفهمام بالهمزة ، وفي النفي ، وفي الخبر المثبت • وتكلم على تقديم المسند اليه وما يفيده من تأكيد وقوة ، وعلى تقديم « مثل » و « غير » حينما تكونان مسندا اليه ، وعلى تقديم النكرة على الفعل وعكسه •

ولم يخرج السكاكي عما كتب الجرجاني في التقديم والتأخير الا في بعض القضايا البسيطة والامور الجزئية،وفي ترتيب بحثه ، لانه اتبع في ذلك طريقة الاعتماد على ركني الجملة ــ المسند اليه والمسند ــ وقسم موضوعاته على هذا الاساس • أما عبدالقاهر فقد كان أكثرحرية وانطلاقا في بحثه ، واكثر تحليلا واعتمادا على الذوق الادبي • ونقل عنه الامثلة ونظر اليها كما نظر الجرجاني ، ولم يخرج عن فهمه للنصوص[1] •

الايجـــاز :

يتضح التشابه بين الرجلين في بحث الايجاز ، في الامثلة بصورة خاصة ، لان في بحث عبد القاهر طلاوة وطرافة ، على العكس من بحث الآخر الذي لم يكن غير كلام لا يخرج الدارس منه بثمرة •

ومن الامثلة التي أخذها عنه قول الشاعر :

هُمُ حَلّوا من الشرفِ المُعلّى ومن حَسبِ العشيرةِ حيث شاءوا

وقول الآخر :

سأشكرُ عمراً إن تراخت منيّتي أياديَ لم تمنن وان هي جلّتِ
فتى غير محجوبِ الغنى عن صديقهِ ولا مظهر الشكوى اذا النعلُ زلّتِ

وقول الآخر :

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٨٣ وما بعدها ، ومفتاح العلوم ص ١٠٧

سريع الى ابنِ العميشتمُ عِرضه   وليس الى داعي النَّدى بسريعِ
حريص"على الدنيا ،مضيع"لدينه   وليس لمـــا في بيته بمضيع[١]

القصـــر :

تكلم عبد القاهر على القصر بالنفي والاثبات ، والقصر بين الفاعل والمفعول ، والمفعولين ، والقصر بين المبتدأ والخبر وغيرها • وليس بحث السكاكي في هذا الموضوع الا ما ذكره الشيخ مع ترتيب وتحـــديد منطقي • ويتضح نقله عنه بالحرف الواحد في حكم « غير » • يقول السكاكي : « واعلم ان حكم « غير » حكم « الا » في افادة القصرين وامتناع مجامعة « لا » العاطفة • تقول « ما جاءني غير زيد » اما افرادا لمن يقول جاء زيــد مع جاء آخر ، وأمــا قلبــا لمن يقول « ما جــاء زيد وانما جاء مكانه انسان آخر » • ولا تقول : « ما جاءني غير زيد لا عمرو »[٢] • ويقول عبد القاهر : « واعلم أن حكم « غــير » في جميع ما ذكرنا حكم « الا » ، فاذا قلت « ما جاءني غير زيد » احتمل أنْ تريد نفي ان يكون قد جاء معه انسان آخر ، وان تريد نفي أنْ لا يكون قد جاء ، وجاء معه واحد آخر • ولا يصح ان تقول «ماجاءني غير زيد لا عمرو » كما لم يجز « ما جاءني الا زيد لا عمرو »[٣] •

ومن هذين النصين يتضح أخْذُ السكاكي عن عبدالقاهر ، ولم يكتف بأخذ آرائه والسطو عليها وانما ينقل عنه نقلا من غير تحوير او تغيير في الاسلوب •

ونقل عنه امثلة منها قوله تعالى : « إنَّمــا أنت مُنْـــذِرُ من يَخْشاها »[٤] و « انما يَستجيبُ الذين يَسْمَعُون »[٥] و « إنمــا

(١) دلائل الاعجاز ص ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ومفتاح العلوم ص ٨٤
(٢) مفتاح العلوم ص ١٤٥
(٣) دلائل الاعجاز ص ٢٦٨
(٤) سورة النازعات ، الآية ٤٥ .
(٥) سورة الانعام ، الآية ٣٦ .

يخشى اللهَ من عِبادِه العلماءُ »[1] .

وقول الشاعر :

أنا الذائدُ الحامي الذمارَ وإنَّما يدافعُ عن أحسابهم أنا أو مِثلي

وقول الآخر :

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللهِ تجلَّتْ عن وجههِ الظلماءُ

وقول الآخر :

قد علِمَتْ سلمى وجاراتُها ما قَطَّرَ الفارسَ إلا أنا[2]

وقول الآخر :

لو غَيَّرَ المِنْبَرُ فُرسانَه ما اختار إلا مِنْكُمُ فارِسَا

الفصل والوصل :

ويتضح أثر الجرجاني في هذا الباب أكثر من غيره ، فقد سطا عليه السكاكي سطوا عجيبا ، وادخله في كتابه بعد أن طبعه بطابعه الخاص ، ولكن روح عبد القاهر الادبية والبلاغية لم تفارق بحث الفصل والوصل في « مفتاح العلوم » . فمواضع الفصل والوصل ، والكلام على جملة الحال والامثلة هي كلام عبد القاهر ، حتى في قصر البلاغة على هذا الباب نرى السكاكي يتابعه فيه .

والجمل عند عبد القاهر على ثلاثة أضرب : جملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف والتأكيد مع المؤكد فلا يكون فيها العطف البتة لشبه العطف فيها لو عطفت بعطف الشيء على نفسه . وجملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله الا انه يشاركه في حكم ويدخل معه في معنى مثل ان يكون كلا الاسمين فاعلا

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٨ .
(٢) قطر : صرع .

أو مفعولا أو مضافا اليه فيكون حقها العطف . وجملة ليست في شيءٍ من الحالين بل سبيلها مع التي قبلها سبيل الاسم مع الاسم لا يكون منه في شيء فلا يكون اياه ولا مشاركا له في معنى بل هو شيءإنْ ذكر لم يذكر الا بأمر ينفرد به ويكون ذكر الذي قبله وترك الذكر سواء في حاله لعدم التعلق بينه وبينها رأسا ، وحق هذا ترك العطف البتة .

فترك العطف يكون اما للاتصال الى الغاية اوالانفصال الى الغاية، والعطف لما هو واسطة بين الامرين ، وكان له حال بين حالين[1] .

ولا يخرج بحث السكاكي عما ذكره عبدالقاهر في الاضرب الثلاثة الا في بعض الجزئيات كاختلافهما في شاهد أو عبارة . فعبد القاهر يورد هذين البيتين لليزيدي :

مَلَّكْتُهُ حَبْلي ولكنّه ألقاه من زُهْدٍ على غاربي
وقال إني في الهوى كاذِبٌ انتقم اللهُ من الكاذب

يوردهما مستشهدا بهما في الاستئناف على معنى جعل الكلام جوابا في التقدير ، ولكن السكاكي يوردهما مستشهدا بهما في موضع الانقطاع للاختلاف خبرا أو طلبا ، لان الشاعر اراد الدعاء بقوله : « انتقم الله من الكاذب »[2] . ولكن هذه الاختلافات قليلة جدا ولا تؤلف فرقا كبيرا بين بحثي السكاكي والجرجاني .

أما الامثلة التي نقلها عنه فهي قوله تعالى : « ألم . ذلك الكتابُ لا ريبَ فيه »[3] و « إن الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم اللهُ على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غِشاوةٌ ، ولهم عذابٌ عظيم[4] » ، و « واذا لَقُوا الذين

(١) دلائل الاعجاز ص ١٨٧ — ١٨٨ .
(٢) ينظر دلائل الاعجاز ص ١٨٣ ، ومفتاح العلوم ص ١٣٠
(٣) سورة البقرة ، الآيتان ١ — ٢ .
(٤) سورة البقرة ، الآيتان ٦ — ٧

آمنوا قالوا : آمنا ، واذا خَلَوا الى شياطينهم قالوا : إنا معكم ، انما نحن مُسْتَهزئون »[1] ، و « واذا تُتْلى عليه آياتُنا وَلَّى مُسْتكبرا كأنْ لم يَسْمعها ، كأنَّ في أذُنَيه وَقْراً »[2] ، و « ما هذا بشَرا ، إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريمٌ »[3] .

وقول الشاعر :

لا والذي هو عالمٌ أن النَّوى صَبِرٌ ،وأن أبا الحُسينِ كريمُ

وقول الآخر :

زَعَم العواذلُ أنني في غمرةٍ كَذَبوا ولكنْ غَمرتي لاتَنْجلي

وقوله :

زَعَم العواذلُ أن ناقةَ جنْدبٍ بجنوب خَبْتٍ عُرّيتْ وأجَمَّتِ
كَذَبَ العواذل لو رأين مناخنا بالقادسيةِ قُلنَ لَجَّ وذلَّتِ

وقوله :

عرَفْت المنزلَ الحالي عفا من بَعْدِ أحوالِ
عفاه كُلُّ حَنَّانٍ عسوفِ الوَبْلِ هَطَّالِ

وقوله :

وما عفتِ الرياحُ له مَحَلاً عفاه من حَدا بهم وساقا

وقوله :

زعمتم أن إخوتَكم قريشٌ لهم إلْفٌ وليس لكم إلافُ

وقوله :

مَلَّكْتُه حَبْلي ولكنَّه ألقاه من زُهْدٍ على غاربي
وقال إنّي في الهوى كاذبٌ انتقم اللهُ من الكاذِبِ

---

(1) سورة البقرة ، الآية ١٤ .
(2) سورة لقمان ، الآية ٧ .
(3) سورة يوسف ، الآية ٣١ .

وقوله :

ولولا جِنانُ اللهِ ما آبَ عامرٌ الى جَعْفَرَ سرباله لم يُمَزَّقِ

وقوله :

نِصْفَ النهارِ الماء غامره ورفيقه بالغيب لا يَدْري

وقوله :

أكْسَبَتْهُ الورق البيضُ أباً ولقد كان ولا يُدْعى لاب

وقوله :

أقادوا مِن دَمي وتوعدوني وكنت وما يُنَهْنِهُني الوعيدُ

وقوله :

مضوا لا يريدون الرواحَ وغالهُم مع الدهر أسبابٌ جرين على قَدَر

وقوله :

لو أن قوماً لارتفاعِ قبيلةٍ دَخلوا السماء دَخَلْتُها لا أحجب

وقوله :

إذا جَرى في كَفهِ الرشاءُ خَلَّى القليب ليس فيه ماءُ(١)

وهذه الامثلة الكثيرة في مواضع الفصل والوصل التي نقلها السكاكي عن عبد القاهر تدل دلالة واضحة على سطو السكاكي على كتاب « دلائل الاعجاز » وتأثره الواضح بمؤلفه الجرجاني • ومن هنا يتضح لنا بجلاء أن علم المعاني عند السكاكي لم يكن الا النظم أو معاني النحو عند الجرجاني ، مع اضافات قليلة استفادها من اللغويين والمتكلمين والاصوليين وكل ما فعله السكاكي هو ترتيب مسائل المعاني ذلك الترتيب الذي اشرنا الى دقته أحيانا ، والى اضطرابه تارة أخرى •

✡ ✡

(١) مفتاح العلوم ص ١٢٠ ـ ١٣٣ ، ودلائل الاعجاز ص ١٥٨ وما بعدها .

أما موضوعات علم البيان فقد تكلم عليها عبد القاهر في كتاب « أسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » ، ولكنه فَصَّل مسائله ومباحثه في أسرار البلاغة وكاد يقصره على البيان لولا بعض الموضوعات التي ادخلها المتأخرون في البديع كالتجنيس والطباق وحسن التعليل .

لقد بحث الجرجاني في هذا الكتاب الموضوعات التي أدخلها السكاكي في علم البيان كالتشبيه والمجاز بانواعه والكناية ، وأطال الوقوف عليها ، فكان اول من ميز اقسامها وهذب مسائلها . وقد امتاز المؤلف بالتحليل والنقد وابراز الصور الادبية الرائعة في الامثلة التي ذكرها والشواهد التي ساقها ، وبذلك كانت بحوثه في البيان من خيرة ما عرفته البلاغة العربية .

وسطا السكاكي على هذه المباحث ـ كما سطا على مباحث النظم في دلائل الاعجاز ـ ، وصاغ منها علم البيان بعد أن قتل الروح الادبية في « أسرار البلاغة » وبعد أن أحاله قواعد تحفظ دون ان تؤدي وظيفتها البيانية .

ولتوضيح ما نذهب اليه نعرض مباحث البيان عند الرجلين لنرى ما بينهما من تفاوت وتشابه .

التشبيه :

قسم عبد القاهر وجه الشبه الى عقلي وهو ما ليس حسيا ولا من الاخلاق والغرائز،وحسي،وهو ما كان من الاخلاق والغرائز،وبذلك يكون رأيه ان كل تشبيه يكون وجه الشبه فيه حسيا مفرداً فهو تشبيه غير تمثيلي ، وان كل تشبيه يكون وجه الشبه فيه حسيا مركبا فهو تشبيه غير تمثيلي ، وان كل تشبيه يكون وجه الشبه فيه من الغرائز مفردا فهو تشبيه غير تمثيلي ، وان كل تشبيه يكون وجه الشبه فيه عقليا مفردا فهو تشبيه تمثيلي ، وان كل تشبيه يكون وجه الشبه فيه عقليا مركبا فهو تشبيه تمثيلي .

وقسم السكاكي وجه الشبه هذا التقسيم اي الى حسي وعقلي ، وعقلي غير حقيقي وقال : « ان التشبيه متى كان وجهه غير حقيقي وكان منتزعا من عدة امور خص باسم التمثيل »[1] ، اما غير هذا فهو تشبيه غير تمثيلي •

وبذلك يكون رأيه ان التشبيه اذا كان وجه الشبه فيه حسيا مفردا فهو تشبيه غير تمثيلي ، واذا كان وجه الشبه حسيا مركبا فهو تشبيه غير تمثيلي ، واذا كان وجه الشبه عقليا حقيقيا مفردا فهو تشبيه غير تمثيلي ، واذا كان وجه الشبه عقليا غير حقيقي مفردا فهو تشبيه غير تمثيلي ،واذا كان وجه الشبه عقليا غير حقيقي مركبا فهو تشبيه تمثيلي •

وبذلك يتابع الجرجاني متابعة تامة ، ولكنه يختلف عنه فيالتمثيل، فالتمثيل عند عبد القاهر ــ كما رأينا ــ ما كان وجه الشبه فيه عقليا مفردا او مركبا وكان محتاجا الى التأول[2] ، أما عند السكاكي فهو ما كان وجه الشبه وصفا غير حقيقي منتزعا من عدة امور •

ولعل الذي حمل السكاكي على مخالفة عبد القاهر انه رأى ان الدقة واللطف والحاجة الى حسن التوصل انما تتحقق في المركب ، اما المفرد فلا ، فاخرجه من دائرة التمثيل[3] •

وتكلم عبد القاهر على التشبيه القريب والغريب ، وبيّن ضوابط كل نوع منهما وتابعه السكاكي في ذلك وعقد فصلا في أحوال التشبيه ، وكونه قريبا او غريبا ، مقبولا او مردودا واقتبس منه كثيرا ولكنه لم يستطع ان يحلق في التحليل وبيان ميزة كل نوع كما حلق الجرجاني[4] • وتكلم السكاكي على التشبيه المقلوب ونقل امثلته عن عبد القاهر[5] •

(١) مفتاح العلوم ص ١٦٤
(٢) ينظر اسرار البلاغة ص ١١٠
(٣) ينظر كتاب بلاغة عبد القاهر للاستاذ عبد الهادي العدل ص ٢٧ .
(٤) اسرار البلاغة ص ١٥٨ وما بعدها ، ومفتاح العلوم ص ١٦٦ وما بعدها
(٥) اسرار البلاغة ص ٢٣٢ ، ومفتاح العلوم ص ١٦٣

ويمكن تلخيص المواضع التي اتفق فيها الرجلان في أن السكاكي تابع عبد القاهر في تقسيم وجه الشبه الى حسي ، وعقلي ، وعقلي غير حقيقي ، وتابعه في الكلام على التشبيه القريب والبعيد ، وفي التشبيه المقلوب ، وتشبيه المركب بالمركب ، وخالفه في التشبيه التمثيلي •

أما الامثلة التي أخذها عنه فهي قول الشاعر :

اصبر على حَسَدِ الحسو د فان صَبْرَكَ قاتلُه
فالنارُ تأكلُ بعضها إنْ لم تَجِدْ ما تأكلُه

وقول الآخر :

وإن مَنْ أدبته في الصِّبا كالعودِ يسقى الماءَ في غرسِه
حتى تراه مورِقا ناضِراً بعد الذي أبصرت من يَبْسِه

وقوله :

كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامةٌ فلما رأوها اقشعتْ وتجلَّتِ

وقوله :

ولا زوردية تزهو بزرقتها بين الرياض على حُمْرِ اليواقيتِ
كأنها فوق قاماتٍ ضعفن بها اوائلُ النارِ في اطرافِ كبريتِ

وقوله :

وكأن مُحْمَرَ الشقيقِ اذا تصوب أو تصعَّدْ
أعلامُ ياقوتٍ نُشِرْنَ على رماحٍ من زبرجدْ

وقوله :

وكأن أجرامَ النجومِ لوامعاً دُرَرٌ نُثِرْنَ على بساطٍ أزرقِ

وقوله :

كأن مثارَ النقعِ فوق رؤوسِنا واسيافنا ليلٌ تهاوى كواكِبُه

وقوله :

كأنها بَوتَقَةٌ أُحميتْ مشرقةً ليس لها حاجبُ
والشمسُ مِنْ مَشْرِقهاقَدْبدتْ يَجول فيها ذهبٌ ذائِبُ

وقوله :

كأنما المريخُ والمشتري قدامه في شامخِ الرِفْعَه
مُنْصَرِفٌ بالليلِ عن دعوةٍ قد اسرجت قدامه شمْعَه

وقوله :

وبدا الصباحُ كأن غُرتَهُ وَجْهُ الخليفةِ حين يُمتدحُ

وقوله :

وكأن النجومَ بين دُجاها سنن لاح بينهن ابتداعُ

وقوله :

ولقد ذكرتُكِ والظلامُ كأنَّه يومُ النَّوى وفؤادُ من لم يعشقِ

وقوله :

كأن انتضاءَ البدرمن تحتِ غيمه نجاءٌ من البأساءِ بعدَ وقوعِ

وقوله :

وأرْض كأخلاقِ الكرامِ قطعتها وقدكَحَّلَ الليلُ السماكَ فأبصرا(١)

وهذه الامثلة الكثيرة تدل دلالة واضحة على تأثر السكاكي بعبد القاهر والاخذ عنه .

المجاز :

تكلم الجرجاني على الحقيقة والمجاز وعرّف الحقيقة بقوله : « كل كلمةأُريد بها ما وقعت له في وضع واضع ، وان شئت قلت فيمواضعةٍ ، وقوعا لا يستند فيه الى غيره فهو حقيقة »(٢) . وعرّف الحقيقة الحكمية

---

(١) اسرار البلاغة ص ١٠٩ وما بعدها ، ومفتاح العلوم ص ١٥٧ ــ ١٦٨
(٢) اسرار البلاغة ص ٣٩٦ ، ومفتاح العلوم ص ١٧١

بقوله : « كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه في العقل وواقع موقعه فهي حقيقة »[1] .

وعرّف المجاز بقوله : « كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول »[2] .

ونقل السكاكي هذه التعريفات ولكنه كما يبدو لم يكن معجبا بها ، لانه يقول بعد ان ذكر تعريف الحقيقة والمجاز : « فتأمل قولي وقولهم »[3] .

وقسّم الجرجاني المجاز الى قسمين : مجاز بالكلمة المفردة وهو اللغوي ، ومجاز بالجملة وهو العقلي وسماهما باسميهما : لغوي وعقلي، وقسمه السكاكي هذا التقسيم وذكر أنه عند السلف من علماء هذا الفن قسمان : لغوي ويسمى مجازا في المفرد ، وعقلي ويسمى مجازا في الجملة[4] . وكان الجرجاني أول من اطلق على النوع الثاني مصطلح المجاز العقلي وسماه في دلائل الاعجاز « المجاز الحكمي » ، وفي أسرار البلاغة « المجاز في الاثبات » و « المجاز العقلي »[5] .

ونقل السكاكي عنه تعريف هذا النوع من المجاز ، وكرر اسماءه التي اطلقها الجرجاني عليه . ولم يكتف بذلك ، وانما تابعه في هذه العبارة[6] : « وهذا الضرب من المجاز كثير في القرآن ، فمنه قوله تعالى : « تُؤتي أُكُلَها كُلَّ حين بإذنِ ربها »[7] وقوله عز اسمه : « واذا تُليت عليهم آياته زادتهم ايمانا »[8] .وقوله : « فمنهم من

(١) اسرار البلاغة ص ٤٢٩ ، ومفتاح العلوم ص ١٨٩
(٢) اسرار البلاغة ص ٣٩٨ ، ومفتاح العلوم ص ١٧١
(٣) مفتاح العلوم ص ١٧١ .
(٤) اسرار البلاغة ص ٤٥٠ ، ٤٥٤ ، ومفتاح العلوم ص ١٧١
(٥) دلائل الاعجاز ص ٢٢٧ ، واسرار البلاغة ص ٤١٩ .
(٦) مفتاح العلوم ص ١٨٧ ، واسرار البلاغة ص ٤٣١
(٧) سورة ابراهيم ، الآية ٢٥ .
(٨) سورة الانفال ، الآية ٢ .

يقول أيُكُم زادته هذه ايمـــانا »[1] وقوله : « وأخرَجَت الارض أثقالها »[2] •

ومع ان السكاكي اقتفى أثر عبد القاهر في المجاز العقلي ، فانه خالفه في بعض الامور منها انكاره هذا النوع من المجاز بعد ان تكلم عليه ونقل ما ذكر عبد القاهر ، لانه ينظمه في سلك الاستعارة بالكناية • ولا يجوز أن لا يكون فاعل للافعال في مثل « سرتني رؤيتك » و « أقدمني بلدك حق لي على فلان » ، وفي قول الشاعر :

وصيَّـــرني هـــواك وبـــي لِحيْني يُضْـــرَبُ المَثَـــلُ

ومثل :

يَزيدُكَ وَجْهُـــــه حُسْناً اذا ما زِدتــــه نَظَـــرا

وذلك لانه يرى أن المجاز لا يتحقق مهما كـان بلا حقيقة يكون متعديا عنها لامتناع تحقق فرع من غير أصل ، ولهذا لا يجوز في الامثلة المتقدمة : « ان لا يكون لكل من هذه الافعـــال فاعل في التقدير اذا أسندت الفعل اليه وجدت الحكم واقعاً في مكانه الاصلي عند العقل »[3] •

أما عبد القاهر فيرى : « انه ليس بواجب في هـــذا ان لا يكون للفعل فاعل في التقدير اذا انت نقلت الفعل اليه عدت به الى الحقيقة مثل انك تقول في « ربحت تجارتهم » ربحوا في تجـــارتهم ، وفي « يحمي نساءنا ضرب » : نحمي نساءنا بضرب • فان ذلك لا يتأتى في كل شيء ، ألا ترى أنه لا يمكنك أن تثبت للفعل في قولك « أقدمني بلدك حق لي على انسان » فاعلا سوى الحق ، وكذلك لا تستطيع في قوله :

وصَيَّـــرني هـــواك وبـــي لحَيْني يُضْـــرَب المَثَـــلُ

(1) سورة التوبة ، الآية ١٢٤ .
(2) سورة الزلزلة ، الآية ٢ .
(3) مفتاح العلوم ص ١٨٧

وقوله :

يَزيدُكَ وَجْهُهُ حُسْناً اذا ما زِدتَه نَظَرا

أنْ تزعم أن في « يصيرني » فاعلا قد نقل عنه الفعل فجعل للهوى كما فعل ذلك في « ربحت تجارتهم » و « يحمي نساءنا »[1] .

أما الاستعارة فقد اعتبرها السكاكي من المجاز اللغوي متبعا في ذلك استاذه الحاتمي ، واضطرب الجرجاني فيها فعدها مجازا لغويا في «أسرار البلاغة » ، ومجازا عقليا في « دلائل الاعجاز » . وقد شعر الرازي والسكاكي والعلوي بهذا الاضطراب واشاروا اليه في كتبهم[2] .

ولعل سبب اضطراب الجرجاني فيها انه عندما بحثها في « دلائل الاعجاز » كانت النزعة المسيطرة عليه هي النزعة العقلية لانه بصدد اثبات ما في القرآن من روعة واعجاز ، يضاف الى ذلك ان النظرة الدينية كانت مسيطرة عليه ، ولهذا اعتبر الاستعارة من المجاز العقلي لانه ليس من المعقول أن تحدث الامور بلا ارادة الله وعلمه وقدرته . ففي قوله تعالى: « وأخرجت الارض اثقالها »[3] مجاز لانه ليس من الايمان في شيء أن نقول إن الارض هي التي أخرجت اثقالها وانما الذي اخرجها هو الله سبحانه وتعالى . فالفاعل الحقيقي هو الله ، وان اسناد « أخرجت » الى « الارض » ليس الا مجازا عقليا .

أما في كتابه الثاني «اسرار البلاغة» فلم يَرْمِ الى البرهنة على إعجاز القرآن ، ولم يكن مدفوعا بدافع ديني حينما كتبه ، وانما ألّفهُ ليظهر ما في كلام العرب من بلاغة وتأثير، ولاجل هذا لم ينظر الى مباحث البلاغة ــ ولا سيما المجاز ــ نظرة عقلية تسيطر عليها النزعة الدينية ، ومن هنا جاء اضطرابه في الاستعارة فاعتبرها مرة من المجاز العقلي في « دلائل

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠

(٢) ينظر نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ص ٨٤ وما بعدها ، ومفتاح العلوم ص ١٧٥ والطراز ج١ ص ٢٤٩ــ٢٥٣

(٣) سورة الزلزلة ، الآية ٢ .

الاعجاز » ومن المجاز اللغوي في « اسرار البلاغة » .

ولا نرى في هذا النزاع ما يبرره ، وليس وراءه كبير فائدة ، وماذا يؤثر في روعة الاستعارة او ينقص من جمالها . إن سحرها وأثرها في النفوس لن يقل ولن يزول مهما تنازع البلاغيون فيها ، وسواء جعلوها من المجاز العقلي أم من المجاز اللغوي .

ويبدو تأثره بالجرجاني في بحث الاستعارة واضحا ، فهو يقول فيها: « ولما ان الاستعارة مبناها على التشبيه تتنوع الى خمسة انواع تنوع التشبيه اليها . استعارة محسوس لمحسوس ، بوجه حسي او بوجه عقلي ، واستعارة معقول لمعقول ، واستعارة محسوس لمعقول ، واستعارة معقول لمحسوس »[1] .

ويقول عبد القاهر :« انها على اصول ، احدها : ان يؤخذ الشبه من الاشياء المشاهدة والمدركة بالحواس على الجملة للمعاني المعقولة .

وثانيها : ان يؤخذ الشبه من الاشياء المحسوسة لمثلها الا ان الشبه مع ذلك عقلي .

وثالثها : ان يؤخذ الشبه من المعقول للمعقول »[2] . وفي هذا تقارب بين الرجلين .

وكما تكلم الجرجاني على الاستعارة التخييلية والمكنية تكلم السكاكي عليها . والفرق بينهما ان الاول لم يسمها بهذه الاسماء ولكن كلامه عليها ، والأمثلة التي ذكرها تشعر انها ما ذكر السكاكي .

وتكلم السكاكي على الاستعارة المفيدة وغير المفيدة كما تكلم عليها عبد القاهر ، ولكنه لم يسمها استعارة مفيدة واستعارة غير مفيدة كما سماها الجرجاني ، وانما سماها « المجاز اللغوي الراجع الى معنى الكلمة

(١) مفتاح العلوم ص ١٨٣
(٢) اسرار البلاغة ص ٨٤

غير المفيد » و « المجاز اللغوي الراجع الى المعنى المفيد »[1] .

أما الامثلة التي ذكرها في بحث المجاز والاستعارة فمأخوذ معظمها من كتاب « اسرار البلاغة » ، والبعض الآخر من «دلائل الاعجاز »،وهي قول الشاعر :

جمع الحق لنا في إمامٍ قتل البخل وأحيى السماحا

وقوله :

نَقريهم لهذمياتٍ نقدُّ بها ما كان خاط عليهم كل زرادِ

وقوله :

قامت تُظللني من الشمس نَفْسٌ أعز عليَّ من نفسي
قامت تظللني ومن عجبٍ شمسٌ تظللني من الشمس

وقوله :

أعْلَمُ الناس بالنجوم بنو نوبخت عِلْماً لم يأتهم بالحسابِ
بل بان شاهَدوا السماء سموا بترق في المكرمات الصعابِ
مبلغا لم يكن ليبلغه الطالب الا بتلكم الاسبابِ

وقوله :

يا آلَ نوبخت لاعدمتكم ولا تبدلت بعدكم بدلا
إن صح علم النجوم كان لكم حقا اذا ما سواكم انتحلا
كم عالم فيكم وليس بان قاسَ ، ولكن بان رقى فعلا
أعلاكم في السماء مجدكم فلستم تجهلون ما جهلا
شافهتم البدر بالسؤال عن الامر الى أن بلغتم زحلا

وقوله :

ويصعد حتى يظن الجهولُ بأن له حاجةً في السماء

---

(۱) اسرار البلاغة ص ٣٦ ومفتاح العلوم ص ۱۷۲ وما بعدها

وقوله :

ولم أر قبلي من مشى البدر نحوه ولا رجلا قامت تعانقه الأُسدُ

وقوله :

لا تعجبوا من بِلى غلالتِـــه قد زر أزراره على القمـــرِ

وقوله :

هي الشمس مسكنها في السماء فعزِّ الفؤادَ عزاءً جميـــلا
فلن تستطيع اليهـــا الصعود ولن تستطيع اليهـــا النزولا

وقوله :

قلت : زوري ، فأرســـلتْ أنـــا آتيـــك ســـحره
قلت : فالليل كـــان أخفى ، وأدنـــى مســـره
فأجـــابتْ بحجـــةٍ زادت القلبَ حســـره
أنـــا شمسٌ وانمـــا تطلع الشـــمس بكـــره

وقوله :

قد أصبحت أم الخيـــار تدعي عليَّ ذنبـــا كله لم أصنـــع
من أن رأت رأسي كرأس الاصلع ميز عنه قنزعـــا عن قنزع[1]
مـــر الليـــالي ابطئي أو اسـرعي

وقوله :

أفناه قيـــل الله للشمس اطلعي حتى اذا واراك أفقٌ فارجعي

وقوله :

ترى الثياب من الكتان يلمحها نور من البدر أحيانا فيبليهـــا
فكيف تنكر أن تبلى معاجرها[2] والبدر في كل وقت طالعٌ فيهـــا

وقوله :

أتتني الشمـــس زائـــرةً ولم تـــك تبرح الفلكـــا

---

(١) القنزعة والقنزع : الخصلة من الشعر تترك على الرأس .
(٢) المعاجر : جمع معجر على وزن منبر ، وهو ثوب تعتم به المرأة وتشده على رأسها.

وقوله :

وعد البدر بالزيارة ليلاً فاذا ما وفى قضيتُ نذوري
قال لي : لا أحب تغيير رسمي هكذا الرسمُ في طلوع البدورِ

وقوله :

وفاحصا ومرسنا مسرجا

وقوله :

نحن ركب ملجنٍ في زي ناسٍ فوق طيرٍ لها شخوص الجمال

وقوله :

وصيرني هواك وبي لحيني يضرب المثلُ

وقوله :

يزيدك وجهه حسناً اذا ما زِدته نظرا[1]

الكنايـــة :

عقد عبد القاهر في « دلائل الاعجاز » فصلا في الكناية والتعريض ذكر فيه الكناية الواقعة في نفس الصفة ، والواقعة في طريق الاثبات ، وأدخل التعريض والرمز والاشارة في باب الكناية واعتبرها انواعا منها . وتابعه السكاكي في جميع ذلك ونَظَّمَ بحثها وحدَّدَ أصولها ، ولكنه لم يستطع ان يبلغ ما بلغ عبد القاهر الذي كان ناصع العبارة جميل التحليل . ونقل عنه أمثلته وهي قول الشاعر :

إن السماحة والمروءة والنَّدى في قبة ضربت على ابن الحشرجِ

وقوله :

وما يكُ فيَّ من عيب فاني جبانُ الكلبِ مهزول الفَصيل

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٢ ــ ١٨٩ ، واسرار البلاغة ص ٦١ وما بعدها ، ودلائل

وقوله :

لغبدالعزيز على قومــــــه وغــيرهم مِنَن" ظـــاهره
فبابُك أســهل أبوابهــم ودارك مأهولــة" عــامره
وكلبك آنسُ بالزائريــنَ ، من الام بالابنــــة الزائــره

وقوله :

يكاد اذا ما أبصر الضيف مقبلا يكلمه من حبـــه وهو أعجم

وقوله :

فما جازه جود" ولا حل دونــه ولكن يصير الجود حيث يصير

وقوله :

يبيت بمنجاةٍ عن اللوم بيتهــا اذا ما بيوت" بالملامــة حلت

وقوله :

أوَ ما رأيت المجد ألقى رحلــه في آل طلحــة ثم لم يتحــولِ

وقوله :

لا امتع العوذ بالفصــال ولا ابتــاع الا قريبــة الاجلِ

وقوله :

أبين فمــا يزرن ســوى كريمٍ وحسبك أن يزرن أبــا سـعيد

وقوله :

متى تخلو تميم" من كــــريم ومسلمــــة بن عمرو من تميم

وقوله :

اذا الله لم يســق الا الــكرام فسقّى وجوه بني حنبـــلِ
وســقّى ديــارهم باكـــر" من الغيث في الــزمن المحــلِ

وقوله :

سألتالندى والجود مالى اراكما تبدلتمـــا ذلا بعز مؤبــد
وما بال ركن المجد امسى مهدما فقالا أُصبنا بابن يحيى محمد

فقلت فهلا متما عند موتــــــه فقد كنتما عبديه في كل مشهــد
فقالا : اقمنا كي نُعزّى بفقــده مسافة يوم ثم نتلوه في غــد[1]

أما البديع فلم يهتم عبد القاهر ببحثه ، ولكن السكاكي نقل عنـه القصة التي رواها في اسلوب الحكيم،وقد سماهعبدالقاهر«المغالطة»[2]

☆ ☆

ويمكن القول بعد كل ما ذكرنا ان بلاغة الســـكاكي لم تكن الا بلاغة عبد القاهر الجرجاني ، وان افترق عنه في التبويب وحصر مسائلها وضبط اصولها وفصولها . ولم يقف السكاكي عند هذه المتابعة والاخذ، وانما نراه يتابع عبد القاهر في الدعوة الى الذوق وتحكيمه في القضايـا الادبية ، وان كان لم يطبق ما دعا اليه كما أشرنا في الباب الاول .

فمدرسة السكاكي ليست الا امتدادا لمدرسة الجرجـــاني وان انحرفت عنها في تحكيم المنطق والانصراف عن الناحية الادبية . وقــد صدق الاستاذ عبد المتعال الصعيدي وأصاب الحقيقة حينما قال :«ولكن مدرسة عبد القاهر لم تصل الى المتأخرين بطريق مباشر وانما اوصلهـا اليهم السكاكي في كتابه «مفتاح العلوم ».واسلوبهفيه دون اسلوبعبد القاهر والخفاجي ، لانه لم يكن اديبا مثلهما وانما كان رجل علم وفلسفة ومنطق فسارت بهذا مدرسة عبدالقاهر في طريق بعيدعنطريقته،وصارت كتب البلاغة عند المتأخرين لا تعنى الا بتقرير القواعد وما يتصل بهذا من الجدل العلمي حتى ضاعت فيها ملكة النقد الادبي واصبحت دراسـتها لا ثمرة فيها لانها لا تربي في دراســـتها ملكة الانشاء ولا تدربهم على اساليب النقد »[3] .

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٩٠ وما بعدها ، ودلائل الاعجاز ص ٢٣٦ وما بعدها .
(٢) دلائل الاعجاز ص ١٠٧ ، ومفتاح العلوم ص ١٥٦ .
(٣) مقدمة سر الفصاحة للصعيدي ص : ي .

أثـر الزمخشـري

لم يؤلف الزمخشري كتابا في البلاغة ، وانما نثر كثيرا من مسائلها في تفسيره « الكشاف » ، ولهذا لم يعد من مؤلفي البلاغة . ويرى أن علمي المعاني والبيان من الوسائل الهامة في تفسير القرآن الكريم وبيان ما فيه من روعة واعجاز ، يقول : « ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق الا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما : علم المعاني وعلم البيان »[1] .

ولقد عني في تفسيره عناية كبيرة بتطبيق قواعد البلاغة على القرآن والتنبيه الى ما حوى من اسرار الفصاحة والبلاغة حتى قال ابن خلدون عن تفسيره الكشاف : « وهو كله مبني على هذا الفن وهو اصله »[2] . ولذلك فدارس الكشاف يحتاج الى ثقافة بلاغية ، وقد شعر القدماء بهذه الحاجة فكانوا اذا ما أقدموا على دراسته تزودوا بثقافة بلاغية ووضعوا الكتب الخاصة في تعلمها . ومن الكتب الشهيرة التي كان الدافع الى تأليفها تفسير الزمخشري ، كتاب « الطراز » للعلوي . يقول العلوي في طرازه : « ثم ان الباعث على تأليف هذا الكتاب هو ان جماعة من الاخوان شرعوا علي في قراءة كتاب الكشاف تفسير الشيخ العالم المحقق استاذ المفسرين محمود بن عمر الزمخشري فانه أسسه على قواعد هذا العلم فاتضح عند ذلك وجه الاعجاز من التنزيل وعرف من أجله وجه التفرقة بين المستقيم والمعوج من التأويل وتحققوا انه لا سبيل الى الاطلاع على حقائق اعجاز القرآن الا بادراكه والوقوف على اسراره واغواره . ومن اجل هذا الوجه كان متميزا عن سائر التفاسير لاني لم أعلم تفسيرا مؤسسا

(١) الكشاف ج١ ص : ك
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢

على المعاني والبيان سواه ، فسألني بعضهم أن أُملي فيه كتابا يشتمل على التهذيب والتحقيق فالتهذيب يرجع الى اللفظ والتحقيق الى المعاني ، اذ كان لا مندوحة لاحدهما عن الثاني »[1] .

ولكن الزمخشري لم يشتهر كما اشتهر عبد القاهر والسكاكي ، وسبب ذلك انه لم ينظم مباحث البلاغة كما نظماها ، ولم يهذب مسائلها كما هذباها ، ولم يكن له منهج خاص في بحثها ، وانما تناثرت بحوثها في الكتاب تناثرا يحتاج الى جمع وترتيب . وقد استطاع الاستاذ مصطفى الصاوي الجويني أن يجمع مسائلها ويبوبها في كتابه « منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان اعجازه » .

وكان للزمخشري أثر في السكاكي ، ولكننا لا نذهب كما ذهب الاستاذ احمد مصطفى المراغي الى ان الكشاف عمدة السكاكي في بحوثه الكثيرة المبعثرة في كتاب «مفتاح العلوم»[2] ، لان أثر عبد القاهر قد طغى عليه وسيطر كتاباه على مباحث البلاغة في المفتاح . وان كثيرا من التشابه الذي نجده عند الزمخشري والسكاكي مرده الى ان كلا الرجلين اعتمدا على بلاغة الجرجاني ، ولا نذهب بعيدا اذا قلنا ان الزمخشري كان اول من طبق رأي عبد القاهر في اعجاز القرآن تطبيقا عمليا على نطاق واسع .

ويمكن ملاحظة تأثر السكاكي به في بحث الالتفات : فقد نقل عنه هذا الموضوع نقلا يكاد يكون بالحرف الواحد . ولكي يتضح ما نذهب اليه ننقل كلام الزمخشري لنرى ما بين الرجلين من تشابه يقول في تفسير قوله تعالى « إياك نعبد واياك نستعين »[3] : « فان قلت لم عدل عن لفظ الغيبة الى لفظ الخطاب ؟ قلت : هذا يسمى الالتفات في البيان . وقد

(١) الطراز ج ١ ص ٥
(٢) ينظر كتاب تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ص ٢٣
(٣) سورة الفاتحة ، الآية ٥ .

يكون من الغيبة الى الخطاب ، ومن الخطاب الى الغيبة ومن الغيبة الى التكلم كقوله تعالى « حتى اذا كنتم في الفُلكِ وجَرَيْن بهم »[1] . وقوله تعالى « والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسُقناه »[2] . وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة ابيات :

تطاول ليلك بالاثمد ونام الخلي ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الارمد
وذلك من نبأ جاءني وخبرته عن ابي الاسود

وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه ، ولان الكلام اذا نقل من اسلوب الى اسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وايقاظا للاصغاء اليه من اجرائه على اسلوب واحد . وقد تختص مواقعه بفوائد . ومما اختص به هذا الموضع انه لما ذكر الحقيق بالحمد واجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل : اياك يا من هذه صفاته تخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه ليكون الخطاب ادل على ان العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة الا به »[3] .

وكلام السكاكي في الالتفات لا يخرج عما ذكره الزمخشري ، الا ما أضاف من امثلة وشواهد شعرية قليلة[4] . وهذا امر طبيعي ، فالاول لم يرد ان يبحث في الالتفات وانما تكلم عليه حينما جاء في الآية الكريمة، أما السكاكي فهدفه البحث في الالتفات لا تفسير الآيات وما فيها من فنون بلاغية .

---

(١) سورة يونس ، الآية ٢٢ .
(٢) سورة فاطر ، الآية ٩
(٣) الكشاف ج١ ص ١١-١٢
(٤) ينظر مفتاح العلوم ص ٩٥ ـ ٩٨

والاتفاق بين الرجلين في الالتفات هو في تحديد معناه وتعريفه وقد اتفقا على انه نقل الكلام من اسلوب الى اسلوب،فمن الغيبة الى الخطاب، ومن الخطاب الى الغيبة ، ومن الغيبة الى التكلم ، واتفقا على أن نقل الكلام من اسلوب الى اسلوب ادخل في القبول عند السامع واحسن تطرية لنشاطه . يضاف الى ذلك أن السكاكي نقل عنه بعض الامثلة ولا سيما أبيات امريء القيس الثلاثة وما فيها من ثلاث التفاتات .

ولكنه مع ذلك خالفه في أمر واحد وهو ان السكاكي ادخل الالتفات في علم المعاني مرة وفي علم البديع تارة اخرى ، اما الزمخشري فقد عده من البيان ، وان كان لا يقصد به البيان الذي ضبطه السكاكي بتعريفه . ومع ذلك فيبقى السكاكي ناقلا للالتفات من الزمخشري ،وان اختلفا في الشكليات .

☆ ☆

وينقل عن الزمخشري استعمال المضارع بدل الماضي في قوله تعالى: « والله الذي ارسل الرياح فتثير سحاباً ، فسقناه الى بلدٍ ميتٍ فأحيينا به الارض بعد موتها ، كذلك النشور »[1] . يقول الزمخشري : « فان قلت لِمَ جاء « فتثير » على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟

قلت : ليحكي الحال التي تقع فيها اثارة الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية . وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب او تهم المخاطب وغير ذلك ، كما قال تابط شرا :

بأني قد لقيت الغول تهوي بسهب كالصحيفة صحصحان
فاضربها بلا دهش فخرت صريعا لليدين وللجران[2]

---

(١) سورة فاطر ، الآية ٩ .

(٢) الغول : حيوان لا وجود له . السهب : الفلاة . الصحصحان : ما استوى من الارض وكان أجرد ، ج صحاصح . الجران من البعير : مقدم عنقه ، ويقال : « القى البعير جرانه » أي : برك .

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول كأنه يبصرهم اياها ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب من جرأته على كل حول وثباته عند كل شدة . وكذلك سوق السحاب الى البلد الميت واحياء الارض بالمطر بعد موتها لما كان من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : فسقناه واحيينا ، معدولا بهما عن لفظة الغيبة الى ما هو ادخل في الاختصاص وادل عليه »[1] .

وكلام السكاكي لا يخرج عن هذا النص ، فهو يعلل جمال استعمال هذا الاسلوب بانه استحضار لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية ، ويأتي بشاهد على ذلك هو بيتا تأبط شرا المتقدمان ، ويعلق عليهما بقوله : « قصدا الى ان يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بضرب الغول كأنه يبصرهم اياها ويطلعهم على كنهها ويتطلب منهم مشاهدتها تعجبا من جرأته على كل هول وثباته عند كل شدة »[2] .

وينقل عنه في هذا الموضوع استعمال « فيكون » للماضي في قوله تعالى : « ان مثلَ عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »[3] ، يقول الزمخشري : « فيكون حال حكاية ماضية » ،وذكر السكاكي الشاهد والكلام نفسه[4] .

☆ ☆

وقد قال الخطيب القزويني ان السكاكي نقل قول الزمخشري في تفسير قوله تعالى « وقيل يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين »[5]،

---

(1) الكشاف ج٣ ص ٤٦٤ — ٤٧٥
(2) مفتاح العلوم ص ١١٨ — ١١٩
(3) سورة آل عمران ، الآية ٥٩ .
(4) الكشاف ج١ ص ٢٨٢ ، ومفتاح العلوم ص ١١٩
(5) سورة هود ، الآية ٤٤

وزاد عليه نكتا لا بأس بها [1] .

والواقع ان السكاكي لم يتأثر بالزمخشري في تحليلها كثيرا لأن الزمخشري مر بها مرورا سريعا بينما وقف السكاكي عندها وقفة طويلة ونظر فيها من اربع جهات : من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعاني ، ومن جهة الفصاحة المعنوية ، ومن جهة الفصاحة اللفظية . وهذا ما لم يفعله الزمخشري [2] .

☆ ☆

وخالفه في بعض القضايا منها : الاستعارة في قوله تعالى « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » [3]، يقول الزمخشري في تفسيرها : « فان قلت الاذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحتهما والاذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار فما وجه صحة ايقاعهما عليه ؟

قلت : اما الاذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس منها فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه العذاب ، شبه ما يدرك من أثر الضرر والالم بما يدرك من طعم المر والبشع . واما اللباس فقد شبه به لاشتماله على الملابس ما غشي الانسان والتبس به من بعض الحوادث . واما ايقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف فلانه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل : فاذاقه ماغشيهم من الجوع والخوف » [4] .

ويفهم من كلامه ان الاستعارة في « لباس الجوع والخوف » استعارة عقلية ، اما السكاكي فيعتبرها استعارة حسية يقول :

---

(١) ينظر الايضاح للقزويني ص ٢٤٠

(٢) ينظر الكشاف ج٢ ص ٣١٠-٣١١ ، ومفتاح العلوم ص ١٩٧

(٣) سورة النحل ، الآية ١١٢ .

(٤) الكشاف ج٢ ص ٤٩٨

« الظاهر من اللباس عند اصحابنا الحمل على التخييل وان كان يحتمل عندي ان يحمل على التحقيق ، وهو ان يستعار لما يلبسه الانسان عند جوعه من انتقاع اللون ورثاثة الهيئة »[١] .

وخالفه في التعريض والكناية ، فالزمخشري فرق بينهما وجعل كلا منهما قائما بنفسه . يقول : « فان قلت : أي فرق بين الكناية والتعريض ؟

قلت : الكناية ان تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له كقولك « طويل النجاد والحمائل » لطويل القامة.و « كثير الرماد » للمضياف.

والتعريض : ان تذكر شيئا تدل به على شيء لم تذكره كما يقول للمحتاج اليه : « جئتك لاسلم عليك ولانظر الى وجهك الكريم » . ولذلك قالوا :

وحسبك بالتسليم مني تقاضيا

وكأنه احالة الى عرض يدل على الغرض ، ويسمى التلويح لأنه يلوح منه ما يريده »[٢] .

ولم يفرق السكاكي بينهما ، لأن الكناية عنده تتفاوت الى تعريض وتلويح ورمز وايماء واشارة ، ومتى كانت الكناية عرضية كان اطلاق اسم التعريض عليها مناسبا[٣] .

وخالفه في التمثيل ، فالزمخشري لا يفرق بين التشبيه والتمثيل لانه كما يبدو كان ينظر الى معنى الوضع اللغوي . يقول : « المثل في اصل كلامهم بمعنى المثل وهو النظير ، يقال : مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه »[٤] .

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٩
(٢) الكشاف ج١ ص ٢١٥
(٣) مفتاح العلوم ص ١٩٤
(٤) الكشاف ج١ ص ٥٥ .

فالتشبيه عنده يرادف التمثيل وقد صرح بذلك في تفسير كثير من الآيات ، كقوله تعالى « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون »[١] . وقوله : « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون اصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين »[٢] .وقوله: « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله،والله لايهدي القوم الظالمين»[٣] . أما السكاكي فقد اعتبر التشبيه في هذه الآيات تمثيلا[٤] .

وأشار التفتازاني الى مذهب الزمخشري في التمثيل فقال : « واما صاحب الكشاف فيجعل التمثيل مرادفا للتشبيه»[٥] .وقدحمل ابن الاثير معاصر السكاكي هذا المذهب وايده ولام من فرق بينهما واستغرب كيف خفي هذا على أعلام البلاغة مع ظهوره ووضوحه[٦] .

وخالفه في مسائل أخرى لا مجال لذكرها لانها ليست ذات اهمية في بحثنا ، وقد اشرنا في اول هذا الفصل الى مخالفته للزمخشري في تفسير بعض الآيات القرآنية .

ومما تقدم يتضح أن السكاكي تأثر بالزمخشري ونقل عنه ، ولكنه مع ذلك اختلف معه في كثير من المسائل ، وكان نقله عنه ليس بالكثرة التي رأيناها في موضوع تأثره بالجرجاني .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٧

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٩

(٣) سورة الجمعة ، الآية ٥ .

(٤) ينظر الكشاف ج١ ص ٥٤ ، ٥٩ ، وج٤ ص ٤٢٤ ، ومفتاح العلوم ص ١٦٥ .

(٥) المطول على التلخيص ص ٣٣٩

(٦) ينظر المثل السائر لابن الاثير ج١ ص ٣٨٨

أثـــر الوطواط

كان رشيد الدين الوطواط أديبا : كاتبا وشاعرا ، ولد ببلخ ومــات بخوارزم سنة ٥٧٣ هـ ، وكان كاتب الانشاء لخوارزمشاه . وألف عــدة كتب أهمها كتاب « حدائق السحر في دقائق الشعر » باللغة الفارسية ، ألفه لابي المظفر خوارزمشاه ، عارض فيه كتاب « ترجمان البلاغـــة » لمحمد بن عمر الرادوياني ، الذي نسبه ياقوت الحموي الى فرخي الشاعر الفارسي خطأ[1] .

تتبع الوطواط خطا الرادوياني ونقل عنه كثيرا وســـايره في ذكر ابواب البديع ، وقد كان كتاب « ترجمان البلاغة » احد مصادر رشيد الدين الوطواط المهمة .

وكتاب « حدائق السحر في دقائق الشعر » بعيد عن الروح المنطقية التي سيطرت على كتب المشارقة في عصــره ، وهو قريب من كتـــاب « البديع » لابن المعتز في منهجه وطريقة عرض الامثلة والشواهد ، مع فرق واضح هو ان ابن المعتز كان يتخير الامثلة الجميلة ، اما الوطواط فقد طغت على كتابه الامثلة المصنوعة ، وبدا التكلف فيها واضحا ، وكثيرا ما ينظم هو نفسه شعرا يدعم به القاعدة .

وليس الكتاب خاصا بالبديع ، وانما هو كتاب شــامل لكثير من موضوعات البلاغة ، بلا تمييز بين علومها الثلاثة ، ولكن النزعة البديعية تسيطر على الكتاب .

وأثّر هذا الكتاب في مدرسة المشارقة البلاغية ، ويبدو أثره جليا في الرازي والمطرزي والسكاكي . والناظر فيه يجد شبها واضحا بينه وبين

(١) معجم الادباء ج١٩ ص ٢٩

ما كتب السكاكي في المحسنات المعنوية واللفظية،ويمكن القول ان ماجاء في « مفتاح العلوم » لم يكن الا صورة لمباحث البديع في كتاب الوطواط مع بعض الاختلافات البسيطة التي قد تكون نتيجة الترجمة لان الكتاب لم يترجم الا قبل سنوات قليلة[١] .

ولكن هناك مسألة ينبغي الالتفات اليها ، وهي انفخر الدين الرازي قد تأثر بالوطواط ونقل عنه في كتابه « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » كثيرا ، وبذلك لا يمكن الجزم بان السكاكي نقل عن « حدائق السحر في دقائق الشعر » مباشرة . اذ يجوز انه نقل عن الرازي ما كتبه الوطواط ، ومع ذلك فلا ينفي هذا ان كلام السكاكي في المحسنات هو كلام الوطواط نفسه في حدائق السحر . وعلى ذلك سنقارن بينهما لنرى مدى تأثر السكاكي برشيد الدين ، والموضوعات التي تقاربا فيها هي :

مراعاة النظير :

اتفقا في تعريف هذا المحسن[٢] .

الجمع :

اتفقنا في التعريف ، أما الأمثلة ففيها اختلاف[٣] .

التفريق :

اتفقا في التعريف ، ونقل السكاكي قول الوطواط :

ما نوال الغمام وقت ربيع كنوال الامير يوم سخاء
فنوال الامير بدرة عين ونوال الغمام قطرة ماء[٤]

التقسيم :

اتفقا في التعريف ونقل عنه قول بعضهم :

---

(١) ترجمه الى العربية المرحوم الدكتور ابراهيم امين الشواربي .
(٢) حدائق السحر ص ١٣٠ ، ومفتاح العلوم ص ٢٠٠
(٣) حدائق السحر ص ١٧٨ ، ومفتاح العلوم ص ٢٠٠
(٤) حدائق السحر ص ١٧٨ ، ومفتاح العلوم ص ٢٠٠ .

أديـان في بلـخ لا يأكـلان اذا صحبا المرء غير الكبد
فهذا طويل كظل القناة وهـذا قصير كظل الوتد [1]

الجمع مع التقسيم :

اتفقا في التعريف واختلفا في الأمثلة[2] .

الجمع مع التفريق :

اتفقا في التعريف ونقل عنه قول الشاعر :

للسبي ما نكحوا، والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا[3]

الجمع مع التفريق والتقسيم :

لم يعرف السكاكي هذا المحسن ، أما الوطواط فقد عرفه وقال انه لم ير شعرا جمع بينهما الا بيتين من الشعر الفارسي . وذكر السكاكي له أمثلة من الشعر والقرآن الكريم ، هي قوله تعالى : « يوم يأتي لا تكلم نفس الا بأذنه فمنهم شقي وسعيد . فاما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السماوات والارض الا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد . واما الذين سُعِدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ »[4] .

وقول بعضهم :

فكالنار ضوءً ، وكالنار حرا محيا حبيبي وحرقة بالي
فذلك من ضوئه في اختيال وهـذا لحرقته في اختلال[5]

الايهـــام :

اتفقا في التعريف ، واختلفا في الامثلة [6] .

---

(١) حدائق السحر ص ١٧٩ ، ومفتاح العلوم ص ٢٠١
(٢) حدائق السحر ص ١٧٩ ، ومفتاح العلوم ص ٢٠١ .
(٣) حدائق السحر ص ١٨٠ ، ومفتاح العلوم ص ٢٠١
(٤) سورة هود ، الآيات ١٠٥ ـ ١٠٨ .
(٥) حدائق السحر ص ١٨٠ ، ومفتاح العلوم ص ٢٠١ .
(٦) حدائق السحر ص ١٣٥ ، ومفتاح العلوم ص ٢٠١ .

التوجيه :

سماه الوطواط المحتمل للضدين ، ولكنهما اتفقا في التعريف ،ونقل السكاكي عنه قول بعضهم :

خاط لي عمرو قبا ليت عينيه سوا[1]

سوق المعلوم مساق غيره :

سماه الوطواط تجاهل العارف كما سماه البلاغيون العرب[2]،ونقل السكاكي عنه قوله تعالى:«وانا واياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين»[3].

تأكيد المدح بما يشبه الذم :

نقل السكاكي عنه قول الشاعر :

هو البدر الا أنه البحرُ زاخرا سوى انه الضرغام،لكنه الوبل[4]

الاستتباع :

سماه الوطواط المدح الموجه ، وذكر السكاكي والوطواط قول الشاعر :

نهبت من الاعمار ما لو حويته لهنئت الدنيا بانك خالدُ[5]

الترصيع :

نقل عنه بعض الامثلة كقوله تعالى : «إن الينا ايابهم . ثم إنّ علينا حسابهم »[6] . وقوله : « ان الابرار لفي نعيم . وان الفجار لفي جحيم »[7] .

---

(١) حدائق السحر ص ١٣٢ ، ومفتاح العلوم ص ٢٠٢

(٢) حدائق السحر ص ١٥٨ ، ومفتاح العلوم ص ٢٠٢

(٣) سورة سبأ ، الآية ٢٤ .

(٤) حدائق السحر ص ١٣١ ، ومفتاح العلوم ص ٢٠٢ .

(٥) حدائق السحر ص ١٣١ ، ومفتاح العلوم ص ٢٠٢

(٦) سورة الغاشية ، الآيتان ٢٥ — ٢٦ .

(٧) سورة الانفطار ، الآيتان ١٣ — ١٤ .

حدائق السحر ص ٩٠ ، ومفتاح العلوم ص ٢٠٣ — ٢٠٤

الاشتقاق :

ادخله السكاكي في التجنيس ، أما الوطواط فقد عقد له فصلا خاصا . اخذ عنه قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين القيم »[1] .

القلب :

نقل عنه التقسيمات والامثلة ، فقد قسمه الوطواط الى مقلوب البعض ، ومقلوب الكل ، والمقلوب المجنح ، والمقلوب المستوي ، وتابعه السكاكي في هذا التقسيم ، ولكنه لم يذكر كل الامثلة التي اوردها رشيد الدين . ومما أخذه :

حسامُك منك للاحباب فتح ورمحُك منه للاعداء حتفُ

اخذه السكاكي ونثره بقوله : « حسامه فتح لاوليائه ، حتف لاعدائه » .

ومثل : « اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا » .

ولم يذكر السكاكي للمقلوب المجنح مثالا[2] .

التجنيس :

ويبدو نقله في هذا الفصل واضحا ، فقد تابعه في التقسيم والامثلة . وقد قسمه الوطواط الى : تجنيس تام ، وتجنيس ناقص ، وتجنيس زائد وتجنيس مذيل ، وتجنيس مركب ، وتجنيس مكرر ، وتجنيس مطرف ، وتجنيس الخط . وقسمه السكاكي تقسيما قريبا من هذا التقسيم واضاف اليه الاشتقاق ، مع ان الوطواط عقد له فصلا وقال عنه : « ويعتبره اصحاب البلاغة نوعا من التجنيس »[3] .

أما الامثلة التي نقلها السكاكي عنه فهي : « البُرْد يمنع البَرْدَ » ،

---

(1) سورة الروم ، الآية ٤٣ .
حدائق السحر ص ٧٠ وما بعدها ، ومفتاح العلوم ص ٢٠٣
(2) حدائق السحر ص ١٠٧ وما بعدها ، ومفتاح العلوم ص ٢٠٣
(3) حدائق السحر ص ١٠٣

وهذا المثال في حدائق السحر « جبة البرد جنة البرد » و «من طلب وجد وجد » و « من قرع بابا وَلَجَّ ولج » و « النبيذ بغير النغم غم ، وبغير الدسم سم » وقول الشاعر :

كلكم قد أخذ الجام ولا جام لنا
ما الذي ضر مدير الجام لو جاملنا

وقوله تعالى : « اني لعملكم من القالين »[1] و « جنى الجنتين دانٍ »[2] و « فأقِم وجهك للدينِ القيم »[3] و « فرَوح وريحان » [4] .

وبذلك يتضح تأثر السكاكي برشيد الدين الوطواط ، وتتبين مواضع النقل عنه .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٦٨
(٢) سورة الرحمن ، الآية ٥٤ .
(٣) سورة الروم ، الآية ٤٣ .
(٤) سورة الواقعة ، الآية ٨٩ .
حدائق السحر ص ٩٥ وما بعدها ، ومفتاح العلوم ص ٢٠٣

أثـــر الــرازي

لم تصل البلاغة الى ما وصلت اليه عند السكاكي الا بعد أن كتب فخرالدين الرازي — المتوفى بمدينة هراة سنة ٦٠٦ هـ — كتابه « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » الذي كان تلخيصا لكتابي « اسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » فكان هذا الكتاب حلقة الوصل بين عبد القاهر والسكاكي أو كان الخطوة الاولى لتقنين قواعد البلاغة وضبط مسائلها •

لقد كان الرازي أول من حاول القضاء على الروح الادبية في كتابي الجرجاني ، وتحويل البلاغة الى وجهة اخرى تهتم بالضبط والتحديد والحصر المنطقي • واول ما يطالعنا في كتاب الرازي الدعوة الى ترتيب أصول البلاغة ووضع قواعد ثابتة لها ، اذ وجد عبد القاهر الذي استخرج اصولها واقسامها واحكامها ، قد « اهمل رعاية ترتيب الاصول والابواب واطنب في الكلام كل الاطناب »[1] ، وبذلك حاول ضبط هذه المسائل وجمع متفرقات الكلم ، ووضع قواعد تضبط البلاغة وتحصر موضوعاتها • وهذا ما دعا اليه السكاكي في « مفتاح العلوم » •

رتب الرازي كتابه على مقدمة وجملتين، تحدث في المقدمة عن اعجاز القرآن ، وشرف علم الفصاحة ، أما الجملتان :

فالاولى في المفردات ، والثانية في النظم • وهو بذلك يتابع عبد القاهر ويستفيد من قوله : « اعلم ان الكلام الفصيح ينقسم قسمين : قسم تعزى المزية والحسن فيه الى اللفظ ، وقسم يعزى ذلك فيه الى النظم »[2] •

ولا يخرج تقسيم الرازي عما ذكره عبد القاهر ، فبحث في الجملة

---

(١) نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ص ٤

(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٩ •

الاولى المفردات وهي في نظره : التجنيس والاشتقاق ورد العجز على الصدر والقلب والسجع والمزدوج والترصيع والحقيقة والمجاز والكناية والتشبيه والاستعارة •

وبحث في الجملة الثانية : النظم وهو ، معنى النظم والمطابقةوالمقابلة والمزاوجة والاعتراض والالتفات والاقتباس من القرآن والتلميحوارسال المثلين ، واللف والنشر ، والتعديد وتنسيق الصفات والايهام ومراعاة النظير والموجه والمحتمل للضدين وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف والسؤال والجواب والاغراق والجمع والتفريق والتقسيم والمتزلزل والتعجب وحسن التعليل،والتقديم والتأخير،والفصل والوصل، والحذف والاضمار ، والايجاز وما يتعلق بـ « إن » و « إنما » •

ويلاحظ أن الرازي قسم المحسنات الى قسمين : قسم بحثه في الجملة الاولى ، وهي التي ادخلها السكاكي في المحسنات الراجعة الى اللفظ • والآخر بحثه في الجملة الثانية وهي التي اعتبرها السكاكي من المحسنات الراجعة الى المعنى • وانه حصر الموضوعات التي اعتبرها السكاكي من مباحث البيان في الجملة الاولى ، وذكر الموضوعات التي ادخلها السكاكي في المعاني في الجملة الثانية الخاصة بالنظم •

وبذلك مهد السبيل للسكاكي في تقسيم موضوعات البلاغة الى معان وبيان ، فما بحثه الرازي في الجملة الاولى كان « علم البيان » عند السكاكي ، وما بحثه في الجملة الثانية كان « علم المعاني » •

ولكن كتاب الرازي أقرب الى روح كتابي عبد القاهر ، لانه بحث البلاغة على نهجه ولم يبتعد عنه كثيرا ، اما السكاكي فقد مزق اوصالها ولا سيما في بحث التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، حينما اتخذمن ركني الجملة ــ المسند والمسند اليه ــ منهجا له في بحث موضوع « الخبر » •

ولكن هل نجح الرازي كما نجح السكاكي ؟

الواقع انه اكثر نجاحا من السكاكي في بحث البلاغة لولا بعض الامور منها انه افقد البلاغة روحها الادبية بادخاله الدلالات والمسائل الفلسفية وقضى على النزعة الذوقية التي كانت تطبع كتابي الجرجاني لأنه حاول ان يوجزهما ويرتبهما أكثر مما فعل السكاكي . يقول : « ولما وفقني الله لمطالعة هذين الكتابين التقطت منهما معاقد فوائدهما ومقاصد فرائدهما وراعيت الترتيب مع التهذيب والتحرير مع التقرير وضبطت اوابد الاجمالات في كل باب بالتقسيمات اليقينية وجمعت متفرقات الكلم في الضوابط العقلية مع الاجتناب عن الاطناب الممل والاحتراز عن الاختصار المخل وسميته نهاية الايجاز في دراية الاعجاز »[1] .

ويكثر من التقسيمات ، فمن المسألة الواحدة يشعب مسائل اخر ، وكان شغوفا بهذه الطريقة حتى في تفسير القرآن .

ان تقسيمه بحوث البلاغة الى قسمين ، وان كان قد اخذه عن عبد القاهر الا انه لم يكن دقيقا ، لان الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم ايضا وعنها يحدث وبها يكون ، لانه لا يتصور ان يدخل شيء منها في الكلم وهي افراد لم يتوخ فيما بينها حكم من احكام النحو فلا يتصور ان يكون ههنا فعل او اسم قد دخلته الاستعارة من دون ان يكون قد الف مع غيره . وقد صرح بهذا عبد القاهر في دلائل الاعجاز[2] .

ومع هذه الملاحظات فان كتاب « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » يبقى ذا قيمة في دراسة البلاغة وتطورها ، لانه المرحلة الاولى نحو حصر مباحث البلاغة وتحديد أبوابها ومسائلها ، وقد استفاد منه السكاكي وصاغ كتابه من وحي عمل الرازي ، وبذلك أخذت البلاغة على يده

---

(١) نهاية الايجاز ص ٤
(٢) ينظر كتاب دلائل الاعجاز ص ٣٠٠ وما بعدها .

شكلها الاخير وصورتها النهائية •

ولكي تتبين أثر الرازي في السكاكي نعرض مباحث البلاغة التي اتفقا فيها وهي :

اعجاز القرآن :

ذكر الرازي اربعة مذاهب هي الصرفة ، ومخالفة اسلوب القرآن لاساليب الشعر والخطب والرسائل ، وعدم وجود اختلاف وتناقض فيه، واشتماله على الغيوب • ولكنه لم ير في هذه المذاهب وجها من وجوه الاعجاز ، لذلك فندها واظهر ما فيها من بعد عن الحقيقة والصواب • ورأى أن القرآن معجز لما اشتمل عليه من فصاحة وبلاغة ، ولا يمكن التوصل الى معرفة اعجازه الا بدراسة البلاغة والتعمق في مسائلها •

وتابعه السكاكي في هذا الرأي ، فهو بعد أن ذكر الاوجه الاربعة المتقدمة وفندها تفنيدا لا يخرج عن كلام الرازي قال : « فهذه اقوال اربعة يخمسها ما يجده اصحاب الذوق من ان وجه الاعجاز هو امر من جنس البلاغة والفصاحة »[1] وبذلك يتابعه في مسألة اعجاز القرآن ، وان اختلف معه في بعض الامور كما سنرى •

الدلالات :

ولعل الرازي من أوائل الذين تحدثوا في البلاغة عن دلالة اللفظ على المعنى بهذه الصورة المنطقية ، وقسمها الى وضعية وعقلية ورأى ان الكناية والمجاز والتمثيل لا تقع الا في الدلالة العقلية •

وتابعه السكاكي في هذه المسألة في تحديد مباحث علم البيان ورأى ان المعنى لما كان لا يمكن ايراده بطرق مختلفة الا بالدلالات العقلية ، فان البيان ينحصر في المجاز والكناية ، واخرج التشبيه لان دلالته وضعية ، وان اعتبره اصلا لاعتماد الاستعارة عليه[2] •

---

(١) مفتاح العلوم ص ٢٤٣ ، ونهاية الايجاز ص ٥ وما بعدها .

(٢) نهاية الايجاز ص ٨ وما بعدها ومفتاح العلوم ص ١٥٦ — ١٥٧ .

طرفا البلاغة :

تكلم الرازي على طرفي البلاغة فقال : « ولها طرفان واوساط ، فالطرف الاعلى هو ان يقع ذلك التركيب بحيث يمتنع ان يوجد ما هو اشد تناسبا واعتدالا في افادة ذلك المعنى منه . والطرف الاسفل هو ان يقع على وجه لو صار أقل تناسبا منه لخرج عن كونه مفيداً لذلك المعنى، وبين هذين الطرفين مراتب متباينة تكاد تكون غير متناهية »[١] وهذا ما قاله السكاكي ويكاد اللفظ يتفق عند الاثنين .

الفصاحة اللفظية :

ذكر الرازي شروط الفصاحة اللفظية ولكنه لم يسمها بهذا الاسم الذي اطلقه السكاكي عليها وانما قال : « ما يتعلق بالدلالة اللفظية وذلك من اربعة اوجه :

الاول : ان تكون الكلمة عربية اصلية ليست مما احدثها المولدون ولا مما اخطأت العامة فيها .

الثاني : أن تكون اجرى على مقاييس اللغة وقوانينها .

الثالث : المحافظة على قوانين النحو والاعراب والاحتراز عن اللحن .

الرابع : الاحتراز عن الالفاظ الغريبة الوحشية[٢] .

وقال السكاكي عن الفصاحة اللفظية : «وهو ان تكون الكلمة عربية اصلية ، وعلامة ذلك ان تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم ادور واستعمالهم لها اكثر لا مما احدثه المولدون ، ولا مما أخطأت فيه العامة ، وان تكون اجرى على قوانين اللغة ، وان تكون سليمة من التنافر »[٣] . وهذا ما ذكره الرازي .

---

(١) نهاية الايجاز ص ١٠ ، ومفتاح العلوم ص ١٩٦

(٢) نهاية الايجاز ص ٣٥

(٣) مفتاح العلوم ص ١٩٦

حد الخبر :

ذكر الرازي حد الخبر فقال : « قد ذكرنا ان الذي يهمنا من ذكر اصناف المركبات : الخبر . فلنذكر حده .

وهو القول المقتضي بصـريحه نسبة معلوم الى معلوم بالنفي أو بالاثبات .

ومن حده بانه المحتمل للصدق والكذب المحدودين بالخبر لزمـه الدور .

ومن حده بالمحتمل للتصديق والتكذيب المحدودين بالصـدق والكذب واقع في الدور مرتين »[١] .

وذكر السكاكي هذه التعريفات ولا سيما تعـريف الرازي الذي يقول فيه : « هو القول المقتضي بصريحه نسبة معلوم الى معلوم بالنفي او الاثبات » . ولكنه لم يقبل هذه الحدود ، وقال بعد الرد عليهـا : « لنكتف بهذا القدر من التنبيه على استغناء الخبر والطلب عن التعريف الحدي »[٢] .

الحقيقة والمجـاز :

تكلم الرازي ــ كما تكلم عبدالقاهر ــ على المجاز وقسمه الى نوعين: مجاز داخل في الاثبات ومجاز داخل في المثبت ، أو الى مجاز في المفرد وهو المجاز اللغوي ، ومجاز بالجملة وهو المجاز العقلي ، وتابعهمـا السكاكي في ذلك . ولا نستطيع ان نعرف بالتأكيد من اين أخذ هذا التقسيم أعن الجرجاني أم عن الرازي ؟

لقد نقل السكاكي تعريف المجاز العقلي والحقيقة العقلية عن غيره ولم يشر الى المصدر الذي نقلها عنه وانما اكتفى بقوله « واعلم أن حد الحقيقة الحكمية والمجاز الحكمي عند اصحابنا رحمهم الله غير ما ذكرت .

---

(١) نهاية الايجاز ص ٣٧

(٢) مفتاح العلوم ص ٧٩ .

حد الحقيقة ...»[1] .

وكان الجرجاني والرازي قد ذكرا التعريفات التي ذكرها في هذا الموضوع نفسها ، وليس من السهل معرفة المصدر المباشر الذي نقل عنه السكاكي .

وكما اختلف السكاكي عن عبدالقاهر في المجاز العقلي ، اختلف عن الرازي أيضا ورأى ان في قول الجرجاني: «وليس بواجب في هذا النوع من المجاز أن يكون للفعل فاعل في التقدير ...» رأى ان في هذا القول نظرا ، لان الفعل يستحيل وجوده الا من الفاعل ، فالفعل المسند الى شيء اما ان يسند الى ما هو مستند في ذاته اليه فيكون الاسناد حقيقيا ، واذا لم يسند الى ذلك الشيء فلا بد من شيء آخر يكون هو مستنداً لذاته اليه ، والا لزم حصول الفعل لا عن الفاعل وهو محال»[2] .

وهذا ما ذهب اليه السكاكي كما رأينا سابقا .

التشبيه :

تكلم الرازي على ركني التشبيه وقسمهما الى : مستندين الى المحسوس اي الذي يكون المشبه والمشبه به محسوسين ، ومستندين الى العقل وهو تشبيه المعقول بالمعقول ، وتشبيه المعقول بالمحسوس ، وتشبيه المحسوس بالمعقول[3] .

وقسم السكاكي وجه الشبه هذا التقسيم ونقل معظم الامثلة التي ذكرها الرازي ، ولكن الرازي أطال وفصَّل في التشبيه تفصيلا وافيا لا نجده في كتاب « مفتاح العلوم » .

وتكلم الرازي على التشبيه القريب والغريب ولخَّص ما ذكره

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٨٩ ، وينظر كتاب اسرار البلاغة ص ٤٢٩ ، ونهاية الايجاز ص ٤٩ .

(٢) ينظر نهاية الايجاز ص ٥٢

(٣) ينظر نهاية الايجاز ص ٥٨

عبد القاهر في « اسرار البلاغة » • وقد ذكر السكاكي هذا الكلام •

وعندما تكلم الرازي على الغرض من التشبيه قسمه الى قسمين: عائد الى المشبه وعائد الى المشبه به ، والاغراض العائدة الى المشبه لا تخلو اما ان يكون بيان حكم مجهول او لا يكون •

فالاول : لا يخلو اما أن يكون الغرض فيه بيان امكان وجوده ، او بيان مقدار وجوده •

اما بيان الامكان فهو ما كان المدعي يدعي ما لا يكون امكانه بيّناً ، ويحتاج الى التشبيه لبيان امكانه مثل قوله :

فان تفق الأنام وأنت منهم فان المسكَ بعض دمِ الغزال

وأما بيان المقدار فهو كما اذا حاولت ان تنفي الفائدة عن فعل انسان وان تدعي انه لا يحصل منه على طائل فتشبهه في ذلك بالقابض على الماء ، فدعوى كون ذلك الفعل غير مفيد ليست دعوى بعيدة •

والثاني : اذا لم يكن الغرض من التشبيه بيان حكم مجهول فالغرض احد امور ثلاثة :

الاول : ان الامور العقلية متأخرة عن الادراكات الحسية في الزمان فلاجرم الف النفس مع الحسيات اتم من الفها مع العقليات • فاذا ذكرت المعنى العقلي الجلي ثم عقبته بالتمثيل الحسي فكأنك قد نقلت النفس من المعنى الغريب الى القريب •

الثاني : ان المعنى وان كان معلوما يقينا الا ان التمثيل بالمحسوس يفيد زيادة قوة •

الثالث : ان المتشابهين متى كانت المباعدة بينهما اتم كان التشبيه احسن •

أما الاغراض العائدة الى المشبه به فقد يقصد الشاعر على عادة التخييل ان يوهم في الشيء القاصر على نظيره انه زائد عليه ، وحينئذ

يجعل الفرع اصلا ويشبه الزائد بذلك الناقص ويكون الغرض بالحقيقة اعلاء شأن ذلك الناقص اي هو بالغ الى حيث صار اصلا للشيء الكامل في ذلك الباب كقوله :

وبدا الصباحُ كأن غرتَـه　　وجهُ الخليفة حين يُمتـدحُ

ولم يخرج السكاكي عن هذا الكلام ولا عن الامثلة ، فهو عندما تكلم على اغراض التشبيه قسمه قسمين : الاول الغرض العائد الى المشبه ويكون لبيان حاله او لبيان مقدار حاله او لبيان امكان وجوده او لتقوية شأنه في نفس السامع وزيادة تقرير له او لابرازه الى السامع في معرض التزيين والاستطراف .

والآخر : الغرض العائد الى المشبه به ومرجع ذلك الى ايهام كونه اتم من المشبه في وجه التشبيه كقول الشاعر :

وبدا الصباحُ كأن غرتَـه　　وجهُ الخليفةِ حين يُمتـدحُ

وقول الآخر :

وكأن النجومَ بين دُجاهـا　　سُنَنٌ لاح بينهن ابتـداعُ

وقول الآخر :

ولقد ذكرتك والظلامُ كأنه　　يومُ النوى وفؤادُ من لم يعشق

وغير ذلك[1] .

التمثيل :

قال الرازي عنه : « وقد خصوا التمثيل المنتزع من اجتماع امور يتقيد البعض بالبعض باسم التمثيل. فقد يكون ذلك على حد الاستعارة كقولهم لمن يتردد في الامر : « اراك تقدم رجـلا وتؤخر اخرى » . والاصل : اراك في ترددك كمن يقدم رجلا ويؤخر اخرى . وقد يكون

---

(١) نهاية الايجاز ص ٧٣ وما بعدها ، ومفتاح العلوم ص ١٦٢ وما بعدها .

لا على حد الاستعارة كما اوردناه من قوله تعالى : « مَثَلُ الذين حُمِّلُوا التوراةَ ... »[1] .

وذكرأن الامثال كلها حكايات لا تغير، والى هذا ذهب السكاكي.

الاستعارة :

تكلم الرازي على الاستعارة الاصلية والتبعية والترشيحية والتجريدية والاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية ، وتحدث عن انواع الاستعارات وهي : استعارة اسم المحسوس للمحسوس بسبب المشاركة في وصف محسوس ، واستعارة المحسوس للمحسوس لشبه عقلي ، واستعارة المحسوس للمعقول ، واستعارة المعقول للمعقول ، واستعارة المعقول للمحسوس .

ويكاد السكاكي ينقل هذا نصا ، ولنذكر مثالا واحدا يدلنا على متابعته للرازي في التقسيم والامثلة والشرح . يقول الرازي: «استعارة اسم المحسوس للمحسوس بسبب المشاركة في وصف محسوس . فمنها قوله تعالى « واشتعل الرأس شيبا »[2] . فالمستعار منه النار ، والمستعار له الشيب ، والجامع هو الانبساط ولكنه في النار أقوى »[3] .

وقال السكاكي عن استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسي : «فمن النوع الاول قوله عز اسمه : « واشتعل الرأس شيبا » ،فالمستعار منه هو النار ، والمستعار له هو الشيب ، والجامع بينهما هو الانبساط ولكنه في النار أقوى »[4] .

والامر مثل هذا في الانواع الخمسة .

---

(١) سورة الجمعة ، الآية ٥ . وينظر نهاية الايجاز ص ٨١ ، ومفتاح العلوم ص١٧٧ .
(٢) سورة مريم ، الآية ٤ .
(٣) نهاية الايجاز ص ٩٩ .
(٤) مفتاح العلوم ص ١٨٣

البديع :

تكلم الرازي على المحسنات البديعية ولكنه لم يجمعها في بحث واحد ، فقد تكلم في الجملة الاولى او القسم الاول من كتابه الخاص بالمفردات على التجنيس والاشتقاق ورد العجز على الصدر والقلب والسجع وتضمين المزدوج والترصيع • وتكلم في الجملة الثانية اوالقسم الثاني الخاص بالنظم على المطابقة والمقابلة والمزاوجة والاعتراض والالتفات وغيرها مما سبق ذكره •

ويلاحظ ان الرازي قسم المحسنات الى قسمين : قسم بحثه في الجملة الأولى الخاصة بالمفردات ، والآخر بحثه في الجملة الثانية الخاصة بالنظم •

وكأن السكاكي نظر الى هذا التقسيم حينما قسم المحسنات الى لفظية ومعنوية ، فقد ادخل القسم الذي تكلم عليه الرازي في الجملة الثانية في المحسنات المعنوية ، وادخل القسم الاول في المحسنات اللفظية• وبذلك يكون عمل السكاكي في تقسيم المحسنات لا يختلف عن عمل الرازي وان أطلق عليها مصطلحين لم يذكرهما الاول •

أما موضوعات المحسنات أو البديع ــ كما سماه المتأخرون ــ فلا يختلف بحثها عند الرجلين ، ويشبه ما ذكراه كلام رشيدالدين الوطواط الذي تقدم ذكره • ولا نستطيع أن نجزم بأن السكاكي تأثر بالرازي او بالوطواط ، لان ما جاء في كتب الثلاثة متشابه في التعريفات وذكر الامثلة •

وما دمنا قد اشرنا الى علاقة السكاكي بالوطواط في بحث المحسنات وبيّنا مدى التشابه بينهما فلن نعيد ما ذكرناه ونكتفي بذكر الموضوعات التي اتفق فيها السكاكي والرازي وهي : التجنيس ، والقلب ، والترصيع ، والمطابقة ، والمقابلة ، والمزاوجة ، والاعتراض ، واللف ، والنشر ، والايهام ، ومراعاة النظير ، والموجه ، ــ وقد سماه

السكاكي الاستتباع - ، والمحتمل للضدين ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والجمع ، والتفريق ، والتقسيم ، والجمع مع التفريق ، والجمع مع التقسيم ، والجمع مع التفريق والتقسيم .

وهذه الموضوعات لا يختلف بحثها كثيرا في كتاب« حدائق السحر في دقائق الشعر » وفي كتاب « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » وفي كتاب « مفتاح العلوم » .

وكان صاحب « حدائق السحر » سبّاقا الى بحثها بهذه الطريقة ، أما الآخران فقد تابعاه ولكننا لا نستطيع أن نعرف أيهما تأثر بالآخر ،فقد يكون السكاكي اعتمد عليه وقد يكون اعتمد على كتاب الرازي وبذلك يكون تأثره بالوطواط بصورة غير مباشرة .

ولم يقف أثر الرازي في السكاكي عند ذلك ، فقد ختم كتابه « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » بباب فيه أربعة فصول متفرقة جعلها خاتمة الكتاب وهي : وجه الاعجاز في سورة الكوثر ، ووجه الحكم في المتشابهات ، وفي الجواب عما قاله بعض الملحدين من أن في القرآن تناقضا ، وفي بيان فساد طعنهم في القرآن من جهة التكرار والتطويل .

وصنع السكاكي هذا الصنيع فختم كتابه « مفتاح العلوم » ببحث دافع فيه عن القرآن الكريم والاسلام ،ورد على مطاعن الملحدين، وقد سمّاه « ارشاد الضلال بدفع ما يطعنون به في كلام رب العزة» .وفيه مناقشات وتفنيد تشبه مناقشات الرازي وتفنيده اقوال الملحدين الطاعنين في القرآن الكريم . ويتضح التشابه بين الرجلين في الرد على من يطعن في القرآن من جهة التكرار ومن جهة التناقض بصورة خاصة .

وبذلك كان للرازي أثر كبير في بلاغة السكاكي كأثر عبدالقاهر الجرجاني والزمخشري ورشيد الدين الوطواط .

أثـــر معاصـــريه

كان ابو المظفر ناصر بن أبي المكارم المطرزي (٦١٠ هـ) معاصرا للسكاكي ، وقد ألف عدة كتب اهمها فيما يتعلق ببحثنا « الايضاح » وهو شرح مقامات الحريري ، صـــدّره بمقدمـــة في البلاغة ليعطي قاريء الشرح محك النقد وينصب له معيار التمييز بين الحسن والرديء .

وتحدث عن البلاغة دون ان يقسمها كما فعل السكاكي . ويبدو أثر عبد القاهر واضحا في مواضع كثيرة من هذه المقدمة كبحث الحقيقة والمجاز ، وقد صرح بالنقل عنه ، وكان كثيرا ما يلخص آراءه ويعتمد عليها . ويبدو أثر رشيد الدين الوطواط في هذه المقدمة ولا ســـيما في ذكر المحسنات .

واذا ما قارنا بين المحسنات التي ذكرها المطرزي والسكاكي اتضح لنا ان الرجلين يغرفان من منبع واحد لتشابه كثير من المحسنات عندهما وعند الوطواط .

ومع ان المطرزي عاصر السكاكي وعاش معه في بيئة واحدة ومات قبله سنة (٦١٠هـ) الا اننا لا نقدر أن نقول ان الســـكاكي نقل عن كتاب الايضاح ، لان الوطواط ســـبق ان تكلم على البـــديع وذكر التعريفات والامثلة التي ذكراها نفسها ، ولان معاصره الرازي بحثهـــا بتلك الطريقة وذلك الاسلوب .

والموضوعات التي نجد الشبه فيها واضحا عند السكاكي والمطرزي هي : المطابقة ، واللف والنشر ، والايهام ، والاشـــتقاق ، والمقلوب ، والترصيع ، والتجنيس[1] .

---

(١) ينظر كتاب شرح مقامات الحريري للمطرزي ص ١٠ وما بعدها ، ومفتـــاح العلوم ص ٢٠٠ وما بعدها .

أما علاقة السكاكي بمعاصريه الآخرين كاسامة بن منقذ (٥٨٤ هـ) وضياءالدين بن الاثير (٦٣٧ هـ) وغيرهما ممن عاشوا في بيئة غير بيئة السكاكي كبيئة العراق والشام ومصر فليس لها وجود ولم نستطع ان نلاحظ أي تأثر بهؤلاء لا في المنهج ولا في مادة البلاغة •

فاسامة بن منقذ سرد في كتابه « البديع في نقد الشعر » ابواب البديع التي عرفت حتى زمانه ، ولم يقسم كتابه كما فعل السكاكي وانما بحث البلاغة مثلما بحثها المتقدمون كابن المعتز وأبي هلال العسكري •

وليس في كتاب «مفتاح العلوم» أية علاقة بينه وبين كتاب ابن منقذ وبذلك نستطيع ان نقرر ان السكاكي لم يتأثر به ، ولعله لم يـر كتاب أسامة •

وكان ضياءالدين بن الاثير من معاصري السكاكي ، ولكننا لم نجد علاقة بين الرجلين الا ما أخذاه عن عبد القاهر أو الزمخشري •

اما منهجاهما فيختلفان اختلافا كبيرا ، فقد قسم السكاكي البلاغة الى معان وبيان ومحسنات او بديع ، بينما نهجابن الاثير نهجا آخر سواء في كتابه الضخم « المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر » أم في كتابه « الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور » • وقد رتب ابن الاثير كتابه الاول على مقدمة ومقالتين تحدث في المقدمة عن موضوع علم البيان ، وآلاته وهي معرفة العربية من نحو وصرف ولغة وامثال وحفظ القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة وعلم القوافي والعروض • وتحدث عن الحكم على المعاني والترجيح بينها ، وجوامع الكلم ، والحكمة التي هي ضالة المؤمن ، والحقيقة والمجاز ، والفصاحة والبلاغة ، واركان الكتابة ، والطريق الى تعلم الكتابة •

والمقالة الاولى من الكتاب في الصناعة اللفظية وقد قسمها الى قسمين :

الاول : في اللفظة المفردة ، وفيه تكلم على شروط فصاحة اللفظة المفردة ورد على ابن سنان الخفاجي مؤلف كتاب سر الفصاحة وفند آراءه .

والثاني : في الالفاظ المركبة وهي السجع والتصريع والتجنيس والترصيع ولزوم ما لا يلزم والموازنة واختلاف صيغ الالفاظ وتكرير الحروف .

والمقالة الثانية : في الصناعة المعنوية وهي الاستعارة والتشبيه والالتفات والتقديم والتأخير والكناية والتعريض والاطناب والسرقات وغيرها .

وسار على هذا المنهج في كتابه الثاني ، وان كان أقل من الاول شرحا وتفصيلا . وبالمقارنة بين بلاغة السكاكي وبلاغة ابن الاثير يتضح انه ليس هناك اية علاقة بينهما لا في المنهج ولا في موضوعات البلاغة .

وبذلك نستطيع أنْ نقول : أنْ لا علاقة بين السكاكي ومعاصريه في بيئات اخرى ، وان كانت هناك علاقة بسيطة بينه وبين معاصره المطرزي فقد تكون نتيجة اعتمادهما على رشيد الدين الوطواط والرازي ، أو نتيجة وجودهما في بيئة واحدة هي بيئة خوارزم أو بيئة المشارقة .

☆ ☆

هذه منابع بلاغة السكاكي وعلاقته بمعاصريه ومنها يتضح ان أثر ارسطو لم يَبْدُ واضحا في بلاغة السكاكي ، لان العرب كتبوا في البلاغة منذ عهد مبكر واستفادوا من كتب اليونان ولا سيما الخطابة والشعر لارسطو وكونوا لهم بلاغة لها طابعها العربي واسلوبها الخاص . ولما جاء السكاكي في القرن السادس الهجري وجد الدراسات البلاغية قد أثمرت ووصلت قمة نضجها على يدي عبدالقاهر الجرجاني

فاستفاد من هذا التراث الضخم ولم يزد عليه شيئا الا بعض المسائل من تحديد البلاغة وتبويبها وتقسيمها الى معان وبيان ومحسنات .

وكان للمتكلمين أثر في بلاغته ولا سيما في مباحث علم المعـاني ، وكان للاصوليين أثر في هذا القسم ولكنه أثر" لم يكن واضحا الا ما أشار اليه السكاكي نفسه . ولعل أثر كتب اللغة وفقهها كان اوضح في علم المعاني عنده ولا سيما أثر كتاب « الصاحبي » لاحمد ابن فارس . وكان لكتب اعجاز القرآن والكتب التي تبحث في القرآن أثر في بلاغته أيضـا .

ولكن تأثره بمن سبق لم يكن تأثرا كبيرا ، وقد اتضح تأثره بعبد القاهر الجرجاني وضوحا كبيرا ولا سيما تأثره بكتابيه « اسرارالبلاغة» و « دلائل الاعجاز » . وكان لفخر الدين الرازي أثر فيه ، وكان كتابه « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » الخطوة الاولى في حصر قواعـد البلاغة وتبويبها . ولم تصل البلاغة الى ما وصلت اليه من جور على الروح الادبية واختصار موضوعاتها على يدي السكاكي الا بعد ان اختصر الرازي كتابي عبد القاهر وجردهما مما فيهما من تحليل ونقد ، وبذلك كان الرازي حلقة الوصل بين الجرجاني والسكاكي .

وكان لرشيد الدين الوطواط أثر جلي في كتاب « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » للرازي وكتاب « الايضاح » للمطرزي وكتاب «مفتاح العلوم » للسكاكي . وتكاد موضوعات هذه الكتب ــ ولا سـيما المحسنات ــ تكون صورة لاصل واحد هو كتاب « حدائق السحر » للوطواط .

ولا نستطيع أن نجزم بأن السكاكي تأثر برشيدالدين تأثرا مباشرا، فقد رأينا أن الرازي والمطرزي بحثـا المحسنات ولم يخرجا عمـا كتبه الوطواط ، ولكننا نستطيع أن نقول بان هناك علاقة واضحة بـين

الوطواط والرازي والمطرزي والسكاكي في المحسنات .

ولم يتأثر السكاكي بمعاصريه في بيئات أخرى كبيئة العراق والشام ومصر ، ولم يكن أي أثر لاسامة بن منقذ وضياءالدين بن الاثير في بلاغته . وبذلك يمكن القول بأن بيئة خوارزم التي انجبت السكاكي تكاد تكون منقطعة الصلة بالبيئات العربية ولا سيما في الدراسات البلاغية . فلقد كان للمشارقة منهج بلاغي خاص ، وكان لاهل العراق والشام ومصر اتجاه ثان يختلف عن الاتجاه الاول كل الاختلاف .

الفصل الثاني

جهوده في البلاغة

قبل البحث في جهود السكاكي ينبغي ان نشير الى الهدف الذي رمى اليه حينما ألف في البلاغة . أهو هدف ديني أم ادبي ؟ أم هو الاثنان معا ؟

وأول ما يصادفنا في كتاب « مفتاح العلوم » كلامه على أنواع الادب ، فهو يريد أن يعرض هذه الانواع منسقة مرتبة لتكون مفتاحا بيد الدارسين ، ولذلك يبدأ كتابه بعلوم الادب أو بعلوم اللغة العربية كما نسميها اليوم فيتكلم على الصرف والاشتقاق والنحو والمعاني والبيان والمحسنات المعنوية واللفظية والاستدلال وعلم العروض والقوافي ، ويرى ان هذه العلوم يأخذ بعضها برقاب بعض .

وهذا الهدف عام في كتابه ، اما الهدف الخاص من دراسة البلاغة فهو لا يعدو الهدف الذي درست البلاغة من أجله منذ نشأتها في مراحلها الاولى . وهذا الهدف يرمي الى غاية دينية هي التوصل الى معرفة اعجاز القرآن وسر جماله وروعته ، والى غاية ادبية تفيد ناقدي الادب ومنشئيه .

وهذان الهدفان هما اللذان نادى بهما أبو هلال العسكري في مقدمة « كتاب الصناعتين » ، ونادى بهما غيره من أعلام البلاغة .

فهل هدف السكاكي الى هاتين الغايتين وحدهما أو أراد أشياء أخرى ؟

يكرر السكاكي أن معرفة بلاغة القرآن وسحر اسلوبه لا يمكن ان تتم الا بمعرفة المعاني والبيان لان القرآن الكريم « لم يكتس تلك الطلاوة ولا استودع تلك الحلاوة ، وما اغدقت اسافله ولا اثمرت اعاليه ، وما كان يعلو ولا يعلى ، الا لانصبابه في تلك القوالب ولوروده على تلك الاساليب »[1] .

فدراسة البلاغة واجبة على كل من أراد تفهم القرآن أو تفسيره ، يقول : « الواقف على تمام مراد الحكيم ـ تعالى وتقدس ـ من كلامه ، مفتقر الى هذين العلمين كل الافتقار ، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل »[2] .

فمتى أتقن الانسان البلاغة وتفهمها استطاع التسلق الى العثور على السبب في انزال الله سبحانه وتعالى قرآنه المجيد على هذه المناهج . وان المفسر لاحوج ما يكون الى دراسة البلاغة اذ « لا علم في باب التفسير بعد علم الاصول اقرأ منهما ـ المعاني والبيان ـ على المرء لمراد الله تعالى من كلامه ، ولا أعون على تعاطي تأويل مشتبهاته ولا انفع في درك لطائف نكته واسراره ، ولا اكشف للقناع عن وجه اعجازه . هو الذي يوفي كلام رب العزة في البلاغة حقه ويصون له في مظان التأويل ماءه ورونقه . ولكم آية من آيات القرآن تراها قد ضيمت حقها واستلبت ماءها ورونقها ان وقعت الى من ليسوا من اهل هذا العلم فأخذوا بها في مآخذ مردودة وحملوها على محامل غير مقصودة

(١) مفتاح العلوم ص ٩٨
(٢) مفتاح العلوم ص ٧٧

وهم لا يدرون انهم لا يدرون • فتلك الآي من مآخذهم في عويل ومن محاملهم في ويل طويل • وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا »[1] •

فالهدف الديني واضح عند السكاكي ، فالمفسر لا يستطيع أن يتفهم الآي ويجيد التفسير ما لم يكن ملماً بالبلاغة واقفاً على اساليب العرب وطريقتهم في التعبير والاداء • ومن هنا جاء الاختلاف بين مفسر وآخر ، وفاق بعضهم بعضا • يضاف الى ذلك ان الواقف على تمام مراد الله في قرآنه مفتقر الى البلاغة ليستطيع التسلق بها الى فهم القرآن وادراكه ادراكا صحيحا •

وهناك هدف آخر رمى اليه السكاكي حينما كتب في البلاغة وهو هدف تعليمي ، فقد اراد أن يلم شتات البلاغة بعد أن وجدها متفرقة ، ويضع لها قواعد واصولا لتكون عونا للدارسين ولمن يريد فهم موازين الكلام ، لان البلاغة بمرجعيها ــ المعاني والبيان ــ وان الفصاحة بنوعيها ــ المعنوية واللفظية ــ مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين[2] •

فالهدف التعليمي او الغاية الادبية هي التي دفعته الى جمع شتات مسائل البلاغة وتبويبها تبويبا جديدا •

هاتان هما الغايتان اللتان سعى السكاكي اليهما ، ولكن ماذا عمل في البلاغة وما جهوده فيها ؟

لقد أشار الى جهوده وعمله مرارا ويمكن تلخيص ذلك في أنّه يريد أن يلخص ما عند السلف ويخلصه مما وقع فيه من حشو ويرتب أبواب البلاغة ومسائلها ترتيبا جديدا ، ويريد تقييد أوابد فوائد البلاغيين المتقدمين وتقرير اعمالهم تقريرا يميط اللثام عن وجوه فوائدهم ، وذكر آرائهم مقرونة بآرائه ، ووضع قواعد ثابتة للبلاغة وذكر امثلة

(١) مفتاح العلوم ص ١٩٩
(٢) مفتاح العلوم ص ٢٠٠

يقيس عليها الدارسون مع وضع حجج وبراهين تدعم بحوث البلاغة .

وهذه الدعوى واضحة جليـــة في مواضع كثيرة من « مفتاح العلوم »[1] ، ولكنه أسرف في الأدعاء فليس علم البلاغـة كما صوره بقوله : « اين الذي مهد له قواعد ورتب له شواهد وبيَّن له حـدودا يرجع اليها ، وعيَّن له رسوما يعرج عليها ووضـع له أصولا وقوانين وجمع حججا وبراهين وشمر لضبط متفرقاتـه ذيلـه واستنهض في استخلاصها من الايدي رجله وخيله ؟ »[2] .

لقد خدمت البلاغة قبله خدمة عظيمة وان لم تكن على طريقتـه ومنهجه ، وما عمل العسكري وعبدالقاهر وابن سنان وغيرهم بالعمل الهين . ولكن السكاكي ينظر الى اعمـال السلف نظرة تختلف عن نظراتهم ، فالقدماء بحثوا البلاغة بحثا فيه روح ادبية وفيه ما يشجع على دراسـتها ، أما السكاكي فقد بحثها باسلوب وجـد التقنين اليه سبيله وحظي المنطق فيه بنصيب كبير حتى بلغت المدرسة المشرقية المعتمدة على المنطق وعلم الكلام قمتها بظهور « مفتاح العلوم » .

ولكي نرى مدى صحة ادعائه نتتبع بلاغته لنرى جهوده وما قدم للبلاغة من جديد أو طريف .

---

(١) ينظر مفتاح العلوم ص ١٤٥ ، ١٧١ - ١٧٢ ، ١٩٥ ، ١٩٩ - ٢٠٠ .
(٢) مفتاح العلوم ص ١٩٩ .

بلاغة القرآن واعجازه

نزل القرآن الكريم فكان حجة بلاغية تحدى العرب بل الأنس والجن على أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . وكان العرب يسمعونه فيخرون لروعته وجماله ساجدين ويتأثرون به تأثرا شديدا ، حتى ان الوليد بن المغيرة قال وقد سمع محمدا (ص) يتلو آيات القرآن: « والله ان لقوله لحلاوة ، وان اصله لعذق وان فرعه لجناة »(١) . وشغل الناس بالقرآن واخذوا يتدارسونه ويتسابقون في خدمته بحثا وتأليفا ، فهو كتابهم الذي اخرجهم من الظلمات الى النور .

وكان للقرآن الكريم أثر كبير في نشأة البلاغة وتطورها الى جانب أثره العظيم في حياة العرب والمسلمين العقلية ، فقد أخذ العرب بعد نزوله ، وبعد ان اتصلوا بغيرهم من الاقوام والامم يؤلفون ويبحثون في مختلف الميادين العلمية ، وكان القرآن قد شغلهم كثيرا ووقفوا عنده طويلا يبحثون في معانيه واحكامه ومجازه ، ومتشابهه ونظمه واعجازه، فنشأت من ذلك الدراسات القرآنية التي كان لها اتصال وثيق ببحوث النقد والبلاغة .

ويمكن القول ان الغرض الديني وهو خدمة القرآن ، كان مدعاة الى ظهور البحث البلاغي،فقد ارتبطت دراسة البلاغة بدراسات القرآن، ومن أجل ذلك نرى شيخ المعتزلة عمرو بن عبيد (١٤٤ هـ) يجيب وقد سئل عن البلاغة قائلا ، وهي : « ما بلغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك»(٢) .

(١) ينظر كتاب سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٨٩ .
(٢) البيان والتبيين ج١ ص ١١٤ . والعقد الفريد لابن عبد ربه ج١ ص ٢٨٥

وكان لمسألة الاعجاز أثر في تطور البلاغة العربية ، وشغلت هذه المسألة العلماء فأخذوا يبحثون ويؤلفون الكتب فيها « فكان أهم الدواعي التي دعت الى الكلام في البيان العربي الدفاع عن القرآن ضد الذين تصدوا لانكار اعجازه وجحدوا بلوغه المنزلة العليا من منازل الكلام ، والذين ذهبوا الى أن في كلام العرب ما يشبهه أو يدانيه ، والى أنه كان في العرب من يستطيعون معارضته والاتيان بمثله لان حروفه كحروفهم ، والفاظه من جنس الفاظهم »[1] .

فما السر في هذا الاعجاز ، وما الحكمة في قوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »[2] ؟

لابد أن يكون في الامر سر ، فما هذا السر ؟

لقد أخذوا يبحثون في بلاغة القرآن واعجازه ، وكان المتكلمون أول من بحثوا في اعجازه وبلاغته فقالت المعتزلة ــ الا النظام وهشاما الفوطي وعباد بن سليمان ــ : « تأليف القرآن ونظمه معجز محال وقوعه منهم كاستحالة احياء الموتى منهم وانه علم لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال النظام : الآية والاعجوبة في القرآن ما فيه من الاخبار عن الغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم .

وقال هشام وعباد : لا نقول ان شيئا من الاعراض يدل على الله سبحانه وتعالى ولا نقول ايضا ان عرضا يدل على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم .

ولم يجعلا القرآن علما للنبي صلى الله عليه وسلم ، وزعما أن

(١) ينظر البيان العربي للدكتور بدوي طبانة ص ١٤ .
(٢) سورة الاسراء ، الآية ٨٨ .

القرآن اعراض »[1] .

فللمعتزلة في اعجاز القرآن رأيان : الاول انه معجز بنظمه ، والآخر انه معجز بالصرفة .

وبقي الباحثون يدورون حول هذين الرأيين ، ولكن الجاحظ أحد رجال المعتزلة ورأس فرقة اعتزالية هي الجاحظية ، يرى وجهين للاعجاز:

احدهما : ان القرآن معجز بنظمه وتأليفه .

والثاني : ان الله صرف الناس عن ان يعارضوا هـــذا الاعجاز القرآني[2] .

ومضت دراسة الاعجاز على هذا الوجه وأخذ الناس يؤلفون في هذه المسألة مبينين وجهة نظرهم فكتب ابو عبدالله محمد بن يزيـــد الواسطي (٣٠٦ هـ) كتابا في اعجاز القرآن . ولا ندري ما الفكرة التي بنى عليها كتابه ، وما الذي ذهب اليه لان الكتاب لم يصلنا ، ولكن المرحوم مصطفى صادق الرافعي يقول : « ولا نظن الواسطي بنى الا على ما ابتدأه الجاحظ »[3] .

وهذا كلام لا يمكن التسليم به ، وما هو الا تكهنات لا تثبت في مجال البحث .

ويرى أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (٣٨٦ هـ) أن القرآن معجز ببلاغته ، وهو أعلى طبقات الكلام ، والبلاغة عنده ايصال المعنى الى القلب في أحسن صورة من اللفظ ، واعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كاعجاز الشعر المفحم . فهذا معجز للمفحم خاصة

---

(١) مقالات الاسلاميين للاشعري ج١ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦

(٢) ينظر كتاب منهج الزمخشري في تفسير القرآن ص ٢٠٦ .

(٣) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ١٥٣

كما ان ذلك معجز للكافة[1] .

ويرى حمد بن ابراهيم بن خطاب البستي (٣٨٨ هـ) أن بلاغة القرآن ترجع الى جمال ألفاظه وحسن نظمه وسمو معانيه وتأثيره في النفوس . يقول : « واعلم ان القرآن انما صار معجزا لانه جاء بافصح الالفاظ في احسن نظوم التأليف مضمنا اصح المعاني »[2] .وأشار الى تأثير القرآن في النفوس فقال : « قلت في اعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه الا الشاذ من آحادهم وذلك صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس »[3] .

فله في الاعجاز رأيان : الاول : مجيء القرآن بافصح الالفاظ واحسن النظم . والثاني : تأثيره في النفوس .

ويرى أبو بكر محمد بن الطيب المعروف بالباقلاني (٤٠٣ هـ) أن القرآن معجز لانه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ، ولذلك يرى ان البديع ليس من الاسباب التي يعلل بها الاعجاز .

يقول : « لا سبيل الى معرفة اعجاز القرآن من البديع الذي ادعوه في الشعر ووصفوه فيه ، وذلك ان هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن العرف ، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به والتصنع له كقول الشعر ورصف الخطب وصناعة الرسالة والحذق في البلاغة »[4] .

وبذلك يرى أن القرآن معجز باسلوبه ونظمه البديع والفاظه ، وبأثره في النفوس ، لا بما فيه من محسنات بلاغية .

وعاد عبدالله بن محمد بن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ) الى ما قاله النظام في الاعجاز ، وقرر أن وجه الاعجاز صرف العرب عن معارضة القرآن بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت

---

(١) النكت في اعجاز القرآن ـ ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ص ٦٩ .
(٢) بيان اعجاز القرآن ـ ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ص ٢٤
(٣) بيان اعجاز القرآن ص ٦٤ .
(٤) اعجاز القرآن ص ١٦٨ .

مرامهم ذلك . يقول : « إن الصحيح ان وجه الاعجاز في القرآن هو صرف العرب عن معارضته ، وان فصاحته قد كانت في مقدورهم لولا الصرف . وهذا هو المذهب الذي يعول عليه أهل هذه الصناعة وارباب هذا العلم »[1] . ولكنه يرى أن القائل بالصرف يحتاج الى تحقق الفصاحة ليعرف ما هي ، ليقطع بانها كانت في مقدورهم ومن جنس فصاحتهم . وبنى على هذا ان لا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضية ، ومتى رجع الانسان الى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه[2] .

فللخفاجي في الاعجاز رأيان : الاول : انه خرق العادة بفصاحته التي وقع التزايد فيها موقعا خرج عن مقدور البشر ، ولكنه جعل القرآن طبقات في الفصاحة اذ أن بعضه افصح من بعض .

والآخر : الصرفة .

وكان عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ أو ٤٧٤ هـ) من أشهر الذين بحثوا في الاعجاز ، وقد ألّف «الرسالةالشافية»،تناولفيها بعض نواح من فكرة الاعجاز ولكنه بحث هذه المسألة بالتفصيل في كتابه « دلائل الاعجاز » .

ويرى أن القرآن معجز بفصاحته ولكنه يفسر هذا تفسيرا خاصا ، فالاعجازلا يرجع الى وجود الاستعارات والتشبيهات والكناياتوارسال المثل والجناس والتورية وكل انواع الصناعة اللفظية لان معنى هذا ان الآية التي ليس فيها أحد هذه النكت البلاغية لا تكون بليغة معجزة . والاعجاز عنده يعود الى تلاؤم المعاني في الكلمات المفردة تلاؤما يساعد

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٦٥ وتنظر ص ١١٠ أيضا .
(٢) ينظر سر الفصاحة ص ١١٠ .

على أداء المعنى العام • يقول : « فالالفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة ، وانما تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها وما اشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ »[١] • وهذا ما سماه بالنظم •

وعلى هذا فالاعجاز عنده في النظم والتأليف ولكنه يرى ان ادراك هذين الامرين يرجع الى الذوق والاحساس الروحاني وكثرة الاطلاع على كلام العرب[٢] •

ويرى جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨ هـ) أن القرآن معجز من جهتين : من جهة ما فيه من الاخبار عن الغيوب ، ومن جهة نظمه • والنظم عنده أم الاعجاز والقانون الذي وقع عليه التحدي ومراعاته اهم ما يجب على المفسر[٣] ، وهو بذلك يتابع عبد القاهر • ولكي يوضح هذا النظم طبق قوانين البلاغة على القرآن الكريم ، ورأى ان المفسر لا يمكن ان يغوص على معانيه ما لم يكن بارعا في علمين مختصين به هما : علم المعاني ، وعلم البيان •

ويرى فخرالدين محمد بن عمر الرازي (٦٠٦ هـ) معاصر السكاكي ان اعجاز القرآن وبلاغته راجعان الى الفصاحة التي يشتمل عليها نظمه وبدائعه[٤] •

☆ ☆

هذه أهم آراء العلماء في اعجاز القرآن،وعندما جاء السكاكي وجد البحث في هذه المسألة قد نضج أو كاد • وقد استعرض مذاهب العلماء في الاعجاز فوجدها أربعة :

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٨
(٢) ينظر دلائل الاعجاز ص ٢٩٩ وما بعدها .
(٣) ينظر الكشاف ج١ ص ٧٧ وكتاب منهج الزمخشري في تفسير القرآن ص ٢١٨
(٤) ينظر كتاب نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ص ٧ .

فمنهم من يقول : وجه الاعجاز هو انه عز سلطانه صرف المتحدين لمعارضة القرآن عن الاتيان بمثله بمشيئته لا انها لم تكن مقدورا عليها فيما بينهم في نفس الامر •

ورد على هذا الرأي قائلا : «لكن لازم هذا القول كون المصروفين عن الاتيان بالمعارضة على التعجب عن تعذر المعارضة لا من نظم القرآن مثله اذا قال لك مدع شيئا:حجتي في دعواي هذا اني اضع الساعة يدي على نحري • ويتعذر ذلك عليك ، ووجدت حجته صادقة فان التعجب في ذلك يكون منصرفا الى تعذر وضع يدك على النحر لا الى وضع المدعي يده على نحره • واللازم كما ليس يخفى منتف » •

ومنهم من يقول : وجه الاعجاز وروده على أسلوب مبتدأ مباين لاساليب كلامهم في خطبهم واشعارهم لاسيما في مطالع السور ومقاطع الآي مثل : « يؤمنون » و « يعملون » •

ويرد على هذا قائلا : « لكن ابتداء اسلوب لو كان يستلزم تعذر الاتيان بالمثل لاستلزم ابتداء اسلوب الخطبة او الشعر اذ لا شبهة في انهما مبتدآت تعذر الاتيان بالمثل • واللازم كما ترى منتف » •

ومنهم من يقول : وجه اعجازه سلامته من التناقض •

ويرد عليه قائلا : « لكنه يستلزم قصر التحدي على السور المشتملة على الغيوب دون ما سواها • واللازم بالاجماع ايضا منتف »[1] •

وهذا الرد الذي ذكره السكاكي لم يكن وليد تفكيره ، فقد رأينا في الفصل السابق أثر الرازي فيه ولا سيما في هذه المسألة وكيف نقل هذه الوجوه الاربعة عن كتابه « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » •

---

(١) مفتاح العلوم ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣

ولكن السكاكي يؤمن ايمانا قويا باعجاز القرآن وبلاغته ويرى أن كل كلمة فيه تحتوي على لطائف « ولامر ما تلي على من كانوا النهاية في فصاحة البشر وبلاغة اهل الوبر منهم والمدر ـ« وان كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله »[1] ـفما احاروا ببنت شفة ولا صدروا هنالك عن موصوف ولا صفة »[2] .

وأخرس القرآن المصاقع حتى اعرضوا عن المعارضة بالحروف الى المقاتلة بالسنان بغيا منهم وحسدا وعنادا ولددا .

فما رأي السكاكي في الاعجاز ما دام قد رفض الآراء الاربعة المتقدمة ؟

لقد أورد وجها خامسا في الاعجاز رآه أحسن الآراء وخير الوجوه، يقول بعد ان انتهى من ذكر الوجوه الاربعة المتقدمة : « فهذه أقوال أربعة يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الاعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة . ولا طريق لك الى هذا الخامس الا طول خدمة هذين العلمين ـ المعاني والبيان ـ بعد فضل إلهي من هبة يهبها بحكمته من يشاء . وهي النفس المستعدة لذلك ، فكل ميسر لما خلق له ، ولا استبعاد في انكار هذا الوجه ممن ليس معه ما يطلع عليه ، فلكم سحبنا الذيل في انكاره ثم ضممنا الذيل ما ان ننكره . فله الشكر على جزيل ما أولى ، وله الحمد في الآخرة والاولى »[3] .

ولكن كيف يُوصل الى معرفة الاعجاز ؟

يرى أنه لا طريق الى هذا الا طول خدمة علمي المعاني والبيان مع ذوق واستعداد روحاني يهبهما الله بحكمته من يشاء . والبلاغة هي الطريق الموصل الى معرفة الاعجاز ، وبغيرها لا يمكن التوصل الى فهم أسرار

---

(1) سورة البقرة ، الآية ٢٣ .
(2) مفتاح العلوم ص ١٣٧
(3) مفتاح العلوم ص ٢٤٣

القرآن وتذوق روعته وجماله . ولاجل هذا اهتم بالـكلام في علمي المعاني والبيان وبحث فيهما . يقول : « انا ما سطرنا ما سطرنا ، الا وجل الغرض توخي ايقاظك مما انت فيه من رقدة غبائك عن ضروب افتنانات في النسج لجيد الكلام على منوال الفصاحة وابداع وشيه بتصاوير عن كمال التأنق في ذلك اشدادا والجاما عسى ان استيقظت أن يضرب لك بسهم حيث ينص الاعجاز للبصيرة تليله ويقص على المذاق دقيقه وجليله فتنخرط في سلك المنقول عنهم في حق كلام رب العزة « ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان اسفله لمغدق وان اعلاه لمثمر وانه يعلو وما يعلى وما هو بكلام البشر »[1] .

لقد ربط السكاكي بين معرفة البلاغة والوصول الى اعجاز القرآن ولهذا ذكر أن للبلاغة طرفين : أعلى وأسفل . وهما متباينان تباينا لا يتراءى له ناراهما وبينهما مراتب تكاد تفوت الحصر متفاوتة .فمن الاسفل تبتديء البلاغة وهو القدر الذي اذا نقص منه شيء التحق ذلك الكلام باصوات الحيوانات ، ثم تأخذ في التزايد متصاعدة الى أن تبلغ حد الاعجاز وهو الطرف الاعلى وما يقرب منه[2] .

ولكن كيف يعلل ادراك الاعجاز ؟

يرى أن شأن الاعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة ، يقول : « ومدرك الاعجاز عندي هو الذوق ليس الا . وطريق اكتساب الذوق خدمة هذين العلمين ــ يقصد المعاني والبيان ــ . نعم للبلاغة وجوه ملتثمة ربما تيسرت اماطة اللثام عنها لتجلى عليك أما نفس وجه الاعجاز فلا »[3] .

وبذلك يرد على الذين يقولون بان الاعجاز يعلل ، ويرفض القول

---

(١) مفتاح العلوم ص ٢٤٢
(٢) مفتاح العلوم ص ١٩٦
(٣) مفتاح العلوم ص ١٩٦

بامكان وصفه وبيان وجهه . يقول الاستاذ أمين الخولي : « ان القول بالتعليل وبيان الاوجه ليس الا الرأي القائل والمذهب الزائف، وان شاع وساد عند المتأخرين . ومما نغتبط له ان الذي يبين فساده ويحمل على أصحابه انما هو بطل من ابطال البلاغة القديمة وفارس مقدم في ميدانها هو الامام السكاكي ـ رحمه الله ـ فقد رفض القول بامكان تعليل الاعجاز وبيان وجهه ونكب عن هذه الطريقة »[1] . ويرى أن رأي السكاكي هو الرأي الصائب الذي ينبغي الاخذ به وقد آثره ولا يزال يؤثره حتى اليوم .

وبذلك تكون معرفة الاعجاز تكوين الذوق الفني والممارسة الادبية على ما تقضي به أصول التربية الفنية الصحيحة . وهذه نظرة عجيبة من السكاكي الذي امعن في الفلسفة والتعليلات المنطقية .

ويرى الدكتور حفني محمد شرف ان السكاكي ممعن في الفلسفة في هذا القول وان الروح الفلسفية والعقلية تغلب عليه[2] . ولا ندري أي إمعان في الفلسفة يفهم من قول السكاكي في شأن الاعجاز . انه يرى ان الاعجاز لا يعلل ولا يمكن تعليله ، وان سبيل إدراكه الذوق الذي يربيه التزود بالبلاغة وتفهم مراميها ومقاصدها . وتعليله هذا تعليل الادباء الذين يرون أن جمال الكلام يمكن تعليله حينا ، ولا يمكن تعليله في كثير من الاحيان كالملاحة وغيرها من الامور التي يحس بها الانسان ويمتلئ قلبه بها نشوة وارتياحا ولكنه لا يجد الى تعليل ذلك الشعور سبيلا .

ولكي يبرهن السكاكي على اعجاز القرآن وسحره وروعته، يحلل بعض آيات من القرآن الكريم، مبينا ما فيها من مسائل البلاغة وقضاياها التي يتميز بها كتاب الله . ومقياسه في تحليل الآيات علم البلاغة بقسميها المعاني والبيان ، والفصاحة بنوعيها المعنوية واللفظية ، يضاف

(١) البلاغة العربية واثر الفلسفة فيها ص ٥١ .
(٢) تنظر مقدمة كتاب بديع القرآن تحقيق محمد حفني شرف ص ٤٣ .

الى ذلك الذوق الذي لا يمكن بدونه فهم روعة القرآن وسر اعجازه .

وقد أثرت نظرة السكاكي هذه فيمن جاء بعده فنقل السيوطي رأيه في الاعجاز ضمن الآراء التي جمعها في كتابه «الاتقان في علوم القرآن»[1] وآثرها الاستاذ امين الخولي كما رأينا[2] . وأيد السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني مذهب السكاكي وان لم يشر اليه ، وهو يميل الى اعجاز القرآن البلاغي ولكن ليست هذه البلاغة التي نعرفها وانما هي بلاغة معنوية ، وهي بحر لا قرار له ولا ساحل ، والبلاغة عنده من الذوقيات التي تدرك ولا توصف كالملاحة والحسن . وليس هذا الكلام الا كلام السكاكي كما تقدم[3] .

واننا نميل مع هؤلاء الى الاخذ برأي السكاكي في بيان اعجاز القرآن وادراكه لان القول بأن الاعجاز يعلل لا يحقق الغرض الديني ولا البلاغي من ادراك الاعجاز .

ولم يكتف السكاكي بهذا الرأي في الاعجاز ولم يقف عند هذا الحد بل اعتبر من تتمة الغرض من علمي المعاني والبيان دفع المطاعن عن القرآن الكريم ، ولأجل هذا عقد فنا في نهاية « مفتاح العلوم » بعنوان « ارشاد الضلال بدفع ما يطعنون به في كلام رب العزة » ، رد فيه على الطاعنين الذين لم يجدوا أكثرهم في العير ولا في النفير ولا يعرفون قبيلا من دبير . هؤلاء الطاعنون تجردوا من كل علم ومعرفة ، وأنّى لمن ليس له قدم راسخة في العلوم المختلفة كالصرف والاشتقاق والنحو والبلاغة ، والمنطق وغيرها من العلوم الادبية والدينية ان يفهم القرآن ويغوص على جواهره ؟

ويرى ان هؤلاء الطاعنين رجال ليس لهم علم ومعرفة،فهم لا اتقان

---

(1) ينظر كتاب الاتقان ج٢ ص ١٢٠ .
(2) تنظر مقالة البلاغة وعلم النفس ص ١٦٧ .
(3) ينظر كتاب المعجزة الخالدة ص ٥١ – ٥٢ .

لحجة ، ولا تقرير لشبهة ، ولا عثور على دقيقة ، ولا اطلاع على شيء من اسرار . ورد على الطاعنين ردا عنيفا وفند آراءهم . وأهم المطاعن التي وجهها الملاحدة ورد عليها هي وجود كلمات اجنبية في القرآن ووجود اختلاف فيه عما عليه قواعد النحو العربي وان فيه اعادة المعنى وانه معيب لما فيه من التكرار وان بعضه يكذب بعضا ، وان فيه كذبا وان فيه شعرا من جميع البحور[1] .

هذه هي المطاعن التي وجهها الملاحدة الجاهلون الى القرآن ،وقد رد عليها السكاكي ردا مقنعا وفندها واحدة واحدة ، وبذلك أدى خدمة عظيمة للقرآن والاسلام .

لقد كرس جهوده لتوضيح حقيقة الاعجاز وما في القرآن من جمال ومن أجل هذا خاض غمار دراسة البلاغة وغيرها من علوم اللغة العربية ليستطيع أن يبين هذا السر والاعجاز في كتاب الله ، وليرد على الطاعنين الذين أكل الحقد قلوبهم .

ان السكاكي قد وفى بوعده في الدفاع عن القرآن واظهار مزاياه الرائعة وكان في عمله هذا من الاعلام الذين تربصوا لاعداء الاسلام وردوا كيدهم الى نحورهم . ولكن الشيء الذي ينقصه في كتاباته هو حسن العبارة والتحليل الادبي الذي نراه في كتب عبد القاهر الجرجاني. ومع هذا فلا يمكن أن يغمط حقه ، فقد رفع لواء الاسلام في تلك المنطقة البعيدة عن قلب جزيرة العرب ، واستطاع أن يدافع عن كتاب الله دفاعا يشهد له على مقدرته في الجدل وفهم الامور .

وقد صدق من قال : « لولا الاعرجان لذهبت بلاغة القرآن » والاعرجان هما الزمخشري والسكاكي .

---

(١) مفتاح العلوم ص ٢٧٤ وما بعدها .

التقسيم والتبويب

نشأت البلاغة مسائل متفرقة في كتب التفسير الاولى وفي كتب الجاحظ ثم اخذت تتطور شيئا فشيئا حتى صارت على يدي عبد القاهر مرتبة مبوبة ، ولكنها بقيت تنتظر الخطوة الاخيرة فجاء السكاكي ومخض زبدتها وهذب مسائلها ورتب أبوابها فأخذت على يديه الترتيب النهائي والشكل الاخير . ولم يزد من جاء بعده عليها الا بعض المسائل التي لا قيمة لها ولا فائدة فيها ، والا انواعا من البديع اللفظي الذي أصبح الاكثار منه والتلاعب به في الكلام من مزايا ادباء العصور التي تلت السكاكي في الفترة المظلمة وما بعدهامن عصور التأخر والانحطاط .

فالسكاكي أول من بوب البلاغة وقسمها الى أقسامها الثلاثة : المعاني والبيان والمحسنات أو البديع ، واستطاع بعقليته الفلسفية والمنطقية ان يمحص مسائلها ويرتبها . وهو أول من ادخل علم المعاني في البلاغة على الوجه الذي نراه في « مفتاح العلوم » ، فقد كانت مسائل المعاني من تقديم وتأخير ، وحذف وذكر ، وفصل ووصل ، تبحث في كتب المتقدمين باسلوب ادبي ليس فيه تقسيم منطقي وليس فيه تحديد . وعندما ظهر عبد القاهر الجرجاني واعلن نظرية النظم — التي لم تكن الا توخي معاني النحو — أخذت تظهر لاول مرة في البلاغة بحوث مفصلة مرتبة في التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والفصل والوصل وغيرها . ولكن الشيخ عبد القاهر لم يبحثها بعقلية السكاكي وان كان قد فلسف البلاغة ، وانما بحثها بحثا كان فيه للذوق الادبي والتحليل والنقد نصيب كبير .

أما السكاكي فقد أبى إلا أن يجعل مباحث «توخي معاني النحو» أو « النظم » قسما من البلاغة سماه « علم المعاني » وحصره بقوله : « اعلم أن علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره » .

أما الموضوعات التي رتبها عبد القاهر وكان يطلق عليها «البديع» مرة و «البيان» تارةاخرى فقد أدخلها السكاكي في علم البيان وحصرها حصرا منطقيا ــ يعتمد على الدلالات العقلية ــ بقوله : « اما علم البيان فهو معرفة ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة فيوضوح الدلالة عليه وبالنقصان ، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ فيمطابقة الكلام لتمام المراد منه » .

هذه هي البلاغة عند السكاكي : معان وبيان ، اما القسم الثالث الذي أطلق عليه بدرالدين بن مالك اسم البديع وتابعه في ذلك الخطيب القزويني فلم يعتبره مرجعا للبلاغة كالاولين وانما هو «وجوهمخصوصة كثيرا ما يصار اليها لقصد تحسين الكلام »[1] ، وقسم المحسنات الى قسمين : قسم يرجع الى المعنى ، وثان يرجع الى اللفظ . ولا نعرف أحدا قبله قسم الفصاحة الى لفظية ومعنوية الا ابن سنان الخفاجي فقد تكلم على الالوان البديعية التي تنشأ من وضع الالفاظ في مواضعها ، والانواع التي تأتي من مناسبة الالفاظ للمعاني . يقول الدكتور حفني محمد شرف : « ان ما فعله ابن سنان من التفرقة بين اللفظي والمعنوي كان من اهم الدعائم التي بنى عليها المتأخرون تقسيمهم الالوانالبديعية الى لفظية ومعنوية »[2] .

ولكن ابن سنان في الواقع لم يقصد بالبديع ما اصطلح عليه

---

(١) مفتاح العلوم ص ٢٠٠

(٢) مقدمة بديع القرآن لابن ابي الاصبع المصري ص ٢٥

المتأخرون ، فقد كانت الالوان البديعية التي تنشأ من وضع الالفاظ في مواضعها عنده تشمل الاستعارة ، والتوشيح ، وحسن الكناية ، والمناسبة بين الالفاظ ، والسجع ، والازدواج ، والترصيع ، واللف والنشر ، والجناس . وكانت الالوان التي تأتي من مناسبة الالفاظ للمعاني تشمل الطباق ، والتبديل والايجاز ، والاختصار ، وحذف الفضول ، والتمثيل ، وصحة التشبيه ، وصحة المقابلة في المعاني ، وصحة التناسق والنظم ، وصحة التفسير ، وكمال المعنى ، والمبالغة ، والغلو ، والتحرز مما يوجب الطعن ، والاستدلال بالتعليل .

فابن سنان لم ينظر اليها نظرة السكاكي ، وهذه الانواع التي ذكرناها ، منها ما يدخل في علم المعاني ، ومنها ما يدخل في علم البيان ، ومنها ما يدخل في علم البديع أو المحسنات عند السكاكي . وبذلك لا يمكن القول ان ابن سنان قسم المحسنات الى لفظية ومعنوية ، وان السكاكي تابعه في ذلك ، ولكن يمكن القول ان السكاكي قد استوحى فكرة التقسيم هذه ، او انه استفاد منها فطبقها على المحسنات فيما اذا كان مطلعا على كتاب «سر الفصاحة» اما ان يقال انه اخذها عن ابن سنان وتابعه في التقسيم ، فهذا ما لا يمكن الاخذ به .

وعلى ذلك فالسكاكي يظل أول من قسم البلاغة الى معان وبيان ومحسنات أو بديع . ولكن هل نجح في ادخال معاني النحو في البلاغة؟

لقد كان عبد القاهر الجرجاني احسن من بحث موضوعات التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والفصل والوصل ، والقصر وغيرها ، وكان بحثه شيقا ممتعا ، فيه روح ادبية تنبض بالحياة وفيه جمال وسحر أخاذ . وقد استطاع ان يكشف عن المعاني الخاصة التي يؤديها التقديم والتأخير وغيرهما من موضوعات « علم المعاني » بعد صحة التركيب النحوي . ولكن السكاكي بحث هذه الموضوعات بعقلية نحوية صرفة ، ولم يلتفت الى ما في هذه الاساليب من معان مختلفة التفاتا كبيرا .

وليس ادل على عقليته النحوية من جعله ركني الجملة ــ المسند والمسند اليه ــ أساسا لبحث موضوعات علم المعاني مع ان عبد القاهر ــ وهو النحوي أيضا ــ لم يتبع هذا المنهج ولم يجعل ركني الجملة أساسا للبحث فيها •

واول ما يلاحظ الباحث أن الصلة بين النحو والمعاني وثيقة عند السكاكي ولا تكاد تخرج بحوثه عن دائرة البحث النحوي وان اشار الى بعض المعاني التي يؤديها التركيب مما لا نجده عند النحويين المتأخرين الذين نظروا الى النحو نظرة تتعلق بالاعراب •

ويشير السكاكي منذ البداية الى الصلة الوثيقة بين المعاني والنحو، فهو كثيرا ما يذكر انه سيفصّل في بعض الامور اذا ما وصل الى بحث علم المعاني ، وكثيرا ما يكرر مثل هـذه العبارات وهو يبحث في النحو : « وسيطلعك على أمثال هذه المعاني علم المعاني » او « وبسط الكلام في معاني هذه الاسماء موضعه علم المعاني » وغيرها من العبارات التي يحيل فيها القاريء الى علم المعاني •

ان السكاكي ليحس بالصلة الوثيقة بين النحو والمعاني ، وان كلا منهما مرتبط بالآخر ارتباطا قويا ، ولكن لماذا فصل المعاني عن النحو ما دام يشعر بهذا الارتباط ، وما دام قد فهم النحو فهما لا يختلف كثيرا عما نريده اليوم ؟

لقد كان النحو عنده الاحتراز عن الخطأ في التركيب من حيث التقديم والتأخير ورعاية ما يكون من الهيئات بين الكلام ، يقول في تعريفه: « اعلم ان علم النحو هو ان تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية اصل المعنى مطلقا بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب وقوانين مبنية عليها ليحترز بها عن الخطأ في التركيب من حيث تلك الكيفية • واعني بكيفية التركيب تقديم بعض الكلم على بعض ورعاية

ما يكون من الهيئات اذ ذاك • وبالكلم نوعها وما هي في حكمها»[1] • وهذا التعريف للنحو يكاد يكون قريبا من تعريف عبد القاهر لمعاني النحو ، ولا يختلف الجرجاني عنه الا بالاطالة والشرح والتحليل •

لقد تجاوز السكاكي بهذا التعريف الاعراب الى غيره من القواعد العربية كالتقديم والتأخير وما يحدث في الجمل عند نظمها وتراكيبها ، ولم يقف عند النحو كما وقف عنده المتأخرون فقالوا عنه بانه العلم الذي يعرف به احوال الكلم اعرابا وبناء ، فكانت غاية النحو عندهم بيان الاعراب وتفصيل أحكامه • وهذه نظرة طيبة من السكاكي في معنى النحو وتحديده •

ومما يثير تساؤل الباحث أنه ما دام قد فهم السكاكي النحو هذا الفهم الذي يتفق وغاية النحو بمعناه الواسع ، فلماذا أزهق روح النحو بفصله الى قسمين : قسم ادخله في النحو ، وآخر تكلم عليه في علم المعاني ؟

او وقف السكاكي عند النحو مبينا اعرابه وترتيبه وما يحصل من معان عند التركيب والنظم لكان خيرا لنا وله ، ولافاد اللغة العربية ـ ولا سيما النحو ـ فائدة كبيرة كما أفاد الشيخ عبد القاهر • ولو عالج الفنون التي سماها « علم المعاني » باسلوب ادبي واكتفى بذكر النكت البلاغية التي تحدث من التقديم أو التأخير، والحذف أو الذكر ،والفصل أو الوصل وغيرها لكان اجدى واكثر نفعا ، ولكنه اضطرب بين النحو والمعاني وسيطرت على تفكيره النزعة النحوية المحضة فجاءت مباحثه جامدة ليس فيها من الروعة الا اليسير •

ونستطيع أن نقول انه عالج موضوعات علم المعاني كما عالج موضوعات النحو أو كما عالجها غيره من النحاة • ولتوضيح ذلك نورد امثلة تدعم ما نذهب اليه ، يقول متحدثا عن حذف مفعول الفعل :

---

(١) مفتاح العلوم ص ٣٧ •

« واما الحالة المقتضية لترك مفعوله فهو القصد الى التعميم والامتناع عن أن يقصره السامع على ما يذكر معه دون غيره مع الاختصار ، وانه احد انواع سحر الكلام حيث يتوصل بتقليل اللفظ الى تكثير المعنى كقولهم في باب المبالغة : « فلان يعطى ويمنع ويصل ويقطع ويبني ويهدم ويغني ويعدم » وقوله عز قائلا : « والله يدعو الى دار السلام »[١] . أو القصد الى نفس الفعل بتنزيل المتعدي منزلة اللازم ذهابا في نحو « فلان يعطي » الى معنى « يفعل الاعطاء » . ويوجد هذه الحقيقة ايهاما للمبالغة بالطريق المذكور في افادة اللام للاستغراق »[٢] .

وقال ابن هشام النحوي في الموضوع نفسه : « جرت عادة النحويين ان يقولوا : يحذف المفعول اختصارا واقتصارا . ويريدون بالاختصار الحذف لدليل ، وبالاقتصار الحذف لغير دليل . ويمثلونه بنحو « كلوا واشربوا » أي اوقعوا هذين الفعلين . وقول العرب فيما يتعدى الى اثنين « من يسمع يخل » أي تكن منه خيلة .

والتحقيق أن يقال : انه تارة يتعلق الغرض بالاعلام بمجرد وقوع الفعل من غير تعيين من اوقعه او من اوقع عليه فيجاء بمصدره مسندا الى فعل كون عام فيقال : « حصل حريق او نهب » .

وتارة يتعلق بالاعلام بمجرد ايقاع الفاعل للفعل فيقتصر عليهما ولا يذكر المفعول ولا ينوى »[٣] .

هذان نصان عن حذف مفعول الفعل ، الاول يمثل وجهة البلاغي ، والثاني يمثل وجهة النحوي . ويتضح منهما ان كلام رجال البلاغة لا يخرج عن كلام النحاة في الموضوعات التي ادخلها السكاكي في البلاغة وجعلها علما خاصا هو « علم المعاني » .

---

(١) سورة يونس ، الآية ٢٥ .
(٢) مفتاح العلوم ص ١٠٩ — ١١٠
(٣) مغنى اللبيب ج٢ ص ٦١١ — ٦١٢

ان الملاك الذي عقد عليه السكاكي حذف مفعول الفعل هو الملاك الذي عقد عليه ابن هشام حذفه . « فان القصد الى التعميم بلغة السكاكي يعني ما تعنيه الارادة الى الاعلام بمجرد وقوع الفعل من غير تعيين من أوقعه ، أو من اوقع عليه بلغة ابن هشام . والحال الذي اقتضى حذف المفعول عند السكاكي هو نفس الظرف اللغوي الذي استغنى المتكلم فيه عن ذكر المفعول عند ابن هشام »[1] .

ولو رجعنا الى البحث الذي كتبه السكاكي عن الاستفهام لرأيناه لا يخرج عما كتبه النحاة ، فمن بحث في معاني أدوات الاستفهام الى بحث في خروج هذه الادوات عن الاستفهام الحقيقي الى معان أخر .

واذا ما قارنا البحث الذي كتبه في هذا الموضوع بما كتبه ابن هشام في « مغنى اللبيب عن كتب الاعاريب » لخرجنا بالنتيجة التي خرجنا منها في بحث حذف المفعول .

لقد تكلم ابن هشام على أدوات الاستفهام ومعانيها واستعمالها وخروج الهمزة عن الاستفهام الحقيقي الى ثمانية معان هي : التسوية والانكار الابطالي والانكار التوبيخي والتقرير والتهكم والامر والتعجب والاستبطاء وتكلم على التصديق والتصور في الاستفهام[2] .

ولايخرج كلام السكاكي عن هذا فهو يرى أن الاستفهام اما تصديق او تصور ، فان كان لادراك النسبة ومعرفتها سمي تصديقا ، وان كان لمعرفة المفرد سمي تصورا . وتكلم على ادواته وهي الهمزة وأم وهل وما ومن وأي وكم وكيف وأين وأنى ومتى وايان ــ بفتح الهمزة وكسرها . وقسمها الى ما يختص بطلب حصول التصور ، وما يختص بطلب حصول التصديق ، وما لا يختص بواحد من القسمين وانما هو للتصور والتصديق . وتكلم على خروج الاستفهام عن معناه الاصلي

(١) تنظر مقالة رأي في موضوع علم النحو للدكتور مهدي المخزومي ص ١٠٩
(٢) ينظر مغني اللبيب ج ١ ص ١٧ ـ ١٨ ، ج٢ ص ٣٤٩ وما بعدها .

الى الامر والاستبطاء والتنبيه والتحضيض والتوبيخ والوعيد والتهديد والتقرير والتسوية والتعجب والتمني والعرض والانكار والاستخفاف والاستبعاد والزجر والانكار للتوبيخ والانكار للتكذيب[1] .

وبذلك لم يخرج بحثه في هذا الموضوع عن دائرة البحث النحوي ولم يقدم شيئا ذا أهمية كبيرة .

ونستطيع أن نقول بعد ذكر هذين المثالين ان ما كتبه ابن هشام يكاد يكون نقلا من السكاكي او قريبا مما كتبه في « علم المعاني » ، وبذلك يتضح لنا كيف تكلف السكاكي في فصل هذه المباحث عن علم النحو ووضعها في علم جديد ، فأزهق روح النحو بهذا الفصل وجعل من النحو وعلم المعاني قواعد جامدةواصولا جافة لا تفيد كثيرا فيتنمية الملكة الادبية وتفهم الاساليب المختلفة واغراضها ومراميها .

وقد أحس القدماء بهذا التكلف في فصل النحو عن المعاني ولكنهم لم يعترفوا بذلك ، يقول يحيى بن حمزة العلوي : « فان النحوي وصاحب علم المعاني وان اشتركا في تعلقهما بالالفاظ المركبة لكن نظر أحدهما مخالف لنظر الآخر . فالنحوي ينظر في التركيب من أجل تحصيل الاعراب كمال الفائدة ، وصاحب علم المعاني ينظر في دلالته الخاصة وهو ما يحصل عند التركيب من بلاغة المعاني وبلوغها اقصى المراتب » .

وضرب لذلك مثلا بقوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة »[2] ويقول : « فنظر النحوي من جهة رفع المبتدأ وتقديم خبره عليه وتنكير المبتدأ وتوسيط الظرف الى غير ذلك من الاحوال الاعرابية . ونظر صاحب المعاني من جهة بلاغتها وتأدية المعنى المقصود منها على أوفى ما يكون واعلاه . وهذا هو المراد من البلاغة فقد افترقا معاشتراكهما

(١) مفتاح العلوم ص ٥٥ ، ١٤٦ ـ ١٤٧ ، ١٥٠-١٥٢

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٧٦ .

في تعليقهما بالتركيب »[1] .

ان العلوي لاحظ أن صاحب علم النحو وعلم المعاني مشتركان بالعمل لكنه يفرق بين عملهما في أن الاول ينظر من جهة الاعراب ، وان الآخر ينظر من جهة بلاغة الالفاظ وتأدية المعنى ، ولكنه لم ينجح في هذا التفريق والفصل بينهما لأنه ادخل في عمل النحوي التقديم والتأخير والتنكير وغيرها وهذه الموضوعات هي التي تكلم عليها السكاكي في علم المعاني وعدها عبد القاهر من « النظم » ، وبذلك لم يستطع ان يفصل بين العلمين فصلا واضحا بحيث لايدخل الاول منهما في الثاني .

وذكر السبكي ـ أحد السائرين في ركب السكاكي ـ ان علم المعاني غالبه من علم النحو ، ولكنه فرق بينهما تفريقا لا يسعفه في وضع خط فاصل بين العلمين . يقول : « ولعلك تقول اي فائدة لعلم المعاني ، فان المفردات والمركبات علمت بالعلوم الثلاثة ـ اللغة والتصريف والنحو ـ وعلم المعاني غالبه من علم النحو ؟

كلا ان غاية النحوي ان ينزل المفردات على ما وضعت له ويركبها عليها، ووراء ذلك مقاصد لا تتعلق بالوضع مما يتفاوت به أغراض المتكلم على اوجه لا تتناهى وتلك الاسرار لا تعلم الا بعلم المعاني . والنحوي وان ذكرها فهو على وجه اجمالي يتصرف فيه البياني تصرفا خاصا لا يصل اليه النحوي . وهذا كما ان معظم أصول الفقه من علم اللغة والنحو والحديث وان كان مستقلا بنفسه »[2] .

فالفرق بين النحو والمعاني بسيط ـ كما نرى ـ وبذلك يكون السكاكي قد تكلف كثيرا في فصلهما وجعل كل واحد منهما قائما بنفسه .

ولا نريد ان ندعو كما يدعو بعض الباحثين الى الغاء علم المعاني الغاء تاما ودمجه بالنحو الذي ينبغي أن يشمل ما جاء في كتب النحو

---

(1) الطراز ج ١ ص ١٧ ـ ١٨

(2) عروس الافراح ـ شروح التلخيص ج ١ ص ٥١ ـ ٥٢ .

القديمة من دراسات تتصل بالكلمة من حيث اشتقاقها واعرابها ، ومن حيث ما يعرض عليها من ابدال واعلال ومما جاء فيما سموه علم المعاني من دراسات تتصل باحوال الكلم والكلام من تقديم وتأخير ، وذكر وحذف ، ونفي واثبات ، ومن بحث في طرق النفي والاستفهام والتأكيد[1] .

لا نريد ان ندعو هذه الدعوة ، لان لبعض مباحث المعاني اغراضا خاصة ونكتا بلاغية لا يتسع لها الدرس النحوي ، يضاف الى ذلك أن البحث النحوي سيتسع اتساعا كبيرا عند ادخال جميع مباحث علم المعاني فيه ولا سيما ما يتعلق بالنكت البلاغية والمعاني الاضافية التي نحسها في التعبير الى جانب الصحة النحوية او اللغوية والصرفية .

وكان أرسطو ـ مع اعترافه ان مثل هذه الموضوعات لا علاقة لها بالشاعرية وانها بحوث أجنبية عن الفن الشعري ـ يرى أنها ضرورية للممثلين الذين يجب ان يتعلموا كيف يؤدون العبارة ، وكيف ينتقلون باجزائها من اثبات الى نفي ،ومن نهي الى دعاء ، ومن تَمَنٍ الى تَرَجٍ حتى يكون الانفعال طبيعيا صادرا عن النطق بالعبارة نفسها وليس انفعالا يجبر به الممثل الجملة على اداء ما يريد لا ما تريده العبارة نفسها[2] .

ولكننا نريد أن تُبحثَ الموضوعات التي اعتبرها السكاكي « علم المعاني » بحثا ادبيا يعتمد على الذوق والتحليل مثلما بحثها المتقدمون كعبد القاهر وابن الاثير ، ويُنظر اليها لا على أنها مسائل نحوية بل ينظر الى ما يؤديه التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والتعريف والتنكير ، والاستفهام ، والتمني،والنهي ، والوصل والفصل وغيرها ، من معان خفية واسرار بلاغية وراء ما يفهم من العبارة بمجرد

(١) تنظر مقالة رأي في موضوع علم النحو ص ١٠٦

(٢) ينظر كتاب الشعر لارسطو ص ٥٤،وبلاغة ارسطو بين العرب واليونان ص١٨٢.

النظر النحوي . وبذلك تخرج كثير من المسائل التي ذكرها السكاكي كالكلام في ادوات الاستفهام والامر والنهي والنداء والتمني ونقتصر على ذكر أساليبها ونكتها البلاغية وما تؤديه من معان تخرج عن الاستفهام او الامر أو النهي الى الالتماس او الدعاء او التقرير او الوعيد وغيرها ، اما البحث في هذه الادوات وأنواعها وتركيبها وأفرادها فمن عمل النحوي او الصرفي . وتخرج كثير من المسائل التي ليس وراءها نكت بلاغية واسرار جمالية . ولا يضير البحث أنْ تُقَلْقَلَ موضوعات علم المعاني ويوضع بعضها في مباحث البلاغة الاخرى كالاستعارة والكناية والتورية والتجنيس وغيرها ، وتضم أجزاؤه المتفرقة لتكون وحدة كاملة وموضوعات طريفة لها فائدتها وأهميتها في دراسة البلاغة والفن الادبي . وندرس حينئذ النكت البلاغية في التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والفصل والوصل ، والقصر ، وما في الادوات من معان تزيد على معانيها المرسومة في كتب النحو المتأخرة اي ندرس خروج هذه الادوات الى اغراض اخرى وما تؤديه من معان جديدة في كل تعبير أو تركيب فريد .

وقد كان لما قام به السكاكي من فصل بين النحو والمعاني على هذا الوجه أثر سيء في دراسة النحو ، فقد نظر النحاة الى عمله فوجدوه قسم النحو الى بحثين : سمى الاول منهما « علم النحو » ـ كما سماه المتقدمون واصطلحوا عليه ـ وسمى الثاني « علم المعاني » كما فهم من معنى « النظم » او « توخي معاني النحو » عند عبد القاهر . وبذلك قصروا بحوثهم النحوية على أواخر الكلمات ، وضيعوا كثيرا من احكام النظم وأسرار تأليف العبارة، « فطرق الاثبات والنفي والتأكيد والتوقيت والتقديم والتأخير وغيرها من صور الكلام قد مروا بها من غير درس الا ما كان منها ماسا بالاعراب او متصلا باحكامه وفاتهم لذلك كثير من فقه العربية وتقدير اساليبها »[1] .

---

(١) احياء النحو ص ٣ .

هـذه هي جهود السكاكي في المعاني وهي في الواقع تلخيص لما ذكره عبد القاهر في دلائل الاعجاز ، أما جهوده في البيان فلم يكن له فيه الا التبويب وحصر مباحثه مستعينا بالدلالات ،وتلخيص ما جاء في كتابي « اسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » . ولكنه على كل حال مجهود لا ينكر ، فقد أوضح معالم البحث البلاغي وان يكن قد اساء الى البلاغة في ادخال مقاييس غريبة ما كان له أن يدخلها فيها كالمنطق والفلسفة ومصطلحاتهما ، لان البحث البلاغي ما هو الا بحث في الجمال وادراك ما في الكلام من روعة وما فيه من تأثير في النفوس أو هي « فن القول » ، وليست بحثا في الفلسفة والاستدلال . وكان السكاكي أول من حصر مباحث البيان في التشبيه والمجاز بانواعه والكناية ، وكان البلاغيون قبله يطلقون هذا المصطلح على البلاغة كلها .

وكانت جهوده في البديع ترتيبا لمسائله وفصله عن المعاني والبيان وتقسيمه الى ما يتعلق بالمعنى ، والى ما يرجع الى اللفظ أو الى محسنات معنوية ومحسنات لفظية . ولكن هذا التقسيم ـ كما ذكرنا ـ لم يكن في الواقع الا تمحلا واغراقا في التقسيم ، فليس للمحسن او البديع معنى ما لم يقصد فيه الى معنى خاص وغرض معين .

أما الموضوعات فقد قسمها الى أنواع كثيرة ، ولم يكن السكاكي أول من قام بهذا فالتقسيم معروف منذ الجاحظ والمبرد وقد اهتم ابو هلال العسكري وقدامة بن جعفر بالتقسيم واولعوا به ولكنهم مع ذلك لم يسرفوا كما أسرف . وقد رأينا كيف أسرف السكاكي في تقسيم موضوعات المعاني واضطرب فيها وكيف شعّب مباحث علم البيان . وكان من الدقة أن يقتصر على التقسيمات الهامة التي لا يستغني عنها دارس البلاغة ، لانّ التقسيمات ضرورية في الدراسة، ولا يمكن تعلم شيء واتقانه بلا منهج واضح صحيح ، ولكن السكاكي كان مولعا بتطبيق

مقاييس بعيدة كل البعد عن الفن الادبي فجاء بحثه بهذا الشكل الذي يدعو الى النفور •

☆ ☆

وبعد فماذا كانت نتيجة عمل السكاكي ؟

لقد وقفت علوم البلاغة عند حدها لأنه حصرها حصرا منطقيا بحيث لم يفكر أحد ممن جاء بعده أن يضيف اليها شيئا ذا قيمة ، لانهم رأوا ان لا مزيد عليها وقد ضبطت مسائلها ضبطا عقليا ، وبذلك اتجه المؤلفون الى الشرح والتلخيص وخدمة كتب البلاغة لا خدمة البلاغة نفسها وخدمة الفن الادبي ، مع ان الفن الادبي لا حصر له ولا حد فهو يتطور بتطور الحياة • ولما كانت البلاغة والنقد مقاييس للفن فلابد ان تتطور بتطوره لتلائم اساليبه الجديدة ومعانيه المبتكرة المتجددة على مر العصور والازمان •

ومما يؤيد ان البلاغة يجب أن تتطور بتطور الفن الادبي، مارأيناه من تطورها في بداية نشأتها وكيف بدأت مسائل مبعثرة واقوالا يطلقها الرواة والشعراء الى ان ضمها منهج درست على أساسه ووصلت الى قمتها في القرن الخامس الهجري على يدي عبد القاهر الجرجاني • ولم يكن هذا التطور الا نتيجة لتطور العقلية العربية، ولتطور الفن الادبي•

ونعتقد ان البلاغة لو لم تحد وتضبط ضبطا منطقيا لما وقفت عند هذا الامر،أي عند الحد الذي رسمه السكاكي،ولخطت خطوات واسعة ولكان لها شأن غير الشأن الذي وصلت به الينا •

مصطلحات البلاغة وتحديدها

لا نستطيع ان نحدد بالضبط زمن ظهور أوائل المصطلحات البلاغية اذ ليس من السهل ان نؤرخ حياة ظهور فن من الفنون او علم من العلوم، لان المعرفة الكاملة لا تظهر فجأة وانما تتكون بمرور الايام • ولكن الشيء المهم الذي نستطيع أن نقوله هو ان بعض مصطلحات البلاغة ظهرت في كتب التفسير الاولى ككتاب « معاني القرآن » للفراء، و « مجاز القرآن » لابي عبيدة ولكنها كانت غير محددة ، لان البلاغة ما زالت في دور نشأتها•وكان المعنى اللغوي يطغى على معناها الاصطلاحي الذي تعارف عليه البلاغيون فيما بعد •

وجاء الجاحظ فذكر كثيرا من المصطلحات كالبيان والفصاحة والبديع والاستعارة والسجع والتشبيه والاطناب والقِران والكناية والمثل،ولكن هذه المصطلحات لم تكن مفاهيمها قد حددت ولهذا نجده يستعمل البلاغة والبيان والفصاحة مترادفات تدل على معنى واحد أو على معان متقاربة • وكان عرضه لها عرضا لغويا وادبيا ليس فيه من التحديد والضبط الذي نراه عند المتأخرين •

وتعرّضَ ابن قتيبة للبلاغة في كتابه « تأويل مشكل القرآن »وذكر بعض المصطلحات كالمجاز والاستعارة والمقلوب والحذف والكناية والتعريض ومخالفة ظاهر اللفظ معناه •

وذكر المبرد في « الكامل » بعض المصطلحات كالتشبيه والمثل والكناية والاختصار والاستعانة والاطناب والتقديم والتأخير • وذكر ثعلب في « قواعد الشعر » التشبيه والتعريض والاستعارة وحسن

الخروج والايجاز ومجاورة الاضداد .

وفي هذه الفترة أي في اواخر القرن الثالث الهجري أخرج ابن المعتز كتابه « البديع » فكان اول كتاب يجمع بعض مصطلحات البلاغة مشروحة شرحا لغويا، ومحددة تحديدا ادبيا بعيدا عن الفلسفة والمنطق. وقد استفاد ابن المعتز مما كتبه المتقدمون فذكر الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد اعجاز الكلام على ما تقدمها والمذهب الكلامي والالتفات والاعتراض والرجوع وحسن الخروج وتأكيد المدح وتجاهل العارف والهزل يراد به الجد وحسن التضمين والتعريض والكناية والافراط في الصفة وحسن التشبيه ولزوم ما لا يلزم وحسن الابتداء . وبذلك كان اول من حدد المصطلحات تحديدا لغويا وادبيا.وقد استفادمنهالبلاغيون في تحديدها وضبطها ولكنهم اسرفوا في الضبط والتحديد فكانتعاقبة عملهم جمود البلاغة وقتل الروح الادبية فيها .

وتوالت البحوث في البلاغة حتى وصلت الى السكاكي فوضع البلاغة الوضع النهائي وصاغ المصطلحات البلاغية الصياغة الاخيرة مستعينا بعقليته المنطقية ونزعته الفلسفية ، وبذلك اصبحت تعريفاتها على يديه جامعة مانعة كما يقول اهل المنطق .

وقبل ان نتكلم على تحديد السكاكي للمصطلحات ينبغي ان نشير الى ان مصطلحات البلاغة عربية غير منقولة عن اليونان لسببين :

الاول : ان المصطلحات في اول نشأتها كانت دلالتها لغوية ليس فيها التحديد والحصر المنطقي وبعبارة المناطقة كانت غير جامعة مانعة ، وانما هي مصطلحات بسيطة لا تدل الا على معنى لغوي ادبي . وهذا ما نجده في كتب الفراء وأبي عبيدة والجاحظ والمبرد وابن قتيبةوثعلب وابن المعتز ، وهم اوائل الذين بحثوا في البلاغة وذكروا مصطلحاتها .

والثاني : ان كتابي « الخطابة » و « الشعر » لارسطو لم يكونا

معروفين عند العرب في بداية نشأة البلاغة العربية ، أو على الاقل لم يكونا مترجمين، فقد توفي اسحاق بن حنين مترجم الخطابة « ريطوريقا » سنة ٢٩٨ هـ او سنة ٢٩٩ هـ ، ومات متّى بن يونس مترجم الشعر « بوطيقا » حوالي سنة ٣٣٠ هـ[١] .

ونحن نعرف أن بعض المصطلحات ظهرت في كتاب « معاني القرآن » وكتاب « مجاز القرآن » وغيرهما من الكتب المتقدمة .

نقول هذا ونحن نعرف ان الجاحظ قد ذكر ارسطو في كتبه وقال عنه انه « بكي اللسان غير موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه ، وبخصائصه »[٢] . ولكن ليس معنى معرفة الجاحظ لارسطو انه قد اطلع على كتبه مترجمة ، فقد يكون قد عرفه عن طريق آخر وذلك عن طريق ما كان شائعا عن ارسطو في الاوساط العلمية وفي المجالس الادبية قبل ان تترجم كتبه وتعرف بين الناس .

فالمصطلحات البلاغية لم تنقل عن اليونان لان كتابي ارسطو لم ينقلا الى العربية الا في اواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع وان ما جاء فيها من مصطلحات لم تكن الا من وضع المترجمين العرب ، فقد رأوا في كتابي « الخطابة » و « الشعر » كلاما يشبه كلام العرب في البلاغة فاستعاروا ما ذكره البلاغيون العرب وثبتوه في الترجمات العربية .

والشيء المهم الذي يبدو واضحا في البلاغة العربية هو اثر التراث اليوناني في منهج بحث البلاغة كما رأينا ، فقد استعان بعض المؤلفين بالمقاييس اليونانية واساليبهم في التأليف فكانت عندنا كتب تجمع بين المقاييس اليونانية والعربية ككتابي « نقد الشعر » و « نقد النثر »

---

(١) ينظر الفهرست لابن النديم ص ٣٤٩ ، ٣٦٨ ووفيات الاعيان ج ١ ص ١٨٦ ، ومقدمة كتاب الخطابة ترجمة الدكتور ابراهيم سلامة ص ٥٩ ، وكتاب بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ص ١٦٨ .

(٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٧ .

وكتب البلاغة المتأخرة .

ومما يؤيد قولنا ان المصطلحات البلاغية نشأت نشأة عربية هو اننا نجد بعض كتب البلاغة في عصر متأخر تنقص فيها المصطلحات المحددة كما في كتابي « المثل السائر » و « الجامع الكبير » لابن الاثير .

وهذه ظاهرة غير واضحة وقد اشار اليها الاستاذ الخولي فقال : « وبهذا التقدير تفهم ظاهرة كانت غير واضحة في تاريخ البلاغة وهي أننا نرى في الشرق الاقرب لذلك العهد كتبا بلاغية تؤلف خالية من الاصطلاحات الكلامية او ناقصا فيها تحديد تلك الاصطلاحات مع ان هذه الاصطلاحات كانت قد تقررت واستقرت في المدرسة الكلامية بالشرق الاقصى منذ عهد غير قصير ، من هذه الكتب التي تنقص فيها الاصطلاحات كتاب المثل السائر لابن الاثير . والسبب ما ذكرنا من رواج المدرسة الادبية »[1] .

وهذا يؤكد لنا ان مصطلحات البلاغة في احدى مدارس البلاغة — وهي المدرسة الادبية — لم تحدد وتستقر حتى في أواخر القرن السادس الهجري واوائل القرن السابع ولكنها حددت في المدرسة الكلامية منذ عهد مبكر الا انها بقيت غير جامعة مانعة حتى ظهر السكاكي فحددها التحديد النهائي وحصرها الحصر الاخير ولم يعمل البلاغيون من بعده شيئا ذا اهمية في تحديد المصطلحات الا ما كان من شروح ومن أمور ليس لها أثر واضح او قيمة في تطور البلاغة ومصطلحاتها .

ونستطيع بعد ذلك ان نقول ان السكاكي وضع مصطلحات البلاغة الوضع الاخير كما وضع مباحثها وصاغها الصياغة الاخيرة .

وما دمنا قد وصلنا الى هذا الهدف فلنبدأ بعرض مصطلحات

---

(١) مصر في تاريخ البلاغة ص ١٥ .

البلاغة عنده لنرى تحديده لها ووقوفها الوقفة الاخيرة في « مفتاح العلوم » بعد أن مرت بدور تطور وارتقاء .

البلاغة والفصاحة :

لم يهتم البلاغيون القدماء بالتفريق بين البلاغة والفصاحة ، فالجاحظ (٢٥٥ هـ) وهو من اوائل الذين بحثوا في البلاغة لا يفرق بينهما فكثيرا ما تأتي الفصاحة مرادفة للبيان والبلاغة في مواضع متعددة من كتابه « البيان والتبيين » ، وكانت عنده شرطا للبلاغة التي عرفها بقوله : « وقال بعضهم وهو أحسن ما اجتبيناه ودوناه : لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه فلا يكون لفظه الى سمعك أسبق من معناه الى قلبك »(١) .

ويفهم من هذا التعريف ان البلاغة تشمل المعنى واللفظ معا وان صرح في غير موضع من كتبه ان ميزة الكلام في اللفظ . وقد يجعل الفصاحة احيانا ضد اللكنة(٢) . وتكلم على تنافر الالفاظ فقال : « ومن الفاظ العرب الفاظ تتنافر وان كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد انشادها الا ببعض الاستكراه من ذلك قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قربَ قبرِ حرب قبرُ

ومن ذلك قول ابن يسير في أحمد بن يوسف حين استبطأه :

لم يضرها والحمد لله شيء ... وانثنت نحو عزف نفسٍ ذهول

فتفقد النصف الاخير من هذا البيت فانك ستجد بعض الفاظه يتبرأ من بعض »(٣) .

---

(١) البيان والتبيين ج١ ص ١١٥
(٢) البيان والتبيين ج١ ص ١٦٢
(٣) البيان والتبيين ج١ ص ٦٥ ـ ٦٦ .

وتكلم على تنافر الحروف فقال : « فأما في اقتران الحروف فان الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتأخير ، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا بتأخير . وهذا باب كبير »[1] .

ويرى أن اللفظ كما لا ينبغي أن يكون عاميا وساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا[2] .

وعرف أبو هلال العسكري البلاغة بقوله : « البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن »[3] .

ويفهم من هذا التعريف ان الفصاحة والبلاغة متلازمتان ، لان الكلام اذا كانت عبارته غير جميلة وفيها تنافر لم يُسَمَّ بليغا وان كان المعنى مفهوما .

ولم يفرق عبد القاهر الجرجاني بين الفصاحة والبلاغة لانهما يعبر بهما عن « فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا واخبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد وراموا ان يعلموهم ما في نفوسهم ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم »[4] .

فالجرجاني لا يفرق بين المصطلحين فيما كتب عنهما ويرى أن الفصاحة تكون في المعنى ولذلك فليس للكلمة المفردة قيمة كبيرة من حيث جرسها وجمالها فكثيرا ما تستعمل اللفظة في موضع فتكون جميلة حلوة الجرس وتستعمل في موضع آخر فتكون قبيحة ، وانما كان ذلك « لان المزية التي من أجلها نصف اللفظ في شأننا هذا بانه فصيح مزية

(١) البيان والتبيين ج١ ص ٦٩
(٢) البيان والتبيين ج١ ص ١٤٤
(٣) كتاب الصناعتين ص ١٠ .
(٤) دلائل الاعجاز ص ٣٥

تحدث من بعد ان لا تكون وتظهر في العلم من بعد ان يدخلها النظم . وهذا شيء ان انت طلبته فيها وقد جئت بها افرادا لم ترم فيها نظما ولم تحدث لها تأليفا طلبت محالا . واذا كان كذلك وجب ان تعلم قطعا ان تلك المزية في المعنى دون اللفظ »[1] .

فالالفاظ عند الجرجاني لا تتفاضل من حيث هي الفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة وان الالفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ .

وقد فرق ابن سنان بين الفصاحة والبلاغة ، فكانت الفصاحة مقصورة على وصف الالفاظ ، والبلاغة لا تكون الا وصفا للالفاظ مع المعاني ، ولذلك لا يقال في كلمة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة وان قيل عنها فصيحة ، فكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغا[2] .

وقد أطال الكلام في الفصاحة وأنواعها ، ووضع للفظة المفردة شروطا وللكلام المركب شروطا أيضا .

اما السكاكي فلم يتكلم على الفصاحة والبلاغة في صدر القسم الثالث من كتابه كما تكلم البلاغيون من قبله كأبي هلال العسكري وعبد القاهر وابن سنان ، او من جاء بعده من شراح وملخصين كالخطيب القزويني ، وانما اكتفى بالاشارة اليهما في خاتمة علم البيان ، وكان حديثه عنهما موجزا ليس فيه التفصيل الذي نجده في كتاب « سر الفصاحة » لابن سنان و « المثل السائر » لابن الاثير ، ولكنه كان ممهدا السبيل للقزويني ومن جاء بعده من الذين اتخذوا ما ذكره في « مفتاح

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨ .
(٢) ينظر سر الفصاحة ص ٦٠

العلوم » مقدمة لكتبهم البلاغية .

والسكاكي يفرق بين البلاغة والفصاحة . فالبلاغة عنده : « هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وايراد التشبيه والمجاز والكناية على وجهها »[1] . وفي هذا التعريف حصر المعاني والبيان واخرج البديع ، لانه وجوه يؤتى بها لقصد تحسين الكلام وليست من مرجعي البلاغة .

وللبلاغة طرفان: أعلى وأسفل متباينان تباينا لا يتراءى لاحد ناراهما وبينهما مراتب تكاد تفوت الحصر متفاوتة . فمن الاسفل تبتديء البلاغة وهو القدر الذي اذا نقص منه شيء التحق ذلك الكلام باصوات الحيوانات ثم تأخذ في التزايد متصاعدة الى ان تبلغ حد الاعجاز وهو الطرف الاعلى وما يقرب منه .

ولم يعرف الفصاحة واكتفى بتقسيمها الى نوعين : قسم راجع الى المعنى وهو خلوص الكلام عن التعقيد . والمراد بتعقيد الكلام : « هو ان يعثر صاحبه فكرك في متصرفه ويشيك طريقك الى المعنى ويوعر مذهبك نحوه حتى يقسم فكرك ويشعب ظنك الى ان لا تدري من اين تتوصل وبأي طريق معناه يتحصل » .

ومثال ذلك قول الفرزدق :

وما مثله في الناس الا مملكا ... أبو امه حيّ أبوه يقاربه

وقول أبي تمام :

ثانيه في كبد السماء ولم يكن ... كاثنين ثان اذ هما في الغار

وغير المعقد هو أن يفتح صاحبه لفكرك الطريق المستوي ويمهده وان كان في معاطف نصب عليه المنار واوقد الانوار حتى تسلكه سلوك المتبين لوجهته وتقطعه قطع الواثق بالنجح .

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٩٦

وقسم راجع الى اللفظ وهو ان تكون الكلم عربية أصلية،وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم كثيرة الاستعمال والدوران ، وان لا تكون مما احدثها المولّدون ولا مما اخطأت فيه العامة ، وان تكون أجرى على قوانين اللغة وسليمة من التنافر .

والالفاظ التي تكون هذه صفاتها هي التي يقال عنها « كالعسل في الحلاوة وكالماء في السلاسة وكالنسيم في الرقة »[1] .

ولا نعلم أحدا قبل السكاكي قسم الفصاحة الى معنوية ولفظية وقد ناقشنا سابقا من قال بان ابن سنان قسّمها هذا التقسيم وبيّنا أن تقسيمهما مختلفان ، ولا صلة للسكاكي به . ولكن الشيخ عبد القاهر كان يقول عن النوع الأول بانه فاسد النظم[2] ، لأن الامثلة التي ذكرها السكاكي مختلة التركيب فيها تقديم وتأخير ، ووضع للالفاظ في غير مواضعها ، ففي البيت :

وما مثله في الناس الا مملّكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

كان حقه أن يقول : وما مثله في الناس حي يقاربه الا مملك ، أبو امه أبوه .

ويلاحظ أن السكاكي لم يجعل الفصاحة لازمة للبلاغة وهذا واضح مما ذكر من أوصافها المعنوية واللفظية ، لأن مرجعي البلاغة عنده المعاني والبيان .

وقد انتبه الخطيب القزويني الى هذا فقال عن السكاكي : «جعل الفصاحة غير لازمة للبلاغة وحصر مرجع البلاغة في الفنين ولم يجعل الفصاحة مرجعا لشيء منهما »[3] .وقال التفتازاني : « لم يجعل البلاغة

---

(١) ينظر مفتاح العلوم ص ١٦١ ، ١٩٦ ، ١٩٧

(٢) ينظر دلائل الاعجاز ص ٦٥ ــ ٦٦ .

(٣) الايضاح ص ٢٤٠

مستلزمة للفصاحة وحصر مرجعها في المعاني والبيان دون اللغة والصرف والنحو »[1] •

ويرى أن مرجع البلاغة الى هذه العلوم جميعا لا الى مجرد المعاني والبيان،ولكن السكاكي — مع هذا — يرى ان البلاغة بمرجعيها المعاني والبيان وان الفصاحة بنوعيها المعنوية واللفظية « مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين »[2] • ولذلك نراه حينما يحلل بعض الآيات القرآنية يتخذ من مرجعي البلاغة ومن الفصاحة مقياسا لاظهار ما في الآية من روعة وجمال وتأثير في النفوس •

ونرى — كما يرى الاستاذ امين الخولي — انه لا حاجة الى استعمال مصطلحين هما « الفصاحة » و « البلاغة » بل ينبغي التسوية بينهما كما رأينا عند الجاحظ وعبد القاهر تقليلا للاقسام فنقول : « بلاغة الكلمة وبلاغة الكلام ، كما نستطيع أن نقول بلاغة الالفاظ وبلاغة المعاني ، أي جودة ذلك »[3] • وحينئذ نقول : ان من شروط البلاغة ان تكون الالفاظ كذا وكذا مما سبق ذكره ولا يعتبر الكلام بليغا ما لم تكن الفاظه حسنة كمعانيه • وبذلك لا يكون مجال لجعل البلاغة غير مستلزمة للفصاحة وان صرح السكاكي بأن البلاغة والفصاحة مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين •

المعاني :

لا نعرف أحدا قبل السكاكي استعمل مصطلح « المعاني » واطلقه على قسم من علوم البلاغة • وكل ما نعرفه أن عبارة « معاني النحو »

---

(١) المطول على التلخيص ص ٣١ •
(٢) مفتاح العلوم ص ٢٠٠
(٣) تنظر مادة بلاغة في دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية) ج٤ ص ٦٦

وردت في المناظرة التي قامت بين الحسن بن عبد المرزباني المعروف بأبي سعيد السيرافي (٣٦٨ هـ) وابي بشر متى بن يونس في مجلس الوزير أبي الفتح بن جعفر بن الفرات • يقول السيرافي: « معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها • وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ في ذلك وان زاغ شيء عن النعت فانه لا يخلو ان يكون سائغا بالاستعمال النادر والتأويل البعيد او مردودا لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم »(١) •

وكان لنظرية « النظم » أثر كبير في اظهار هذا النوع من الدراسات البلاغية الى حيز التأليف ، فقد شغلت مسألة النظم العرب منذ عهد مبكر • وقد اشار اليها الجاحظ (٢٥٥ هـ) في سياق كلامه في كتبه ولكنه لم يظهرها واضحة جلية • وتكلم عليها معظم الذين اهتموا بالدراسات القرآنية في القرن الرابع الهجري ، ولكن صورتها لم تتضح كاملة مشرقة الا على يدي عبد القاهر الجرجاني الذي شغلته مسألة النظم كثيرا ، فأخذ يعيد ويكرر في كتابه « دلائل الاعجاز » لاثباتها والتدليل عليها •

وقد مر بنا أن موضوعات النظم عنده لم تكن الا المباحث التي ادخلها السكاكي في علم المعاني ، وبذلك نستطيع ان نقول ان عبد القاهر واضع أصول هذا العلم الذي أحاله المتأخرون الى قوالب جامدة وقواعد جافة ينفر منها الطبع السليم والذوق الصافي وان السكاكي بتر عبارة « معاني النحو » فاصبحت عنده « علم المعاني » وعده القسم الاول من البلاغة وعرفه بقوله : « علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف

---

(١) ينظر كتاب المقابسات لابي حيان التوحيدي ص ٨٠ ومعجم الادباء ج ٨ ص ٢١٤ — ٢١٥ .

عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره »[1] .

فعلم المعاني عند السكاكي وتلامذته ـ كما يبدو من التعريف ـ يدور على الجملة فيبحث ما فيها من حذف أو ذكر ، وتقديم أو تأخير وتنكير او تعريف ، والفرق بين الجملة الاسمية والفعلية ، ولا يخرج الى اكثر من الجملة الا عند البحث في الفصل والوصل ، والايجاز والاطناب .

ويرى السكاكي أن علم المعاني واسع جدا ولا يمكن الاحاطة به ابدا ، وذلك لأن مبناه على التتبع لتراكيب الكلام واحدا فواحدا والعثور على ما لكل منها من لطائف النكت مفصلة ، لا تتم الاحاطة بها الا لعلام الغيوب ولا يدخل كنه بلاغة القرآن الا تحت علمه الشامل . وهذا الرأي قد جهر به عبد القاهر الجرجاني من قبل ورد على الذين صغر أمر التقديم والتأخير وغيرهما من موضوعات« النظم » في انفسهم[2] .

الخبر والطلب :

وهذان مصطلحان ظهرا منذ زمن مبكر على يد المتكلمين . ولا نستطيع ان نقرر أنهما منقولان عن اليونان أو ننفي النقل ، فقد تكلم عليهما ارسطو كما تكلم عليهما النظام والجاحظ ومعظم المعتزلة واصحاب علم الكلام .

وقد تحدد معنى هذين المصطلحين تحديدا نهائيا على يدي السكاكي فاطلق الخبر على ما يحتمل الصدق والكذب وحصر بحوثه في اعتبارات الاسناد الخبري ، والمسند اليه ، والمسند ، واعتبارات الفصل والوصل ، والايجاز والاطناب .

---

(١) مفتاح العلوم ص ٧٧

(٢) ينظر مفتاح العلوم ص ١١٩ ، ودلائل الاعجاز ص ٨٥ .

وأطلق الطلب على ما لا يحتمل الصدق والكذب وحصر بحوثه حصرا عقليا ــ كما رأينا ــ في التمني والاستفهام والامر والنهي والنداء، ولكنه مع ذلك لم يحددهما ويعرفهما تعريفا جامعا مانعاً لأنه يرى ان الخبر والطلب مستغنيان عن التعريف الحدي[1] .

وسار البلاغيون على هذا المفهوم للخبر والطلب ، ولكنهم استعملوا مصطلح « الانشاء » بدلا عن مصطلح « الطلب » ، وذلك لانهم يرون أن الانشاء نوعان : انشاء طلبي وانشاء غير طلبي .

وعلى كل حال فلم يبحث السكاكي الا النوع الاول من الانشاء ولذلك اطلق على موضوعاته مصطلح « الطلب » ، اما النوع الثاني فلم يُشر اليه ولعله كان يرى أن هذا النوع من الانشاء ليس الا خبرا نقل الى اسلوب الانشاء فأهمل ذكره .

وقد ازداد النقاش والجدل بعده في هذا الموضوع واقحمت فيه من مسائل الاصول والفلسفة ومصطلحاتهما الشيء الكثير . ويتجلى ذلك في معظم شروح تلخيص مفتاح العلوم .

المسند والمسند اليه :

للجملة العربية خبرية كانت أم انشائية ركنان هما : المسند اليه والمسند . وهذان الركنان عند النحاة هما « المبتدأ والخبر » أو « الفعل والفاعل » وملحقاتها . ولكن البلاغيين حينما درسوا اجزاء الجملة وتحليلها لم يستعملوا مصطلحات النحاة . ويبدو انهم عزفوا عنها ليتميز بحثهم عن مباحث النحويين ، وتتميز مصطلحاتهم عن مصطلحات النحاة .

لقد فتش البلاغيون عن مصطلحات جديدة تضفي على دراساتهم رونق الجدة فوجدوا بغيتهم في كتاب سيبويه الشهير . وكان سيبويه

---

(١) مفتاح العلوم ص ٧٩

قد عقد في اول كتابه بابا هو « باب المسند والمسند اليه »[١] بيّن فيه المقصود منهما ووضح معناهما وتابعه في ذلك الكثيرون كعبد القاهر الجرجاني الذي قرر ــ كما قرر سيبويه وغيره ــ أنه لا يكون كلام من جزء واحد وانه لابد من مسند ومسند اليه[٢] .

ولكن النحاة لم يهتموا بهذه المصطلحات وكادوا يهملونها فتبناها البلاغيون وبنوا عليها اعرابا جديدا سموه « الاعراب البياني » ، وهذا النوع من الاعراب ليس في الواقع الا الاعراب النحوي الذي أشار اليه صاحب الكتاب .

وقد أستند السكاكي في تقسيم موضوعات الخبر على ركني الجملة المسند والمسند اليه وبذلك قتل الروح الادبية ووحدة الموضوع في البلاغة . فهو يذكر في الركن الاول مثلا الحالات المقتضية لذكره أو طيه أو تقديمه او تأخيره او قصره وما الى ذلك ، ويعود يذكر هذه الحالات في بحث الركن الثاني . وبهذه الطريقة مزق الموضوعات تمزيقا ذهب بكل رونق البلاغة وبهائها وفائدتها .

وقد يسمي السكاكي المسند اليه « المحكوم له » ويسمي المسند « المحكوم به » في كثير من الاحيان .

مصطلحات المعاني الاخرى :

أما مصطلحات علم المعاني الاخرى فهي نحوية بحتة أخذها علماء البلاغة من النحاة وتابعهم السكاكي في ذلك . فالتقديم والتأخير ذكره المتقدمون كالفراء الذي قال في تفسير قوله تعالى : « اذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليَّ »[٣] : « يقال ان هذا مقدم ومؤخر »[٤] .

---

(١) كتاب سيبويه ج١ ص ٧

(٢) ينظر دلائل الاعجاز ص : ش

(٣) سورة آل عمران ، الآية ٥٥ .

(٤) معاني القرآن ج١ ص ٢١٩

وذكره أبو عبيدة في مواضع كثيرة من « مجاز القرآن » ، وذكره غيره من البلاغيين الذين اطالوا البحث فيهما .

والاستفهام وخروجه عن معناه ذكره الفراء وأبو عبيدة وابن قتيبة وذكروا خروجه الى التقرير والتعجب والتوبيخ والتهديد وغيرها[1] .

وأطال أحمد بن فارس في بحوث الطلب في الفصل الذي سمّاه « معاني الكلام » تكلم فيه على الخبر والاستفهام والامر والنهي والعرض والتمني والتعجب وحدد كل مصطلح منها[2] .

وذكر الجاحظ الفصل والوصل في تعريف الفارسي للبلاغة فقد قيل للفارسي ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل[3] . وذكره غيره من علماء البلاغة كصاحب نقد النثر وابي هلال العسكري وعبد القاهر .

ومثل هذا ما يقال في جميع مصطلحات علم المعاني الاخرى ، فقد ذكرها النحاة والبلاغيون منذ عهد مبكر .

ونستطيع أن نقول هنا ان السكاكي لم يهتم كثيرا بتحديد مصطلحات علم المعاني ، لانها كانت متداولة معروفة في كتب النحو والبلاغة وغيرها ، ولانها استعملت في كتب التفسير الاولى .

وليس للسكاكي في تحديد هذه المصطلحات جهد لانه لم يعمل شيئا مهما في تحديدها ، وكل ما فعله هو حصر مباحثها وتهذيب مسائلها وتمحيصها . وقد كانت جهوده في تحديد مصطلحات البيان أوضح وأهم وادخل في المنطق .

---

(١) معاني القرآن ج١ ص ٢٢ ، ٢٠٢ . ومجاز القرآن ج١ ص ٣٥ ، ٦٣ ، ١٨٣ ، ٢٨٧. وتأويل مشكل القرآن ص ٢١٣ وما بعدها .

(٢) الصاحبي ص ١٥٠ وما بعدها .

(٣) البيان والتبيين ج١ ص ٨٨ .

البيـــان :

البيان في اللغة ما بيّن به الشيء من الدلالة وغيرها ، وبان الشيء بيانا اتضح فهو بَيِّن ، واستبان الشيء ظهر .

ودخلت هذه اللفظة في البلاغة واستعملت استعمالا كان له مدلول خاص . ولم يبق معناها ثابتا عند علماء البلاغة على اختلاف أزمنتهم وعصورهم وانما تطور بتطور بحوث البلاغة حتى استقر على يـدي السكاكي ومن سار على منهج مدرسته البلاغية فكان له مدلول خاص.

وأول ما تصادفنا كلمة « البيان » عند الجاحظ ، فقد تكررت كثيرا في كتبه وسمى أحد مؤلفاته « البيان والتبيين » ، يقول عن البيان: « البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع الى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان ذلك الدليل ، لان مدار الامر والغاية التي اليها يجري القائل والسامع انما هو الفهم والافهام فبأي شيء بلغت الافهام واوضحت عن المعنى فذلك هو البيـان في ذلك الموضع »(١) .

والبيان عند الجاحظ يحتاج الى تمييز وسياسة والى تمام الآلـة واحكام الصنعة والى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف واقامة الوزن وغير ذلك . وهو بذلك واسع المعنى يشمل امورا كثيرة ولا يختص بشيء معين كما اختص به عند المتأخرين .

وبقي معنى البيان يدل على أمور كثيرة ويطلق على البلاغـة كلها طوال العصور التي سبقت السكاكي ، وحتى في عصـر السكاكي نجد ضياءالدين بن الاثير يطلق البيان على علوم البلاغـة كلهـا ، ولـكن السكاكي ضيّق معناه وحدد مباحثه بقوله : «اما علم البيان فهو معرفة

---

(١) البيان والتبيين ج١ ص ٧٦

ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه »(١) .

وقد حصر علم البيان في الدلالات العقلية فكانت مباحثه تشمل المجاز والكناية لانهما يمكن ايراد المعنى الواحد بهما في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان . أما التشبيه فدلالته وضعية فلا يدخل في تعريف السكاكي ولكنه لما رأى ان الاستعارة تعتمد عليه اعتمادا كبيرا اعتبره أصلا من اصول البيان وبذلك اصبحت مباحثه عنده ثلاثة هي : التشبيه والمجاز بانواعه والكناية . وسار البلاغيون على هذا التقسيم ولم يخرج فهمهم للبيان عن فهم السكاكي واصبح لا يطلق هذا المصطلح الا على جزء من البلاغة أو على أحد اقسامها الثلاثة المتعلق بالبحث في التشبيه والمجاز والكناية .

التشبيه :

التشبيه من أقدم المصطلحات التي ظهرت ولكن معناه لم يكن محددا ، فقد كان يدل عند القدماء على الربط بين الشيئين باداة ، ولعل الجاحظ أول من تنبه الى ادواته كالكاف وكأن ومثل (٢) .

وكان أقدم تعريف منطقي للتشبيه ما ذكره قدامة ، يقول : « التشبيه يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصف بها ، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منها بصفتها »(٣) .

ويقول الرماني عنه : « التشبيه هو العقد على ان احد الشيئين يسد مسد الآخر في حسٍ أو عقل »(٤) . ونقل الباقلاني هذا

(١) مفتاح العلوم ص ٧٧
(٢) ينظر الحيوان للجاحظ ج٣ ص ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٣٥٤ ، ج٦ ص ١٨٥ ، ٣٤٨ ، ٣٩٥
(٣) نقد الشعر ص ١٠٨
(٤) رسالة النكت ـ ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ص ٧٤

التعريف عنـــه[1] .

وجرى البلاغيون في تحديد التشبيه على هـذا النحو حتى ظهر السكاكي فكان مصطلح التشبيه عنده يدل على مشاركة شيء لشيء آخر في أمر . ولكن تحديده للتشبيه ليس واضحـا كما كان عند غيره من علماء البلاغة ، يقول : « لا يخفى عليك أن التشبيه مستدع طرفـين مشبها ومشبها به واشتراكا بينهما من وجه وافتراقا من آخر مثل ان يشتركا في الحقيقة ويختلفا في الصفة او بالعكس . فالاول كالانسانين اذا اختلفا صفة طولا وقصرا . والثاني كالطويلين اذا اختلفا حقيقة انسانا وفرسا . والا فانت خبير بان ارتفاع الاختلاف من جميع الوجوه حتى التعيّن يأبى التعدد فيبطل التشبيه لأن تشبيه الشـيء لا يكون الا وصفا له بمشاركته المشبه به في امر والشيء لا يتصف بنفسه كما ان عدم الاشتراك بين الشيئين في وجه من الوجوه يمنعك محاولة التشبيه بينهما لرجوعه الى طلب الوصف حيث لا وصف »[2] .

وقد استطاع الخطيب القزويني ملخص القسم الثالث من « مفتاح العلوم » أن يضبط التشـبيه ضبطا أدق من ضبط السكاكي يقول : « التشبيه : الدلالة على مشاركة امر لآخر في معنى »[3] .

وهذا التعريف وان كان بسيطا الا انـه يدل دلالة واضحـة على التشبيه أكثر مما يدل كلام السكاكي عليه . ولعل ألطف تعريف التشبيه قول ابن رشيق القيرواني : « التشبيه صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة او جهات كثيرة لا من جميع جهاته لانه لو ناسبه مناسبة كلية لكان اياه ألا ترى ان قولهم « خد كالورد » انما ارادوا حمـرة أوراق الورد وطراوتها لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضـرة

---

(١) اعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٩٩
(٢) مفتاح العلوم ص ١٥٧
(٣) الايضاح للخطيب القزويني ص ١٥١

كمائمه »[1] .

وهذا تعريف أديب يحس بروعة التشبيه ويستطيع أن يتصوره ويصوره للآخرين . أما السكاكي فلم يكن من هذا الطراز فجاء كلامه في تعريف التشبيه غامضا مع ان عشرات سبقوه الى تعريفه كقدامة بن جعفر والرماني والباقلاني وأبي هلال العسكري وابن رشيق وغيرهم.

التمثيـل :

لم يذكر أحد من البلاغيين المتقدمين التمثيل ، فالمبرد لا يفرق بينه وبين التشبيه بل يستعمل كلا منهما وما تصرف منه مكان الآخر ، ولم يتعرض له ابن المعتز . وكان قدامة بن جعفر أول من عد التمثيل مخالفا للتشبيه[2] . ويرى الدكتور ابراهيم سلامة ان التمثيل بالتسمية التي سماها قدامة يوناني[3] .

ولم يفرق بين التمثيل والتشبيه كثيرون منهم : أبو هلال العسكري ومعاصر السكاكي ابن الاثير الذي قال : « وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه والتمثيل وجعلوا لهذا بابا مفردا ولهذا بابا مفردا ، وهما شيء واحد لا فرق بينهما في اصل الوضع . يقال . شبهت هـذا بهذا الشيء كما يقال مثلت به . وما اعلم كيف خفي ذلك على اولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه »[4] .

وكان عبد القاهر الجرجاني أول من أظهر فضل التمثيل في علم البيان وعني بالفرق بينه وبين التشبيه . ولم يأت بعده من استطاع أن يقيم لهذا الفن البياني أثرا كبيرا ، لان الروح الادبية والفنية كسدت بعد عصره وغلبت العجمة والروح التقريرية في البلاغة على الناحية الادبية. وقد اطال في بحث التشبيه والتمثيل اطالة لم يسبق اليها حتى كأنه ألف

---

(١) العمدة ج١ ص ٢٨٦
(٢) ينظر نقد الشعر ص ١٥٧ ـ ١٥٨ وكتاب اسرار التمثيل ص ١٦
(٣) بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ص ٢١٩
(٤) المثل السائر ج١ ص ٣٨٨

كتابه « اسرار البلاغة » من اجل هذين الفنين . ويرى ان التمثيل اذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصـار في معرضه ، ونقلت عن صورها الاصلية الى صورته كساها أبهة وأكسبها منقبة ورفـع من اقدارها ودعا القلوب اليها . والتمثيل عنده أبلغ من الحقيقة لأن« المزية أبدا في ذلك تقع في طريق اثبات المعنى دون المعنى نفسه »[1] .

أما السكاكي فقد فرق بين التمثيل والتشبيه مع انه لم يعقـد للتمثيل فصلا وانما بحثه مع التشبيه ، ولم يحـدد مصطلحه تحديدا دقيقا كما حدد غيره من المصطلحات واكتفى بأن قال عنه : « ان التشبيه متى كان وجهه وصفا غير حقيقي وكان منتزعا من عدة امور خص باسم التمثيل »[2] . وهو بهذا يخالف عبد القاهر الذي يرى أن التمثيـل يحتاج الى التأول .

ولم يستقر معنى التمثيل بعد السكاكي كما استقرت المصطلحات الاخرى فكان للخطيب القزويني رأيه ولغيره من المتـأخرين آراؤهم ، وان كانت لا تخرج عما ذكره عبد القاهر أو السكاكي .

التشابه :

التشابه ترك المفاضلة بين الشيئين في صفة من الصفات وذلك اذا اريد اثبات أن احدهما مثل الآخر .

وقد ذكره السكاكي في بحث التشبيه ولكنه لم يعرفه أو يحـدد معناه تحديدا دقيقا واكتفى بأن قال عنه : « اذا تساوى الطرفان المشبه والمشبه به في جهة التشبيه فالاحسن ترك التشبيه الى التشابه ليكون كل واحد من الطرفين مشبها ومشبها به تفاديا من ترجيح احد المتساويين »[3] .

ونعتقد ان في هذا القول توضيحا لمعنى التشابه وان لم يمثل له الا قليلا ولم يذكر له امثلة شعرية .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٥٧ وينظر اسرار البلاغة ص ١٢٩
(٢) مفتاح العلوم ص ١٦٥
(٣) مفتاح العلوم ص ١٦٤

المجـــاز :

اول من استعمل هذا المصطلح ابو عبيدة في كتابه « مجـــــاز القرآن » ولكنه لم يقصد المعنى الاصطلاحي الذي عرفه المتأخرون ، وانما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عنها .

وذكره ابن قتيبة وعقد له بابا واسعا في كتابه « تــأويل مشكل القرآن » ، ولكن نظرته اليه كانت كنظرة أبي عبيدة وهي نظرة لغوية ليس فيها التحديد والحصر .

ولم يحدد معنى هذا المصطلح الا بعد القرون الثلاثة الاولى ، وقد أشار الى هذا العلامة تقي الدين أبو العباس احمد بن تيمية (٧٢٨ هـ) فقال ، ان تقسيم اللفظ الى حقيقة ومجاز اصطلاح حادث بعد القرون الثلاثة الاولى ، والغالب انه كان من جهــــة المعتزلــة ونحوهم من المتكلمين(١) .

ومن أشهر الذين ضبطوا هذا المصطلح عبد القاهر الجرجاني ، وقسّمه الى مجاز لغوي ومجاز عقلي . وقد استفاد السكاكي منه كثيرا في تحديد معناه وتقسيمه فقال في تعــريف المجاز : « أما المجاز فهو الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالا في الغير بالنسبة الى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة عن ارادة معناهــــا في ذلك النوع »(٢) . وبهذا التعريف ادخل الاستعارة التي هي نوع من المجاز وقد نقل السكاكي عدة أقوال للمتقدمين في المجــاز ولكنه لم يقبلها ، لانها ليست جامعة مانعة ويقول بعد أن ذكر قوله وكـــــلام السلف : « **فتأمل قولي وقولهم** » .

وقسم المجاز الى لغوي وعقلي ــ كما فعل الجرجاني والسلف ــ

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٦٤

(٢) ينظر كتاب الايمان ص ٣٥ .

ولم يعرف المجاز اللغوي لأنه عدة أنواع واكتفى بتحديد كل نوع منه . فالمجاز اللغوي الراجع الى معنى الكلمة غير المفيد هو « ان تكون الكلمة موضوعة لحقيقة من الحقائق مع قيد فتستعملها لتلك الحقيقة لا مع ذلك القيد بمعونة القرينة » .

والمجاز اللغوي الراجع الى المعنى المفيد الخالي عن المبالغة في التشبيه هو « أن تعدى الكلمة عن مفهومها الاصلي بمعونة القرينة الى غيره لملاحظة بينهما ونوع تعلق » .

والمجاز اللغوي الراجع الى حكم الكلمة في الكلام هو « ان تكون الكلمة منقولة عن حكم لها اصلي الى غيره »[1] .

أما المجاز العقلي فقد كان عبد القاهر أول من أطلقه على أحد انواع المجاز وسماه الى جانب هذا الاسم المجاز في الاثبات والمجاز الحكمي . ويرى الدكتور طه حسين أن عبد القاهر لم يخرج في المجاز عن الحدود التي رسمها ارسطو ، وان المجاز العقلي من ابتكاره ويصح أن نسميه « المجاز الكلامي »[2] .

وكان العلوي صاحب « الطراز » قد أشار الى ما نبه اليه الدكتور طه فقال : « اعلم أن ما ذكرناه في المجاز الاسنادي العقلي هو ما قرره الشيخ النحرير عبد القاهر الجرجاني واستخرجه بفكرته الصافية وتابعه على ذلك الجهابذة من أهل هذه الصناعة كالزمخشري وابن الخطيب الرازي وغيرهما من النظار »[3] .

وقد استفاد السكاكي من الجرجاني فعرف المجاز العقلي بقوله : « هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأويل افادة للخلاف لا بواسطة وضع »[4] ، ولكنه أنكر هذا النوع

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٢ وما بعدها .
(٢) تنظر مقالة البيان العربي من الجاحظ الى عبد القاهر مقدمة نقد النثر ص ٢٩
(٣) الطراز ج٣ ص ٢٥٧ — ٢٥٨
(٤) مفتاح العلوم ص ١٨٥

من المجاز وجعله استعارة بالكناية . وجره البحث في المجاز الى التحدث عن الحقيقة وأنواعها وقد عرفها بقوله : « الحقيقة هي الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع كاستعمال الاسد في الهيكل المخصوص . فلفظ الاسد موضوع له بالتحقيق ولا تأويل فيه. وانما ذكرت هذا القيد ليحترز عن الاستعارة ففي الاستعارة تعد الكلمة مشتملة فيما هي موضوعة له على أصح القولين ولا نسميها حقيقة بل نسميها مجازا لغويا لبناء دعوى المستعار موضوعا للمستعار له على ضرب من التأويل .. ولك ان تقول : الحقيقة هي الكلمة المستعملة فيما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة كاستعمال الاسد في الهيكل المخصوص او القرء في ان لا يتجاوز الطهر والحيض غير مجموع بينهما . فهذا ما يدل عليه بنفسه ما دام منتسبا الى الوضعين . أما اذا خصصته بواحد إمّا صريحا مثل أن تقول القرء بمعنى الطهر ، وإمّا استلزاما مثل ان تقول القرء لا بمعنى الحيض فانه حينئذ ينتصب دليلا دالا بنفسه على الطهر بالتعيين كما كان الواضع عينه بازائه بنفسه وانه لمظنة فضل تأمل منك فاحتط . وقولي دلالة ظاهرة احتراز عن الاستعارة . ولك ان تقول : الحقيقة هي الكلمة المستعملة في معناها بالتحقيق »[1] .

ويلاحظ انه في تحديداته يضع القيود لكي لا يدخل في التعريف شيء لا يقصده او يخرج منه أمر يريد ادخاله فيه ، فقوله « فيما هي موضوعة له من غير تأويل » قيد يحترز به عن الاستعارة ، لانه في الاستعارة تعد الكلمة مشتملة فيما هي موضوعة له ولا نسميها حقيقة بل نسميها مجازا لغويا لبناء دعوى المستعار موضوعا للمستعار له على ضرب من التأويل . وقوله : « دلالة ظاهرة » قيد يحترز به عن الاستعارة ايضا .

وقسم الحقيقة الى لغوية وشرعية وعرفية ولكنه لم يحددها

(١) مفتاح العلوم ص ١٦٩ ــ ١٧٠

تحديدا دقيقا واكتفى بأن قال : ان الحقيقة تكون لغوية ان كان صاحب وضعها واضع اللغة ، وتكون شرعية ان كان صاحب وضعها الشارع وتكون عرفية اذا لم يتعين واضعها •

الاســــتعارة :

لعل الجاحظ أول من حدها بقوله : « الاستعارة تسمية الشـيء باسم غيره اذا قام مقامه »[1] •

وهذا تعريف بسيط ليس فيه حصر للاستعارة وانواعها • وقـد تابعه البلاغيون الاوائل كابن قتيبة والمبرد وابن المعتز وغيرهم •

وكان عبد القاهر من أدق الذين حصروا المصطلح حصرا منطقيـا فقال عنه : « الاستعارة ان تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع ان تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء الى اسم المشبه بـه فتعيره المشبه وتجريه عليــه » • وقسمها الى استعارة مفيدة وغير مفيـــدة وتكلم على الاستعارة التحقيقية والتخييلية والتمثيلية •

وجاء فخرالدين الرازي فضبط أقسام الاستعارة أكثر من عبـد القاهر وحدد رسومها ، فذكر الاستعارة الاصلية والتبعية وتكلم على ترشيح الاستعارة وتجريدها ، وعلى الاستعارة بالكناية والاســتعارة التخييلية [3] •

واستفاد السكاكي من كلام الرازي كثيرا ويكاد تعريفه للاستعارة وتقسيمها الى عدة أنواع لا يخرج عما ذكره ، يقول الســـكاكي في تعريفها : « هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخرمدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به دالا على ذلك باثباتك للمشبه ما يخص المشبه به »[4] • وفي هذا التعريف حصر للاستعارة التصريحية والمكنية،

---

(١) البيـان والتبيين ج ١ ص ١٥٣ .
(٢) دلائل الاعجاز ص ٥٣
(٣) ينظر كتاب نهاية الايجاز ص ٨٩ ، ٩٢ ، ١٠٢
(٤) مفتاح العلوم ص ١٧٤

وهو أدق التعريفات تحديدا واحسنها ضبطا . والسكاكي يعتبر هذا التعريف أحسن من تعريفها بانها : نقل العبارة من معنى الى معنى ، لان الاستعارة لا يمكن ان تكون الا ادعاء لا نقلا لان فيها ما لا يتصور تقدير النقل فيه وذلك مثل قول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرة إذْ اصبحت بيد الشمال زمامها

لانه لا يمكن ان تزعم ان لفظ « اليد » قد نقل عن شيء الى شيء، لأنه ليس المعنى على انه شبَّهَ شيئا باليد فيمكن أن نزعم انه نقل لفظ اليد اليه وانما المعنى انه اراد أن يثبت للشمال في تصريفها الغداة على طبيعتها شبه الانسان قد اخذ الشيء بيده يقلبه ويصرفه كيف يريد .ولا يمكن أن يكون هذا ادعاء . وكان الجرجاني أول من تنبه الى ان الاستعارة ادعاء معنى الاسم للشيء لا نقل الاسم عن الشيء (١) .

أما أقسام الاستعارة فقد عرفها السكاكي أيضا فقال عن الاستعارة المصرح بها والمكنى عنها : « المراد بالاول هو أن يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه هو المشبه به . والمراد بالثاني ان يكون الطرف المذكور هو المشبه » .

وقال عن الاستعارة التحقيقية : « المراد بالتحقيقية أن يكون المشبَّه المتروك شيئا متحققا أما حسيا واما عقليا » .

وقال عن التخييلية : « المراد بالتخييلية أن يكون المشبه المتروك شيئا وهميا محضا لا تحقق له الا في مجرد الوهم » .

وقال عن الاصلية : « ان يكون معنى التشبيه داخلا في المستعار دخولا اوليا » ، وهي ما تقع في اسماء الاجناس غير المشتقة .

وقال عن التبعية : « أن لا يكون دخولا أوليا » وهي ما تقع في غير اسماء الاجناس كالافعال والصفات والاسماء المشتقة والحروف .

---

(١) ينظر دلائل الاعجاز ص ٣٣٣ وما بعدها

وقال عن الاستعارة التهكمية بانها استعارة اسم أحد الضدين أو النقيضين للآخر بواسطة انتزاع شبه التضاد والحاقه بشبه التناسب بطريق التهكم أو التلميح ثم ادعاء احدهما من جنس الاخر والافراد بالذكر ونصب القرينة ، فتقول « ان فلانا تواترت عليه البشارات بقتله ونهب امواله وسبي اولاده » • ويسمى هذا النوع من الاستعارة « الاستعارة التهكمية او التلميحية »[١] •

ولم يخرج تحديد المتأخرين للاستعارة وأقسامها عما ذكره السكاكي ، وبذلك أوقف هذا الفن الجميل عن التطور كما اوقف غيره من الفنون البلاغية الاخرى • وانشغل الناس بعده في هذه الانواع الكثيرة من الاستعارة وتحديدها وعقدوا المناظرات من أجل ذلك حتى وصلت الحالة الى ان تحدث الخصومات والمنازعات كما جرى بين السيد الشريف الجرجاني (٨١٦ هـ) وسعدالدين التفتازاني (٧٩٢هـ)• فقد جرت بينهما مناظرة في مجلس تيمور في اجتماع الاستعارة التبعية والتمثيلية في كلام صاحب الكشاف في قوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم »[٢] • وكان الحكم بينهما نعمان الدين أبو عبد الجبار الخوارزمي المعتزلي فحكم بتفضيل رأي السيد واشتهر ذلك بين جمهرة الناس فاغتم سعدالدين ولم يعش بعد هذه الواقعة الا قليلا[٣] •

الكناية :

للكناية معان كثيرة ، فقد جاءت بمعنى الضمير وبمعنى الكنية وبمعناها الاصطلاحي • وذكرت أنواعها في الكتب الاولى وبقي مدلولها لغويا حتى حدها الجرجاني بقوله : « الكناية ان يريد المتكلم إثبات

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٧

(٢) سورة لقمان ، الآية ٥ .

(٣) تنظر القصة في مقالة البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها لامين الخولي ص ٤٨ ، وكتاب تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها للمراغي ص ١٥٨

معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء الى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومى به اليه ويجعله دليلا عليه »[١] • وهذا التعريف أدق من كلام السكاكي في تعريف الكناية وتحديدها فقد قال : « الكناية هي ترك التصريح بذكر الشيء الى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور الى المتروك »[٢] •

وهذا التعريف ــ اذا ما نظرنا اليه نظرة منطقية أو فلسفية ــ يكون أدخل في المنطق من تعريف الجرجاني ، لان السكاكي جعل الكناية انتقالا من اللازم الى الملزوم بعكس المجاز الذي هو انتقال من الملزوم الى اللازم وبذلك ينسجم مع عقلية السكاكي وما جرى عليه في التحديد والتقسيم • أما تعريف الجرجاني فأدل على الكناية وأقرب الى روح الادب ، فلا انتقال من لازم الى ملزوم ولا غير ذلك •

وقد قسمها السكاكي الى ثلاثة انواع هي : الكناية المطلوب بها نفس الموصوف ، والكناية المطلوب بها نفس الصفة ، والكناية المطلوب بها تخصيص الصفة بالموصوف • ولم يحدد هذه الانواع كما حدد الكناية واكتفى بأن ذكر أنها تقرب تارة وتبعد اخرى ، وذكر ان الكناية تتفاوت الى تعريض وتلويح ورمز وايماء واشارة ، ولم يعرفها وانما اكتفى بالاشارة اليها وذكر امثلة قليلة •

البديع :

لا يخرج معنى كلمة « البديع » في المعاجم اللغوية عن أمرين هما: الجدة والبراعة • وكان الرواة أول من اطلق معنى البديع على المستطرف الجديد من الفنون الشعرية ، وعلى بعض الصور البيانية التي يأتي بها الشعراء في اشعارهم فتزيدها حسنا وجمالا •

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٥٢

(٢) مفتاح العلوم ص ١٨٩

يقول الجاحظ معلقا على قول الاشهب بن رميلة :

همُ ساعد الدهرِ الذي يتقى به   وما خيرُ كف لا تنوء بساعد

« قوله ــ هم ساعد الدهر ــ انما هو مثل وهـذا الذي تسميه الرواة البديع »[1].

وقد دفعه غلوه في حب العرب والرد على الشعوبية الى ان يقول : « والبديع مقصور على العرب ومن اجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان »[2] .

وكان المولّدون من شعراء الدولةالعباسية قد أكثروا في أشعارهم من الصور البيانية التي سماها الجاحظ « البديع » ، فكلثوم بن عمرو يذهب بشعره هذا المذهب وتبعه كثير من الشعراء كمنصور النمري ومسلم بن الوليد الانصاري وبشار بن برد وابن هرمة .

وهذه ظاهرة ليست عجيبة فقد خرج العرب من جزيرتهم واتصلوا بالعالم ودخلت حياة الترف مجتمعهم الجديد وتأنقوا في حياتهم المعاشية فكان لابد أن يصطبغ ادبهم بهذه الصبغة الجديدة وان يذهب شعرهم في البديع .

وقد حمل لواء هذا الاتجاه بشار وابن هرمة وابو تمام وأضرابهم من الشعراء ، وشاع هذا الاتجاه في الادب ولج المولدون في استعماله وتباهوا بانهم السباقون مما حدا بالخليفة العباسي الشاعر ابن المعتز ان يؤلف كتاب«البديع»ليعلم ان بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تَقَيَّلَهُم[3] وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ولكنه كثر في اشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فاعرب عنه ودل عليه ، وليعرف الناس ان المحدثين لم يسبقوا المتقدمين الى شيء من أبواب البديع[4] .

---

(١) البيان والتبيين ج٤ ص ٥٥
(٢) البيان والتبيين ج٤ ص ٥٥ . وينظر ج١ ص ٥١
(٣) تقيلهم : أشبههم .
(٤) ينظر البديع لابن المعتز ص ١ــ٣

والبديع عند ابن المعتز ليس البديع الذي فهمه المتأخرون وانما هو مختلف الوجوه البيانية ولذلك بحث فيه الاستعارة الى جانب التجنيس والكناية الى جانب لزوم ما لا يلزم .

وعاصر قدامة بن جعفر الشاعر ابن المعتز وجمع من البديع أنواعا كثيرة كالتصريع والسجع والجناس والطباق والالتفات ، ولكنه لم ينظر اليه غير نظرة معاصره . وتبعهما في ذلك ابو هلال العسكري فعقد الباب التاسع من « كتاب الصناعتين » في شرح البديع ، وهو عنده مختلف الصور البيانية من استعارة وتعريض وتطريز وتشطير .

ولم يهتم القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني باصناف البديع ولم يذكر منها الا أنواعا قليلة ، ويبدو انه يسمي جميع فنون القول بديعا كما كان يسميه الباقلاني .

واهتم المغاربة بالبديع اهتماما كبيرا وكان أشهر من كتب فيه ابن رشيق القيرواني ، ولكنه لم يقصد به الا فنون البلاغة كلها . ولم يفرق ابن سنان بين موضوعات البلاغة ، وكان معاصره عبد القاهر مثله في ذلك ، فهو في كتابه « اسرار البلاغة » اطلق اسم البديع على التشبيه والاستعارة والتمثيل وعلى سائر اقسام البديع الاخرى كالتجنيس والحشو والطباق وحسن التعليل . ويسمي هذه الموضوعات — وبحوثا اخرى دخلت في علم المعاني — بيانا في كتابه « دلائل الاعجاز » .

فكلمتا « البيان » و « البديع » متقاربتا المعنى عند عبد القاهر ولم يكن لهما المدلول الخاص الذي اطلقه السكاكي عليهما فيما بعد .

وزاد الاهتمام بالبديع في عصر السكاكي أي في القرنين السادس والسابع الهجريين . وقد اختلف اتجاه أهل مصر والشام عن المشارقة[1] في بحث البديع . فمع انه أصبح في هذا العصر يميل الى الناحية الشكلية

---

(١) المقصود بالمشارقة أهل ايران وما وراءها من الاقاليم الاسلامية يومذاك .

أكثر من ميله الى ناحية المعنى فان أهل مصر والشام كانوا في بحث البديع يعتمدون على الذوق الادبي ، وكان اسامة بن منقذ وابن أبي الاصبع المصري خير من يمثل هذا الاتجاه .

ولم يهتم المشارقة بالبديع كما اهتم به المغاربة ، فالزمخشري ــ مثلا ــ لم يذكر منه الا انواعا قليلة جدا وتابعه في ذلك المطرزي وغيره .

وقد كان للبيئة التي عاش فيها السكاكي أثر في بحثه أنواع البديع فهو لم يهتم به كثيرا ، ولعله كان ينظر اليه نظرة الجرجاني والزمخشري وغيرهما ممن اهتموا بعلمي المعاني والبيان .

ولم يذكر من البديع الا ستة وعشرين نوعا ، وهو يرى أنه اكثر من هذا « فلك أن تستخرج من هذا القبيل ما شئت وتلقب كلا من ذلك بما احببت »[1] .

ولم يسم السكاكي هذا القسم من البلاغة « بديعا » وانما سماه « محسنات » أو وجوها كثيرا ما يصار اليها لقصد تحسين الكلام .ولم يحدد معنى هذه المحسنات او البديع كما حدد المصطلحات الاخرى، او كما حده الخطيب القزويني من بعده .

وكان الذي أطلق مصطلح « البديع » على المحسنات بدر الدين ابن مالك (٦٨٦ هـ) وقال عنه : « هو معرفة توابع الفصاحة »[2] ، وتابعه في ذلك الخطيب القزويني وحصر معناه بقوله : « هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة »[3] .

ولم يدخل السكاكي البديع في البلاغة لان البلاغة عنده تختص

---

(١) مفتاح العلوم ص ٢٠٤

(٢) المصباح ص ٧٥ .

(٣) الايضاح ص ٢٤٣ .

بعلمي المعاني والبيان ، ويتضح هذا من تعريفه البلاغة فهو يقول : « البلاغة هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وايراد انواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها »[1] .

وبعد ان انتهى من بحث علمي المعاني والبيان قال : «واذ قد تقرر ان البلاغة بمرجعيها وان الفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين فها هنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار اليها لقصد تحسين الكلام فلا علينا ان نشير الى الاعرف منها . وهي قسمان : قسم يرجع الى المعنى وقسم يرجع الى اللفظ »[2] .

وبذلك يتضح لنا ان السكاكي قد فصل المحسنات عن المعاني والبيان واعتبرها وجوها لتحسين الكلام ولكنه لم يطلق عليها مصطلح « البديع » وانما الذي اطلق هذا المصطلح بدرالدين بن مالك وتابعه في ذلك الخطيب القزويني وغيره من المتأخرين ، وانه لم يحدد معناه ويضبطه كما حصر المصطلحات الاخرى وضبطها .

أما تحديده مصطلحات المحسنات اللفظية والمعنوية فلم يكن ذا أهمية لانه لم يهتم بذكر أبواب البديع كما اهتم بعلمي المعاني والبيان . وهو في تحديدها يقتفي خطا غيره كرشيد الدين الوطواط والرازي والمطرزي ، يضاف الى ذلك ان كثيرا من مصطلحات البديع ظهرت منذ عهد مبكر ولا سيما في كتاب « البديع » لابن المعتز ، وتحدد معناها . فليس للسكاكي في هذا الميدان فضل أو أثر كما كان له في تحديد مصطلحات المعاني والبيان .

☆ ☆

(١) مفتاح العلوم ص ١٩٦
(٢) مفتاح العلوم ص ٢٠٠

وهكذا ساهم السكاكي مساهمة فعالة في تحديد مصطلحات البلاغة وكان لتحديداته أثر بالغ في ايقاف البلاغة عند الحد الذي رسمه لها • وقد رأينا ان مصطلحات البلاغة قد تطورت كثيرا حتى بلغت على يديه هذا الضبط المنطقي الذي أضاع كثيرا من حيويتها وأثرها في تطور البلاغة •

ونحن مع هذا لا ننكر ان تكون للفن قواعد ومصطلحات كما للعلم مصطلحات وقواعد ولكن الذي ننكره أن تصل الحال الى ما وصلت اليه عند السكاكي ، لانه ينبغي « ان يظل الفرق بين القاعدتين ثابتا ، وهو ان القاعدة العلمية تقود وتلتزم حتى توصل الى المعرفة • أما القاعدة الفنية فانها ترشد ولا تلتزم وتقود الى الابتكار الذي هو غاية الفن لا الى المعرفة التي هي غاية العلم »[1] • ولكن عمل السكاكي في المصطلحات عمل علمي أكثر منه عملا فنيا •

(١) بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ص ٦٢ •

آراء السكاكي

لم يكن السكاكي في الواقع الا جامعا ومبوبا لجهود السابقين ولكنه مع ذلك أبدى آراء في بعض مسائل البلاغة وكانت آراؤه في علم البيان أهم واكثر من آرائه في علم المعاني • وسنقتصر في هذا الموضوع على آرائه في علم البيان ، أما آراؤه في علم المعاني فلم يكن له رأي خاص يستحق الذكر •

رأيه في التمثيل :

يختلف رأي السكاكي عن رأي عبدالقاهر في التمثيل فالجرجاني يرى أن التمثيل هو التشبيه الذي لا يكون فيه الوجه امرا بينا بنفسه بل يحتاج في تحصيله الى ضرب من التأول والصرف عن الظاهر •

أما السكاكي فيرى ان التشبيه متى كان وجهه وصفا غير حقيقي وكان منتزعا من عدة أمور خُصَّ باسم التمثيل •

وقد تكلمنا على ذلك في الفصل السابق فلا حاجة الى اعادة ما ذكرناه •

رأيه في المجاز :

قسم السكاكي المجاز في باديء الامر الى مجاز لغوي ، ومجاز عقلي كما قسمه المتقدمون أمثال عبد القاهر وفخرالدين الرازي • وقسَّم بحث المجاز الى خمسة فصول هي : المجاز اللغوي الراجع الى معنى الكلمة غير المفيد ، والمجاز اللغوي الراجع الى المعنى المفيد الخالي من المبالغة في التشبيه ، والاستعارة ، والمجاز اللغوي الراجع الى حكم

الكلمة في الكلام ، والمجاز العقلي •

وهذا التقسيم تقسيم السلف كما يصرح السكاكي نفسه بذلك ، ولكنه لا يقبله،ويرى ان المجاز ينبغي أن يكون كله لغويا•وقد قسمه الى مفيد وغير مفيد ، وقسم المفيد الى استعارة وغير استعارة ، والاستعارة الى مصرح بها ومكنى عنها ، والمصرح بها الى تحقيقية وتخييلية،والمكنى عنها الى ما قرينتها امر مقدر وهمي أو امر محقق ، والتحقيقية والتخييلية كلتاهما الى قطعية واحتمالية للتحقيق والتخييل • ويحدث من هذا عنده ثلاثة أقسام : تحقيقية بالقطع ، وتخييلية بالقطع وتخييلية بالاحتمال[1] •

أما المجاز العقلي فيرى نظمه في سلك الاستعارة بالكناية وذلك بجعل الربيع في « انبت الربيع البقل » ، استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقي بواسطة المبالغة في التشبيه على ما عليه مبنى الاستعارة ،وجعل نسبة الانبات اليه قرينة الاستعارة •

ويجعل الامير في « هزم الامير الجند » المدبر لاسباب هزيمة العدو استعارة بالكناية عن الجند الهازم وجعل نسبة الهزم اليه قرينة للاستعارة •

وقد عد الخطيب القزويني هذا النوع من المجاز مجازا بالاسناد لذلك أخرجه من علم البيان وادخله في علم المعاني وعقد له فصلا بعنوان « الاسناد منه حقيقة عقلية ومنه مجاز عقلي » • ويرى أن المسمى بالحقيقة العقلية والمجاز العقلي:الاسناد ، بينما يرى السكاكي ان المسمى بهما هو الكلام لا الاسناد[2] •

ولا نرى وجها لاخراج المجاز العقلي من مباحث البيان ، وان رأي الساكي في جعله استعارة بالكناية خير من بحثه في الاسناد •

(١) مفتاح العلوم ص ١٨٩
(٢) ينظر الايضاح ص ١٩

وبهذا التقسيم قلل السكاكي أنواع المجاز وجعله نوعا واحدا هو المجاز اللغوي . والى هذاذهب العلوي حينما قرر أن المجاز لامدخل له في الاحكام العقلية ولا وجه لتسمية المجاز بكونه عقليا ، لان ما هذا حاله انما يتعلق بالاوضاع اللغوية دون الاحكام العقلية[1] .

أما رأيه في المجاز الراجع الى حكم الكلمة في الكلام فيرى أن يعد هذا النوع ملحقا بالمجاز ومشبها به لما بينهما من الشبه وهو اشتراكهما في التعدي عن الاصل الى غير اصل لا ان يعد مجازا . ففي قوله تعالى « وجاء ربك»[2] الاصل : وجاء أمر ربك ، والحكم الاصلي في الكلام لقوله « ربك » هو الجر واما الرفع فمجاز . ومثلها قوله تعالى « واسأل القرية »[3] والاصل « اسأل اهل القرية » فالحكم الاصلي « للقرية » في الكلام هو الجر ، والنصب مجاز[4] .

ومدار هذا النوع على حرف واحد وهو أن تكتسي الكلمة حركة لاجل حذف كلمة لابد من معناها او لاجل اثبات كلمة مستغنى عنها استغناء واضحا ، ومن هنا جاء رأيه في هذا النوع من المجاز واعتباره ملحقا به أو مشبها به لا مجازا اصليا .

رأيه في الاستعارة :

اعتبر السكاكي الاستعارة مجازا لغويا لانه يرى ان لا وجود للمجاز العقلي خلافا لعبد القاهر الذي اضطرب فيها فاعتبرها مجازا لغويا مرة ، ومجازا عقليا مرة اخرى .

وأنكر الاستعارة التبعية ورأى لو ان القدماء جعلوها من قسم الاستعارة بالكناية لكان ادق واحسن وذلك بان قلبوا فجعلوا في قولهم

---

(١) ينظر الطراز ج١ ص ٢٥٠

(٢) سورة الفجر ، الآية ٢٢ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٨٢ .

(٤) ينظر مفتاح العلوم ص ١٨٥

« نطقت الحال بكذا » ـ الحال التي ذكرها عندهم ـ قرينة الاستعارة بالتصريح ، استعارة بالكناية عن المتكلم بواسطة المبالغة في التشبيه على مقتضى المقام ، وجعلوا نسبة النطق اليه قرينة الاستعارة كما نراهم في قوله :

واذا المنية انشبت اظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

يجعلون « المنية » استعارة بالكناية عن السبع ، ويجعلون اثبات الاظفار لها قرينة الاستعارة .

وهكذا لو جعل « البخل » في قوله :

قتل البخلَ وأحيا السَّماحا

استعارة بالكناية عن حي أبطلت حياته بسيف او غير سيف فالتحق بالعدم وجعلوا نسبة القتل اليه قرينة .

ولو جعلوا ايضا اللهذميات في قوله :

نقريهم لهذميات نقد بها ما كان خاط عليهم كل زراد[1]

استعارة بالكناية عن المطعومات اللطيفة على سبيل التهكم ، وجعلوا نسبة لفظ « القرى » اليها قرينة الاستعارة لكان أقرب الى الضبط[2] .

ومع ان السكاكي انتقد القدماء في تقسيم الاستعارة فانّه قسمها الى عدة أنواع: مصرح بها ومكني عنها ، والمصرح بها تحقيقية وتخييلية ، والمكني عنها الى ما قرينتها أمر مقدر وهمي أو امر محقق ، والتحقيقية والتخييلية كلتاهما الى قطعية واحتمالية للتحقيق والتخييل . ويحصل من هذين الاخيرين استعارة تحقيقية بالقطع وتخييلية بالقطع ، وتحقيقية او تخييلية بالاحتمال .

ونرى أن تقسيم الاستعارة الى هذه الاقسام الكثيرة لا فائدة فيه ولا تجدي معرفتها كثيرا في تعلم البلاغة واتقانها ، وانه لمن المفيد ان

---

(١) قرى : اضاف . اللهذم : الحاد القاطع من السيوف والاسنة .
(٢) ينظر مفتاح العلوم ص ١٨١

نقسم الاستعارة الى نوعين : استعارة تصريحية واستعارة مكنية .

وماذا في هذا التقليل من ضرر ؟ فتقليل المصطلحات والتقسيمات لا يؤثر في تذوق الاستعارة وادراك ما فيها من جمال ، وتفهم ما ترمي اليه من معان لها تأثيرها في النفوس . يقول الاستاذ محمد بن تاويت ناقدا تقسيم السكاكي هذا : « فانظر الى ضيق افقه في ارجاع التبعية والمجاز العقلي الى الاستعارة المكنية . ثم انظر الى هذا التقسيم الجاف للمجاز كيف تنقبض منه النفس ويضيق منه الصدر ولا ينطلق في اسراره اللسان »[1] .

ولا نوافق الاستاذ تاويت في الشطر الاول من قوله ، فادخال الاستعارة التبعية والمجاز العقلي في الاستعارة المكنية لا ضرر فيه،وليس هدماً لكيان البلاغة ، أما القسم الثاني من كلامه فنوافقه عليه ، لأن السكاكي أسرف في التقسيم وفاق السلف الذين انتقدهم وبيَّن خطلهم.

رأيه في الكناية :

قسَّم الكناية الى ثلاثة أنواع هي الكناية المطلوب بها نفس الموصوف ، والكناية المطلوب بها نفس الصفة ، والكناية المطلوب بها تخصيص الصفة بالموصوف . وفي هذا التقسيم يكاد يتابع عبد القاهر متابعة تامة .

وقد ذكر السكاكي قسما رابعا للكناية وهو أن يكون المطلوب بالكناية الوصف والتخصيص معا مثل ما يقال « يكثر الرماد في ساحة عمرو » في الكناية عن ان عمرا مضياف ولكنه لا يوافق من يقول بهذا الرأي ، ويرى ان هذه ليست كناية واحدة بل كنايتان ، وانتقال من لازمين الى ملزومين ، أحد اللازمين كثرة الرماد والثاني تقييدها وهو قولنا « في ساحة عمرو »[2] .

---

(1) مقدمة دلائل الاعجاز ج١ ص ٤٨ طبعة مراكش .
(2) مفتاح العلوم ص ١٩٣

مقاييسه البلاغيـــة

كان للنقاد والبلاغيين مقاييس يقيسون بها الادب ويحكمون عليه، وكانت تلك المقاييس تهتم بالذوق الى جانب اهتمامها بالقاعدة والاصول الفنية ، وكانت يقاس بها المعنى كما يقاس بها الاسلوب . ومن مقاييس النوع الاول الصحة او الخطأ ، والابتكار او التقليد ، والطرافـــة ، والدين والخلق ، والصدق او الكذب ، والتناقض وغيرها . ومن النوع الثاني الدقة والايحاء اللفظي والسهولة والرقة والوضوح والقوة وضعف التأليف ووحدة النسج وغيرها من المقاييس التي كانت سائدة بين النقاد العرب في عصور الادب الزاهية .

ولكن ما ان فترت الهمة وساد الجمود في الحياة الادبية حتى ترك النقاد معظم هذه المقاييس الادبية المعتمدة على الذوق والفن واتجهوا اتجاها آخر اساء الى الادب كثيرا . فقد جاء السكاكي وحصر البلاغة ذلك الحصر الذي رأيناه فاتجهت جهود النقاد والادباء الى علوم البلاغة الثلاثة يستوحون منها المقاييس في نقد الادب وانشائه ، وبذلك تحول النقد الى دراسة بلاغية واخذ نموه يسير في الاتجاه البلاغي فانحصر فيما تتناوله هذه العلوم من ابواب ومسائل بعد ان كان حرا طليقا .

لقد اصبحت مقاييس النقد على يدي السكاكي مقاييس بلاغيـــة تتناول شروط فصاحة الكلمة وبلاغة الكلام وتطبيق مسائل البلاغة من تقديم وتأخير وحذف وذكر وفصل ووصل وايجاز واطناب وتشبيه ومجاز وكناية وغيرها .

ويتضح هذا الاتجاه عنده في تحليل قوله تعالى « وقيل يا أرض

ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي وقيل بُعْداً للقوم الظالمين »[١] فقد نظر الى هذه الآية الكريمة من أربع جهات : من جهة البيان ومن جهة المعاني وهما مرجعا البلاغة ، ومن جهة الفصاحة المعنوية ومن جهة الفصاحة اللفظية .

يقول : « اما النظر فيها من جهة علم البيان وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها فنقول انه عز سلطانه لما اراد ان يبين معنى اردنا ان نرد ما انفجر من الارض الى بطنها فارتد وان نقطع طوفان السماء فانقطع وان نغيض الماء النازل من السماء فغاض وان نقضي امر نوح وهو انجاز ما كنا وعدنا من اغراق قومه فقضي وان نسوي السفينة على الجودي فاستوت وابقينا الظلمة غرقى ، بنى الكلام على تشبيه المراد بالمأمور الذي لا يتأتى منه لكمال هيبته العصيان وتشبيه تكوين المراد بالامر الجزم النافذ في تكون المقصود تصويرا لاقتداره العظيم وان السماوات والارض وهذه الاجرام العظام تابعة لارادته ايجادا واعداما ولمشيئته فيها تغييرا وتبديلا كأنهما عقلاء مميزون قد عرفوه حق معرفته وأحاطوا علما بوجوب الانقياد لامره والاذعان لحكمه وتحتم بذل المجهود عليهم في تحصيل مراده وتصوروا مزيد اقتداره فعظمت مهابته في نفوسهم وضربت سرادقها في افنية ضمائرهم فكما يلوح لهم اشارته كان المشار اليه مقدما وكما يرد عليهم امره كان المأمور به متمما لا تلقى لاشارته بغير الامضاء والانقياد ، ولا لامره بغير الاذعان والامتثال .

ثم بنى على تشبيه هذا نظم الكلام فقال جل وعلا « قيل » على سبيل المجاز عن الارادة الواقع بسببها قول القائل وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد وهو « يا ارض » و « يا سماء » ثم قال كما ترى « يا ارض » و « يا سماء » مخاطبا لهما على سبيل الاستعارة للشبه المذكور

(١) سورة هود ، الآية ٤٤ .

ثم استعار لغؤور المــــاء في الارض البلع الذي هو اعمال الجاذبة في المطعوم للشبه بينهما وهو الذهاب الى مقر خفي • ثم استعار المـــاء للغذاء استعارة بالكناية تشبيهاًله بالغذاء لتقوى الارض بالماء في الانبات للزروع والاشجار تقوي الآكل بالطعام وجعل قرينـــة الاستعارة لفظة أبلعي لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء • ثم امــر على سبيل الاستعارة للشبه المقدم ذكره وخاطب في الامر ترشحا لاستعارة النـــداء •

ثم قال « ماءك » باضافة الماء الى الارض على سبيل المجازتشبيها لاتصال الماء بالارض باتصال الملك بالمالك واختار ضمير الخطاب لاجل الترشيح ثم اختار لاحتباس المطر الاقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم ما كان • ثم امر على سبيل الاستعارة وخاطب في الامر قائلا « أقلعي » لمثل ما تقدم في « ابلعي » ثم قال : « وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي وقيل بعدا » فلم يصرح بمن غاض الماء ولا بمن قضى الامر وسوى السفينة وقال « بعدا » كما لم يصرح بقائل « يا ارض » و « يا سماء » في صدر الآية سلوكا في كل واحد من ذلك لسبيل الكناية •

ان تلك الامور العظام لا تتأتى الا من ذي قدرة لا يكتنه قهـار لا يغالب فلا مجال لذهاب الوهم الى أن يكون غيره جلت عظمته قائل « يا ارض » و « يا سماء » ولا غائض مثل ما غاض ولا قاضي مثل ذلك الامر الهائل أو ان تكون تسوية السفينة واقرارها بتسوية غيره واقراره•

ثم ختم الكلام بالتعريض تنبيها لسالكي مسلكهم في تكـذيب الرسل ظلما لانفسهم لا غير ختم اظهار لمكان السخط ولجهة استحقاقهم اياه وان قيمة الطوفان وتلك الصورة الهائلة ما كانت الا لظلمهم •

وأما النظر فيها من حيث علم المعاني وهو النظر في فائدة كل كلمة منها وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها فذلك انه اختير «يا » دون سائر

اخواتها لكونها اكثر في الاستعمال وانها دالة على بعد المنادى الذي يستدعيه مقام اظهار العظمة وابداء شأن العزة والجبروت وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به ولم يقل « يا ارض » بالكسر لامداد التهاون ولم يقل « يا ايتها الارض »لقصد الاختصار مع الاحتراز عما في «ايتها» من تكلف التنبيه غير المناسب بالمقام ، واختير لفظ « الارض » دون سائر اسمائها لكونه اخف وادور • واختير لفظ « السماء » لمثل ماتقدم في الارض مع قصد المطابقة • واختير لفظ « ابلعي » على « ابتلعي » لكونه اخصر ولمجيء خط التجانس بينه وبين « أقلعي » أوفر • وقيل «ماءك» بالافراد دون الجمع لما كان في الجمع من صورة الاستكثار المتأتي عنها مقام اظهار الكبرياءوالجبروت وهوالوجه في افراد«الارض» و « السماء »وانما لم يقل « ابلعي » بدون المفعول ان لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء باسرهن نظرا الى مقام ورود الامر الذي هو مقام عظمة وكبرياء • ثم اذا بين المراد اختصر الكلام مع « أقلعي » احترازا عن الحشو المستغنى عنه وهو الوجه في انلم يقل « قيل يا ارض ابلعي ماءك فبلعت، ويا سماء أقلعي فأقلعت » • واختير « غيض » على « غيض » المشدد لكونه اخصر • وقيل « الماء » دون ان يقال « ماء طوفان السماء » وكذا الامر دون ان يقال « امر نوح » وهو انجاز ما كان الله وعد نوحا من اهلاك قومه ، لقصد الاختصار • والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك ولم يقل « سويت على الجودي » بمعنى « أقرت » على نحو « قيل » و « غيض » و « قضي » في البناء للمفعول اعتبارا لبناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله « وهي تجري بهم في موج » مع قصد الاختصار في اللفظ • ثم قيل « بعدا للقوم » دون ان يقول « ليبعد القوم » طلبا للتأكيد مع الاختصار وهو نزول « بعدا » منزلة « ليبعدوا بعدا » مع فائدة اخرى وهو استعمال اللام مع « بعدا » الدال على معنى ان البعد حق لهم • ثم أطلق « الظلم » ليتناول كل نوع حتى يدخل فيه

ظلمهم انفسهم لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في تكذيب الرسل •

هذا من حيث النظر الى تركيب الكلم ، واما من حيث النظر الى ترتيب الجمل فذاك انه قد قدم النداء على الامر فقيل « يا ارض ابلعي » و « يا سماء أقلعي » دون ان يقال « ابلعي يا ارض » و « أقلعي يا سماء » جريا على مقتضى اللازم فيمن كان مأمورا حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكن الامر الوارد عقيبه في نفس المنادي قصدا بذلك لمعنى الترشيح ثم قدم أمر الارض على امر السماء وابتديء به لابتداء الطوفان منها ونزولها لذلك في القصة منزلة الاصل ، والاصل بالتقديم اولى • ثم اتبعهما قوله « وغيض الماء » لاتصاله بقصة الماء واخذه بحجزتها ، الا ترى اصل الكلام « قيل يا ارض ابلعي ماءك فبلعت ماءها ، ويا سماء أقلعي عن ارسال الماء فأقلعت عن ارساله ، وغيض الماء النازل من السماء فغاض » • ثم اتبعه ما هو المقصود من القصة وهو قوله « وقضي الامر » اي انجز الموعود من اهلاك الكفرة وانجاء نوح ومن معه في السفينة ثم اتبعه حديث السفينة وهو قوله « واستوت على الجودي » ثم ختمت القصة بما ختمت •

هذا كله نظر في الآية من جانبي البلاغة ، وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهي كما ترى نظم للمعاني لطيف وتأدية لها ملخصة مبينة لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد ولا التواء يشيك الطريق الى المرتاد بل اذا جربت نفسك عند استماعها وجدت الفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق الفاظها • فما من لفظة في تركيب الآية ونظمها تسبق الى اذنك الا ومعناها اسبق الى قلبك •

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية ، فالفاظها على ما ترى عربية مستعملة جارية على قوانين اللغة ، سليمة عن التنافر بعيدة عن البشاعة ، عذبة على العذبات ، سليسة على الاسلاسات ، كل منها كالماء في السلاسة وكالعسل في الحلاوة وكالنسيم في الرقة •

ولله در شأن التنزيل لا يتأمل العالم آية من آياته الا ادرك لطائف لا تسع الحصر ولا تظنن الآية مقصورة على ما ذكرت فلعل ما تركت أكثر مما ذكرت لان المقصود لم يكن الا مجرد الارشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمي المعاني والبيان »[1] .

لقد ذكر السكاكي تحليل هذه الآية لتكون نموذجا يرشد الناس الى كيفية اجتناء ثمرات المعاني والبيان وتطبيق مقاييس البلاغة. ويلاحظ من كلامه أن علمي المعاني والبيان هما مرجعا البلاغة ، وان الفصاحة بنوعيها المعنوية واللفظية مما يكسو الكلام حلة التزيين ولكن لا كالمعاني والبيان . ويلاحظ أنه لم يدخل البديع او المحسنات في مقاييسه لانها وجوه مخصوصة يصار اليها لقصد تحسين الكلام .

وتحليله لا يخرج عن نطاق الجملة وان نظرته كنظرة البلاغيين الآخرين الذين لا يخرجون عن الجملة أو الجملتين ، أما النظر الى العمل الفني ككل فهذا ما لا نراه عند السكاكي . وتغلب عليه النزعة القاعدية ، فالسكاكي يطبق ما ذكر من مسائل علمي المعاني والبيان والفصاحة اللفظية والمعنوية على الآية تطبيقا حرفيا ، ويأخذها كلمة كلمة ، وفي هذا قضاء على تحسس ما في الآية كلها من روعة وجمال .

وهذا هو المقياس الاول عنده ، أما المقياس الثاني فهو الذوق . فما لم يكن الناقد ذوق فانه لا يستطيع أن يدرك ما في الكلام من روعة وجمال ، يقول : « ثم اذا كنت ممن ملك الذوق الى الطبع وتصفحت كلام رب العزة اطلعتك على ما يوردك هناك موارد الهزة ، وكشفت لنور بصيرتك عن وجه اعجازه القناع »[2] .

وقد كرر الدعوة الى اتخاذ الذوق أساسا في قياس الادب ، وقد بيّنّا أنه مع ذلك لم يطبق قوله فسرعان ما نسِيَ قوله وانهمك في

(١) مفتاح العلوم ص ١٩٧ ـ ١٩٩
(٢) مفتاح العلوم ص ١٤٥

التقسيمات والتعليلات المنطقية •

وعلى كل حال فهذه التفاتة حسنة من رجل عاش في أواخر القرن السادس الهجري وفي بيئة غير عربية • وقد استفاد من دعوته هذه في مسألة الاعجاز ورأى أن الاعجاز يدرك ولا يمكن تعليله كالملاحة ، ومدرك الاعجاز عنده الذوق • ولكن كيف يتكون هذا الذوق ؟يرى أن طريق اكتسابه طول خدمة علمي المعاني والبيان •

وهناك بعض الموازين التي يمكن ان يقاس بها حسن الكلام وجماله ولكنها لا تخرج في الواقع عن مقاييسه المتقدمة • فقد ذكر ان من شروط حسن الاستعارة رعاية جهات حسن التشبيه بين المستعار والمستعار منه في الاستعارة بالتصريح التحقيقية والاستعارة بالكناية ، وان لا تشمها في الكلام من جانب اللفظ رائحة من التشبيه لذلك ينبغي في الاستعارة بالتصريح أن يكون الشبه بين المستعار له والمستعار منه جليا بنفسه او معروفا سائرا بين الاقوام والا خرجت الاستعارة عن كونها استعارة ودخلت في باب التعمية والالغاز كما اذا قلت « رأيت عودا مسقيا اوان الغرس » وأردت انسانا مؤدبا في صباه •

وحسن الاستعارة التخييلية بحسب حسن الاستعارة بالكناية حتى كانت تابعة لها كما في قولنا « فلان بين انياب المنية ومخالبها » ، ثم اذا انضم اليها المشاكلة كما في قوله تعالى« يد الله فوق أيديهم »(١) كانت احسن(٢) •

وهذا ــ كما نرى ــ لا يخرج عن مقاييسه العامة وهي مقاييس بلاغية تعتمد على تطبيق موضوعات البلاغة ومسائلها على الكلام عند تقييمه ومعرفة ما فيه من حسن او قبح ، وروعة او ضعف •

---

(١) سورة الفتح ، الآية ١٠

(٢) ينظر مفتاح العلوم ص ١٨٣ •

هذه مقاييس السكاكي وهي مقاييس محدودة ليس فيها تحديد وليس فيها تحليق ، وقد فتح السبيل لمن جاء بعده فهاموا بهذه الطريقة واتخذوها الطريقة المثلى في النقد . وزادوا عليه بأن ادخلوا البديع في نقد الكلام واتخذوه مقياسا من مقاييسهم الى جانب المعاني والبيان والفصاحة ، وبذلك سيطرت هذه النزعة في نقد الادب فأماتته وصيرته قوالب لفظية ومحسنات بديعية .

وبقي النقد يرزح تحت هذه المقاييس حتى طلع فجر النهضة العربية في القرن العشرين فعادوا الى تراثهم يستلهمونه، والى الحضارة الاوربية يقتبسون منها فنشأ عندنا نقد جديد له مزاياه العربية وأصوله القديمة ، وله سمات من الغرب تقوم اصوله وتهذب مناهجه .

وقبل أن نختم الكلام في مقاييسه البلاغية يجدر بنا ان نذكر صفات الناقد كما يراها السكاكي ، يقول : « وان هذا التركيب متى وقع موقعه .رفع شأن الكلام في باب البلاغة الى حيث يناطح السماك. وموقعه ان يصل من بليغ عالم بجهات البلاغة بصير بمقتضيات الاحوال ساحر في اقتضاب الكلام ماهر في افانين السحر الى بليغ مثله مطلع من كل تركيب على حاق معناه وفصوص مستتبعاته فان جوهر الكلام البليغ مثله مثل الدرة الثمينة لا ترى درجتها تعلو ولا قيمتها تغلو ولا تشترى بثمنها ولا تجري في مساومتها على سننها ما لم يكن المستخرج لها بصيرا بشأنها والراغب فيها خبيرا بمكانها. وثمن الكلام ان يوفى من ابلغ الاصغاء واحسن الاستماع حقه وان يتلقى من القبول له والاهتزاز بأكمل ما استحقه ولا يقع ذلك ما لم يكن السامع عالما بجهات حسن الكلام ، ومعتقدا بأن المتكلم تعمدها في تركيبه للكلام عن علم منه ، فان السامع اذا جهلها لم يميز بينه وبين ما دونه وربما انكره وكذلك اذا ساء بالمتكلم اعتقاده ربما نسبه في تركيبه ذاك الى الخطأ وانزل كلامه منزلة ما يليق به من الدرجة النازلة »[1] .

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٠٨ ـ ١٠٩

هذه جهود السكاكي وهي جهود في بحث مسألة اعجاز القرآن، وجهود في التبويب والتقسيم ، وجهود في مصطلحات البلاغة وتحديدها، ومناقشة لآراء السلف ، وابداء الرأي في بعض مسائل البلاغة • وهذه ليست جهودا قليلة فقد أفاد السكاكي في ضبط مسائل البلاغة وجمع شتاتها وقد صدق ابن خلدون حينما قال : « ثم لم تزل مسائل هذا الفن تكمل شيئا فشيئا الى ان مخض السكاكي زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه »[1] •

ولو انه لم يسرف كثيرا في ادخال المقاييس المنطقية والفلسفية لكان له شأن عظيم وأثر كبير في البلاغة ، ولكنه لم يستطع أن ينجو من هذا الاثر فكان بحث علم المعاني عنده أقرب الى البحث النحوي منه الى البحث البلاغي ، لانه كان يهتم بصحة الامثلة اكثر من اهتمامه بالناحية الفنية وجمال الكلام ، وبذلك سيطر على هذا البحث الجفاف، وكان مدعاة لنفور الدارسين عن هذا النوع من البحث البلاغي •وكان عبد القاهر قدبحث معظم مسائل علم المعاني في كتابه « دلائل الاعجاز» ولكنه لم يسرف هذا الاسراف في تقنين القواعد وضبط الاصول ولم يشعب الفصول هذا التشعب الذي اضاع الفائدة وبعث على الانصراف عنه ، وانما بحثها بحثا فيه تحليل وفيه روح ادبية وتحكيم للذوق في كثير من القضايا • ومن أجل ذلك كان بحث الجرجاني احسن من بحث السكاكي وأقرب الى روح البلاغة والفن الادبي •

ولعل بحث الخطيب القزويني في كتابه « الايضاح » كان أحسن من بحث السكاكي لقربه من روح عبد القاهر البلاغية ولاستفادته الكبيرة من رجال البلاغة المتقدمين واهتمامه بالتحليل والترتيب والتفصيل في كثير من المسائل •

وكان بحثه لعلم البيان أحسن من بحثه لعلم المعاني ، فقد

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢

استطاع السكاكي ان يحلل بعض الامثلة وان يعرض بعض مسائله عرضا فيه حيوية وروح . ولعل سبب ذلك ان مجال البحث في البيان أوسع من مجال بحث المعاني ، او ان الصور البيانية من تشبيه ومجاز وكناية فيها نوع من اللطف يفسح للباحث مجالا رحبا ، ويفتح امامه آفاقا بعيدة . بينما موضوعات علم المعاني ليس فيها ما يدفع الكاتب الى الاجادة الا اذا كان كعبد القاهر الجرجاني الذي استطاع ان يكتبها باسلوب يدعو الى الاعجاب .

وليست عقلية السكاكي كعقلية الجرجاني ، وليس احساسه الفني كإحساسه ، ومن هنا جاء الفرق بين البحثين .

أما بحثه للبديع فلم يكن ذا نفع عظيم ، وقد أساء اليه كثيرا حينما جعله قوالب جامدة لا روح فيها ولا حياة ، وحينما لم يدخله في البلاغة واعتبره ملحقا بالمعاني والبيان . ولم يكن البديع عند أهل مصر والشام كما كان عند السكاكي واضرابه من المشارقة .

فالبديع في الواقع ليس الا مذهبا فنيا يهتم بجمال الكلام ويهدف الى ابراز خصائص معينة في البيان ، وهو ليس في يد الفنان حلية تقتسر ، ولا زينة يستغني الكلام عنها ، ولا زخرفة يأتي دورها بعد أن يكون المعنى قد استوفى تمامه . ولا يجيء مكانه في المرتبة الثالثة بعد استيفاء علمي المعاني والبيان حقهما ، فان الانتاج الادبي يبرز الى الوجود في نظمه الخاص وبه الصور البيانية والمحسنات البديعية دفعة واحدة . فكأنما هذا المحسن البديعي جاء في مكانه ليقوم بنصيبه من اداء المعنى اولا ، اما ما فيه من جمال لفظي فقد جاء من ان تلك الكلمة بالذات يتطلبها المعنى ويقتضي المجيء بها[1] .

وما اروع الصور البديعية التي جاءت في القرآن الكريم وفي كلام الرسول(ص) والبلغاء من العرب ؟ وما أعذبها في الشعر الذي ذكره

---

(١) ينظر كتاب من بلاغة القرآن للدكتور احمد احمد بدوي ص ١٨١

ابن المعتز وأبو هلال العسكري وعبد القاهر الجرجاني وابن الاثير وغيرهم ممن كانت لهم أذواق صافية سليمة واحساس فني عظيم ؟

ولكن السكاكي لم ينظر الى البديع نظرة فيها الاحساس بالجمال والروح الفنية ، واكتفى بأن ذكر أنواعا منه مع امثلة قليلة أكثرها متكلف ، يضاف الى ذلك انه لم يبين ما في الامثلة من صور جمالية وايحاءات •

لقد اساء الى هذا الفن ولكنه لم يعترف بذلك ، وبقي يردد أن الذوق هو الحكم وان الالفاظ يجب أن تكون توابع للمعاني لا ان تكون المعاني لها توابع •

وتابعه البلاغيون في ذلك فأماتوا هذا الفن واهتموا بتفريعه وايجاد انواع لا فائدة فيها • وكان اهتمامهم بالناحية اللفظية عظيما حتى خرج بهم عن الغرض الذي من اجله يذكر الكاتب أو الشاعر هذه المحسنات او هذا اللون من فنون البلاغة •

وكم كنا نود لو أن السكاكي اتجه الى الناحية الفنية وخفف من سيطرة النزعة العقلية الخالصة اذن لجاء بما يفيد ولأضاف الى التراث العربي الاسلامي شيئا فريدا •

وقد بقيت البلاغة بعده كما تركها لم يزد أحد عليها الا ما كان من علم البديع الذي اهتم به اهل مصر والشام •

الفصل الثالث

أثــره في البلاغــة

سحر كتاب « مفتــاح العلوم » الناس فانشغلوا به وأقبلوا عليه يتدارسونه فكان مثار نشاط واسع المدى منذ القرن السابع الهجري حتى العصر الحديث . فمنهم من لخصه ، ومنهم من شرحه او شرح تلخيصاته ، ومنهم من نظمه شعرا .

وكانت البيئة المصرية خير بيئة احتضنت المفتاح وشملته باهتمام بالغ . فبعد أن اخرجه السكاكي للناس غزا معاهد الدرس ومجالسها وأصبح العمدة في تدريس البلاغة وفنونها .

ولا نعرف مدى النشاط الفكري الذي أثاره « مفتاح العلوم » في خوارزم بيئة السكاكي ، لان المغول دمروا معالم تلك البيئة واحالوها قفراً يباباً . وكل ما نستطيع ان نقوله ان الكتاب لقي حظوة كبيرة بعد تدمير خوارزم بمدة أي في الوقت الذي صدرت فيه الى الدنيا كتب الخطيب القزويني (٧٣٩ هـ) . ففي هذا الوقت أو قبله بقليل انتعشت الحياة العلمية في مناطق فارس وفي خوارزم خاصة بعد ان عاد الغزاة الى ديارهم وبعد ان هدأت الاحوال واستقر الناس .

وقد ظهر في البيئة المشرقية قطب الدين الشيرازي (٧١٠ هـ)

مؤلف شرح المفتاح المسمى بمفتاح المفتاح ، مسعود بن عمر بن عبدالله الشهير بسعدالدين التفتازاني (٧٩٢هـ) مؤلف الشرحين الكبير والصغير على تلخيص المفتاح للقزويني ، وعلي بن محمد بن علي المعروف بالسيد الشريف الجرجاني (٨١٦هـ) مؤلف الحاشية على الشرح المطول على التلخيص لسعدالدين التفتازاني ، ومؤلف شرح القسم الثالث من « مفتاح العلوم » .

وكانت المناظرات والمناقشات تعقد في مجالس الرؤساء والامراء، ومن أشهر تلك المناظرات ، المناظرة التي جرت في بلاط تيمور لنك سنة ٧٩١هـ بين السعد التفتازاني وانسيد الشريف . فقد اتصل السيد الشريف بتيمورلنك وارتحل معه الى ما وراء النهر واشتغل بالتدريس هناك حين كان السعد قديم الصلة بهذه البيئة مقدما في مجالس تيمورلنك فقامت المنافسة بينهما وجعل تيمورلنك يرجح السيد فكان لذلك أثره في جرأته على مهاجمة السعد مهاجمة فاصلة قضت بالمكانة الاولى للسيد الشريف فمات السعد كمدا في اوائل سنة ٧٩٢هـ .

ولم تكن هذه المناظرة وغيرها الا من أجل المسائل البلاغية التي أثارها السكاكي وأمثاله ممن اهتموا بالمنطق واتخذوه منارا في دراساتهم ومناهج بحثهم .

أما بيئة مصر والشام والعراق فلا نستطيع أن نعرف متى دخلها «مفتاح العلوم» . وكل ما نعرفه أن اول من لخص الكتاب في مصر بدرالدين أبو عبدالله محمد ابن النحوي المشهور بابن مالك (٦٨٦هـ) فكان كتابه « المصباح في اختصار المفتاح » فاتحة حركة التلخيص والشرح التي سار عليها المؤلفون .

ولكن « كتاب المصباح » لم ينل شهرة واسعة ، فقد سيطرت على دراسة البلاغة يومذاك كتب اخرى . ويبدو ان سبب انصراف الناس عنه ما فيه من جفاف التلخيص وفقدان الذوق الادبي وقلة

ما يقدمه من الامثلة ، ولكنه مع ذلك حظي بعناية فيما بعد فاستمر ردحا من الزمن قبلة طلاب البلاغة في بلاد المغرب وعني بشرحه جماعة من المؤلفين فكان مثله في تلك البلاد مثل تلخيص القزويني في البلاد الشرقية .

وكان لكتاب السكاكي أثر في مدرسة مصر البلاغية منذ أن عرفته الديار المصرية في القرن السابع الهجري . فبعد ان كانت بحوث البلاغة في هذه البيئة ادبية تميل الى الاخذ بالذوق والاعتماد عليه كما في كتب ابن الاثير واسامة بن منقذ وابن ابي الاصبع المصري ، نجدها بعد دخول « مفتاح العلوم » تتجه اتجاها آخر فيه جفاف وتحديد ، وفيه بعد عن الناحية الفنية .

ويتجلى هذا الاثر في التلخيصات والشروح التي ابتدأها بدرالدين ابن مالك ، وفي دخول الفلسفة في بحوث البلاغة . وبذلك حفظت مصر المدرسة الفلسفية المشرقية وقامت على احياء كتبها وخدمتها فألف علماؤها الكثير الجم من الشروح والحواشي على التلخيص والسمرقندية وغيرها ، وألفوا أصولا ومتونا على هذا النسق[1] .

وقد كان نتيجة النشاط الذي أثاره « مفتاح العلوم » أن كثرت الشروح والتلخيصات كثرة لا نجدها في غيره من الكتب . ولكي نستطيع أن نتبين مدى هذا النشاط نذكر أهم شروحه وتلخيصاته .

شروح مفتاح العلوم :

١ ـ شرح قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الشيرازي (٧١٠ هـ) .

٢ ـ شرح حسام الدين المؤذني الخوارزمي ، فرغ منه في اواسط محرم سنة ٧٤٢ هـ .

---

(١) تنظر مقالة مصر في تاريخ البلاغة للاستاذ امين الخولي ص ٢٢ .

٣ ــ شرح محمد بن مظفرالدين الخطيبي الخلخالي (٧٤٥ هـ) •
٤ ــ شرح ابن الشيخ عونيه (عوينه) علي بن الحسين الموصلي الشافعي (٧٥٥ هـ) •
٥ ــ شرح جمال‌الدين محمد بن احمد الشريشي (٧٦٩ هـ) •
٦ ــ شرح سعدالدين بن مسعود بن عمر التفتازاني (٧٩٢ هـ) •
٧ ــ شرح علي بن محمد المعروف بالسيد الشريف الجرجاني (٨١٦هـ) •
٨ ــ شرح الشيخ احمد بن سليمان المعروف بابن كمال باشا الحنفي (٩٤٠ هـ) •
٩ ــ شرح أحمد بن مصطفى المعروف بطاشكبري زاده (٩٦٨ هـ) •

وذكر السبكي ان لمفتاح العلوم شروحا أخر منها : شرح الشيخ ناصرالدين الترمذي ، وشرح الشيخ عمادالدين الكاشي[1] • وهذه الشروح الكثيرة منها ما هو شرح للمفتاح كله ، ومنها ما هو شرح للقسم الثالث الخاص بالبلاغة •

وافضل هذه الشروح ــ كما يقول القدماء ــ ثلاثة هي : شرح الشيرازي والتفتازاني والجرجاني[2] •

مختصرات المفتاح :

١ ــ اختصره السكاكي نفسه بكتاب سماه « التبيان » ، ولم نعثر عليه أو نجد له ذكرا الا في مقدمة ابن خلدون •
٢ ــ المصباح في اختصار المفتاح لبدرالدين بن مالك (٦٨٦هـ) ، وقد لخصه محمد بن النحوية (٧١٨ هـ) بكتاب سماه « ضوء المصباح » وشرحه شرحا لطيفا •
٣ ــ تلخيص المفتاح للشيخ محمد بن عبدالرحمن بن عمر جلال‌الدين الخطيب القزويني (٧٣٩ هـ) •

(١) عروس الافراح ــ شروح التلخيص ج١ ص ٣٠ •
(٢) ينظر كتاب مفتاح السعادة ج١ ص ١٦٤ •

٤ ــ الفوائد الغياثية ، وهو من اختصار عبدالرحمن بن احمد بن عبد الغفار القاضي عضدالدين الايجي الشافعي المشهور بالعضد (٧٥٦ هـ) •

٥ ــ واختصره المولى حسن المعروف بالمعانيجي (٩٩٠ هـ) •

نَظم المفتــاح :

نظمه ابو عبدالله محمد بن عبدالرحمن الضرير المراكشي وشرحه بكتاب سماه « ضوء المصباح على ترجيز المصباح » •

وشرح شواهد مفتاح العلوم ابراهيم بن الشيخ عبدالرحمن القرماني •

وقد حظي أحد هذه التلخيصات الكثيرة بشهرة واسعة فاقت شهرة « مفتاح العلوم » فعكف عليه الشراح والناظمون ، وهذا التلخيص هو « تلخيص المفتاح » للخطيب القزويني• وأهم الشروح عليه :

١ ــ الايضاح للخطيب القزويني نفسه ، وهو احسنها وأقربها الى روح البلاغة كما سنرى •

٢ ــ شرح محمد بن مظفر الخلخالي (٧٤٥ هـ) •

٣ ــ شرح عبدالله بن الحسن المعروف بنقره‌كار (٧٥٠ هـ) •

٤ ــ شرح محمد بن احمد الموفق القيصري • فرغ منه سنة(٧٦١هـ)

٥ ــ شرح بهاءالدين بن احمد بن علي السبكي (٧٧٣ هـ) سماه « عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح » •

٦ ــ شرح محب‌الدين محمد بن يوسف المعروف بناظر الجيش‌الحلبي (٧٧٨ هـ) •

٧ ــ شرح أكمل الدين محمد بن محمود البابرتي (٧٦٨هـ) •

٨ ــ شرح شمس‌الدين ابي عبدالله محمد بن يوسف‌بن الياس‌القونوي الحنفي (٧٨٨هـ) •

٩ ـ شرح شمس الدين محمد بن عثمان بن محمد الزوزني(٧٩٢هـ).

١٠ ـ شرح سعدالدين التفتازاني (٧٩٢ هـ) وله شرحان مطول ومختصر .

١١ ـ شرح جلال الدين رسول بن احمد بن يوسف التباني(٧٩٣هـ)

١٢ ـ شرح عصام الدين ابراهيم بن عرب شاه الاسفراييني (٩٤٥هـ).

١٣ ـ شرح ابيات تلخيص مفتاح العلوم للشيخ عبدالرحيم العباسي (٩٦٣ هـ) سماه « معاهد التنصيص على شواهد التلخيص » ، وهذا الكتاب ليس شرحا للشواهد وحدها وانما هو مصدر مهم في تاريخ الادب لما فيه من أخبار الشعراء واشعارهم .

١٤ ـ شرح شواهد بدرالدين محمد بن رضى الدين الغزي مفتي الشام المتوفى في حدود سنة (٩٨٤ هـ) سماه « التخصيص في شرح شواهد التلخيص » .

١٥ ـ وعليه شرح اسمه « توضيح فتوح الارواح » .

١٦ ـ وشرحه محمد بن محمد التبريزي سماه « نفائس التنصيص »

١٧ ـ شرح ابن يعقوب المغربي (١١١٠ هـ) سماه « مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح » .

وأهم هذه الشروح وأكثرها فائدة كتاب « الايضاح » والشرح المطول لسعدالدين التفتازاني و « مواهب الفتاح » لابن يعقوب و « عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح » للسبكي . وقد طبعت مجموعة قيمة لاربعة شروح هي : الايضاح وشرح السبكي والشرح المختصر للتفتازاني وشرح ابن يعقوب المغربي مع حاشية لمحمد بن عرفة الدسوقي (١٢٣٠ هـ) على مختصر السعد على تلخيص المفتاح.

مختصرات التلخيص :

وللتلخيص مختصرات كثيرة منها :

١ ـ تلخيص التلخيص لشهاب الدين احمد بن محمد المعروف بالصاحب (٧٨٨ هـ) سماه « لطيف المعاني » .

٢ ـ تلخيص التلخيص لعزالدين محمد بن ابي بكر المعروف بابن جماعة (٨١٩ هـ) .
٣ ـ تلخيص التلخيص لزين‌الدين ابي محمد عبدالرحمن بن ابي بكر المعروف بالعيني (٨٩٣ هـ) سماه «تحفة المعاني لعلم المعاني» .
٤ ـ تلخيص التلخيص للمولى لطف‌الله بن حسن النوقاني(٩٠٠هـ) .
٥ ـ تلخيص التلخيص لنورالدين حمزة بن طورغود ألفه سنة(٩٦٢هـ) سماه « المسالك » ثم شرحه شرحا ممزوجا سماه«الهوادي» .
٦ ـ تلخيص التلخيص للمولى برويز الرومي (٩٨٧ هـ) .
٧ ـ تلخيص التلخيص المسمى بـ « أقصى الاماني في علم البيان والبديع » .
٨ ـ تلخيص التلخيص المسمى بـ « انبوب البلاغة » لخضر بن محمد الاماسي الفه سنة ١٠٦٠ هـ .

منظومات التلخيص :

ونظم التلخيص شعرا ، ومن منظوماته :

١ ـ نظم زين‌الدين ابي المعز طاهر بن حسن‌بن‌حبيب الحلبي (٨٠٨هـ) سماه « التلخيص في نظم التلخيص »وهو الفان وخمسمائة بيت .
٢ ـ نظم شهاب‌الدين أحمد بن عبدالله القلجي (٨٧٩ هـ) .
٣ ـ نظم زين‌الدين عبدالرحمن بن ابي بكر السيوطي (٩١١ هـ) سماه « عقود الجمان في المعاني والبيان » . وشرح هذا المنظوم بكتاب سماه « شرح عقود الجمان » .
٤ ـ نظم الشيخ أبي النجا بن خلف المعري .

شروح الايضاح :

وللايضاح شروح منها :

١ ـ شرح جمال‌الدين محمد بن محمد الاقسرائي المتوفى قبل سنة ٨٠٠ هـ سماه « إيضاح الايضاح » .

٢ ــ شرح علاءالدين علي بن عمر الاسود (٨٠٠ هـ) •
٣ ــ شرح حيدر بن محمد الحوافي المعروف بالصدر الهروي(٨٢٠هـ)
٤ ــ شرح محيي الدين محمد بن ابراهيم الانكشاري (٩٠١ هـ) •
٥ ــ شرح حيدر الشيرازي[١] •

وكثرت الحواشي على هذه الشروح والتلخيصات ولا سيما على شرحي التفتازاني المطول والمختصر •

هذه أهم الشروح والتلخيصات التي استطعنا أن نراها في المكتبات أو نقرأ عنها في الكتب ، وهناك كتب كثيرة ضاعت فلم تصلنا او لم يذكرها المؤلفون • وهكذا أثار «مفتاح العلوم» هذه الحركة في التأليف ، وبعث النشاط في العلماء والادباء • ولكن هذه الشروح والتلخيصات والمؤلفات لم تخرج عما خطه السكاكي في مفتاحه وعما كتبه الخطيب القزويني في تلخيصه وايضاحه • وكأن هذه الكتب جميعا صورة واحدة لا يكاد يختلف بعضها عن البعض الآخر الا في أمور بسيطة قد لا تكون في مسائل البلاغة بقدر ما تكون في مسائل أخرى اقحمت في البلاغة اقحاما كقضايا المنطق والفلسفة وعلم الاصول •

ومن يتتبع البلاغة بعد السكاكي يجد اتجاهين مختلفين :

احدهما : اتجاه ينحو منحى المدرسة الادبية او قريبا منها ، ولنسمه «مدرسة مصر والشام » •

والثاني : اتجاه يتابع خطا السكاكي ولا يخرج عن منهجه ، ولنسمه « مدرسة السكاكي » •

وسنتتبع أثر السكاكي في كلا الاتجاهين لنرى أثره واهميته في البلاغة والبلاغيين •

---

(١) تنظر هذه التلخيصات والشروح في مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢ ، مفتاح السعادة ج١ ص ١٦٤ وما بعدها ، وكشف الظنون للحاج خليفة ج١ ص ٤٧٨ وما بعدها وج٢ ص١٧٦٤ وما بعدها ، وهدية العارفين ج١ ص ٢٨ ، وعلوم البلاغة للمراغي ص ١٠ ، وفهرس دار الكتب بالقاهرة ج٢ ص ١٨٢ .

مدرســة مصــر والشام

أطلقنا هذا الاسم على الكتب البلاغية التي لم تنهج نهج السكاكي في بحثها ومادتها ، وانما اتبعت سبيلا آخر فيه ميل الى الناحية الادبية وفيه رجوع الى تحكيم الذوق في قضايا الادب .

وليس كل من سنتكلم عليهم في هذا البحث كانوا في بيئة مصر أو الشام فمنهم من عاش فيها ومنهم من عاش في بيئة اخرى كيحيى بن حمزة العلوي الذي كان امير المؤمنين في اليمن . ولكن الطابع العام لهؤلاء هو الطابع الادبي الذي سيطر على كتب أهل مصر والشام ، ومن هنا أطلقنا هذا الاسم على كل من سار على طريقة الادباء .

ومنهجنا في بحث أثر السكاكي في اعلام هذه المدرسة هو عرض بلاغتهم بصورة موجزة ، ومتابعة ما في كتبهم من شبه أو صلة بمفتاح العلوم .

ومن أشهر البلاغيين الذين ساروا على هذه الطريقة وابتعدوا عن منهج السكاكي :

ابن الزملكاني :

اختصر عبد الواحد بن عبدالكريم الزملكاني (٦٥١ هـ) كتاب « دلائل الاعجاز » لعبد القاهر الجرجاني في كتاب سماه « التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن »[١] . وقد رتبه على سوابق ومقاصد ولواحق وجعل من السوابق مقدمات ثلاث :

أولها في فضل علم البيان ، والثاني في حصر مواقع الغلط في اللفظ ، والثالث في طرق تحصيله .

---

(١) طبع بتحقيق المؤلف والدكتورة خديجة الحديثي في بغداد سنة ١٩٦٤ .

والمقاصد ثلاثة أركان : الركن الاول في الدلالة الافرادية ويشمل الكلام على الحقيقة والمجاز واقسامه من كناية واستعارة وتمثيل • والركن الثاني في مراعاة احوال التأليف ، والركن الثالث في معرفة اصول اللفظ واسماء اصنافه في علم البديع •

وتكلم ابن الزملكاني في القسم الثالث من الكتاب على اللواحق وبيان الجهة التي تحصل بها البلاغة والاعجاز في القرآن •

وقد عد الدكتور محمد زغلول سلام هذا المؤلف من مدرسة المشارقة أي مدرسة السكاكي واضرابه[1] • ولكننا لا نعده من هذه المدرسة لان للزملكاني اتجاها يختلف في التأليف عن منهج مدرسة السكاكي[2] •

فمنهجه ليس منهج السكاكي وان ما بينهما من تقارب أو تشابه في مادة البلاغة مرده الى أن كليهما ينحتان من معدن واحد هو كتاب « دلائل الاعجاز » وكتاب « اسرار البلاغة » •

ولا نستطيع على هذا الاساس أن نعتبر ابن الزملكاني من مدرسة السكاكي ، لانه لم ينح منحاه في منهجه وطريقة بحثه •

ابن ابي الاصبع المصري :

ولد ابو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبدالواحد بمصر سنة ٥٨٥ هـ وفيها تثقف وتوفي سنة ٦٥٤ هـ • وألف كتبا كثيرة أهمها في البلاغة كتاب « بديع القرآن » وكتاب « تحرير التحبير » وقد نحا في هذين الكتابين منحى أدبيا بعيدا عن منهج السكاكي ومدرسته • ويعد ابن ابي الاصبع بحق ممثلا صادقا للمدرسة الادبية في القرن السابع الهجري •

---

(١) ينظر كتاب ضياءالدين بن الاثير وجهوده في النقد ص ٣٢٠-٣٢٢

(٢) تنظر مقدمتنا لكتاب التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن ص ٧ - ٢١.

ثم يقسم البلاغة الى أقسامها الثلاثة ، وكان البديع عنده يضم أقسام البلاغة كلها ولكن أهتمامه بالموضوعات التي اطلق عليها المتأخرون مصطلح « البديع » كان بالغا ، وكانت مقاييسه ذوقية بعيدة عن تمحلات الفلسفة واساليبها التي أفسدت الفن الادبي . وسبب ذلك انه كان شاعرا أديبا له ذوق يحس بالجمال ويميز الاساليب المختلفة .

وقد اختلف منهجه اختلافا اساسيا عن منهج السكاكي ، فهو في كتابه « بديع القرآن » يبحث موضوعات البلاغة بطريقته الخاصة ويقسم الكتاب الى اربعة اقسام . ذكر في القسم الاول الموضوعات التي ذكرها ابن المعتز في كتابه « البديع » ، وفي الثاني الابواب التي ذكرها قدامة بن جعفر في كتابه « نقد الشعر » ، وفي الثالث الابواب التي ذكرها البلاغيون الذين جاءوا بعد ابن المعتز وقدامة ، وفي الرابع ذكر الموضوعات التي استنبطها بنفسه ولم يسبق اليها .

أما كتابه الثاني « تحرير التحبير » فقد قسمه الى ثلاثة اقسام ، تكلم في الاول على أصول البديع وهي التي ذكرها ابن المعتز وقدامة كالاستعارة والجناس والطباق ورد الاعجاز على الصدور والمذهب الكلامي ، وتكلم في الثاني على الابواب التي عدها فروعا مثل الاحتراس والموازبة والترديد ، وذكر في الثالث الابواب الاربعة والعشرين التي استنبطها بنفسه كالتخيير والتدميج والتمزيج .

والمؤلف في هذين الكتابين لم يقسم البلاغة كما قسمها السكاكي فكل فنونها عنده بديع ، وقد استطاع في بحث مسائله المختلفة أن يثبت أن القرآن الكريم حوى صفات الادب الخالدة ومميزاته النفسية .وهذا ما جعل الناس يدركون اعجازه ويتذوقون جماله في تعاليمه الرقيقة وقيمه الاخلاقية السامية[1] .

ويبدو أن ابن ابي الاصبع لم يعرف كتاب « مفتاح العلوم » ، لانه

(١) تنظر مقدمة كتاب بديع القرآن ص ٩٢ .

لم يشر اليه مع انه أشار في مقدمة كتابه الى كتابي « المثل السائر » و « الوشى المرقوم » لابن الاثير معاصر السكاكي . ولعل سبب هذا بعد بيئة السكاكي عن بيئته المصرية ، وانصرافه عن المنهج الفلسفي في تأليف البلاغة وبحث الادب وفنونه .

والناظر في كتاب « بديع القرآن » يشعر أن المؤلف أخذ بعض المسائل عن السكاكي . والواقع انه لم يأخذها من « مفتاح العلوم »انما أخذها من كتاب « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » لفخرالدين الرازي وقد اشار ابن ابي الاصبع الى هذا النقل صراحة في بحث الاستعارة وذكر كتاب الرازي من المصادر التي اعتمد عليها في تأليفه ، يضاف الى ذلك انه اعتمد على كتب عبد القاهر التي اعتمد عليها الرازي والسكاكي .

فالتشابه بين ابن ابي الاصبع والسكاكي في بعض المسائل مرده الى تأثرهما بعبد القاهر وفخرالدين الرازي ، وبذلك نستطيع أن نقرر مطمئنين ان السكاكي لم يؤثر في بلاغته وان ما في كتاب «بديع القرآن» و « مفتاح العلوم » من تشابه مرده الى انهما اعتمدا على كتب واحدة ومصادر معينة .

التنوخي :

ألّف أبو عبدالله محمد بن محمد بن محمد بن عمرو التنوخي أحد أعيان المائة السابعة للهجرة النبوية كتاب « الاقصى القريب في علم البيان » ، بدأه بمسائل منطقية فتكلم على العلم وتقسيمه الى تصور وتصديق وشرحهما شرحا منطقيا ، وتكلم على القضية والجملة باصطلاح أهل المنطق ، وادخل في هذا البحث ما لا يمت الى البيان بصلة ، وتكلم على الاصوات والحروف ، و « إنّ » وأخواتها ، وحروف الشرط واسمائه،والنواصب وحروف الاستفهام ،والتحضيض، والايجاب ، والنداء ، والتنبيه ، والاستثناء ، والجر ، والقسم والنسق وغيرها .

وبعد أن انتهى من هذه المقدمة بدأ البحث في علم البيان • يقول: « وإذ قد أتينا على ما ذكرنا انه يحتاج اليه في طريق البيان من بعض القواعد المنطقية ومعاني الحروف وما يشبهها من الاسماء والافعال وذكرنا ما تيسر من ذلك فلنشرع الآن في ذكر البيان والكلام فيما جرت العادة ان يسمى علم البيان »[1] •

ونظرته الى البيان ليست كنظرة السكاكي وانما هي نظرة تشمل مسائل البلاغة كلها من معان وبيان وبديع •

وقد قسم كتابه الى قسمين : قسم يتعلق بالالفاظ ، وقسم يتعلق بالمعنى ، والذي يتعلق باللفظ قسمه الى قسمين : الاول ما يتعلق باللفظة المفردة والآخر ما يتعلق بالالفاظ المركبة •

وشرع يبحث في المعاني التي يبحث فيها عن علم البيان وهي الاستعارة والتشبيه والتوسع في العربية والتقديم والتأخير والاعتراض والايجاز والاطناب والكناية والتعريض والايهام وغيرها • وبعد ان انتهى من بحث هذه الموضوعات ذكر أنواعا من البديع كالتوشيح والسرقة والسجع والتجنيس ولزوم ما لا يلزم والموازنة ، وسبب بحثها ــ كما يقول ــ انها أشياء يمكن أن ترد الى البيان بنوع من التكلف[2] •

ويتضح من قراءة كتاب « الاقصى القريب في علم البيان » أن المؤلف لخص كتاب « المثل السائر » لابن الاثير ، لانه يتابعه في منهجه وتقسيمه وامثلته ويلخص شرحه وتحليله • ولا يختلف الرجلان الا في شيء واحد ، وهو ان التنوخي ذكر موضوعات البديع بعد موضوعات البيان بينما ذكرها ابن الاثير في الفصل الثاني من القسم الاول الخاص باللفظة المركبة •

(١) الاقصى القريب ص ٣٢
(٢) ينظر الاقصى القريب ص ١٠٥

ولم يقف تأثره بابن الأثير في مادة بلاغته ومنهجه وانما استفاد من عبد القاهر ولا سيما في بحث التقديم والتأخير ، واستفاد من الزمخشري أيضا ، ولكن هذا الاثر لا يبدو واضحا جليا • ولعل مرد ذلك التأثر تلخيصه « المثل السائر » الذي حشر مؤلفه فيه كثيرا من آراء الجرجاني والزمخشري وان لم يشر اليها في اغلب الاحيان •

والغريب ان الدكتور محمد زغلول سلام عده من مدرسة المشارقة وقال عنه ان كتابه قد وصل الى درجة من التعقيد نسي معها انه يتكلم على البيان ، وصب فيه اهتمامه على الاستقصاء كسابقيه وظهرت آثار المنطق عليه كالسكاكي[1] •

والواقع انه لم يتأثر بالسكاكي مطلقا لا في منهج بحثه ولا في موضوعات كتابه ومادتها ، وانما كان من مدرسة ابن الاثير لانه لخص كتابه وتابعه في آرائه وامثلته وتحليله • ولا ندري كيف فات على الدكتور سلام هذا الامر وهو يبحث في ابن الاثير ، وكيف لم يفطن الى الشبه الواضح بين الرجلين •

أما ما ذكر في المقدمة من مسائل المنطق فلم يكن لها أثر واضح في منهجه وبحثه وكأنه ادخلها في مقدمة كتابه ليبرهن للملأ انه ملم بها ، عارف أصولها وفنونها ، يقول في أول كتابه : « وبعد فاني ألفت هذا المختصر في علم البيان اجابة لسؤال من سأله ورعاية لما شرفه الله به من طلب العلم وفضله متوخيا ان يكون كما رجاه وامله مبنيا على تحقيق المعاني وتبيينها والاختصار مبتدئا فيه بما يجب تقديمه من القواعد المنطقية ومعاني الادوات العربية »[2] •

فالتنوخي وان ذكر هذا وقرر انه يحتاج في طريق البيان الى بعض القواعد المنطقية فانه لم يستفد منها كثيرا في تقسيم البيان لانه

(١) ضياءالدين بن الاثير وجهوده في النقد ص ٣٢٢
(٢) الاقصى القريب ص ٢

جعل كتاب « المثل السائر » قدوة له فلخصه وقدمه لمن طلبه . وبذلك نستطيع أن نقول إن التنوخي ليس من مدرسة السكاكي وانما هومن مدرسة ابن الاثير او من مدرسة مصر والشام . وان التعقيد الذي لاحظه الدكتور سلام لم يكن الا من تلخيصه مسائل البلاغة تلخيصا أفقدها الشرح والتحليل فظهرت معقدة صعبة لا روح فيها ولا بهاء ، وان المسائل المنطقية التي وشح بها صدر كتابه لم يكن لها الاثر الواضح في منهجه ومادته .

ابن قيم الجوزية :

ويمكن أن نعتبر شمس الدين أبا عبدالله محمد المعروف بابن قيم الجوزية الحنبلي (٧٥١ هـ) من رجال هذه المدرسة ، فقد ألف كتاب الفوائد « المشوق الى علوم القرآن وعلوم البيان » بيّن فيه انه لا يمكن أن يعرف فضل القرآن الا من عرف كلام العرب وعرف بلاغتهم وبيانهم وضروب فصاحتهم ، ولاجل هذا بحث في البلاغة لتكون عونا لمن يريد دراسة القرآن الكريم .

وقسّم كتابه الى اثنين ومائة قسم منها أربعة وعشرون في المجاز، وأربعة وثمانون فيما يخص المعاني ، واربعة وعشرون فيما يتعلق باللفظ . ويبدو في كتابه تقسيمان واضحان للبلاغة ، فقد بحث في قسم الفصاحة الاستعارة والتشبيه والمجاز والتقديم والتأخير والايجاز والاختصار ، وتكلم في القسم الثاني على ما يختص بالمعاني وذكر فيه الكناية والتعريض والموضوعات التي اعتبرها السكاكي محسنات لفظية ومعنوية .

وقد أولع بالتفريعات والتقسيمات حتى نراه يشعب المسألة الواحدة عدة مسائل .

ولم نلاحظ أي أثر للسكاكي في هذا الكتاب ولم يشر المؤلف

اليه في مصادره التي ذكرها في مطلع بحثه • ويمكن تعليـــل التشابه الموجود بينهما ولا سيما في بحث الاستعارة[1] الى انهما اعتمدا على كتاب « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » للرازي اعتمادا كبيرا ، ومن هنا جاء التشابه في بعض المسائل والوجوه •

أما منهجه ومادة بلاغته فلا صلة لها بالسكاكي ويمكن القول ان بلاغة ابن قيّم ليست الا بلاغة ضياء الدين بن الاثير ، فقد اعتمد عليه ونقـل كثيرا من آرائه في مبـاحث الالتفـات والكنايـة والتعريض وغيرها[2] ، وكـان كتاباه « المثل السائر » و « الجـامع الكبير » من أهم مصادر ابن قيم الجوزية •

فابن قيّم ـ كما اتضح ـ ليس من مدرسة السكاكي ، وانما هو من مدرسة مصر والشام أو من مدرسة ضياءالدين بن الاثير وان كان لا يقف في مسائل البلاغة الا وقفة العارض للنماذج عرضا صامتا ، بينما امتاز ابن الاثير بالشرح والتحليل والنقد والموازنة بين النصوص الشعرية والنثرية •

يحيى بن حمزة العلوي :

وخير من يمثل الاتجاه الادبي بعد السكاكي في القرن الثامن الهجري السيد يحيى بن حمزة العلوي المولود سنة ٦٦٩هـ والمتقلد باليمن امارة المؤمنين سنة ٧٢٩ هـ ، وقد توفي بعـد حكم دام عشرين عاما سنة ٧٤٩هـ •

ألف عدة كتب من أهمها في البلاغـة كتاب « الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز » رتبه على ثلاثة فنون ، جعل الفن الاول للمقدمات،والثاني للمباحث المتعلقة بالمعاني والبيان والبديع والثالث لبيان فصاحة القرآن وأسرار الاعجاز •

(١) ينظر كتاب الفوائد ص ٤٣ وما بعدها .
(٢) ينظر كتاب الفوائد ص ٩٨ وما بعدها ، وص ١٣٣ وما بعدها .

والباعث على تأليف الكتاب هو ماقدمنا من أن جماعة من أصدقائه واخوانه شرعوا في قراءة كتاب « الكشاف » للزمخشري عليه ، ولما كان هذا التفسير يعتمد على البلاغة كثيرا ، وان اسسه قائمة عليها فقد سأله بعضهم أن يملي في البلاغة كتابا يكون عونا لهم في دراسة تفسير الزمخشري .

وبَحْثُ العلوي في البلاغة يختلف عن غيره لأن فيه اتجاها نحو المدرسة الادبية : مدرسة مصر والشام ، واتجاها نحو مدرسة السكاكي حينما فصل بين علوم البلاغة الثلاثة . يقول موضحا منهجه : « ونشرع الآن في شرح مقاصده فلنذكر ما يتعلق بذكر علوم البيان من مواقع المجاز في البلاغة ثم نردفه بما يتعلق بالمعاني الافرادية وهو المعبر عنه بعلم المعاني ثم نذكر على اثره ما هو منه وهو ما يتعلق بمراعاة أحوال التأليف وهو المعبر عنه بعلم المعاني أيضا . ثم نذكر خاتمة الفن فيما يتعلق بمجموع الافراد والتركيب وهو المعبر عنه بعلم البديع فهذه أبواب اربعة »[1] .

ويتضح من كلامه أنه يسير على منهج السكاكي ، وانه يفرق بين مصطلحات المعاني والبيان والبديع ، ولكنه مع هذا يتبع طريقةاخرى فيها ميل الى الناحية الادبية وفيها نقد وتحليل .

وليس بحثنا في بلاغة العلوي وآرائه ومقاييسه ، وانما نريد ان نتعرف أثر البلاغيين في كتاب الطراز ولا سيما اثر السكاكي .

لقد ذكر العلوي في مقدمة كتابه انه لم يطالع من الكتب المؤلفة في البلاغة الا اربعة هي : « المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر » لضياء الدين بن الاثير (٦٣٧ هـ) ، و « التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن » لعبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني (٦٥١ هـ) ، و « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » لفخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) ،

---

(١) الطراز ج١ ص ١٩٦

و « المصباح في اختصار المفتاح » لبدر الدين بن مالك (٦٨٦ هـ)[١] •

ويبدو أثر ضياءالدين واضحا ، فالعلوي ينقل من كتابه « المثل السائر » كثيرا،وغالبا ما يرجح آراء ابن الاثير ولكنه مع ذلك لا يسلم بجميع القضايا والآراء ، فنراه ينقده ويزيف آراءه وأقواله ، وبذلك يكون كتاب « الطراز » امتدادا لمدرسة ابن الاثير البلاغية أو لمدرسة مصر والشام مع فرق وهو أن العلوي بحث البلاغة بحثا قريبا من منهج السكاكي ومدرسته عندما قسم الفن الثاني من كتابه الى ما يتعلق بالمعاني والى ما يتعلق بالبيان ، والى ما يتعلق بالبديع • وهذا ما لم يفعله ابن الاثير في كتابة البلاغة وتقسيم فنونها •

وتأثر بعبد القاهر الجرجاني وان لم يطلع على كتابيه « دلائل الاعجاز »و«اسرار البلاغة» ــ كما يزعم ــ[٢] ، ولكنه كما يبدو تأثر به بصورة غير مباشرة بما كتب ابن الزملكاني في كتابه « التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن » ، وكتاب « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » للرازي •

أما تأثره بالسكاكي فيبدو واضحا في بعض المسائل ولا سيما في تقسيم البلاغة ، ولكن العلوي لم يذكر « مفتاح العلوم » مصدرا من مصادر بحثه فمن اين جاءت معرفته به ، وكيف نقل عنه وذكر بعض آراء السكاكي ؟

لا نستطيع الجزم انه رأى « مفتاح العلوم » ، لانه لم يشر الى ذلك في المقدمة ــ كما قلنا ــ ولانه عندما ينقل رأيا للسكاكي او جملة عنه يقول « حكي عن السكاكي » وغير ذلك من العبارات التي تدل على أنه لم ينقل عن كتاب السكاكي مباشرة وانما نقل عنه بطريقة

(١) ينظر الطراز جا ص ٣ـ٤
(٢) ينظر الطراز جا ص ٤ •

اخرى . فمن أين ؟

لابد أن العلوي عرف « مفتاح العلوم » عن طريق « المصباح في اختصار المفتاح » لبدرالدين بن مالك ، وقد كان هذا الكتاب أحد مصادره الاربعة التي لم يطالع غيرها ولم يعتمد على سواها .

ولا يهمنا اطلاعه المباشر على كتاب « مفتاح العلوم » أو غير المباشر بقدر ما يهمنا تأثره به والاستفادة منه . ولننظر في ذلك .

ويتضح تأثر العلوي بالسكاكي ومدرسته في الفن الثالث من كتابه « الطراز » ، فبعد ان يتكلم العلوي على موضوعات البلاغة بطريقته ومنهجه الخاص الذي يكاد يكون شبيها بكلام عبد القاهر وابن الاثير ، يعود فيتكلم على علوم البلاغة مرة اخرى في الفن الثالث من كتابه بطريقة اخرى تشبه طريقة السكاكي ومنهجه . وهو يتابعه في تقسيم البلاغة الى معان وبيان وبديع ، ويتابعه في بعض تعريفاته وتحديد مصطلحاته .

يقول في تعريف علمي المعاني والبيان : « ان علم المعاني هو العلم باحوال الالفاظ العربية المطابقة لمقتضى الحال من الامور الانشائية والامور الطلبية وغيرهما .

وان علم البيان حاصله ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه كالاستعارة والكناية والتشبيه وغيرها »(١) .

ولا يخرج كلامه عما ذكره السكاكي في تعريف علمي المعاني والبيان ، فلا بد أن يكون قد أخذه عن تلخيص المفتاح لبدرالدين بن مالك ؛ لاننا لم نجد أحدا من علماء البلاغة حصر المعاني والبيان هذا الحصر غير السكاكي .

وتابعه في تحديد موضوعات كل علم ، ففي علم المعاني تكلم على

---

(١) الطراز ج١ ص ١١ .

المسند اليه والمسند ، والامور الانشائية الطلبية كالامر والنهي والاستفهام والتمني والنداء،وعلى التعلقات الفعلية ، والفصل والوصل، والايجاز والاطناب والمساواة[1] .

وفي علم البيان تكلم على التشبيه والاستعارة والكناية والتمثيل[2] وقسم علم البديع الى محسنات لفظية كالتجنيس والترصيع ولزوم ما لا يلزم ورد العجز على الصدر ، والى محسنات معنوية كالتوشيح والتفويف والايضاح والتوجيه والمبالغة والتهكم وحسن التعليل.ويرى ان المحسنات المعنوية أكثر دورانا واعظم اعجابا في البلاغة[3] . وهذا التقسيم ليس الا متابعة لمنهج السكاكي وتقليدا لطريقته التي سيطرت على مناهج بحث البلاغة بعده .

وتأثرَ العلوي به في تقسيم الحقيقة الى لغوية وعرفية وشرعية ولكنه فَصَّلَ القول فيها وشرحها شرحا وافيا لا نجده في « مفتاح العلوم »[4] .

ووافقه في ان محاسن الكلام لا يجوز ان تكون راجعة الى الدلالات الوضعية لسببين :

الاول : لان الكلمة قد تكون فصيحة اذا وقعت في محل ،وغير فصيحة اذا وقعت في مكان آخر . فلو كان الامر في الفصاحة والبلاغة راجعا الى مجرد الالفاظ الوضعية لما اختلف ذلك بحسب اختلاف المواضع .

والثاني : لان الاستعارة والتشبيه والتمثيل والكناية من أعظم أبواب الفصاحة وأبلغها ، وانما كانت كذلك باعتبار دلالتها على المعاني لا باعتبار الفاظها .

---

(١) ينظر الطراز ج٣ ص ٢٥٨–٣٢٣
(٢) ينظر الطراز ج٣ ص ٣٢٣ – ٣٤٧ .
(٣) الطراز ج٣ ص ٢٤٧
(٤) ينظر الطراز ج١ ص ٥١–٥٥ ، ومفتاح العلوم ص ١٧٠

فصارت الدلالة على وجهين :أحدهما دلالة وضعية وهـذه لا تعلق لها بالبلاغة والفصاحة . وثانيهما : دلالة معنويـة ودلالتها امـا بالتضمن او بالالتزام وهما عقليتان من جهة ان حاصلهما هو انتقال الذهن من مفهوم اللفظ الى ما يلازمه سواء أكانت تلك الملازمـة تدل على جزء المفهوم وهي التضمنية أم على معنى يصـاحب المفهوم وهي الدلالة الخارجية أو الالتزام[١] .

ولكن العلوي مع هذا لم يستطع اخراج التشبيه من البيـان ، وجعله أحد الموضوعات المهمة التي يدرسها صاحب الفصاحة مع ان دلالته وضعية ، ولم يكتف بهذا بل تابع ابن الاثير فعده من اوديـة المجاز وانتصر له بامرين :

الأول : فلأنه عد الكناية من أودية المجاز ، والتشبيه أقرب منها اليـه .

والثاني : فلأن مضمر الاداة من التشبيه معدود في الاستعارة[٢] .

وبذلك يتضح أثر السكاكي فيه ، فهو يتابعه في ادخال الدلالات في بحث البيان وتقسيم مباحثه ولكنه معهذا لم يستطـع أن يخرج التشبيه من البيان مع ان دلالته وضعية ـ كما يقولون ـ وعَدّه أصلا من أصول البيان كما فعل السكاكي .

ومع ان السكاكي نقل الالتفـات من تفسـير « الكشاف » للزمخشري فاننا نستطيع أن نقول ان العلوي تأثر بالسكاكي فيهوذلك لتشابه تعليقهما على الالتفات وبيـان حسنه وميزته . يقول العلوي : « ان أهل البلاغة من العرب دأبهم الالتفات ويستكثرون منه وما ذلك الا لانهم يرون الانتقال من اسلوب الى اسلوب ادخل في القبول عند السامع واكثر لنشاطه واعظم في اصغائه . واذا كانوا يحسنون قرى

(١) الطراز ج١ ص ٤١٣ ـ ٤١٤
(٢) الطراز ج١ ص ٢٦١

الاضياف وهو دأبهم وعليه هجيراهم وعاداتهم فيخالفون فيه بين لون ولون وطعم وطعم أفلا يستحسنون نشاط الافئدة وملاءمة القلوب بالمخالفة بين اسلوب واسلوب بل يكون هذا اجدر فان اقتدارهم على مخالفة أساليب الكلام أكثر من اقتدارهم على مخالفة الاطعمة ، لان البلاغة في الكلام عليهم أيسر ، وهم عليها أمكن واقدر »[1] .

ويقول السكاكي : « والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام اذا انتقل من اسلوب الى اسلوب ادخل في القبول عند السامع واحسن تطرية لنشاطه واملأ باستدرار اصغائه وهم احرياء بذلك ، أليس قرى الاضياف سجيتهم ونحر العشار للضيف دأبهم وهجيراهم .لا مزقت أيدي الادوار لهم اديما ولا اباحت لهم حريما افتراهم يحسنون قرى الاشباح فيخالفون بين لون ولون ، وطعم وطعم ، ولا يحسنون قرى الارواح فلا يخالفون فيه بين اسلوب واسلوب وايراد وايراد ، فان الكلام المفيد عند الانسان لكن بالمعنى لا بالصورة اشهى غذاء لروحه واطيب قرى لها »[2] .

أليس هذا الكلام هو الكلام الذي ذكره العلوي نفسه ؟ ومما يؤكد تأثر العلوي بالسكاكي في هذا الموضوع الى جانب تشابه النصين المتقدمين عبارة وفكرة ، هو أن السكاكي عد الالتفات من علم المعاني وذكره العلوي في مباحث علم المعاني مع ان استاذهما الزمخشري ادخله في علم البيان .

إن العلوي يتابع السكاكي في بحث الالتفات ولكنه مع ذلك بحثه بحثا مفصلا مستفيدا مما كتبه ابن الاثير في « المثل السائر » ، وقسمه كتقسيمه الى ما يرجع الى الغيبة والخطاب والتكلم ، والى مختص بالافعال وهو الرجوع عن الفعل المستقبل الى فعل الامر وعن الفعل

---

(١) الطراز ج٢ ص ١٤١
(٢) مفتاح العلوم ص ٩٥

الماضي الى فعل الامر ، والى الانتقال عن الماضي الى المضارع ، وعن المضارع الى الماضي . وقد يعدل الى لفظ اسم المفعول عن الفعل الماضي اجراءله مجرى الفعل المضارع[1] .

وينقل عن السكاكي بعض المسائل في موضوع الاستفهام ، يقول متحدثا عن « ما » : « قال السكاكي ، قد يسأل بها عن الصفة فيقال : ما زيد ؟ وجوابه : الطويل او القصير »[2] .

وكما ختم السكاكي كتابه برد المطاعن الموجهة الى القرآن الكريم ختم العلوي بها كتابه « الطراز » ، ولكنه أطال في الرد وفصّل في الكلام. وكان رده على عشرين مطعنا ، وهذه المطاعن العشرون معظمها مذكور في كتاب « مفتاح العلوم » كالاعتراض،والطعن من جهة الصدق،والفاظ القرآن،والمناقضة،ومخالفة اللغة العربية،والتكرار،وسوء الترتيب والنظم وغير ذلك[3] . وبذلك يتفق الرجلان في أهداف البلاغة وهي التوصل الى معرفة اعجاز القرآن وفهم أسراره وروعته .

ويرى العلوي أن القرآن معجز من أجل ما اشتمل عليه من الفصاحة والبلاغة وهذا ما ذهب اليه السكاكي وقرره ، وان قال بعد ذلك ان الاعجاز لا يدرك وانما هو كالملاحة وكاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها[4] .

ولكننا لا نستطيع ان نجزم بان العلوي نقل هذا الرأي عن السكاكي، فقد رأينا في الفصول السابقة أن هذا الرأي هو رأي الرازي وعنه نقله السكاكي . ولما كان كتاب « نهاية الايجاز » للرازي أحد مصادر العلوي الاربعة فقد يجوز انه نقله عن الرازي لا عن كتاب « مفتاح العلوم » . وعلى كل حال فقد اتفق الرجلان في هذا المذهب

---

(١) ينظر الطراز ج٢ ص١٣٢ وما بعدها والمثل السائر ج٢ ص٤ وما بعدها .
(٢) الطراز ج٣ ص ٢٨٧
(٣) الطراز ج٣ ص ٤٢٠ وما بعدها ومفتاح العلوم ص ٢٧٤ وما بعدها .
(٤) الطراز ج١ ص ٣٣ ومفتاح العلوم ص ١٩٦ ، ص ٢٤٣

وكان مصدرهما واحداً .

وهناك بعض المسائل يلمح منها التشابه بينهما من ذلك أضرب الاستعارة والكلام على الاستعارة المجردة والمرشحة والتهكمية والحسنة والقبيحة والخيالية والتبعية والاصلية والتجنيس والقلب والتوجيه والتفريق والجمع والتقسيم[1] .

ولكننا لا نقدر أن نجزم أنها منقولة عن « مفتاح العلوم » ، لان العلوي اعتمد على الرازي كما اعتمد عليه السكاكي ، ومن هنا جاء الاتفاق .

ولم يُسَلِّم العلوي بكل ما نقله عن السكاكي فكثيرا ما يرد عليه وينقده وقد غمط حقه في بعض المسائل ومن ذلك انه يرى أن امثال السكاكي وابن الاثير لم يتطرقوا لاعجاز القرآن . وهو بذلك غمط حق السكاكي في هذا المجال ، فلقد رأينا أن السكاكي تطرق لبحث اعجاز القرآن وكان مدار كتابه «مفتاح العلوم » البرهنة على ما في القرآن من روعة وجمال بحيث تحدى الانس والجن على ان يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . وكان له رأي خاص في الاعجاز لم يتوصل العلوي اليه ، يضاف الى ذلك ان السكاكي فنَّد بعض الآراء في الاعجاز ورأى انها لا يمكن الركون اليها في معرفة الاعجاز وادراكه ورد مطاعن الطاعنين في القرآن الكريم في فصل « ارشاد الضلال بدفع ما يطعنون به في كلام رب العزة » الذي جعله خاتمة « مفتاح العلوم » .

ولكن السكاكي لم يطل في هذا الموضوع كما أطال العلوي ، لان كتابه لم يكن الا مفتاحا للعلوم ، أما العلوي فقد كان كتابه ضخما كبيرا ، وكان هدفه الاساسي معرفة الاعجاز كما يتضح من عنوانه وهو « الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وحقائق الاعجاز » .

---

(١) ينظر الطراز ج١ ص ٢٠٢ وما بعدها وج٢ ص٣٥٦ وما بعدها وج٣ ص٩٥ ، ١٣٦ ، ١٤١ .

وقد علل العلوي سبب انصراف السكاكي عن الكلام في الاعجاز بانه لم يكن له حظ في المباحث الكلامية ولم تكن له قدم راسخة في العلوم الإلهية[1] . وهذا لا يمكن التسليم به ، لاننا قد رأينا أن السكاكي كان ذا قدم راسخة في علم الكلام ، وانه ألف رسالة في المناظرة وكان الطلاب يدرسونه عليه . وقد اتضح أثر علم الكلام والفلسفة في منهجه وبلاغته وضوحا تاما بحيث أفسد البلاغة وأحالها الى هياكل وقوالب جامدة ، وكانت له قدم راسخة في المنطق ، وقد رأينا أنه درس الفلسفة اليونانية والمنطق ، وليس أدل على معرفته بهذه العلوم واتقانه لها ، من البحث في المنطق او علم الاستدلال في « مفتاح العلوم » .

فكيف يكون السكاكي بعد هذا غير راسخ القدم في العلوم الإلهية ولم يكن له حظ في المباحث الكلامية ؟

ونقده في بحث الامر ، فالسكاكي يرى أن الامر بالاضافة الى تعلقاته مفيد للفور ، لانه الظاهر من الطلب ولتبادر الفهم الى التحصيل. ولكن العلوي يرى أن في كلام السكاكي هذا نظرا لان الاوامر ساكتة بالاضافة الى التكرار وبالاضافة الى الفور وليس في ظاهرها ما يدل على واحد من هذين الامرين الا لدلالة خارجة عن ظاهر الامر[2] .

ونقده في النهي ، فالسكاكي يرى أن التكرار والفور في الامر والنهي جميعا ، ولكن العلوي يرى أن هذا القول فاسد[3] .

ونقده في المجاز العقلي ، فالسكاكي يرى أن المجاز الاسنادي العقلي استعارة بالكناية لان المراد بالربيع في قولنا « أنْبَتَ الربيع البقل » ، الفاعل الحقيقي بقرينة نسبة الانبات اليه . ويرى العلوي

---

(١) الطراز ج٣ ص ٣٦٨ وما بعدها .
(٢) الطراز ج٣ ص ٢٨٣ ومفتاح العلوم ص ١٥٢ .
(٣) الطراز ج٣ ص ٢٨٤ ومفتاح العلوم ص ١٥٢-١٥٣

أن في هـذا الكلام تعسفاً لا حاجة اليه لأنه يلزم ان لا يكون الاخراج مضافا الى الارض وهو خلاف الظاهر • وقد نصر آراء عبد القاهر والزمخشري والرازي في هذه المسألة على رأي السكاكي[1] • وقد نسي العلوي أنه قرر في أول كتابه أن المجاز لا مدخل له في الاحكام العقلية ولا وجه لتسميته « المجاز » بكونه عقليا ، لان ما هذا حاله انما يتعلق بالاوضاع اللغوية دون الاحكام العقلية •

هذه مقارنة بين السكاكي والعلوي وفيها اتضح أثر السكاكي في العلوي من الناحية المنهجية وموضوعات البلاغة أو مادتها • ولكن العلوي مع ذلك قد احتفظ بشخصيته وكان أقرب الى مدرسة مصر والشام •

ويمكن القول انكتاب الطراز قد تميز عن غيره من كتب المدرسة الادبيــة والمدرسة الكلامية ، لانه قد مزج بين الطريقتين واستفاد من المدرستين ولكن الغلبة كانت في النهاية لمدرسة الادباء أو لطريقة العرب البلغاء وذلك لاهتمام مؤلفه بالنقد والتحليل وكثرة الشواهدوالنصوص الادبية المنتخبة من القرآن الكريم وكلام محمد (ص) وعلي بن أبي طالب (رضی) وفصحاء العرب وكبار شعرائها •

وكتاب«الطراز»بعد هذا كله من خيرة كتب البلاغة في القرنالثامن الهجري لما فيه من ضبط لمسائل البلاغة ، وما فيه من امثلة رائعة مختارة وتحليل يدل على فهم كبير لاساليب العرب،لولا التقسيمات والتفريعات الكثيرة التي اولع بها العلوي كثيرا •

هذه أهم الكتب التي نهجت نهجا يختلف عن منهج السكاكي ، وقد رأينا أن ابن الزملكاني وابن أبي الاصبع المصري والتنوخي وابن قيم الجوزية لم يتأثروا بالسكاكي أبـدا وان ما بينهم من شبه

---

(١) الطراز ج٣ ص ٢٥٨ •

في بعض القضايا والمسائل البلاغية مرده الى أثر عبد القاهر الجرجاني والزمخشري وفخرالدين الرازي فيهم جميعا •

ولم يَبْدُ أثر السكاكي واضحا الا في العلوي الذي اطلع على كتاب « مفتاح العلوم » عن طريق ملخصه «المصباح» لبدرالدين بن مالك فكان له أثر في منهجه وبلاغته ولكنه لم يخضع لمنهج السكاكي خضوعا تاما ، وانما بقي محتفظا بشخصيته الادبية ، وبذوقه السليم •

مدرســة السكاكي

أطلقنا على الكتب المتقدمة التي لم تتأثر بالسكاكي اسم « مدرسة مصر والشام » ، لأنها نهجت نهجا بعيدا كل البعد عن منهج السكاكي • ولم نطلق عليها اسم « المدرسة الادبية » أو مدرسة العرب والبلغاء وذلك لان كتبها لم تتجه كلها اتجاها واضحا الى الناحية الأدبية وانما كانت فيها بعض الكتب التي جنحت الى الطريقة الكلامية أو الى طريقة عبد القاهر الجرجاني بتعبير أدق ، ولكنها على كل حال كانت بعيدة عن مدرسة السكاكي أو منهجه البلاغي •

أما الاتجاه الثاني الذي يلاحظ بعد السكاكي فهو اتجاه يختلف عن اتجاه مصر والشام اختلافا واضحا ، انه اتجاه يتتبع خطا السكاكي ويسير على منهجه وبلاغته ويكاد لا يحيد عنه أبدا • وقد أطلقنا عليه اسم « مدرسة السكاكي » مع أن كثيرين من اعلامها عاشوا في مصر والشام كالخطيب القزويني والسبكي وغيرهما من أصحاب الشروح والتلخيصات • ولكن جميع هؤلاء البلاغيين سواء من عاش منهم في مصر والشام أم في بيئات أخرى قد بحثوا البلاغة بحثا لا يختلف عن بحث السكاكي • ولم تكن مؤلفاتهم في الواقع الا تلخيصا لمفتاح العلوم أو شرحا له ولتلخيصاته •

ويمكن أن نضم الى هذه المدرسة جميع أصحاب الشروح والتلخيصات الذين ذكرناهم في أول هذا الفصل ، لانهم لم يخرجوا في منهجهم وبلاغتهم عن منهج السكاكي وبلاغته •

ولكي تتبين مدى أثر السكاكي في اعلام هذه المدرسة فاننا سنتتبع ما اتبعناه في دراسة القسم الاول من هذا الفصل ، وهو تتبع أثر السكاكي في كتب هؤلاء الاعلام •

بدرالدين بن مالك :

كان بدرالدين بن مالك (٦٨٦ هـ) أول من لخص القسم الثالث من « مفتاح العلوم » في البيئة المصرية ، بكتابه « المصباح في علم المعاني والبيان والبديع » . وقد اضاف الى كتب السكاكي بعض الفوائد وتخيره جملة من الشواهد الجميلة وفصّل في بعض الموضوعات ولا سيما في موضوع « الايجاز والاطناب » الذي لم يبحثه السكاكي كما ينبغي . وقد قسم الايجاز الى ثلاثة أضرب هي : سلوك طريق التضييق بحذف بعض الكلام تحقيقا لقوة الدلالة على معناه ، وسلوك طريق المساواة مع الاختصار وهو أن يكون للمعنى عبارتان متساويتان وأحداهما أطول لتفصيل أو غيره فتعدل عنها الى الاخرى ، وأن يكون المعنى خليقا بمزيد البسط فيترك الى بسط أخصر منه لتوخي نكتة كالاحتراز عن املال أو عن غيره[1] .

وتكلم على الاطناب وأنواعه كالتفصيل والتتميم والتذييل ، وهذا ما لم يفعله السكاكي .

وكان بدرالدين بن مالك اول من اطلق مصطلح « البديع » على القسم الثالث من علوم البلاغة وعرفه بقوله : « البديع هو معرفة توابع الفصاحة »[2] . وتكلم على الفصاحة المعنوية والفصاحة اللفظية وقسمه الى ثلاثة فصول ، لانها اما راجعة إلى الفصاحة اللفظية ، واما راجعة الى الفصاحة المعنوية . والراجعة الى المعنوية اما مختصة بالافهام والتبيين ، واما مختصة بالتزيين والتحسين .

وموضوعات النوع الاول هي : الترديد والتعطيف ورد العجز على الصدر والتشطير والترصيع والتسجيع والتجزئة . والتسميط والمماثلة والتوشيع والتطريز والتشريع والالتزام والتفويف والاطراد والمزاوجة

(١) ينظر المصباح ص ٣٦ وما بعدها .
(٢) المصباح ص ٧٥ .

والتجنيس والمطابقة والمقابلة والتدبيج والمشاكلة والتسهيم والتوشيح والقلب .

وموضوعات النوع الثاني : حسن البيان والايضاح والمذهب الكلامي والتبيين والتتميم والتقسيم والاحتراس والتكميل والتذييل والاعتراض والمبالغة ومنها الأغراق والغلو ، والايغال والتكرار والاستطراد والتجريد والتفريع وتأكيد المدح بما يشبه الذم والتعليل والتهكم .

وموضوعات القسم الثالث : اللف والنشر ، والتفريق والجمع ، والجمع مع التفريق ، والجمع مع التقسيم ، والائتلاف ، والتورية والتعليق ، وحسن الابتداء ، وحسن التخلص ، وحسن الخاتمة .

وكان لهذه المحسنات أثر كبير في كتاب « الطراز » المعلوي ومن جاء بعده من البلاغيين الذين اهتموا بالبديع وتفريعه الى ما لا فائدة فيه .

ولتوضيح الصلة بين السكاكي وبدر الدين بن مالك نقول ان بدر الدين لم يخرج عن منهج السكاكي لا في تقسيم البلاغة الى معان وبيان وبديع ولا في تقسيم موضوعاتها ، واعتمد في بحث علم المعاني على ركني الجملة ، ولم يخرج عن عبارات السكاكي وأمثلته الا ما اضافه من الامثلة القليلة ، أو ما حذفه من العبارات والامثلة التي رأى أنها لا تعلق لها بالبحث أو اراد التخفف منها ليكون كتابه اختصارا للمفتاح .

ولكنه اختلف عنه في أمر واحد وهو انه اطلق على القسم الثالث من البلاغة مصطلح « البديع » وقسمه الى ثلاثة أضرب وكان بحثه فيه أدق من بحث السكاكي وأكثر طلاوة واتساعا . وهذا ما لم يفعله السكاكي حيث أطلق على القسم الاخير اسم المحسنات واعتبرها وجوها كثيرا ما يؤتى بها لتحسين الكلام ، وقسمها الى قسمين : قسم يتعلق بالمعاني وآخر بالالفاظ .

وخلاصة القول : أنّ كتاب « المصباح » لبدرالدين لم يكن الا صورة مصغرة لمفتاح العلوم، وانه اول تلخيص له في الديار المصرية ـ فيما نعلم ـ وبذلك يكون ابن مالك اول تلميذ من تلاميذ السكاكي في هذه الديار .

الخطيب القزويني :

كان أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن عمر المعروف بالخطيب القزويني (٧٣٩ هـ) من أشهر الذين اختصروا القسم الثالث من « مفتاح العلوم » فكان كتاباه « التلخيص » و « الايضاح » من اروج الكتب التي سيطرت على الدراسات البلاغية[١] . ولعل سبب ذلك ان كتاب « الايضاح » بصورة خاصة يتسم بنوع من الترتيب والتبويب الحسن والوضوح بالنسبة الى «مفتاح العلوم » الذي كان جاف الامثلة، معقد الاسلوب في كثير من العبارات والفقرات .

والقزويني وان تكن له الى قزوين نسبة فانه عربي الدم من سلائل أبي دلف العجلي ، قضى معظم حياته في بيئة عربية ، اذ قدم الى الشام وهو في سن مبكرة وفيها تلقى العلم وولي القضاء بمصر مدة طويلة وفيها كتب كتابيه المتقدمين . ولهذا نجدهما يتسمان بطابع فيه جنوح الى الذوق ولا سيما كتاب « الايضاح » الذي كان أثرا لحياته في البيئة المصرية الظاهرة الميل الى الطريقة الادبية في دراسة البلاغة[٢] .

وقد خطا الخطيب القزويني بالبلاغة خطوة أخرى بعد السكاكي فرتب كتابه ترتيبا أدق من ترتيب السكاكي وأضاف الى البديع أنواعا أخرى، ولكنه مع ذلك لم يخرج عن منهج السكاكي وتقسيماته العقلية. فهو في كتابه الاول لم يصنع شيئا غير تلخيص القسم الثالث من المفتاح

---

(١) فصلنا البحث في هذين الكتابين في كتابنا « القزويني وشروح التلخيص » الذي نلنا به درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة بمرتبة الشرف الاولى في ١٤ تموز ١٩٦٣ .

(٢) ينظر كتاب تأريخ علوم البلاغة للمراغي ص ١٣٤ ومقالة مصر في تاريخ البلاغة للخولي ص ٢٢ .

مع اشارات قليلة نقد فيها السكاكي • وكان الدافع الى هذا التلخيص ما وجد في « مفتاح العلوم » من حشو واضطراب • يقول : « وكان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذي صنّفه الفاضل العلامة أبو يعقوب يوسف السكاكي اعظم ما صنف فيه من الكتب المشهورة نفعا ، لكونه أحسنها ترتيبا وأتمها تحريرا وأكثرها للاصول جمعا • ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد قابلا للاختصار مفتقرا الى الايضاح والتجريد ، ألفت مختصرا يتضمن ما فيه من القواعد ويشتمل على ما يحتاج اليه من الامثلة والشواهد • ولم آل جهدا في تحقيقه وتهذيبه ورتبته ترتيبا اقرب تناولا من ترتيبه • ولم ابالغ في اختصار لفظه تقريبا لتعاطيه وطلبا لتسهيل فهمه على طالبيه • واضفت الى ذلك فوائد عثرت في بعض كتب القوم عليها وزوائد لم اظفر في كلام احد بالتصريح بها ولا الاشارة اليها • وسميته تلخيص المفتاح »[1] •

وفي هذا الكتاب خطا القزويني الخطوة الاخيرة في وضع اقسام البلاغة فقد رأينا أن السكاكي قسمها الى معان وبيان • ولم يطلق على القسم الثالث مصطلح « البديع » وانما سماه وجوها يؤتى بها لتحسين الكلام وقسمها الى قسمين : قسم راجع الى المعنى وآخر يتعلق باللفظ • وجاء بدرالدين بن مالك فأخذ المصطلح القديم الذي أطلقه الرواة والجاحظ وابن المعتز وغيرهم على كثير من بحوث البلاغة ووضعه للقسم الثالث من البلاغة وبذلك تحدد معنى البديع فشمل المحسنات المعنوية واللفظية وزاد على ما ذكره السكاكي ففتح بذلك الباب على مصراعيه لمن جاء بعده من البلاغيين الذين كلفوا بذكر أنواع البديع وتسابقوا الى ذكر أكبر عدد منه حتى جاوزت انواع البديع المائة • ولم يكن عمل البلاغيين هذا الا قضاء على البلاغة وروحها الفنية والادبية • وتابعه في ذلك الخطيب القزويني فأطلق على القسم الثالث من البلاغة مصطلح

---

(١) التلخيص ص ٢٢–٢٣

« البديع » وكان بحثه احسن من بحث ابن مالك لانه نظر اليه نظرة فيها ذوق ادبي وفيها احساس فني الى حد ما .

وقد لاقى كتاب « التلخيص » رواجا عظيما وأقبل الناس عليه ، يقول ابن خلدون عنه : « والعناية بهذا العهد عند اهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره »[١] .

ولكن كتاب « التلخيص » لم يكن مجديا عظيم الفائدة ، لانه كان مختصراً قليل الامثلة والشروح . وقد أحس الخطيب القزويني نفسه بالجفاف الذي طبع به كتابه « التلخيص » فعزم على شرحه وبسط الكلام فيه ليكون أنفع واجدى واكثر تداولا وفائدة فالف كتاب « الايضاح » الذي كان اول شرح على التلخيص فيما نعلم . يقول المؤلف : « اما بعد فهذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها ترجمته بالايضاح وجعلته على ترتيب مختصري الذي سميته: «تلخيص المفتاح» وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له فاوضحت مواضعه المشكلة وفصلت معانيه المجملة وعمدت الى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه مفتاح العلوم والى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الامام عبد القاهر الجرجاني ـ رحمه الله ـ في كتابيه دلائل الاعجاز واسرار البلاغة والى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما فاستخرجت زبدة ذلك كله وهذبتها ورتبتها حتى استقر كل شيء منها في محله واضفت الى ذلك ما ادى اليه فكري ولم اجده لغيري فجاء بحمد الله جامعا لاشتات هذا العلم . واليه ارغب ان يجعله نافعا لمن نظر فيه من أُولي الفهم ، وهو حسبي ونعم الوكيل »[٢] .

وكان «الايضاح» حقا أوفى شرحا وأحسن أسلوبا وأكثر أمثلة من كتاب «مفتاح العلوم» . ولهذا اشتهر وذاع وعكف الناس عليه يتدارسونه ويعلقون عليه حتى كاد « مفتاح العلوم » يكون نسيا منسيا ، لأن

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢ .
(٢) الايضاح ص ٣ .

« الايضاح » ـ كما قلنا ـ ألف في بيئة عربية ـ هي بيئة مصر ـ فطبعته بطابع خاص فيه روح ادبية وفيه ذوق أدبي وتحليل . أما «مفتاح العلوم» فقد الف في بيئة اعجمية ـ هي بيئة خوارزم ـ فغلبت على أسلوبه الصعوبة والتعقيد وطبعته بطابع العلم والكلام .

وقد نهج الخطيب القزويني في هذا الكتاب نهج كتابه «التلخيص» وهو بذلك لم يخرج عن منهج السكاكي البلاغي وان كان قد هذبه قليلا ورتبه ترتيبا دقيقا . ولم يخرج عن أمثلته وشرحه الا ما أضافه من الامثلة والنكت البلاغية التي أهملها السكاكي في كتب عبد القاهر وغيره ، وما اضافه الخطيب القزويني نفسه من الملاحظات .

ويتضح أثر السكاكي فيه من ناحيتين : الاولى الناحية المنهجية والثانية موضوعات البلاغة ومادتها .

المنهج :

رأينا ان السكاكي أول من قسَّم البلاغة الى معان وبيان ومحسنات وحصر مسائلها ورتب أبوابها . وقد بهر هذا التقسيم والتبويب من جاء بعده فلم يخرجوا عن هذا المنهج ، ولم ينظروا اليه نظرة الناقد ، وانما سلموا به وخضعوا له وشرعوا يؤلفون على منواله .

وكان القزويني من أوائل الذين فُتنوا بهذا المنهج فحصر مباحث علم المعاني في ثمانية أبواب هي : أحوال الاسناد الخبري ، وأحوال المسند اليه ، واحوال المسند ، وأحوال متعلقات الفعل ، والقصر ، والانشاء ، والفصل والوصل ، والايجاز والاطناب والمساواة . ووجه الحصر هو « ان الكلام اما خبر أو انشاء ، لانه اما ان يكون لنسبته خارج تطابقه او لا تطابقه ، او لا يكون لها خارج الاول الخبر، والثاني الانشاء . ثم الخبر لابد له من اسناد ومسند اليه ومسند وأحوال هذه الثلاثة هي الابواب الثلاثة الاولى . ثم المسند قد يكون له متعلقات

اذا كان فعلا او متصلا به او في معناه كاسم الفاعل ونحوه ، وهذا هو الباب الرابع . ثم الاسناد والتعلق كل واحد منهما يكون أما بقصر اوبغير قصر ، وهذا هو الباب الخامس .الانشاء وهو البابالسادس ثم الجملة اذا قرنت باخرى فتكون الثانية اما معطوفة على الاولى أو غير معطوفة ، وهذا هو الباب السابع . ولفظ الكلام البليغ اما زائد على أصل المراد لفائدة أو غير زائد فيه ، وهذا وهو الباب الثامن »[1] .

ويبدو من هذا الحصر أن القزويني تجنَّب كثيرا من الاضطراب الذي وقع فيه السكاكي حينما ارجأ بحث الفصل والوصل ، والايجاز والاطناب والمساواة وقدم عليها الانشاء ، لان هذه الفصول تدخل الانشاء كما تدخل الخبر . ولكنه مع ذلك اعتمد في بحث المسائل الاخرى كالتقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، على طريقة السكاكي . وكان المنهج الذي اختطه لدرسها هو الاعتماد على ركني الجملة المسند والمسند اليه ، وبذلك تجزأت هذه الموضوعات في الوقتالذي كان ينبغي أن يضم شتاتها لتكون أقرب الى الادراك والاحساس بما فيها من معان خاصة .

وحصرمباحث علم البيانكماحصرها السكاكي مستعينابالدلالات، ولما كانت دلالة التشبيه دلالة وضعية فقد حصر البيان في المجاز والكناية لان دلالتهما عقلية،ولكنه مع ذلك لم يستطع اخراج التشبيه، لأن الاستعارة مبنية عليه ولذلك جعل التشبيه أصلا من اصولالبيان . وبذلك تابع السكاكي في حصره ولم ينتبه الى ما في هذا الحصر من ازهاق لروح التشبيه ، وموضوعات البيان ، لادخال الدلالات الوضعية والعقلية في بحثه وتبويبه .

أما القسم الثالث من البلاغة فقد كان القزويني أول من هذبه بعد بدرالدين بن مالك ، وقسمه كما قسمه السكاكي الى ما يتعلق باللفظ،

---

(١) الايضاح ص ١٢

وما يتصل بالمعنى وعرّفه بقوله : « البديع : هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة»[1] .

وهو بهذا ينظر الى البديع أو الى هذا القسم من البلاغة نظرة السكاكي فيعتبره وجوها يؤتى بها لتحسين الكلام بعد مطابقة الكلام لمقتضى الحال ووضوح الدلالة ، وبذلك تكون منزلته بعد علمي المعاني والبيان . وهذا ــ كما ذكرنا ــ لا يمكن التسليم به ، لان لموضوعات البديع مزايا تكسب الكلام رونقا وبهاء ، وتبعث فيه الروح كموضوعات البلاغة الاخرى .

هذا هو المنهج الذي اختطه القزويني لنفسه ، وهو منهج السكاكي ــ كما رأينا ــ وقد سار عليه عشرات المؤلفين ، فلم يخرجوا عنه ولم يثوروا عليه . وكان جل همهم أن يشرحوا المفتاح او يختصروه ، وأن يشرحوا تلخيص القزويني او يضعوا عليه الحواشي والتعليقات . وكان نتيجة ذلك أن كثرت الشروح والتعليقات والتلخيصات فكانت كتب التفتازاني والجرجاني والسبكي وابن يعقوب المغربي وغيرهم من عشرات الشرّاح والملخصين .

وبقيت البلاغة تُدْرَس على هذا المنهج حتى العصر الحاضر لولا أن قيض الله لها من أعاد اليها حياتها الادبية بالرجوع الى كتابي عبد القاهر وكتب ابن الاثير وغيرهما من أعلام المدرسة الادبية ورجال المدرسة الكلامية ممن مزجوا الروح الأدبية بالروح الكلامية .

موضوعات البلاغة :

أما الاثر الثاني الواضح فهو مادة البلاغة ، وفي هذا يتابع السكاكي ولا يخرج عما ذكره من امثلة وشرح الا قليلا . وتابعه الملخصون والشرّاح في هذا ولم يضيفوا الا ما لا علاقة له بالبلاغة

(1) الايضاح ص ٢٤٣

من مناقشات فلسفية واصولية ونحوية . وان نظرة فاحصة في كتب القزويني والسبكي والتفتازاني والسيد الشريف الجرجاني وابن يعقوب المغربي وغيرهم لتوضح ما نقول وتؤيد ما نذهب اليه .

فالقزويني ومن جاء بعده لم يخرجوا عن السكاكي لا من حيث المنهج ولا من حيث مادة البحث ، وبذلك كانت للسكاكي مدرسة بلاغية خاصة امتدت حتى العصر الحديث .

وقبل أنْ نختم الكلام على القزويني نسأل ماذا صنع ، وهل جاء بجديد وأضاف الى البلاغة أو الى مدرسة السكاكي شيئا فيه نفع وفائدة ؟

في الواقع ان القزويني سار على خطا السكاكي ولم يخرج عنه في المنهج ومادة البلاغة وموضوعاتها الا في بعض المسائل القليلة . وهو في كتابيه «التلخيص» و«الايضاح» لم يحدث في جوهر البلاغة تغييرا يعد، ولم يضف الى البلاغة جديدا له قيمته وأهميته . وأهم ما عمل في البلاغة هو خدمة « مفتاح العلوم » وغيره ، فجمع شتاتها وهذب قواعدها واحكم ترتيبها وتبويبها اكثر مما فعل السكاكي ، وكان الى جانب هذا ناقدا من تقدموه كالجرجاني والزمخشري والسكاكي . وقد اكثر من الوقوف عند آراء الاخير فأخذ بعضها ورد البعض الآخر ونقدها .

ويطالعنا نقده للسكاكي في مطلع كتابيه ، فهو مثلا لا يقبل بتوفية خواص التراكيب حقها وايراد انواع التشبيه والمجاز والكناية تعريف شيء من العلوم به . يقول : « وقال السكاكي : « علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره » ، وفيه نظر اذ التتبع ليس بعلم ولا صادق عليه فلا يصح تعريف شيء من العلوم به .

ثم قال : « واعني بالتراكيب تراكيب البلغاء » ، ولا شك ان معرفة البليغ من حيث هو بليغ متوقفة على معرفة البلاغة »[1] .

ولا يقبل تعريفه للبلاغة ، يقول عنه : « وقد عرفها في كتابه بقوله : « البلاغة هي بلوغ المتكلم في تأدية المعنى حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وايراد انواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها » . فان اراد بالتراكيب في حد البلاغة تراكيب البلغاء وهو الظاهر فقد جاء الدور ، وان اراد غيرها فلم يبينه ، على أن قوله وغيره مبهم لم يبين مراده به »[2] .

وأكثر من الرد عليه في عدة مواضع ، ولا يهمنا ذكر جميع ردوده ، لان معظمها ردود ليس لها كبير فائدة وأثر في البلاغة ، وانما هي مناقشات منطقية كلامية اكثر منها ادبية تعتمد على تمييز الاساليب العربية وما فيها من جمال الفن والتعبير ونكتفي بالاشارة الى المواضع التي نقده فيها وفند آراءه ففيها الدليل على متابعة القزويني لآراء السكاكي واخذه ما يراه مصيبا وترك ما لا يتفق وعقليته .

وأهم المواضع التي رد فيهاعليه هي الاسناد الخبري ، والحقيقة والمجاز العقليان ، والمسند اليه ، وتقديمه ، والاسم الموصول ، وتنكير المسند اليه وتوكيده وتقديمه والالتفات ، والقلب ، وذكر المسند وافراده ، والاستفهام،والامر،والفصل والوصل ، والايجاز والاطناب، والاستعارة ، والحقيقة والمجاز والكناية[3] .

لقد اعترض القزويني على السكاكي ورد عليه في هذه المواضع في كتابه « الايضاح » ومعظم هذه الاعتراضات اعادة لما ذكره في كتابه

(١) الايضاح ص ١١
(٢) الايضاح ص ١٢
(٣) ينظر الايضاح ص ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٨٠ وما بعدها ١٠٣ وما بعدها ١١٤ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢١٤ ، ٢٢٤ ، ٢٣١ .

« التلخيص » ، وقد آثرنا نقلها عن « الايضاح » ، لانه فصَّل القول فيه وأفاض في الرد على السكاكي •

ولكن المؤلفين الذين جاءوا بعده فندوا هذه الاعتراضات وردوا عليه ردا قد يكون بعضه حقا ، وقد يكون البعض الآخر تمحلا ولعبا بالالفاظ واظهارا لمعرفتهم وقدرتهم على المناقشة والجدل • وافردت لذلك مؤلفات خاصة ، فألف أحمد الكاشاني كتابا سماه « حل الاعتراضات التي أوردها الايضاح على المفتاح » •

ولكن أهم الاختلافات بين السكاكي والقزويني ما جاء في بحث المجاز العقلي ، فقد أنكره السكاكي وادخله في الاستعارة بالكناية ، اما الخطيب القزويني فقد رد عليه ولم يعتبره من مباحث علم البيان وانما جعله من المعاني هو والحقيقة العقلية ؛ لانه يرى أن المسمى بالحقيقة العقلية والمجاز العقلي هو الاسناد لا الكلام بعكس السكاكي الذي يرى أن المسمى بهما هو الكلام لا الاسناد • يقول القزويني : « لقد تبين بما ذكرنا أن المسمى بالحقيقة العقلية والمجاز العقلي على ما ذكره السكاكي هو الكلام لا الاسناد ، وهذا يوافق ظاهر كلام الشيخ عبد القاهر في مواضع من دلائل الاعجاز • وعلى ما ذكرنا هو الاسناد لا الكلام ، وهذا ظاهر ما نقله الشيخ أبو عمرو بن الحاجب ـ رحمه الله ـ عن الشيخ عبد القاهر وهو قول الزمخشري في الكشاف وغيره• وانما اخترناه لان نسبة المسمى حقيقة او مجازا الى العقل على هذا لنفسه بلا وساطة شيء ، وعلى الاول لاشتماله على ما ينتسب الى العقل اعني الاسناد »[1] •

وعلى هذا الاساس درسه في باب الاسناد من مباحث علم المعاني ولم يذكره في مباحث علم البيان مع المجاز اللغوي كما فعل السكاكي • فالاختلاف بينهما في الحقيقة والمجاز العقليين ـ كما رأينا ـ هو أن السكاكي

---

(١) الايضاح ص ٢٣

بحثهما في علم البيان ، أما القزويني فقد بحثهما في علم المعاني ، وان الاول أنكر المجاز العقلي واعتبره استعارة بالكناية بينما رد الخطيب القزويني هذا الرأي ، ورأى ان المجاز العقلي موضوع قائم بنفسه ولا يمكن ان ينخرط في سلك الاستعارة بالكناية .

ويختلف القزويني عنه في التمثيل اختلافا يسيرا ، فهو — مع متابعته للسكاكي متابعة تكاد تكون تامة في تقسيم وجه الشبه — ، يرى ان التشبيه التمثيلي ما كان وجهه منتزعا من امور متعددة سواء كان حسيا أم عقليا . أما السكاكي فذكر أن التشبيه متى كان وجهه وصفا غير حقيقي وكان منتزعا من عدة أمور خص باسم التمثيل[1] .

والاختلاف بينهما — كما نرى — ان السكاكي يرى أنه لابد أن يكون وجه الشبه وصفا غير حقيقي أي عقليا ، أما الثاني فيرى انه يكون حسيا وعقليا . وعلى هذا الاساس فرأي القزويني في التشبيه أن كل تشبيه كان وجهه حسيا مفردا فهو تشبيه غير تمثيلي ، وان كل تشبيه كان وجهه حسيا مركبا فهو تشبيه تمثيلي ، وان كل تشبيه كان وجهه عقليا حقيقيا مفردا فهو تشبيه غير تمثيلي ، وان كل تشبيه كان وجهه عقليا غير حقيقي مفردا فهو تشبيه غير تمثيلي ، وان كل تشبيه كان وجهه عقليا غير حقيقي مركبا فهو تمثيلي[2] .

ويختلف عنه في الاستعارة المكنية اختلافا بسيطا ، فمذهب السكاكي فيها ان الاستعارة في لفظ المشبه المذكور فيقول انه مستعار للمشبه به بادعاء انه عَيْنُ المشبه وفرد من أفراده ، أما القزويني فيرى ان الاستعارة المكنية هي التشبيه الذي يلاحظه المتكلم ويضمره في نفسه فلا يصرح بشيء من أركانه سوى المشبه[3] .

(١) ينظر مفتاح العلوم ص ١٦٤ ، والايضاح ص ١٧٨ .
(٢) ينظر الايضاح فصل التشبيه ولا سيما ص ١٧٨ ، وما بعدها ، وكتاب دراسات لبلاغة عبد القاهر ص ٢٥
(٣) ينظر مفتاح العلوم ص ١٧٩ ، والايضاح ص ٢٢٣ وما بعدها ، وأمالي علي عبدالرازق في علم البيان وتاريخه ص ١١٦ — ١١٧ .

هذه أهم الامور التي اعترض القزويني فيها على السكاكي، وهي أهم المسائل التي خالفه فيها، ولكنها على كل حال لا تكون اتجاها خاصا ومذهبا جديدا له قيمته في البلاغة، لان القزويني لم يضف الى ما جاء به السكاكي شيئا ذا اهمية الا بعض الاعتراضات التي اشرنا اليها، والا بعض أنواع من البديع أهملها السكاكي، كالارصاد والاستطراد والتجريد والموازنة والتشريع وغيرها. وقد ترك عدة أنواع من البديع أشار اليها السكاكي ولم يتكلم عليها كأوجه التحسين الراجعة الى الخط دون اللفظ، او كون الحروف منقوطة وغير منقوطة.

وبحثه في البديع أحسن من بحث السكاكي، فقد رأينا كيف أمات صاحب «مفتاح العلوم» هذا الفن وأحاله جملا لا روح فيها وعبارات لا توحي بشيء. أما الخطيب القزويني فانه توسَّع في بحثه وأكثر من الامثلة وقسمها تقسيما ليس فيه التكلف والاسراف في الصنعة، حتى أن بعض الباحثين المحدثين في البلاغة وفنونها المختلفة أثنوا على القزويني في هذا المضمار، فقال أحدهم وهو الاستاذ علي الجندي متحدثا عن الجناس: «وبمقارنة ما كتب عن الجناس وانعام النظر فيما ورد منه في الشعر يتبين لنا ان تقسيم الخطيب أحمدُ هذه التقسيمات جميعا وابعدها عن الاسراف. فالانواع التي ذكرها كثيرة الورود قوية الصلة بالطبع، ولهذا يمكن ان نعدها اصول الجناس»[1].

ويمكن تطبيق كلام الاستاذ الجندي على كثير من أنواع البديع التي ذكرها الخطيب القزويني، فهي وان لم تكن الصورة المثلى لبحث فنون البديع فانها احسن من كلام السكاكي، ذلك الكلام الذي سيطر عليه الجفاف وسادته روح العلماء. ولو اطال القزويني في بحثها وذكر الامثلة الحية لعد من اوائل المبرزين في هذا المضمار لما امتاز به من ذوق أدبي صاف، وطبيعة فنية صادقة كانت حصيلة بيئة مصر والشام التي

(١) فن الجناس ص ٦١.

تثقف فيها وقضى عمره في ربوعها •

وانفرد القزويني عن السكاكي بفصلين هما : السرقات الشعرية وحسن الابتداء والانتهاء • وهو وان لم يكن مجددا فيهما ، غير أن عمله هذا التفاتة حسنة منه تشير الى ما رزقه من ارهاف حسي وتذوق للادب واساليبه • وهو في هذين الفصلين متأثر بابن الاثير وان لم يشر اليه الا اشارة عابرة وذلك بأن سماه « صاحب الوشي المرقوم في حل المنظوم »[1] •

ونعتقد انه لم يستفد من هذا الكتاب كثيرا لانه كتاب في حل المنظوم وشرح الآيات والاحاديث ، ولكنه استفاد من كتاب « المثل السائر » ولا سيما من الفصل الاخير الذي عقده مؤلفه لبحث السرقات •

وان كان لابد ان نعطي رأيا في القزويني فاننا نقول ان دراسة كتابه « الايضاح » أجدى من دراسة « مفتاح العلوم » لان مؤلفه ـ كما قلنا ـ هذب « المفتاح » ورتبه وزاد في شرحه وأمثلته ، ولان الكتاب يمتاز بسهولة عباراته بالنسبة لكتاب السكاكي ، وبما فيه من روح ادبية مردها تقلب صاحبه في بيئة مصر والشام[2] •

وقد بحث القصر ، والفصل والوصل ، بحثا أكثر ترتيبا وطلاوة من بحث السكاكي وبحث الايجاز والاطناب والمساواة بحثا مفصلا لم نره في « مفتاح العلوم » ، وادخل في الاطناب موضوعات كان المتقدمون قد عدوها من أبواب البديع وأفردوا لها فصولا خاصة كالايضاح بعد الابهام ، وذكر الخاص بعد العام ، والتكرير ، والايغال ، والتذييل ، والتكميل ، والاحتراس • وقسم الايجاز الى ايجاز قصر ، وايجاز حذف وأطنب في الكلام عليهما ، وتحدث عن المحذوف اذا كان جملة أو جزء جملة أو أكثر من جملة ، وهذا ما لم يفعله السكاكي •

---

(١) ينظر الايضاح ص ٣٠٢

(٢) شرحنا ذلك بالتفصيل في كتابنا « القزويني وشروح التلخيص ».

ولكننا مع ذلك لا نرى فائدة كبيرة في الاقتصار على الايضاح وغيره من الكتب البلاغية التي تنحو منحاه ، لان امثال هـذه الكتب تفيدنا في حصر موضوعات البلاغة وقواعدها ومسائلها المختلفة ، أما تربية الملكة الادبية والذوق الادبي الذي يتحسس مواطن الجمال في الكلام فلن تفيد فيها هذه الكتب • وما علينا الا العودة الى كتب البلاغة والنقد الاولى ككتب الآمدي والقاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني وابي هلال العسكري وابن رشيق وابن سنان الخفاجي وعبدالقاهر وابن الاثير وغيرهم من أقطاب المدرسة الادبية ، وأعلام المدرسة الكلامية الذين وشحوا كتبهم بوشاح ادبي واسبغوا عليها روحا تبعث الدارس والباحث على الاقبال عليها والتزود منها •

بهاءالدين السبكي :

وممن شرحوا كتاب « التلخيص » للقزويني ، أحمد بن علي بن عبدالكافي بهاءالدين أبو حامد السبكي (٧٧٣هـ) • فقد اعجب به ايما اعجاب ، وكان يعده من أهم كتب البلاغة وانفعها ، يقول : « فان تلخيص المفتاح في علم البلاغة وتوابعها باجماع من وقف عليه ، وباتفاق من صرف العناية اليه ، انفع كتاب في هذا العلم صنف ، واجمع مختصر على مقدار حجمه الف »[١] •

ولاجل هذا شمر السبكي لشرح التلخيص فكان كتابه « عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح » الذي ألفه بعد أن اطلع على كثير من المصادر ، وبعد أن قرأ كتبا كثيرة قراءة تمحيص وامعان • فكان هـذا الكتاب خلاصة صافية ومزيجا لبقا بين البحوث الفلسفية والفنون الادبية الذوقية ، والروح الفنية الصادقة • يقول : « ولقد احتوى هـذا الشرح بحمد الله تعالى من المباحث التي هي من بنات فكري فلم اسبق اليها ، ومن هبـات ذكري فما عثر أحد فيما علمت من أهل هـذا الفن

(١)عروس الافراح ـ شروح التلخيص ج١ ص٤ •

عليها على جملة لا اعقد لها عددا حتى افرغ من عد النجوم ولا اعهد لها مددا سوى الهام الحي القيوم • وكأين فيه من شاهد يرد على هذا العلم ما يرعيه من حق ضائع ويثبت له عرفا يحفظ طيب الثناء بعرف ضائع ويأمن من الاسقاط فاني استخرجته بالفكرة وعدلته بتزكيتي العقل والنقل عند قاض من التأمل ليست عنده فترة واجلسته في مجالس العلماء فأثبتوا فخره واطلت البحث عنه ولم اجده في كتاب ولم اسمعه من ذي فطرة •

واعلم اني مزجت قواعد هذا العلم بقواعد الاصول العربيةوجعلت نفع هذا الشرح مقسوما ما بين طالبي العلوم الثلاثة،واكاداقول بالسوية• واضفت اليه من اعراب الآيات الواقعة فيه ما هو محرر وان كان رقيق الحاشية ومن ضبط الفاظ احاديثه النبوية ما كانت خباياه من الجامع الازهر الصحيح في زواية ، وضمنته شيئا من القواعد المنطقية والمقاصد الكلامية والحكمة الرياضية او الطبيعية ، واتحفته من فوائد الوالد وتحقيقه ومن فرائد علمه الطارف والتالد »[(١)] •

وتطالعنا في أول كتابه الدعوة الى الذوق والرجوع اليه في نقد الكلام ، يقول : « أما أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم والفهم المستقيم والاذهان التي هي أرق من النسيم والطف من ماء الحياة في المحيا الوسيم • اكسبهم النيل تلك الحلاوة واشار اليهم باصابعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة • فهم يدركون بطباعهم ما افنت فيه العلماء ــ فضلا عن الاغمار ــ الاعمار ، ويرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الاسرار خلف الاستار »[(٢)] •

وكان من المنتظر ان يثور على الدراسات البلاغية في عصره ويصلح منهج دراستها وينقذها مما فيها من مسائل غريبة اقحمت فيها اقحاما ،

(١) عروس الافراح ــ شروح التلخيص • ج١ ص٢٦ ــ ٢٨

(٢) عروس الافراح ــ شروح التلخيص • ج١ ص٥ •

ولكنه لم يعمل شيئا ذا نفع بل بالعكس نراه يفخر بانه مزج قواعد البلاغة بقواعد الاصول ، وضمن كتابه شيئا من القواعد المنطقية والمقاصد الكلامية والحكمة الرياضية والطبيعية ، وحشر من كلام أبيه مسائل كثيرة تبعث على السأم في كثير من الاحيان .

فالسبكي واندعا الى تحكم الذوق في قضايا البلاغة فانه لم يطبق كلامه تطبيقا كاملا ، وأنّى له أن يخرج عن النطاق الذي ضربه كتاب « مفتاح العلوم » وتلخيصاته وشروحه على الدراسات البلاغية ؟ انه لم يستطع ان يخرج عن منهج السكاكي والخطيب القزويني ، ولم يضف الى امثلتهما الا بعض ما عثر عليه في الكتب الكثيرة التي قرأها وما حشر من أقوال والده ، وما ذكر من مسائل خارجة عن الفن الادبي .

ولعل السبكي كان يتباهى بسعة اطلاعه وغوصه في علوم اللغة العربية وعلم الاصول والكلام وغيرها ، فملأ كتابه بها ، وحشر ما لا علاقة له بالبلاغة .

ولن يستطيع الباحث في بلاغته أن يؤمن بدعوته الى الذوق بعد أن يقرأ الكتاب ، لان نزعته فيه نزعة عقلية ، او نزعة يغلب عليها الجانب العقلي بتعبير أدق ، وقد أكثر من التقسيمات العقلية وملأ كتابه بها . ومن امثلة هذه التقسيمات ما ذكره في موضوع الفصل والوصل. ولكي نستطيع أن نتبين نزعته في التقسيم ننقل بعض كلامه في هذا الموضوع ، يقول : « اما ان يكون بين الجملتين تناسب أو لا . فان لم يكن فاما أن يحصل الاتحاد في المسندين أو في أحدهما أو في طرف احدهما . واقسام ذلك مائتان واربعون قسما ، او لا يحصل الاتحاد في شيء من ذلك فصارت الاقسام مائتين وواحدا واربعين على كل منهما . فاما أن يكون العطف بالواو أو بغيرها ، واما ان يكون للاولى محل أو لا .هذه أربعة أقسام مضروبة فيما سبق تبلغ تسعمائة وأربعةوستين على كل منها . أما أن يكون بينهما كمال الانقطاع ، أو كمال الاتصال

او شبه كمال الانقطاع ، او شبه كمال الاتصال او توسط . هـذه خمسة تضرب فيما سبق تبلغ اربعة آلاف وثمانمائة وعشرين وعلى كل منها اما ان يحصل بالقطع ايهام غير المراد اولا . قسمان مضروبان فيما سبق تبلغ تسعة آلاف وستمائة واربعين كلها يمتنع فيها الوصل الا ما كان في تركه ايهام غير المراد . كل ذلك اذا لم يكن بينهما جامع ، واذا كان بينهما جامع جاء مثل هذه الاقسام .

ثم نقول على كل من اقسام الجامع اما ان يكون الجامع عقليا وهو الاتحاد او التماثل او التضايف ، او وهميا وهو شبه التماثل او التضاد او شبهه ، او خاليا . فهذه سبعة نص المصنف عليها تضرب في أقسام الجامع السابق وهي تسعة آلاف وستمائة واربعون تبلغ سبعا وستين الفا واربعمائة وثمانين وتضاف اليها أقسام عدد الجامع السابقة وهي تسعة آلاف وستمائة واربعون تبلغ سبعا وسبعين الفا ومائة وعشرين . وعلى كل اما أن يكون ما وقع الاتحاد فيه في الطرفين ضميرين أو ظاهرين ، او الاول ضمير والثاني ظاهر او عكسه اربعة اقسام تضرب فيما سبق تبلغ ثلثمائة الف وثمانية آلاف واربعمائة وثمانين على كل منها . اما ان تكون الجملتان متناسبتين بالاسمية او الفعلية او غير متناسبتين . فهذان قسمان يضربان فيما سبق تبلغ ستمائة الف وستة عشر الفا وتسعمائة وستين قسما . ويمكن تضعيفها بحسب الاصناف الى ما لا يعلمه الا الله »[1] .

وليس هذا المثل الوحيد في كتابه الكبير الضخم ، فكثيرا ما نجد مثل هذه الاقسام العقلية الجامدة في شرحه . ولا ندري كيف ينسجم هذا مع دعواه العريضة ، ونقده لمن سار على منهج السكاكي ؟ . ولقد هاجم تلامذة السكاكي مهاجمة عنيفة وحمل على كتبهم حملة شعواء ، يقول : « ولقد وصل الينا من تلك البلاد على التلخيص شروح ـ رحم

---

(١) عروس الافراح ـ شروح التلخيص ج٣ ص٦

الله مصنفيها ـ فانهم ماتوا وهم أخيـار ، وبيض وجوههم في الآخرة كما سودهم بالمعالي في هذه الدار . لا تنشرح لبعضها الصدور الضيقة ولا تنفتح عندها مغلقة ولا ينقدح فيها زناد الفكر عن مسألة محققة . يتناولون المعنى الواحد بالطرق المختلفة ويتناوبون المشكل والواضح على أسلوب واحد كلهم قد ألفه لا يخالف المتأخر منهم المتقدم الا بتغيير العبارة ، ولا يجد له على حل ما اشـكل على غيره ، أو استشكال ما اتضح جسارة ولا يطمع ان يذوق ما في الاستدراك من اللذة ، ولا تطمع نفسه لان يقال برز على من سبقه وبذه ، بل يسري خلف من تقـدمه حتى في الكلم الفذة . قصارى أحدهم ان يعزو ابياتا من الشواهـد لقائليها ويوسع الدائرة بما لا يقام له وزن من تكميل ناقصها وانشاد ما قبلها وما يليها وينشر للراغب مفردات الالفاظ من واضح كـلام العرب ويذكر ما لا حرج على مخالفه من اصطلاحات لبعض أهل الادب ولا يزيد في شرح عبارة المؤلف على الايضاح زينا وجد فيه أم شينا . فلو نطق التلخيص لتلا ما جئتم به « هذه بضاعتنا ردت الينا » .

هذا والشرح يطول والوقت ينفق ولم يكتب لطالب البيان وصول . قد استفرغوا في ذلك قوى افكارهم واستوعبوا مدى اعمارهم . فليت شعري وقد انقضى العمر متى يسبحون في اللجة ويجنحون الى بياض المحجة . أبعد ان يشيب الغراب ، ويرجع الشباب الحائل »(١) .

انها لدعوى كبيرة عريضة ، وحملة عظيمة على اولئك الذين جروا في مضمار السكاكي والخطيب القزويني ومن لف لفهم من الشـراح والملخصين . وقد كان من المؤمل بعد هذا النقد ، وبعد هذه الحملة العنيفة أن يصلح ما أفسدوا ، ويعيد الى البلاغة رونقها وبهاءها ، ولكنه جرى في مضمارهم وانحدر في سبيلهم ، ومزج البلاغة بقواعد المنطق والمقاصد الكلامية والاصولية اكثر مما فعلوا ، ومع ذلك فانه كثـيرا

(١) عروس الافراح ـ شروح التلخيص ج١ ص٦

مما يوافق السكاكي ويدافع عن آرائه وينصره على الخطيب القزويني .

ويمكن أن نوجز عمل السبكي في انه لم يخرج عن منهج السكاكي لانه لم يكن الا شارحا لكتاب تلخيص مفتاح العلوم ، ولذلك فمنهجه منهج القزويني الذي اتبع سبيل السكاكي . فهو يقسم البلاغة الى معان وبيان وبديع ، ويعتمد في بحث علم المعاني على ركني الجملة في تقسيم مباحثه ، وعلى الدلالات العقلية في تقسيم فنون علم البيان ، ويقسم البديع الى محسنات معنوية ولفظية .

وتعبيرات كتابه وشواهده لا تخرج كثيرا عما ذكره السكاكي والقزويني ، وان كثيرا من الامثلة التي أضافها يمجها الذوق السليم وينفر منها الطبع الصافي . يضاف الى ذلك انه لم يخرج عن مدرسة السكاكي في ادخال المنطق وعلم الكلام وغيرها من المباحث في البلاغة ، وقد فاقهم كثيرا في حشرها لانه — كما يبدو — كان يريد أن يودع في شرحه كل ما لديه من معرفة ومعلومات ، ولذلك نراه لاقل مناسبة يتخطى الموضوع المرتبط بشرحه ليتكلم في الاصول والنحو والمنطق وعلم الهيئة والفلسفة وبحوث ابيه التي اسرف في حشرها في الكتاب حشرا يبعث على الملل ، ويدعو الى السأم .

وقد سيطرت عليه النزعة الاصولية ولا سيما في القسم الاول من كتابه فكان يستعين بعلم الاصول في البرهنة ودعم ما يقول . ومن امثلة ذلك مناقشته السكاكي وغيره في علم البيان ، يقول : « قال السكاكي فلما كان علم البيان شعبة من علم المعاني لا ينفصل عنه الا بزيادة اعتبار كان كالمركب وعلم المعاني كالمفرد . ثم ان بعضهم قال ان علم البيان باب من أبواب علم المعاني وفصل من فصوله : وانما افرد كما يفرد علم الفرائض عن الفقه .

وهذا الكلام فيه نظر ، لانه صرح بأن علم البيان مركب وعلم المعاني مفرد ، والباب او الفصل من العلم كالفرائض ليس مركبا بالنسبة

الى العلم لأن الفقه مثلا ان كان اسما لجميع أبوابه على سبيل الكل المجموعي ، فالفرائض جزء للفقه ، فالفقه مركب لا باعتبار الاعم والاخص بل باعتبار الجمع والمفرد بخلاف علم المعاني فانه عندهم مفرد كالجنس وعلم البيان مركب كالنوع وان كان الفقه مثلا كليا يصدق على كل باب منه وينفصل بعضها عن بعض بخاصة فلا يصح ان يقال حد المعاني يخرج حد البيان كما فعلوه لان حد الجنس لا يجوز ان يكون مخرجا للنوع كما ان حد الحيوان لا يجوز أن يخرج الانسان . ولعل هذا القائل اغتر بقول السكاكي « شعبة منه » ، والشعبة كالباب وغفل عن قوله انه منفصل عنه بزيادة اعتبار فانه اشار الى انه ليس كالباب بل كالنوع فان الانسان شعبة من الحيوان ينفصل عنه بزيادة النطق »[1] .

وهكذا أكثر السبكي من الاستعانة بعلم الاصول في شرحه وبغير علم الأصول حتى أخرج البلاغة من فنيتها الى مباحث الجدل ، وابعدها عن روحها الادبية .

وقد اولع بالتقسيمات الى حد الافراط ، كما اولع السكاكي والخطيب القزويني وفاقهما كثيرا . وقد مر بنا كلامه في تقسيم الفصل والوصل الى آلاف الشعب والاقسام وبذلك تكون نزعته البلاغية نزعة عقلية كنزعة السكاكي ، وهو بهذا علم من اعلام مدرسة السكاكي .

سعدالدين التفتازاني :

لم تحتضن البيئة المصرية « مفتاح العلوم » وحدها ، وانما احتضنته بيئة السكاكي ومناطق بلاد فارس وما وراء النهر ومناطق تركستان ، فكان فيها كثير من العلماء الذين شرحوا « مفتاح العلوم » وتلخيصه . ومن أشهر الشارحين في بيئة السكاكي مسعود بن عمر بن عبدالله الشهير بسعدالدين التفتازاني المولود في خراسان سنة ٧٢٢هـ والمتوفى

---

(١) عروس الافراح ـ شروح التلخيص ج٣ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

عام ٧٩٢هـ • وقد ذهب الى جرجانية خوارزم واتصل بعلمائها واستفاد منهم كثيرا • وفي هذه البيئة لمعت في ذهنه فكرة شرح تلخيص مفتاح العلوم للخطيب القزويني لانه وجده « مختصرا جامعا لغرر أصول هذا الفن وقواعده ، حاويا لنكت مسائله وعوائده ، محتويا على حقائق هي لباب آراء المنقدمين ، منطويا على دقائق هي نتائج افكار المتأخرين ، مائلا عن غاية الاطناب ونهاية الايجاز ، لايحاً عليه مخايل السحر ودلائل الاعجاز »(١) •

وانكب على شرح التلخيص ساهرا الليالي متجرعا غصص العيش حتى أناخ بهراة وفيها تهيأ له الفراغ من نقل الشرح الى البياض في يوم الاربعاء الحادي عشر من صفر سنة ٧٤٨ هـ ، وكان الافتتاح يوم الاثنين الثاني من رمضان سنة ٧٤٢ هـ بجرجانية خوارزم •

والكتاب الذي انجزه في هراة هو الشرح المطول على التلخيص او الشرح الكبير ، وقد ألح عليه جماعة ان يختصره فكتب كتابا آخر هو الشرح المختصر على التلخيص او الشرح الصغير وقد انتهى منه سنة ٧٥٦ هـ •

وهذان الكتابان « المطول على التلخيص » و « المختصر على التلخيص » أهم كتبه البلاغية ، وهما لا يخرجان عما اختطه السكاكي والقزويني • فقد اتبع التفتازاني خطة الشراح السابقين وذلك بأن يأخذ العبارة او الكلمة ويشرحها ، وكثيرا ما يخرج عن الشرح فيفند رأيا او يقبل رأيا ويدعمه •

وقد دافع عن السكاكي كثيرا ، وفند بعض آرائه وكلامه وذكر وجهة نظره أحيانا ، ومن المواضع التي نقده فيها : تعريف علم البيان ، وبعض المسائل المتعلقة بالكناية والمجاز الحكمي والتمثيل على سبيل

---

(١) ينظر المطول على التلخيص ص ٣ •

الاستعارة ، وبعض أمثلة الاستعارة والتشبيه والاسناد الخبري[1] .

وصنع هذا الصنيع مع الخطيب القزويني فناقشه ورد بعض آرائه ورجح عليها آراء السكاكي وغيره ولا سيما آراء عبد القاهر الجرجاني ، يقول في تفنيد رأي للقزويني : « فكأنه لم يتصفح دلائل الاعجاز حق التصفح ليطلع على ما هو مقصود الشيخ »[2] .

ولم يستطع التفتازاني أن ينجو من سيطرة النزعة العقلية والفلسفية، فهو كثيرا ما يفسح المجال لها لتفسد البلاغة وتجور عليها ، والا فأي معنى لمثل قوله في التشبيه : « والحركة عند المتكلمين حصول الجسم في مكان بعد حصوله في مكان آخر ، اعني انها عبارة عن مجموع الحصولين وهذا مختص بالحركة الاينية وعند الحكماء هو الخروج من القوة الى الفعل على سبيل التدريج »[3] .

ومثل هذا الكلام كثير في شرحه ، ولا غرابة في ذلك فقد كان التفتازاني راسخ القدم في علم الكلام واصول الفقه ، وقد اشار ابن خلدون الى هذا بقوله : « ولقد وقفت بمصر على تآليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشهر بسعدالدين التفتازاني منها في علم الكلام واصول الفقه والبيان تشهد بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم ، وفي أثنائها ما يدل على ان له اطلاعا على العلوم الحكمية ،وقدما عالية في سائر الفنون العقلية »[4] .

ولم يقتصر التفتازاني في شرحه على «مفتاح العلوم » وتلخيصه وانما تجاوزهما فذكر آراء المتقدمين من علماء العربية والبلاغة كالمبرد والمرزوقي وعبد القاهر الجرجاني والزمخشري والرازي وابن سينا وابن الاثير

(١) ينظر المطول على التلخيص ص ٤٣ ، ٣٠١ ، ٣٠٩ ، ٣٤٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٤٠٦ .
(٢) المطول على التلخيص ص ٢٨ .
(٣) المطول على التلخيص ص ٣١٦
(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨١

ورجح آراءهم في كثير من المسائل[1] . ولكنه مع ذلك لم يخرج عن منهج السكاكي وبحثه البلاغي،لانه لم يكن في الواقع الا شارحا لتلخيص مفتاح العلوم .

وللتفتازاني شرح على المفتاح لم نطلع عليه ، ولعله لا يخرج عن منهجه في الشرحين : المطول والمختصر .

الشريف الجرجاني :

وكان السيد الشريف الجرجاني (٨١٦ هـ) معاصرا للتفتازاني ، وله حاشية على شرح المطول لسعدالدين على التلخيص انتقد فيها السعد في كثير من المواضع ، وله شرح القسم الثالث من المفتاح ايضا ، وهو في حاشيته لا يخرج عن منهج السكاكي وبلاغته .

السيوطي :

وتتابع التأليف على منهج السكاكي وطريقته في البلاغة فكان أصحاب الكتب التي ذكرناها في مطلع هذا الفصل وغيرهم ، وكان جلال الدين السيوطي (٩٩١هـ) مؤلف « الجمان في المعاني والبيان » وشرحها ، والبديعية المسماة « نظم البديع في مدح خير شفيع »وشرحها، وشرح أبيات تلخيص المفتاح ، والنقاية في اربعة عشر علما وشرحها . ولكن أهم كتبه « عقود الجمان » و « النقاية » وشرحهما ، وان لم تكن فيها جدة وابداع ، فقد انتهى الابداع منذ زمن بعيد .

وقد ذكر السيوطي بعض مسائل البلاغة في كتابه « المزهر » كالفصاحة والحذف والاختصار والحقيقة والمجاز والاستعارة والعام والخاص[2] ولكنها على كل حال لا تكون اتجاها خاصا به ، و لاتوضح منهجا معينا .

---

(١) ينظر المطول على التلخيص ص ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣١ ، ٢٠٠ ، ٣٠٨ ، ٤١٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٨١ .

(٢) ينظر المزهر للسيوطي ج١ ص ١٨٤-١٩٧ ، ٣٣١-٣٤٥ ، ٣٥٥-٣٦٨ ، ٤٢٦ .

ابن يعقوب المغربي :

وكان ابن يعقوب المغربي (١١١٠ هـ) مؤلف شـــرح مختصر سعدالدين التفتازاني المسمى بـ « مواهب الفتـــاح في شرح تلخيص المفتاح » ، وهو في هذا الشرح يقتفي خطوات السعد التفتازاني ولا يحيد عن منهج السكاكي . وله بعض الآراء والردود ولكنها ليست الا تتفا يسيرة متفرقة في صفحات الكتاب.ولعل أهم ما فيه مناقشتهالتقسيم الذي سار عليه البلاغيون وقد خالفهم في الاعتبار الذي بنوا عليه ترتيب المعاني فالبيان فالبديع . ويرى أن البيان يعد جزءاً من المعانيلانهداخل في مطابقة مقتضى الحال ايضا . وهذه التفاتة حسنة ولكنه لم يطبقهـــا ولم يؤلف كتابا في البلاغة ينهج فيه نهجا جديدا واكتفى بخدمة تلخيص مفتاح العلوم[١] .

☆ ☆

. وهكذا ســار هؤلاء المؤلفون على نهج السكاكي ولم يأتوا بجديد له قيمتـــه وطرافته ، وكل ما قاموا به هو خدمة كتاب السكاكي وتلخيص الخطيب القزويني أي خدمة كتب البلاغة لا خدمة البلاغـــة نفسها ، فأثر السكاكي في هذه المدرسة يتضح في ناحيتين :

الاولى : في منهج البلاغة ، فلم تخرج جميع هذه الـــكتب الكثيرة عن منهج السكاكي وتقسيم البلاغة الى معان وبيان وبديع ، وتقسيم الفن الاول الى خبروطلب ، والاعتماد علىركني الجملة في تقسيمالخبر . وتقسيم الثـــاني الى تشبيه ومجاز وكناية مستعينين في ذلك بالدلالات العقلية . وتقسيم الفن الثالث الى محسنات معنوية ومحسنات لفظيـــة وبذلك انحصر بحث البلاغة في الجملة ولم يتعدّه الى الجملتين الا في بحث الفصل والوصل ، او الايجاز والاطناب والمساواة .

---

(١) تكلمنا على هؤلاء البلاغيين بالتفصيل في كتابنا « القزويني وشروح التلخيص ».

والثانية : في مادة البلاغة،فقد نقلوا من كتاب السكاكي شواهده وعباراته ومصطلحاته وأغرقوا مثله في التمحل العقلي والانصراف الى ادخال ما لا يمت الى الفن الادبي بصلة في مباحث البلاغة •

وبعد هذا التطواف في اتجاهات البلاغة بعد السكاكي ، وبعد أن عرضنا أثر السكاكي في البلاغة يجدر بنا أن نشير الى ما افادته البلاغة من هذه المؤلفات ، وماذا جنت منها ؟

لقد وقفت البلاغة عند الصورة التي رسمها السكاكي وأثبتها الخطيب القزويني ولم يجيء بعدهما من أضاف اليها شيئا يبدل منهج بحثها • فالبلاغيون لم يخرجوا عن التقسيم الثلاثي ولم يبعدوا كثيرا عن عبارات السكاكي والقزويني وامثلتهما • وغاية المؤلفين أن يشرحوا عبارة أو بيتا ويذكروا قائله • وقد أشار الى هذا احد الدائرين في فلك السكاكي فقال السبكي : « قصارى أحدهم ان يعزو ابياتا من الشواهد لقائليها ، ويوسع الدائرة بما لا يقام له وزن من تكميل ناقصها وانشاد ما قبلها وما يليها ، وينشر للراغب مفردات الالفاظ من واضح كلام العرب ويذكر ما لا حرج على مخالفه من اصطلاحات لبعض اهل الادب ولا يزيد في شرح عبارة المؤلف على الايضاح زينا وجد أو شينا ، فلو نطق التلخيص ما جئتم به : هذه بضاعتنا ردت الينا »[1] •

هذه حالة البلاغة كما يصفها أحد مؤلفيها الاعلام الذين لم يخرجوا عن دائرة بحث السكاكي ، وهي الحالة الحقيقية لوضع البلاغة بعد السكاكي ، وكيف تكون أحسن من هذه الحال وقد ماتت المواهب أو كادت ، وانصرف المؤلفون الى خدمة كتب البلاغة لا خدمة البلاغة والفن الادبي • وبذلك انتهت البلاغة الينا في حال باعدت بينها وبين الروح الفنية وأشاعت في اوصالها جفافا وذبولا

(١) عروس الافراح ـ شروح التلخيص ج١ ص٦ •

وكستها خشونة وغبرة نفرت من درسها وعوقت عن الجدوى منها •

وقد كان عمل البلاغيين ـ وهو خدمة كتب البلاغة لا البلاغة نفسها ـ سببا في وقوف الحركة الفكرية ووقوف البلاغة عند الحد الذي رسمه لها المتقدمون الا ما كان من اهتمام بالحوار والجدل والتباهي بمعرفة المنطق والفلسفة وعلم الاصول مما لا دخل له في دراسة الادب • ومن هنا كان العكوف على هذه الكتب وشروحها وتلخيصاتها مما يميت المواهب ويقضي على الذوق وتحسس الاساليب المختلفة ، خلافا للكتب الاولى ككتاب « الصناعتين » لابي هلال العسكري ، و « العمدة » لابن رشيق و « سر الفصاحة » لابن سنان الخفاجي و « دلائل الاعجاز » و « اسرار البلاغة » لعبدالقاهر و « المثل السائر » و « الجامع الكبير » لابن الاثير ، وغيرها من الكتب التي تربي الملكة الادبية وتجعل من دارسها ناقدا يميز الكلام الحسن من الرديء ، والجميل من الاجمل •

وقد انصرف الناس في مطلع فجر النهضة الحديثة الى هذه الكتب وعكفوا عليها ، وكان الشيخ الامام محمد عبده من أوائل الذين نبهوا اليها ولا سيما الى كتابي الجرجاني • أما تلك الكتب المتأخرة فلم يكن لها أثر وجدوى في تربية الملكة الادبية وارهاف الحس الفني • يروي المرحوم الاستاذ طه الراوي أن شيخا أكب على تدريس المطول ومختصره وحواشيهما وحواشي حواشيهما اربعين سنة ونيفا ثم شهد حفلا فطلب اليه الوالي ان يفوه بشيء من الدعاءفما استطاع ان يلائم بين عبارتين او يزاوج بين كلمتين صحيحتين فضلا عن كونهما فصيحتين(١) •

فكتب السكاكي والقزويني والتفتازاني وأضرابهم لا تعلم دارسها أدبا ولا تخلق فيه موهبة فنية وذوقا أدبيا ، وانما تعلمه

(١) ينظر كتاب تاريخ علوم اللغة العربية لطه الراوي ص ١٦٣ .

مصطلحات البلاغة واقسامها وابوابها ، وهي بذلك مفيدة من هـذه الناحية ، أما كتب البلاغة الادبية فهي التي تربّي الموهبة وتجعل من دارسها ــ ان كان له استعداد ــ أديبا يتذوق الادب ويحس بجماله ويهتز له طربا .

☆ ☆

هذا أثر السكاكي في البلاغة ، وقد عرضنا لاهم الامور ، والا فالبحث يطول لأن المؤلفين تركوا تراثا ضخما بعده ولكن ليس فيه جديد . فقد سحر « مفتاح العلوم » الناس وفتنهم فاقبلوا عليه دارسين وشارحين وملخصين حتى كان لنا تراث عظيم من كتب مدرسته .

ولعلنا قد صورنا بلاغة السكاكي ومنهجه البلاغي في هذا البحث بقدر ماستطعنا وما اسعفتنا به المصادر ، والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم الوكيل .

خاتمـــــة

بعد هذا التطواف في منهج السكاكي وجهوده البلاغية ، وأثره في البلاغة ، نقف لنسأل مـاذا كانت تتيجـة هـــذا البحث ، ومـا الخطوط الاساسية التي بدت واضحة فيه ؟

وأول ما يلاحظ أن البلاغة العربية بدأت اول نشأتهـا بسيطة لا تتعدى الملاحظات العابرة التي كان الشعراء والنقاد والرواة يطلقونها اطلاقا لا يقوم على نقد موضوعي له منهجه وتعليلاته المفصلة الواضحة .

ونمت البذور الاولى وتطورت حتى أصبحت على يدي عبـــد القاهر الجرجاني علما قائما بذاته له أصوله ومنهجه ، ولكن عبد القاهر لم يضع هذا العلم الوضع الاخير ، وانما تركه للسكاكي الذي أوصل البلاغة الى قمتها في التبويب والحصر ، وضبط القواعد والاصول ، وبذلك يكون السكاكي أول من وضع البلاغة الوضع الاخير بتقسيمها الى معان وبيان ومحسنات او بديع ، وبحصر موضوعاتها ، وتحديد مصطلحاتها ، وبهذا يعد شيخ المدرسة الكلامية التي ابتدأت منذ عهد مبكر ونالت حظوة كبيرة من عبد القاهر .

ويمكن القول ان عبد القاهر الجرجاني كان رأس المدرســـة الكلامية وكان فخرالدين الرازي حلقـة الوصل بينه وبين السكاكي ،

وبذلك تكون مدرسة السكاكي امتدادا لبلاغة الجرجاني أو امتداداً لمدرسته البلاغية .

وقد اتضح لنا ان بلاغة السكاكي لم تكن الا خلاصة البلاغة العربية على مر عصورها منذ أواخر القرن الثاني الهجري حتى اواخر القرن السادس بعد ان لعبت في تكوينها مؤثرات كثيرة منها الفلسفة وعلم الكلام والاصول ، واتضح ان البلاغة التي درجت على دراستها الأجيال ، وما زلنا ندرسها في معاهدنا وجامعاتنا ليست الا بلاغة السكاكي التي أفسدتها الفلسفة وضيّقت عليها الخناق ، وان منهجها الذي جعل الناس يعزفون عنها ليس الا المنهج الذي اختطه السكاكي لنفسه ، ولمن جاء بعده .

وقد استطعنا أن نتبين هذا المنهج ونعرف المؤثرات التي وجهته هذه الوجهة الخاصة ، واستطعنا أن نقرر أن هذا المنهج غير صالح لدراسة البلاغة لأنه يقوم على اسس بعيدة عن الفن الادبي والبحث في الاساليب المختلفة . ومن أجل هذا دعونا الى تغيير منهج بحث البلاغة عندما ناقشنا السكاكي وبيّنا ما في منهجه من اضطراب وما في بلاغته من قصر البحث البلاغي على الجملة لا يتعداها الا في بحث الفصل والوصل ، والايجاز والاطناب .

ولم نجهر بهذه الدعوة الا بعد ان ظهر عند البحث في البلاغة بصورة عامة ، وفي بلاغة السكاكي بصورة خاصة أن اتباع المنهج الفلسفي في بحث البلاغة مدعاة للقضاء على روح الادب والسير به نحو الجمود ، لا نحو التطور والانطلاق .

واستطعنا أن نتبين جهود السكاكي في البلاغة ، وقد كانت واضحة في التقسيم والتبويب ، وفي تحديد المصطلحات . وكان أثره جليا في المنهج وطريقة بحث البلاغة وفي موضوعاتها . ولم تخرج

بعده عن منهجه وبلاغته الا ما كان من شرح جملة او تكملة بيت شعر أو ادخال ما لا يمت الى البلاغة بصلة ، من أصول ومنطق وفلسفة وكلام •

وقد استطعنا أن نقرر أن الاتجاهات البلاغية لم تدم طويلا بعده فسرعان ما انتهى التيار الادبي الذي سميناه « مدرسة مصر والشام » وقوي التيار الثاني الذي اطلقنا عليه « مدرسة السكاكي » ، وبذلك وصلت البلاغة الينا بهذه القواعد الجافة والاصول البعيدة عن الادب وروحه الفنية ، الى أن قيّض الله لها من أعاد اليها الحياة كالشيخ محمد عبده والاستاذ امين الخولي وغيرهما ممن بعثوا حب التجديد في الجيل الجديد •

لقد وصلت البلاغة قمتها على يدي السكاكي ولم يأت أحد يعيد الحياة اليها الا ما كان في العصر الحديث • وجدير بالباحثين ــ وقد شعروا ان لا جدوى بالبلاغة على حالتها التي اوصلها السكاكي اليها ــ ان يعيدوا النظر فيها ويكتبوها من جديد مستعينين بتراثنا التالد وبثقافتنا العصرية ، وبتراث الامم الاخرى •

ويمكن تلخيص نتيجة البحث في :

١ ــ ان البلاغة لم تقسم الى معان وبيان وبديع قبل السكاكي ، وانه اول من قام بهذا وقسمها الى فنونها الثلاثة •

٢ ــ ان السكاكي أول من أطلق علم المعاني على المباحث التي سماها عبد القاهر « معاني النحو » او « النظم » ، وانه اول من اطلق علم البيان على التشبيه والمجاز بأنواعه والكناية ، وانه اول من أطلق على غير هذين العلمين اسم المحسنات او الوجوه التي يؤتى بها لتزيين الكلام وقسمها الى قسمين : معنوية ولفظية • أما مصطلح البديع فلم يطلقه السكاكي على القسم الثالث من

البلاغة ، وكان اول من اطلقه عليها بدرالدين بن مالك في كتابه « المصباح » وتابعه الخطيب القزويني في ذلك .

٣ ــ ان السكاكي أول من استفاد من ركني الجملة ــ المسند والمسند اليه ــ في بحثموضوعات المعاني وبذلك مزق اوصالها واحالها حطاما بتقريراته وتحديداته . واستفاد استفادة عظيمة من بحوث الدلالات العقلية والوضعيةومقاييس الفلسفة والمنطق وادخلها في بحث البلاغة ، فضيق عليها الخناق .

٤ ــ ان بلاغة السكاكي امتداد لبلاغة عبد القاهر وبذلك يمكن القول بأنّ مدرسته البلاغية ابتدأت بعبدالقاهر ثم بفخرالدين الرازي وبلغت ذروتها على يديه ولم تَخْطُ خطوات محمودة الا ما كان من قَبسات أرسلها ابن قيم الجوزية والعلوي ولكن صوتهما ما لبث أن خفت وسيطرت على مناهج درس البلاغة مدرسة السكاكي واتباعه من شراح وملخصين . فالسكاكي هو آخر من وضع البلاغة وضعها النهائي وآخر من حصر موضوعاتها وضبط أبوابها وقتل الروح الادبية فيها . ومن هنا كانت هذه الامور مدعاة للتفكير في رسم منهج جديد لدرس البلاغة .وقد وجدنا أصواتا قليلة ارتفعت لرسم هذا المنهج منها اصوات الاساتذة : امين الخولي وأحمد الشايب وعبدالله العلايلي .

☆ ☆

يرى الاستاذ الخولي أن التقسيم القديم للبلاغة الى المعاني والبيان والبديع لا اساس له ولا غناء فيه لانه ينبغي أن يشمل البحث البلاغي : الكلمة والجملة والفقرة والقطعة ، لا البحث في الجملة والجملتين فقط ، وان ما حشدته طريقة العجم وأهل الفلسفة فيالبلاغة من مقومات منطقية واستطرادات فلسفية مختلفة ينبغي ان تبعد

ونضم الى البلاغة مكانها مقدمات جديدة لابد منها لدراسة فنية تقوم على الاحساس بالجمال والتعبير عنه • وهذه المقدمات تتعلق بعلم النفس وأثره في التعبير الادبي وبالوجدان وعلاقته بمظاهر الشعور من ناحية العمل الفني ، وبالخيال والذاكرة والاحساس والذوق • ثم نبدأ بعدها بدراسة البلاغة دراسة جديدة تقوم على منهج صحيح بشرط ان لا تفرط بتراثنا وبلاغتنا القديمة لان التجديد ليس معناه هدم القديم وانما هو البناء مستعينين به وبما وصلت اليه الحضارة في هذه الايام[1] •

وقد تجمعت جهود الخولي في كتابه فن القول الذي كان توجيها منهجياً شاملا لبحث البلاغة وخلق مدرسة بلاغية جديدة •

ويرى أن مباحث فن القول ينبغي أن تقسم الى ثلاثة أبواب هي: المباديء ، والمقدمات ، والبحوث • ندرس في المباديء تعريف فن القول وغايته وصلته بغيره من الدراسات • وندرس في المقدمات مقتبسات من القضايا النفسية التي تعيننا كثيرا في فهم الادب وتذوقه والاحساس بما فيه من روعة وجمال •

أما البحوث فتضم البحث في الكلمة الواحدة من حيث هي عنصر لغوي وما فيها من جمال وجرس موسيقي له أثر في التعبير • وتضم البحث في الجملة وما يحدث فيها من تقديم وتأخير ، وحذف وذكر ، وايجاز واطناب • وتضم البحث في الفقرة وما فيها من فصل ووصل وما تؤدي من صور • وتضم البحث في صور التعبير كالتشبيه والاستعارة والكناية والرمز والايحاء والتورية • وتضم القطعة الادبية وفيها تتكلم على عناصر العمل الادبي وما بين اللفظ والمعنى من علاقة• وأخيرا ندرس الاساليب الفنية في الادب وانواعها كالاسلوب الرمزي

(١) ينظر كتاب فن القول ص ٢١٥–٢٢٣ ، ومقالة البلاغة العربية واثر الفلسفة فيها ص ١٧ ومقالة البلاغة وعلم النفس ص ١٤٨ ، ومادة بلاغة في دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية) ج٤ ص ٧٢

والفكاهي والتهكمي وغيرها .

وبهذا المنهج الواسع الذي يشمل معظم مباحث البلاغة القديمة وكثيرا من الفنون الحديثة نستطيع ان ندرس البلاغة دراسة جديدة تقوم على تفهم الفن الادبي ومقاييسه البلاغية والنقدية .

أما الاستاذ أحمد الشايب فيرى أن موضوع البلاغة ينبغي ان ينحصر في بابين او كتابين هما : الاسلوب والفنون الادبية . فندرس في الاسلوب الكلمة والصورة والجملة والعبارة والاسلوب وانواعه ، وندرس في الفنون الادبية مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها وتنسيقها ، وقواعد هذه الفنون كالقصة والمقالة والوصف والرسالة والمناظرة والتاريخ وغيرها من الفنون الادبية الاخرى[1] .

ويرى الاستاذ العلايلي أن منهج البيان الجديد هو أن تُلْغَى جميع مباحثه ومصطلحاته سوى التشبيه والكناية ، او الحقيقة والمجاز وتقسم كلا منهما الى كناية وتجريد . أما علم المعاني فلما كان للغة بمثابة المنطق فيرى ان لا يدرس في كتب القواعد كعلم بل يدرس على نهجه في كتب الادب كما نجد عند عبد القاهر في « دلائل الاعجاز » ، وعند الزمخشري في التفسير مع تهذيب مباحثه لتكون ادخل في الذوق واقرب مناطا بالنفس . ويدرس البديع كما يدرس علم المعاني[2] .

☆ ☆

هذه آراء ثلاثة عرضناها لنستطيع على ضوئها وضع الخطوط الرئيسة لبحث البلاغة . ونرى أن منهج الخولي أقرب الى واقع البلاغة وواقع اللغة العربية لما امتاز به من جمع شتات مباحث البلاغة وتوزيعها توزيعا جديدا . ويلاحظ انه استفاد كثيرا من بلاغة

---

(١) ينظر كتاب الاسلوب لاحمد الشايب ص ٢٩ وما بعدها.

(٢) ينظر كتاب مقدمة لدرس لغة العرب لعبدالله العلايلي ص ٤٣-٤٥

السكاكي في رسم منهجه ووضع مباحثه ولا سيما فيما يتعلق ببحث الجملة • ولم يخرج رأي الشايب في قسمه الاول الخاص بالاسلوب عن رأي الخولي • أما القسم الثاني فلا نرى مبررا لادخاله في البلاغة وانما يكون موضعه دراسات خاصة تتعلق بالفنون الادبية المختلفة •

اما رأي العلايلي فنرى فيه قضاء على كثير من صور التعبير الادبية ، وابتعادا عن البلاغة العربية قد يحرمنا ما في تراثنا من فائدة في بناء البلاغة التي نريدها •

ونستطيع بعد ذلك أن نضع الخطوط الرئيسة للبحث البلاغي الجديد ، ويكون بالغاء التقسيم الثلاثي واعتبار البلاغة كلها فنا واحدا ، وبأن تتجاوز البحث في الجملة والجملتين فتضم البحث في الكلمة وما فيها من جمال وجرس موسيقي له أثره في التعبير ، والبحث في الجملة وما يحدث بين أجزائها من فصل ووصل ، وحذف وذكر ، وتقديم وتأخير وغير ذلك من المباحث الاخرى التي ذكرها السكاكي في علم المعاني • والبحث في صور التعبير المختلفة كالتشبيه والاستعارة والكناية والتورية وغيرها من مباحث البيان والبديع التي لها قيمتها في التعبير واداء المعاني • والبحث في الفقرة والقطعة الادبية والاساليب المختلفة ، مع الاستفادة مما ذكره القدماء كعبد القاهر وابن الاثير والسكاكي وغيرهم •

أما مصطلحات البلاغة فينبغي تقليلها والاكتفاء باهمها واكثرها دلالة على الاساليب العربية • فالمجاز ـ مثلا ـ لا حاجة الى تقسيمه الى أنواع كثيرة وانما نكتفي بتقسيمه الى لغوي وعقلي كما فعل الجرجاني أو نعتبره لغويا كله كما فعل السكاكي •

ونكتفي في الاستعارة بمصطلحات قليلة ولتكن الاستعارة التصريحية والاستعارة المكنية ورد جميع الانواع الاخرى الى هذين الاصلين •

ونهتم في بحث البلاغة بالناحية الادبية ، واختيار الامثلة والشواهد الرائعة من القرآن الكريم وكلام العرب البليغ ، ونهتم بتحليل الامثلة تحليلا أدبيا يعتمد على الادراك والاحساس الفني •

ولن تكون البلاغة مفيدة على هذا الوجه ما لم نبعد ما ادخله القدماء فيها من الفلسفة والاصول والمنطق وعلم الكلام ،ونستعين ببعض الدراسات النفسية وما لها من أثر في الفن الادبي ولكن لا الى الحد الذي تتجاوز فيه البحث البلاغي وتطغى عليه كما طغى المنطق وعلم الكلام على بلاغة القدماء فأخرجها عن غايتها التي من اجلها بحثت •

وبذلك نبعث في البلاغة العربية الروح من جديد ، لتكون صالحة في نقد الادب وانشائه ، وتكون ملائمة للفن الادبي المتطور •

احمد مطلوب
القاهرة

مصـــادر البحث ومراجعـــه

العربيــة :

١ ـ ابو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية . الدكتور بدوي احمد طبانة . القاهرة ١٣٧١ ـ ١٩٥٢ .

٢ ـ الاتقان في علوم القرآن . جلال الدين السيوطي . القاهرة ١٣٦٨هـ

٣ ـ اتمام الدرايــة لقراء النقاية . جلال الدين السيوطي . مطبوع على حاشية مفتــاح العلوم للسكاكي . المطبعة الادبية . الطبعة الاولى ١٣١٧ هـ .

٤ ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية . أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي . طبعة اوربا (ليبزك) ١٩٢٣م .

٥ ـ أثر القرآن في تطور النقد العربي الى أواخر القرن الرابع الهجري . الدكتور محمد زغلول سلام . دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م .

٦ ـ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم . شمس الدين المقدسي . طبعة ليدن ١٩٠٢ .

٧ ـ احياء النحو . ابراهيم مصطفى . القاهرة ١٩٥١ م .

٨ ـ ادب الكاتب . عبدالله بن مسلم بن قتيبــة . الطبعــة الثالثة بالقاهرة ١٣٧٧هـ ١٩٥٨م . تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد .

٩ ـ الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية في المعاني الطائية . ضياء الدين بن الاثير . القــاهرة ١٩٥٨م . تحقيق الدكتور حفني محمد شرف .

١٠ ــ اسرار البلاغة • عبد القاهر الجرجاني • الطبعة الاولى ١٣٦٧هـ ــ ١٩٤٨م تحقيق احمد مصطفى المراغي •
١١ ــ اسرار التمثيل بين الطريقة الادبية والتقريرية • عبدالمتعال الصعيدي • الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٧٤هـ ــ ١٩٥٥م •
١٢ ــ اسس النقد الادبي عند العرب • الدكتور احمد احمد بدوي • الطبعة الاولى بالقاهرة ١٩٥٨م •
١٣ ــ الاسلوب • احمد الشايب • الطبعة الثالثة بالقاهرة ١٩٥٢ م
١٤ ــ الاشتقاق • عبدالله امين • الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٧٦ هـ ــ ١٩٥٦ م •
١٥ ــ اصول النقد الادبي • احمد الشايب • الطبعة الرابعة بالقاهرة ١٩٥٣م •
١٦ ــ اعجاز القرآن • ابو بكر محمد بن الطيب الباقلاني • دار المعارف بالقاهرة ١٣٧٤هـ ــ ١٩٥٤ • تحقيق السيد احمد صقر •
١٧ ــ اعجاز القرآن والبلاغة النبوية • مصطفى صادق الرافعي • الطبعة الثانية بالقاهرة ١٣٥٩هـ ــ ١٩٤٠ م •
١٨ ــ الاعلام • خيرالدين الزركلي • الطبعة الثانية ١٣٧٦هـ ــ ١٩٥٧م
١٩ ــ الاغاني • ابو الفرج الاصفهاني • الطبعة الاولى بدار الكتب بالقاهرة ١٣٤٧هـ ــ ١٩٢٩م •
٢٠ ــ الاقصى القريب في علم البيان • الامام زين الدين التنوخي • الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٢٧ هـ •
٢١ ــ امالي علي عبدالرازق في علم البيان وتاريخه • علي عبدالرازق • مطبعة مقداد بالقاهرة ١٣٣٠هـ ــ ١٩١٢م •
٢٢ ــ الانتصار والرد على ابن الراوندي • ابو الحسين الخياط • نيبرج ١٩٢٥م •
٢٣ ــ الايضاح لمختصر المفتاح • جلال الدين عبدالرحمن الخطيب القزويني • مطبعة الجمالية الحديثة بالقاهرة •

٢٤ ــ البديع • ابن المعتز • طبعة اغناطيوس كراتشكوفسكي • لندن ١٩٣٥م •

٢٥ ــ البديع في نقد الشعر • اسامة بن منقذ • مخطوطة دار الكتب بالقاهرة ٥م •

٢٦ ــ بديع القرآن • ابن ابي الاصبع المصري • الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٧٧ ــ ١٩٥٧ • تحقيق حفني محمد شرف •

٢٧ ــ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة • عبدالرحمن السيوطي• الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٢٦ هـ

٢٨ ــ بلاغة ارسطو بين العرب واليونان • الدكتور ابراهيم سلامة • الطبعة الثانية بالقاهرة ١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢ م •

٢٩ ــ البلاغة بين اللفظ والمعنى من عصرالجاحظ الىعصرابن خلدون• مقالة للاستاذ نعيم الحمصي نشرت تباعا في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق في المجلد الرابع والعشرين سنة ١٩٤٩ • الجزء الثالث والرابع • وفي المجلد الخامس والعشرين ١٩٥٠م •الجزء الاول والثاني والثالث • (وقد طبعت بكتاب مستقل فيما بعد)•

٣٠ ــ البلاغة العربية في دور نشأتها • الدكتور سيد نوفل القاهرة ١٩٤٨ م •

٣١ ــ البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها • امين الخولي • نشرت في صحيفة الجامعة المصرية • العدد الخامس مايو ١٩٣١ م •

٣٢ ــ البلاغة وعلم النفس • أمين الخولي • نشرت في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة المجلد الرابع ــ الجزء الثاني ديسمبر ١٩٣٦م •

٣٣ ــ البيان العربي • الدكتور بدوي طبانة • الطبعة الثانية بالقاهرة ١٣٧٧هـ ــ ١٩٥٨ م •

٣٤ ــ البيان العربي من الجاحظ الى عبدالقاهر • الدكتور طه حسين• وهي مقدمةكتاب نقد النثر • الطبعة الرابعة ١٣٥٩هـ ــ ١٩٤٠•

٣٥ ــ البيان والتبيين • ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ • تحقيق عبدالسلام محمد هارون ١٣٧٦هـ ــ ١٩٤٨ م ، القاهرة •
٣٦ ــ تاج التراجم في طبقات الحنفية • زين‌الدين قاسم بن قطلوبغا • طبعة ليبزك ١٨٦٢م • (وقد طبع في بغداد اخيرا) •
٣٧ ــ تاريخ آداب اللغة العربية • جرجي زيدان • مطبعة الهلال بالقاهرة ١٩٣١م •
٣٨ ــ تاريخ الادب في ايران من الفردوسي الى السعدي • المستشرق ادوارد جرانفيل براون • ترجمة الدكتور ابراهيم امين‌الشواربي • مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٧٣هـ ــ ١٩٥٤م •
٣٩ ــ تاريخ الرسل والملوك • ابو جعفر محمد بن جرير الطبري • طبعة بريل ١٨٨٣ م •
٤٠ ــ تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها • احمد مصطفى المراغي • الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٦٩هـ ــ ١٩٥٠م •
٤١ ــ تاريخ علوم اللغة العربية • طه الراوي • مطبعة الرشيد ببغداد ١٣٦٩هـ ــ ١٩٤٩م •
٤٢ ــ تأريخ الكامل • أبو الحسن علي بن الاثير الجزري • طبعة مصر •
٤٣ ــ تأويل مشكل القرآن • ابن قتيبة • تحقيق السيد احمد صقر • القاهرة ١٣٧٣هـ ــ ١٩٥٤م •
٤٤ ــ التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن • عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني • مخطوطة دار الكتب بالقاهرة ٣٩٥ بلاغة • (طبع في بغداد سنة ١٩٦٤ بتحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي) •
٤٥ ــ التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم • ابو احمد الحسن بن عبدالله بن سعيد العسكري • وهي مطبوعة في كتاب التحفة البهية والطرف الشهية • مطبعة الجوائب في القسطنطينية ١٣٠٢ هـ •

٤٦ ـ تلخيص البيان في مجازات القرآن • الشريف الرضي • مطبعة المعارف ببغداد ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م •
٤٧ ـ التلخيص في علوم البلاغة • جلال‌الدين الخطيب القزويني • تحقيق عبدالرحمن البرقوقي • الطبعة الثانية بالقاهرة ١٣٥٠هـ ـ ١٩٣٢ م •
٤٨ ـ ثلاث رسائل في اعجاز القرآن • للرماني والخطابي والجرجاني • تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام • دار المعارف بالقاهرة •
٤٩ ـ الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور • ضياء الدين ابن الاثير • تحقيق الدكتورين جميل سعيد ومصطفى جواد • مطبعة المجمع العلمي ببغداد ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦ م •
٥٠ ـ الجواهر المضية في طبقات الحنفية • محيي‌الدين القرشي الحنفي • الطبعة الاولى في الهند ١٣٣٢ هـ •
٥١ ـ حاشية الدسوقي على شرح السعد • الشيخ محمد بن محمد عرفة الدسوقي • ضمن شروح التلخيص • الطبعة الثانية بالقاهرة ١٣٤٢ هـ •
٥٢ ـ حدائق السحر في دقائق الشعر • رشيد الدين الوطواط • ترجمة الدكتور ابراهيم امين الشواربي • طبعة القاهرة ١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م •
٥٣ ـ حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة • جلال‌الدين السيوطي • مطبعة ادارة الوطني بالقاهرة ١٩٢٩م •
٥٤ ـ الحياة العقلية في عهد الحروب الصليبية بمصر والشام • الدكتور احمد احمد بدوي • ١٩٥٢م بالقاهرة •
٥٥ ـ الحيوان • ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ • الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٨م • تحقيق عبدالسلام محمد هارون •
٥٦ ـ الخصائص • ابو الفتح عثمان بن جنى • طبعة دار الكتب

بالقاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م . تحقيق محمد علي النجار .
٥٧ ـ الخطابة . ارسطو . ترجمة الدكتور ابراهيم سلامه . الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠ م .
٥٨ ـ الخطابة . ارسطو . (الترجمة العربية القديمة) . تحقيق الدكتور عبدالرحمن بدوي . مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ م .
٥٩ ـ دائرة المعارف . بطرس البستاني . طبعة المعارف ببيروت سنة ١٨٨٣ م . مادة (خوارزم) .
٦٠ ـ دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية) . مادة بلاغة لشاده ، ومادة بلاغة لامين الخولي . ومادة ابن المعتزلتوري ومادةبديع .
٦١ ـ دائرة معارف القرن العشرين . فريد وجدي .مادة (السكاكي).
٦٢ ـ دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر في التشبيه والتمثيل، والتقديم والتأخير . عبدالهادي العدل . دار الفكر الحديث بالقاهرة ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م .
٦٣ ـ دراسات في نقد الادب العربي من الجاهلية الى نهاية القرن الثالث الهجري الدكتور بدوي طبانة . الطبعة الثانية بالقاهرة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م
٦٤ ـ دروس في البلاغة وتطورها . الدكتور جميل سعيد . مطبعة المعارف ببغداد ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م .
٦٥ ـ دلائل الاعجاز .عبدالقاهرالجرجاني . الطبعة الخامسة.دارالمنار بالقاهرة ١٣٧٢هـ . وطبعة محمد بن تاويت . المطبعة المهدية بتطوان المغرب .
٦٦ ـ الدولة الخوارزمية والمغول . الدكتور حافظ احمد حمدي . دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٤٩م .
٦٧ ـ ديوان البحتري . المطبعة الادبية ببيروت ١٩١١ م .
٦٨ ـ رأي في موضوع علم النحو . الدكتور مهدي المخزومي .مقالة نشرت في مجلة كلية الآداب والعلوم ببغداد العدد الاول حزيران ١٩٥٦ م .

٦٩ ـ ربيع الابرار ونصوص الاخبار • جارالله الزمخشري • مخطوطة مكتبة الاوقاف ببغداد ٣٨٦ ـ ٣٨٩ •
٧٠ ـ رحلة ابن بطوطة المسماة : « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة ١٣٥٨ هـ ـ
٧١ ـ رسائل البلغاء • اختيار وتصنيف محمد كرد علي • الطبعة الرابعة بالقاهرة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٤م •
٧٢ ـ رسائل رشيد الدين الوطواط•الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣١٥هـ
٧٣ ـ روضات الجنات في احوال العلماء والسادات • محمد باقر الحاجي امير زين العابدين الموسوي الخوانساري • طبعة ايران حجرية ١٣٠٧ هـ •
٧٤ ـ سر الفصاحة • ابو محمد بن سنان الخفاجي • تحقيق عبد المتعال الصعيدي ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م بالقاهرة •
٧٥ ـ سلاجقة ايران والعراق • الدكتور عبدالنعيم حسنين • الطبعة الاولى بالقاهرة ١٩٥٩م •
٧٦ ـ سيبويه امام النحاة • علي النجدي ناصف • ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣ بالقاهرة •
٧٧ ـ سيرة ابن هشام • طبعة السقا بالقاهرة ١٩٣٦ م •
٧٨ ـ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي • محمد بن احمد النسوي• تحقيق الدكتور حافظ احمد حمدي • القاهرة ١٩٥٣ م •
٧٩ ـ شذرات الذهب في اخبار من ذهب•ابن العماد الحنبلي١٣٥١هـ مكتبة الازهري بالقاهرة •
٨٠ ـ شرح المفتاح • قطب الدين الشيرازي•مخطوطة مكتبة الاوقاف ببغداد ١٦٤٤ •
٨١ ـ شرح مقامات الحريري • أبو المظفر ناصر بن المطرزي • طبعة ايران حجرية ١٢٧٢ هـ •
٨٢ ـ شروح التلخيص • الطبعة الثانية بالقاهرة ١٣٤٢ هـ •

٨٣ ــ الشعر والشعراء • ابن قتيبة • طبعة بريل في لندن ١٩٠٢ م
٨٤ ــ الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها • احمد بن فارس • القاهرة ١٣٢٨هـ ــ ١٩١٠م •
٨٥ ــ الصورة الادبيـــة • الدكتور مصطفى ناصف • ١٣٧٨هـ ــ ١٩٥٨م بالقاهرة •
٨٦ ــ ضحى الاسلام • احمد امين • الطبعة الثانية ١٣٥٢هـ ــ ١٩٣٤م
٨٧ ــ ضياء الدين بن الاثير وجهوده في النقد • الدكتور محمد زغلول سلام ١٩٥٨م بالقاهرة •
٨٨ ــ طبقات فحول الشعراء • محمد بن ســـلام الجمحي • تحقيق محمد شاكر • دار المعارف بالقاهرة •
٨٩ ــ الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز • يحيى ابن حمزة العلوي مطبعة المقتطف بالقاهرة ١٣٣٢هـ ــ ١٩١٤م •
٩٠ ــ ظهر الاسلام • احمد امين • الطبعة الثانية ١٩٥٧ •
٩١ ــ عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح • بهاء الدين تقي الدين السبكي • ضمن شروح التلخيص • الطبعة الثانية ١٣٤٢ هـ •
٩٢ ــ العقد الفريد • احمد بن عبد ربه الاندلسي ١٣٥٣هـ ــ ١٩٣٥م بالقاهرة •
٩٣ ــ علم المعاني • الدكتور درويش الجندي • مطبعة نهضة مصـــر بالقاهرة •
٩٤ ــ علوم البلاغة • احمد مصطفى المراغي • الطبعة الثالثة بالقاهرة •
٩٥ ــ العمدة في محاسن الشعر وادبه ونقده • ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني الطبعة الثانية ١٣٧٤هـ ــ ١٩٥٥م • تحقيق محمـــد محيي الدين عبد الحميد •
٩٦ ــ فن التشبيه • علي الجندي • الطبعة الاولى بالقاهرة ١٩٥٢م •
٩٧ ــ فن الجناس • علي الجندي • دار الكتاب العربي بالقـــاهرة ١٩٥٤ م •

٩٨ ـ فن الشعر • ارسطو • ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوي ومعه الترجمة العربية القديمة • مكتبة النهضة بالقاهرة ١٩٥٣م •
٩٩ ـ فن القول • امين الخولي ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م • القاهرة
١٠٠ ـ فهرست ابن النديم • المطبعة الرحمانية بالقاهرة ١٣٤٨ هـ •
١٠١ ـ الفوائد البهية في تراجم الحنفية • محمد عبدالحي اللكنوي •
١٠٢ ـ الفوائد ، المشوق الى علوم القرآن وعلوم البيان • ابن قيم الجوزية • الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٢٧ هـ •
١٠٣ ـ في الميزان الجديد • الدكتور محمد مندور • الطبعة الثانية بالقاهرة •
١٠٤ ـ قدامة بن جعفر والنقد الادبي • الدكتور بدوي طبانة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤ م بالقاهرة •
١٠٥ ـ قواعد الشعر • ابو العباس احمد ثعلب • الطبعة الاولى ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي •
١٠٦ ـ الكامل في اللغة والادب والنحو والتصريف • ابو العباس المبرد • تحقيق الدكتور زكي مبارك • الطبعة الاولى ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦ م •
١٠٧ ـ كتاب الايمان • تقي الدين ابو العباس احمد بن تيمية • الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٢٥هـ •
١٠٨ ـ كتاب البرهان في وجوه البيان • مقالة للدكتور علي حسن عبدالقادر نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق في الجزء الاول من المجلد الرابع والعشرين سنة ١٩٤٩م •
١٠٩ ـ كتاب سيبويه • الطبعة الاولى ببولاق ١٣١٦هـ •
١١٠ ـ كتاب الصناعتين • أبو هلال العسكري • تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم • الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢ م •

١١١ ـ كتاب الكنى والالقاب • عباس القمي • مطبعة العرفان بصيدا ١٣٥٨هـ •
١١٢ ـ كشاف اصطلاحات الفنون • محمد علي التهاوي • كلكته •
١١٣ ـ الكشاف • جار الله الزمخشري • الطبعة الثانية • مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣ م •
١١٤ ـ كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون • مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة • مطبعة وكالة المعارف بتركيا ١٣٦٠هـ ـ ١٩٤١ م •
١١٥ ـ لب الالباب في تحرير الانساب • جلال الدين السيوطي • طبعة بريل ١٨٥١ م •
١١٦ ـ لسان العرب • ابن منظور •
١١٧ ـ المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر • ضياء الدين بن الاثير • تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩ م بالقاهرة •
١١٨ ـ مجاز القرآن • ابو عبيده معمر بن المثنى • تحقيق الدكتور محمد فؤاد سزكين الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م •
١١٩ ـ المجازات النبوية • الشريف الرضي • تحقيق محمود مصطفى ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧م بالقاهرة •
١٢٠ ـ مجلة المشرق البيروتية • العدد السابع تموز ١٩١٣م •
١٢١ ـ مختصر التفتازاني على تلخيص المفتاح • سعدالدين التفتازاني • ضمن شروح التلخيص •
١٢٢ ـ المزهر في علوم اللغة وانواعها • جلال الدين السيوطي • الطبعة الثالثة بالقاهرة •
١٢٣ ـ المصباح في علم المعاني والبيان والبديع • بدرالدين بن مالك • الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٤١ هـ •

١٢٤ ـ مصر في تاريخ البلاغة • امين الخولي • نشرت في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة مايو ١٩٣٤ م •
١٢٥ ـ المطول على التلخيص • سعدالدين التفتازاني • مطبعة احمد كامل بتركيا سنة ١٣٣٠ هـ •
١٢٦ ـ معالم الكتابة ومغانم الاصابة • عبدالرحيم بن علي بن شيث القرشي • المطبعة الادبية ببيروت ١٩١٣م •
١٢٧ ـ معاني القرآن • ابو زكرياء يحيى بن زياد الفراء • تحقيق محمد علي النجار واحمد يوسف نجاتي • طبعة دار الكتب بالقاهرة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥ م •
١٢٨ ـ المعجزة الخالدة • هبةالدين الشهرستاني • الطبعة الثانية ببغداد ١٣٧١هـ ـ ١٩٥١ م •
١٢٩ ـ معجم الادباء • ياقوت الحموي • تحقيق الدكتور احمد فريد رفاعي • مطبعة دار المأمون بالقاهرة •
١٣٠ ـ معجم البلدان • ياقوت الحموي • الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٢٤هـ ـ ١٩٠٦م •
١٣١ ـ معجم المطبوعات العربية • يوسف اليان • مطبعة سركس بالقاهرة ١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٨م •
١٣٢ ـ مغنى اللبيب عن كتب الاعاريب • جمال الدين بن هشام • تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد • القاهرة •
١٣٣ ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة • احمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده • الطبعة الاولى • مطبعة دائرة المعارف بحيدر آباد دكن الهند •
١٣٤ ـ مفتاح العلوم • السكاكي • الطبعة الاولى ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م • مطبعة البابي الحلبي • بالقاهرة •
١٣٥ ـ المقابسات • ابو حيان التوحيدي • الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٤٧ هـ ـ ١٩٢٩ م • تحقيق حسن السندوبي •

١٣٦ ـ مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين • ابو الحسن الاشعري• تحقيق هـ • ريتر • مطبعة الدولة باستانبول ١٩٢٩م •
١٣٧ ـ مقدمة ابن خلدون • طبعة دار الكشاف ببيروت •
١٣٨ ـ مقدمة لدرس لغة العرب • عبدالله العلايلي • المطبعة العصرية بالقاهرة •
١٣٩ ـ من بلاغة القرآن • الدكتور احمد احمد بدوي • الطبعة الثانية بالقاهرة سنة ١٩٥٣م•
١٤٠ ـ المنجد في الادب والعلوم • فردينان توتل • المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٥٦م •
١٤١ ـ منطق ارسطو • تحقيق الدكتور عبدالرحمن بدوي • مطبعة دار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٤٨م •
١٤٢ ـ منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان اعجازه • مصطفى الصاوي الجويني • دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٩ م •
١٤٣ ـ الموازنة بين ابي تمام والبحتري • ابو القاسم الحسن بن بشر ابن يحيى الآمدي تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد •الطبعة الثانية بالقاهرة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م •
١٤٤ ـ مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح • ابن يعقوب المغربي• ضمن شروح التلخيص •
١٤٥ ـ نزهةالالباء في طبقات الادباء • عبدالرحمن الانباري •تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي • مطبعة المعارف ببغداد ١٩٥٩م •
١٤٦ ـ النقد • الدكتور شوقي ضيف• دار المعارف بالقاهرة١٩٥٥م•
١٤٧ ـ النقد الادبي • احمد امين • الطبعة الثانية ١٩٥٧م بالقاهرة•
١٤٨ ـ نقد الشعر • قدامة بن جعفر • الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨ تحقيق كمال مصطفى •
١٤٩ ـ النقد المنهجي عند الجاحظ • الدكتور داود سلوم • مطبعة المعارف ببغداد ١٩٦٠م •

١٥٠ ــ النقد المنهجي عند العرب • الدكتور محمد مندور • الطبعة الثانية بالقاهرة •
١٥١ ــ نقد النثر • المنسوب الى قدامة بن جعفر • تحقيق الدكتور طه حسين وعبدالحميد العبادي • الطبعة الرابعة بالقاهرة ١٣٥٩ هـ ــ ١٩٤٠م •
١٥٢ ــ نهاية الايجاز في دراية الاعجاز • فخرالدين محمد بن عمر الرازي • مطبعة الآداب بالقاهرة ١٣١٧هـ •
١٥٣ ــ هدية العارفين • اسماعيل باشا البغدادي • طبعة استانبول ١٩٥١م •
١٥٤ ــ الوساطة بين المتنبي وخصومه • علي بن عبدالعزيز الجرجاني• الطبعة الثالثة بالقاهرة •
١٥٥ ــ وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان • ابن خلكان • تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد • الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٦٧هـ ــ ١٩٤٨م •

الفارسية :

١٥٦ ــ تاريخ ادبيات در ايران ازميانه قرن بنجم تا اغاز قرن هفتم هجري • الدكتور ذبيح الله صفا • الطبعة الاولى في طهران ١٣٣٦ •
١٥٧ ــ ترجمان البلاغة • محمد بن عمر الرادوياني • تحقيق أحمد آتش• استانبول سنة ١٩٤٩م •
١٥٨ ــ ريحانة الادب في تراجم المعروفين بالكنية أو اللقب • محمد علي تبريزي • طهران ١٣٦٨هـ •
١٥٩ ــ فرهنگ برهان قاطع • طبعة الدكتور محمد معين • طهران ١٣٣٠ •

١٦٠ ـ هدية الاحباب في ذكر المعروفين بالكنى والالقاب والانساب.
عباس بن محمد رضا القمى . النجف ١٣٤٩.
١٦١ ـ ياد داشتهاي قزويني . طبعة ايران .

التركيــة :

١٦٢ ـ قاموس الاعلام . شمس الدين سامي . أستانبول ١٣١١هـ .

الانكليزيــة :

163 — The Encyclopaedia of Islam, Leyden 1913, Holland.

الالمانيــة :

164 — Geschichte Der Arabischen Litteratur, von Carl Brockelmann. Leiden, 1943. (1)

---

(١) تفضل استاذنا احمد ناجي القيسي بالترجمة عن الفارسية ، وقام استاذنا المرحوم الدكتور عبدالحليم النجار بالترجمة عن الالمانية، وساهم الدكتور سعدالدين بولوج في الترجمة عن التركية . فلهم مني جزيل الشكر والاحترام .

فهارس الكتاب

١ ـ فهرس الموضوعات

الباب الاول

منهجه البلاغي

١٨٧ ـ ٧٣

الباب الثاني

جهوده وأثره

١٨٩ — ٣٩٧

☆ ☆

٢ ـ فهرس الآيــات

الآيـــة	رقمها	السورة	الصفحة
إذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك الي •	٥٥	آل عمران	٣٠٧
اولئك على هدى من ربهم •	٥	لقمان	٣١٩
واسأل القرية •	٢٢	الفجر	٣٢٨
واسال القرية	٨٢	يوسف	٣٢٨
وقيل يا ارض ابلعي مـاءك ، ويا سماء اقلعي ، وغيض الماء ، وقضي الامر ، واســـتوت على الجودي ، وقيل بعدا للقوم الظالمين •	٤٤	هود	٣٣١
يد الله فوق أيديهم •	١٠	الفتح	٣٣١

٣ ـ فهرس القوافي

الهمــــزة

الالف

البـــــاء

الـــدال

الفاء

القاف

الكاف

اللام

مطلع البيت	البحر	القافيــة	الصفحة
عفاه	الهزج	هطال	٢١٩
اصبر	مجزوء الكامل	قاتله	٢٢٣
فالنـــار	مجزوء الكامل	تآكله	٢٢٣
وصيرني	مجزوء الوافر	المثل	٢٢٦
يا آل	المنســرح	بدلا	٢٢٩
إن صح	المنســرح	انتحلا	٢٢٩
لم عالم	المنســرح	فعلا	٢٢٩
أعلاكم	المنســرح	ما جهلا	٢٢٩
شافهتم	المنســرح	زحلا	٢٢٩
هي الشمس	المتقــارب	جميلا	٢٣٠
فلن تستطيع	المتقــارب	النزولا	٢٣٠
نحن ركب	الخفيف	الجمال	٢٣١
وما يك	الوافر	الفصيل	٢٣١
او ما	الــكامل	يتحول	٢٣٢
لا امتع	المنســرح	الاجل	٢٣٢
إذا الله	المتقــارب	حنبل	٢٣٢
وسقى	المتقــارب	المحل	٢٣٢
فكالنار	المتقارب	بالي	٢٤٤
فذلك	المتقــارب	اختلال	٢٤٤
هو البدر	الطويل	الوبل	٢٤٥
فان تفق	الوافر	الغزال	٢٥٥
لم يضرها	الخفيف	ذهول	٢٩٨

الميم

النون

الهاء

الياء

٤ ـ فهرس مصطلحات البلاغة

الهمـــزة

البــاء

التــاء

الجيـم

الحـاء

الخـــاء

الـــدال

الـــذال

الـــراء

الـــزاي

الســـين

الصـــاد

الـــلام

الميـــم

النون

٥ ــ فهرس الاعـــلام ☆

الهمـــزة

☆ لم نذكر الاعلام الواردة في الهوامش،لانها مذكورة في مصادر البحث ومراجعه أو في نص الكتاب .

الباء

التاء

الثاء

الجيم

الحـــاء

الخـــاء

الـــدال

الـــراء

الـــزاي

الســـين

الشين

الطاء

العين

الكاف

اللام

الميم

النـــون

الهـــاء

اليـــاء

٦ ـ فهرس الـــكتب *

الهمـــزة

---

* لم نذكر الكتب الواردة في الهوامش ، لانها تتصل بمصادر البحث ومراجعه ، وقد ذكرت هناك .

الباء

التاء

الجيــــم

الحــــاء

الخــــاء

الـــدال

الــــراء

الــــزاي

الســـين

الشـــين

الصـــاد

الضـــاد

الطـــاء

العـين

الفـاء

القـاف

الكـاف

الــــلام

الميــــم

٧ ـ فهرس الاماكن

النون

الهاء

الواو

الياء

للمؤلف

١ ــ ديوان القطامي ــ تحقيق بالاشتراك ــ بيروت ١٩٦٠ •
٢ ــ شعر عروة بن حزام ــ تحقيق بالاشتراك ــ بغداد ١٩٦١ •
٣ ــ ديوان قيس بن الخطيم ــ تحقيق بالاشتراك ــ بغداد ١٩٦٢ •
٤ ــ التمام في تفسير أشعار هذيل مما أغفله أبو سعيد السكري ــ تحقيق بالاشتراك ــ بغداد ١٩٦٢ •
٥ ــ فوح الشذا بمسألة كذا لابن هشام ــ تحقيق ــ بغداد ١٩٦٣ •
٦ ــ التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن لابن الزملكاني ــ تحقيق بالاشتراك ــ بغداد ١٩٦٤ •
٧ ــ البخلاء للخطيب البغدادي ــ تحقيق بالاشتراك ــ بغداد ١٩٦٤ •
٨ ــ ديوان ديك الجن ــ تحقيق بالاشتراك ــ بيروت ١٩٦٤ •
١٠ ــ خمسة كتب مدرسية في النحو والنصوص • بغداد ١٩٥٧ ــ ١٩٦٤ •
١١ ــ البرهان في وجوه البيان ــ تحقيق بالاشتراك ــ تحت الطبع •
١٢ ــ القزويني وشروح التلخيص (رسالة دكتوراه) تحت الطبع •
١٣ ــ ابن الاثير ــ ومقاييسه البلاغية والنقدية •

قريبـــا

أبنيــة الصــرف في كتاب سيبويه

للدكتورة خديجــة الحديثي

AS-SAKKAKI'S CONCEPTION OF RHETORIC

BY

AHMED MATLOUB (Ph. D.)

Published

by

AL - Nahdah Bookshop

Baghdad - Iraq

1964

مطبعة دار التضامن ــ بغداد